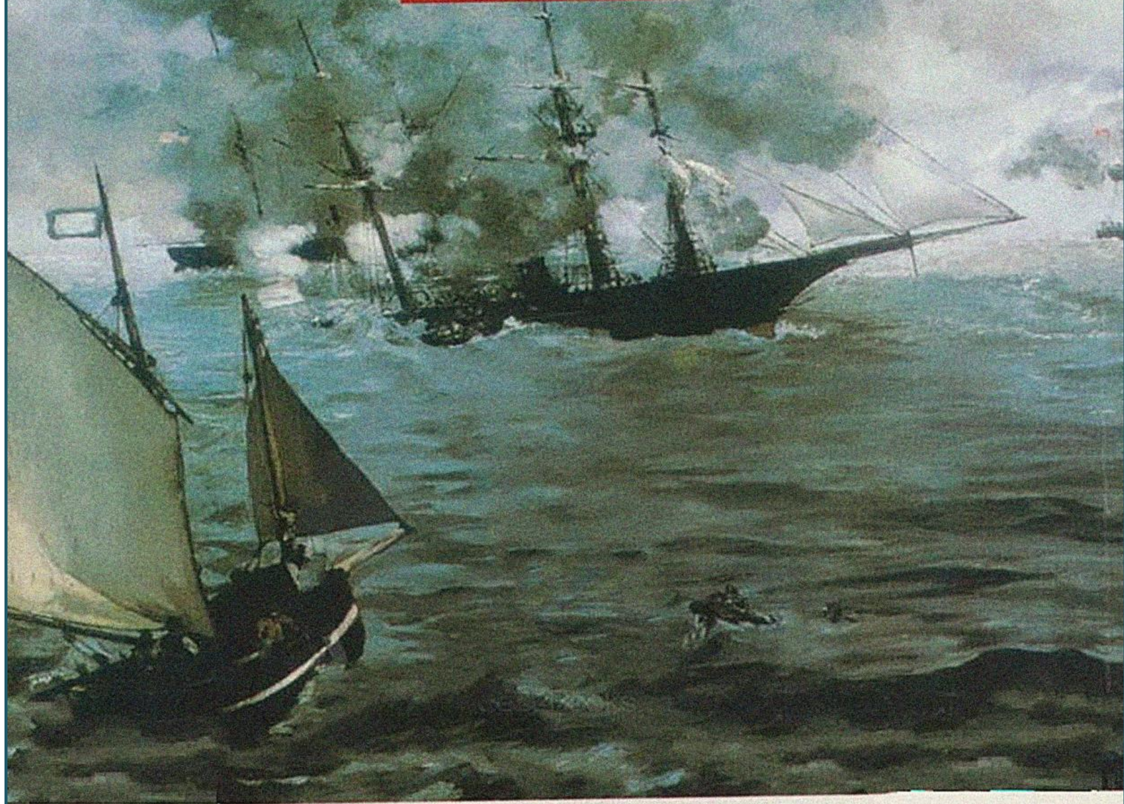
رواية



رَبيع جابر

بيروت مدينة العالم

الجزء الثاني

المركز الثقافي العربي

دار الآداب - بيروت

ربيع جابر

بيروت مدينة العالم II

بيروت مدينة العالم II

(رواية)

تأليف: ربيع جابر

الطبعة الأولى، 2005

ISBN: 9953-68-057-4

الناشران

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص.ب: 4006 سيدنا

هاتف: 212-2-2303339

فاكس: 2305726

e-mail: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت: ص.ب: 5158 ـ 113 الحمرا

هاتف: 352826 ـ 343701

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية الريم

ص.ب: 4123 ـ 11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633(01) ـ 861632(03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

إلى رينيه الحايك

هذه الرواية من نسج الخيال. وأي شبه بين أشخاصها وأحداثها وأماكنها مع أشخاص حقيقيين وأحداث وأماكن حقيقية هو محض مصادفة ومن الغرائب ومجرد عن أي قصد.

ما جرى لشاهين
1841 ـ 1840

أين أنت؟

كأنك تستلقي عند حافة البحر. هذا الهدير الطيب الذي تعرفه. الماء عن جسمك يغسل التعب. موج البحر يأتي ويذهب، مدٌ ثم جزرٌ ثم مد. رغوة بيضاء كالحليب تفور على الأذنين، على الرمل، على العينين، على الوجه الحار. عليك أن تقفل فمك. أن تسدّ أنفك. لئلا يلج الماء المالح فتحات الوجه. موج البحر يجيء ويمضي. والهدير يرتفع، ثم يهدأ، يتلاشى كغيوم الصيف تتبخر في السماء. أين أنت؟ على الشاطئ قرب الميناء؟ أين أنت يا شاهين؟

يزول الهدير. لكنك تعجز عن فتح عينيك. جفناك جفَّا. ظلمات فوق ظلمات. أين أنت؟ هبط السكون على سهل الموت. والليل أقبل. الآن تذكر...

كنت تحمل ابن خالك على كتفك. وكنت تركض بين القنابل والسيوف صوب سنديانة عالية كسفينة. السنديان كالأرز، قال أبوك عبد الجواد الذي رفع أربعة بيوت بذراعٍ واحدة، هذا شجرٌ معمر يعيش مئات السنين ولا يفنى. كيف يبقى حياً ألف عام ولا يموت مثل خلق ربنا!

أخبرك عن السنديان والأرز والشوح الفضّي. قال إن أحد التجار المالطيين أخبره عن شجرة في جزيرتهم جاوز عمرها ألف

سنة: يتناقلون خبرها عبر الأجيال، الجد يخبر الأب، والأب يخبر الابن، والابن يخبر ولده. الشجرة تنمو فروعها وتبتعد عن الأصل وتتشعب في نور الشمس، وهم يتساقطون كورق الخريف ويبتلعهم التراب. كل الأشجار ييبس لحاؤها بمرور الأعوام ثم تَسْوَدُّ وينقطع نسغها وتموت. لكن السنديانة تخلع اللحاء كما تخلع الأفعى جلدها عند نهاية الصيف، تخلع السنديانة قشرتها السوداء المتخشبة، ومن تحت القشرة الحطب القديمة يبين لحاءٌ أخضر طريٌ رطبٌ جديد! ما هذا السرّ يا ربّ العالمين؟

زال الهدير وتكاثف الظلام. الآن يذكر. كان يسعى إلى سنديانة، والدم يسيل في جزمته، وسمع محمد الفاخوري (ابن خاله) يصرخ على كتفه:

ـ شاهين! شاهين!

وفي مرة أخرى صاح:

ـ أمي! أمي!

ثم بان ذلك الوجه الطويل، كوجه ثعلب، بان عبدٌ سودانيٌ نحيل، بأسنانٍ عظم متراصفة، وشرايين حمر محتقنة في ثلج عينين واسعتين. رآه يقترب، يعرج على ساقٍ مثل ساقه مصابة، والشفرة العريضة المقوسة تبرق برقاً صغيراً في نور الغروب. كان يرفع ساطوراً فوق رأسه الأسود، ثم سقطت السماء. وسقطت ذراعٌ. أصابه الزعيق بالصمم. أيذكر؟

اقتحم الناب المسنون بطنه، بارداً كالجليد.

قطَّع أمعاءه تقطيعاً.

أظلمت عيناه.

بليدةً كبزاقة، تزحف موجة الموت الباردة الداكنة على دماغ شاهين البارودي. وبدل أن يرى أبر مطر فضيَّة تتساقط على سهل بحرصاف المغمور بالجثث والأجسام المرتعشة (ليس على شط البحر إذاً! والهدير الذي سمعه لم يكن موجاً يتكسر على صخور بيروت! لم يكن مدّاً وجزراً.) يسحبه نزيف الدم إلى ذكرى معتقة، إلى أصيلٍ قديم: كان خارجاً من بيروت، هارباً من البلد للمرة الأولى بعد عراكٍ مع أبيه، وقطع الغابات وبحر الرمل وتسلق الجبل حتى بلغ مضيقاً يسمّونه ظهر البيدر. بلغ النقطة العالية في ساعة غروبٍ فأطلّ فجأة على سهلٍ بلا نهاية! كان سهل البقاع يمتد هناك، في الأسفل، مقطعاً إلى مربعات منتظمة من تربة حمراء محروثة، وأخرى خضراء مزروعة، وثالثة صفراء يابسة، يباسها جديد لم يعتق بعد فيضرب إلى دكنة. كان يباساً بارق اللون، ذهبياً، كأن النار تشرقط في هذا اليباس. رأى الألوان الباهرة تغمر السهل، وفوق هذه المساكب العريضة المتوازية انسكب نور المغيب برتقالياً وغطى السهل ـ الراقد بين سلسلتي الجبال ـ بما يشبه الماء وبخار الماء. كان الجو صافياً. بلا غيمة واحدة فوق القمم. وللوهلة الأولى بدا له السهل غارقاً في الماء. ماء بلون النبيذ، أو الدم. لكن المياه لم تلمس وجه السهل. كان النور يسبح فوق المساكب، شفافاً، قرمزياً، معلقاً هكذا في الهواء، كما تتعلق قبّة السماء الزرقاء في الأعالي.

راقداً على ظهره في سهل بحرصاف، عاجزاً عن فتح عينيه اليابستين، وأبر المطر قد عادت تتساقط فضيّة في ظلمات الجمجمة، استعاد شاهين البارودي ذلك المنظر القديم: سهل البقاع يتمدد في ساعة الغروب، يتموج كالبحر ويمضي إلى البعيد البعيد.

انبسط السهل في مخّه وذكّره بسهلٍ آخر قطعه عابراً هضبة الأناضول. وذكّره بسهلٍ آخر في حوران. انبسطت السهول في ظلمة

الأعماق. ونسي الرجل أنه يموت. نسي ـ ابن عبد الجواد وصفية ـ أن مصرانه مسفوح على التراب. ونسي أنه يغرق في برك وحل ومطر ودم. كان ينظر إلى سهلٍ يغمره نور الغروب. وكان ينتظر مساء يقبل على مهل.

أين أنا؟ في قرية «شيخ مسكين» في حوران؟ رأى امرأة بتنورة كحلية وقميص بيضاء تحمل جرّة على رأسها ماضية لتملأها من رأس النبع. كانت حافية. ورأى الكاحلين الجميلين. ورأى البياض العاجي. أين أنت يا شاهين؟ ذاق تحت لسانه طعم راحة الحلقوم، وقال في سرِّه إن السهل في هذه الساعة يخبرك سرّاً، يقول شيئاً، يهمس في أذنك السليمة، لكنك لا تسمعه: لا تعرف كيف تسمعه!

وتذكر صاحبه الدرزي مُعز الدين الطويل يخبره عن سليمان الحكيم الذي كان يلبس خاتماً نحاساً في إصبعه فيفهم سقسقة الهداهد ويُكلم الطيور بلغة الطيور. هل فهم النبي سليمان عليه السَّلام لغة السهل أيضاً؟

نزلت قطرة ماء بين شفتيه الجافتين. نزلت في زلعومه. لم يجدها مالحة. ولا مُرّة. وجدها سكرية. فتح فمه قليلاً. بصعوبة فتح فمه. لعلَّ الرذاذ الحلو يبلّ ريقه. يذهب بعطشه. لكن المطر انقطع فجأة. هل انقطع؟ ما زال يرى الإبر تنهمر بارقةً في ليل عينيه!

فتح شاهين البارودي عينيه. لم يرَ ظلاماً ولا رأى مطراً. النور ما زال يضيء السهل. لم يرَ ظلاماً ولا مطراً. رأى شبكة الغربان تهبط كالجراد من الأعالي وتسقط على الجثث. حطّ غرابٌ مدور العين جنب رأسه. نقر التراب بالمنقار العريض، وحدجه بنظرة بيضاء جامدة. لمع المنقار كشفرة، كأنه غُسِل وصُقِل، كأن مُبيض القدور بالرماد بيَّضه. أغمض الرجل عينيه لحظة، فقفز الغراب قفزة،

اقترب أكثر. في الجانب البعيد من السهل، عند صفٍ من أشجار جوز داكنة الظلال، تحركت أشباح: كانوا جنوداً إنكليزاً وأتراكاً يُجرجرون جرحى العدو ويُرتبون الأجسام المنتفضة في صفوفٍ تحت الأغصان. جاؤوا وسحبوا سودانيين من جنبه. طارت الغربان ثم رجعت. الظلام يتكاثف فعلاً هذه المرة. والجنود يُجهزون على الجرحى تحت الجوزات: يفقسون البواريد في الوجوه، يذبحون الأعناق الطرية الحارة من الأذن إلى الأذن بسكاكين الجزارة، ويهشمون بالبلطات الرؤوس. يُريحون الجرحى من عذاب الاحتضار وآلام الموت البطيء.

شاهين البارودي قُتِل ولم يُقتَل في معركة بحرصاف. حملوه مع جرحى إلى مستشفى ميداني نُصب على عجل في غابة صنوبر. كانت الأرض منحدرة هنا، والأقدام تزلق على ورقٍ أبري يابس رفيع. لكنهم نصبوا خيمة كبيرة. ومدّوا الجرحى. وأشعلوا القناديل. وأوقدوا ناراً.

الطبيب الإنكليزي الخاص بالضابط الإنكليزي العجوز ستيفنسون أشرف على علاج الجرحى. العجوز الأبيض الشعر جوناثان ستيفنسون المعروف في أصقاع الامبراطورية الإنكليزية ـ غرباً، وشرقاً ـ بلقبه: «دوق مارلبورو الثالث»، هبط شخصياً إلى أرض المعركة بعد فرار إبراهيم باشا وعساكره، وتأمل المنظر في نور الغروب المتلاشي رويداً رويداً. كان يحمل في يمناه عصا من الأبنوس الصقيل الأسود مطعّمة بفصوص عاج إفريقي. حين رأى غرباناً وعقاباً واحداً، حين رأى تلك الطيور تتقافز على ساقي عملاق مبقور البطن، ظاهر الأحشاء، لفت المشهد عينيه. رأى أن العملاق ـ الملقى عند حافة خندق حفرته القنابل وسرعان ما امتلأ بالأمطار والدم ـ يحاول أن يدفع الجوارح عن أمعائه بإحدى ذراعيه.

رأى اليد بأصابعها الخمس الكبيرة تلوح في الهواء، ورأى ريشاً داكناً يتطاير. تذكر عندئذٍ أنه رأى هذا العملاق من قبل.

لم يعرفه من وجهه. عرفه من قامته. من ضخامة الجثة. هذا الصباح رآه، بالمنظار الحربي، في أول المعركة. رآه ينطلق على حصانه ويتبع فارساً آخر يسابقه إلى الموت، إلى العدو، إلى قلب المرج الأصفر.

دوق مارلبورو الثالث لا يحبّ هؤلاء الجنود الشرقيين. يحبّ الانضباط. يكره التهور. لكنه، مع هذا، عطف على العملاق المصاب. رفع يداً حزينة ودلّ طبيبه الخاص إلى الجريح المبقور. ليس رجلاً بارد الدم. أسلافه قطعوا الاتلانتيك واكتشفوا مجاهل البرازيل. صادوا تمساح الأمازون الأسطوري، قطعوا درعه، وحشوه قشاً وتبناً، ثم أرسلوا التمساح مع صناديق الذهب إلى الوطن. لم يتقلبوا الحياة كلّها على السرير الوثير. كانوا مغامرين، وعرفوا قيمة الشجاعة. العجوز ستيفنسون ليس مخلوقاً ضيق الأفق أو قليل الخيال. وهذا العملاق الذي يحارب الجوارح ويصارع ملاك الموت تحت جناح المساء يستحق أن يحيا، يستحق أن يُعطى فرصة ثانية.

كان يدفع الغربان عن جسمه بيدٍ واحدة. يصارعها بأصابع زرقاء تجمد عليها طينٌ ودم. اليد الأخرى ظلّت محجوزة تحت جسمه، لا يستطيع سحبها من تحت هيكله الثقيل المغروس في الوحل. مزّقت المناقير ما بقي من ثيابه. ومزقت لحم الذراع التي تحاربها.

رفعوه على محملٍ وتسلقوا التلّ إلى المستشفى. الحباحب المضيئة سبحت بين الجذوع القاتمة الممشوقة القوام، وتحت مظلات الأغصان الخضر العالية. حملوه إلى قلب الخيمة الكبرى.

مدّدوه على ظهره بين آخرين. وتركوه في الظلام.

غلى مخّه كأنه أُلقي في قدر ماء تتأجج تحتها نارٌ. استمر مخّه يغلي، وهو يسمع بقبقة في أذنيه، زمناً. ثم أحسّ رموشه تقع في عينيه، وتثقب الحدقتين بإبرٍ محماة. وسأل نفسه: ما هذه النار في رأسي؟ من يوقد حطباً في دماغي؟

الطبيب الإنكليزي قال لسيده الدوق إن هذا لن يجدي: مصران الرجل خارج بطنه، الأمعاء نصفها تقطّع، والمرارة الصفراء تمزّقت قشرتها.

الدوق النحيل العجوز عقد حاجبيه وأخرج كلمةً واحدة من بين أسنانه:

- Try!

كانت كلمة آمرة. مع أن رائحتها «سكر نبات». كل هذا النهار وهو يلقي حبّات السكر في فمه. كانت كلمة واحدة، لم يلفظ غيرها، ثم اختفى في الهواء. لن نسمع منه كلمة أخرى بعد هذه اللحظة. لن نرى وجهه المربع بالشعر الأبيض والعينين الصغيرتين الزرقاوين زرقة البحر. رفع يده وهو يغادر الخيمة، باعد ما بين أصابعه العظمية، وغاب في الظلام.

بقي الطبيب مع الجريح. بدا لاهث الأنفاس: هذه نسائم الصنوبر تُرسل حساسية في رئتيه. ماذا يعمل الآن؟ نادى مساعده ليغسل الدم الأسود بمياه ساخنة.

فتح قارورة ففاحت رائحة البحر. غسل مصارين الجريح بمحلول يود سكبه من قوارير مضلعة، زجاجها بني سميك بلون التراب. قطع بالمقص ما وجب قطعه ثم وصل وخاط ما بقي من ظروفٍ بخيط حرير. كان يُحمي الإبرة على جمرٍ يتوهج في مجمرة

جنبه، ثم ينتظر قليلاً، لحظة أو أقل، وبعد ذلك يبدأ الخياطة، قطبةً تلو قطبة.

مساعده الشاب تارة يُهوي على الجمر، وتارة يمدّه بخيط أطول، وتارة أخرى يُجفف عرقاً يتصبب ويقطر في عيني الطبيب. المنشفة البيضاء حال لونها إلى أصفر، إلى أحمر، إلى رمادي. غسلوا المصران بالملح الطبّي المذاب في ماء، مرتين بعد الخياطة، وغسلوا المعي الدقيق. الظروف الطويلة المتلوية باتت قصيرة، أقل تلوياً. أزالوا ربع المصران، ربما أكثر. وعمد الطبيب إلى عيدان فضة رفيعة، كأنها لنكش الأسنان بعد الطعام، وأخرج ـ من صندوق صغير ببطانة مخمل ـ مقصاً ناعماً يشبه ريشتين متقاطعتين، وأخذ يرفع الظروف محاذراً، ويحشوها في البطن الفارغة المبقورة من جديد. كان يزيح هذا الظرف إلى هنا، ويرفع آخر أزرق إلى هناك، ويلقي ثالثاً ـ تزاوله حمرة خفيفة كحمرة الورد ـ بين هذين، ثم يزيل مادة مرارة صفراء عالقة بغشاء المعدة. طلب مقصات مطهرة، وألقى الأدوات الوسخة التي استخدمها في إناء من الخزف الأبيض السميك مملوء ملحاً إلى نصفه، ورفع وجهه لحظة يطلب الهواء النظيف.

الجنود رفعوا القناديل عالياً ليرى الطبيب بلا ظلال. بعضهم يكاد يسقط فوقه وفوق المحفة وفوق الجريح. بعيونٍ واسعة يراقبون.

مرة تلو أخرى رفع الطبيب الخمسيني وجهه وصاح يطلب الهدوء. ليس وحده من يعمل هنا. ليس الطبيب الوحيد في الخيمة. لكنه كبيرهم. من جميع الجهات ارتفع صراخ رجال تُبتر أطرافهم أو تخاط جروحهم بلا مخدر، الشفرة على العظم، الإبرة في اللحم. والطبيب يطلب هدوءاً. فتصفُرُ أنفاسه.

ردّ الحشو إلى البطن المنقورة، ثم لجأ إلى مروحة ورق صينية ليُهوي قليلاً على الكروش فتجف قبل أن يخيط البطن من جديد. لم

يقبل أن يترك مساعده يساعده. باتت العملية المنهكة تحدياً. «حاول!» هكذا قال الدوق. لن يحاول فقط. سينقذ هذا المارد المسكين. سيُنقذ هذا الرجل! من فم الموت سوف يشيله. كما فعل الربّ مع النبي يونان يفعل هو ـ توماس وليام سبنسر ـ مع هذا المحارب. الربّ سحب يونان من فم الحوت، وهو يسحب المحارب من فم الموت.

خاط الجرح بتأنٍ ودقة. يحتاج جرعة كبيرة من القوة، قهوة سوداء ثقيلة تشفي هذا الربو في صدره! كانت النسائم المشبعة بصمغ الصنوبر تدخل من فم الخيمة التي ساد زواياها الظلام. جاءت النسائم وجفّفت قطرات العرق عن وجهه. جلدة رأسه أيضاً تسيل. ما هذا الحر؟ كل لحظة يُنشف أصابعه، يمسحها على ثيابه، ثم يفركها بالملح. خاط البطن المبقورة. كان جرحاً فظيعاً غير مستقيم، متعرجاً، ينعطف في زاوية حادة ثلاث مرّات. وفكّر الطبيب التعبان النَفَس أن المجرم الذي فعل كل هذا قد أخذ وقته. تَبِع الأثر العميق الذي صنعه خنجرٌ مثلوم الشفرة، طارد الأثر بالإبرة والخيط مرتين. لاحظ مساعده الشاب في نور القنديل المرتجف أنه خاط الشق خياطة مزدوجة، بقطبٍ متقاطعة. عندئذٍ فقط انتبه إلى غرابة هذا الجرح: بدا خطاً أسود مرسوماً بحبر على لحم البطن، شكله مثل حرفٍ لاتيني:

M

قال المساعد:

ـ My God!

همهم سيده الطبيب:

ـ Towel!

ناوله المساعد منشفةً جافة.

بعد أن انتهوا من البطن انصرفوا إلى الركبة. كان مساعد آخر قد مزَّق قماشة السروال قبل وقتٍ. وغسل الركبة والساق وطهَّر موضع الثقوب. فعل كل ذلك بينما الطبيب السيد سبنسر يُعالج البطن ويُخيط المصارين بالخيط والإبرة والمقص.

حبّات خردق كثيرة انزرعت في هذه الركبة. استعان الطبيب بمقصه مرة أخرى، واستخدم مثقاباً، ومنقاراً، وإزميلاً رفيعاً، وملقطاً.

أصابعه أخذت ترتجف تعباً. خاف أن يسقط المنقار من أصابعه. لكنه، رغم الإجهاد الذي شلَّ عضلات ظهره ورقبته وكتفيه، أخرج 17 خردقة، وطهَّر الركبة والساق باليود مرة أخرى، ثم لفَّ الجرح بالشاش والقطن والقماش كما لفّ البطن قبلها. لفّ الركبة كان أسهل من لفّ البطن. لم يضطروا إلى قلب العملاق على جنبه هذه المرة وإلى رفع جذعه العريض لتمرير اللفّات من تحته. فقط رفعوا الساق قليلاً.

خرج الطبيب من الخيمة متوقعاً رؤية هوام مشعة تسبح في ظلام نصف الليل بين جذوع الصنوبرات. لم يرَ الحباحب التي أَلِفَت عيناه منظرها في الليالي الفائتة، ولا رأى الليل. كان الليل ينتهي، والظلمة تنقشع، والنور يطلع على العالم من وراء الجبال مرة أخرى. كيف مضى الليل؟ هل قضيت الليل كلّه أشتغل ببطن هذا المخلوق المسكين وركبته؟ الليل كلّه! عندئذٍ انتبه الطبيب إلى الجوع الفظيع الذي يقطع صدره قطعتين. كان جائعاً، متعباً، وجسمه يطلب سكراً وقهوةً وتبغاً وخبزاً وخمراً. هرع إلى مطبخ العساكر.

*

من أرض الموت رجع الرجل. حين فتح عينيه أخيراً، حين انتفض جسمه وعاد النور إلى عينيه، جلبوا له حليباً طازجاً. لم يستطع أن يشرب. بلّلوا شفتيه بماء ثم تركوه. بقي وحيداً بين جرحى يتأوهون ردحاً. أنين، بكاء، وطنين بعوض. صرار الصنوبر ينشد أغانيه، والشمس تتسلق قوسها الأبدي ثم تغرب حيث تغرب. عند المساء جاؤوا من جديد، ورائحة الحليب تسبقهم. كانت رائحة قوية، ثقيلة، قلبت الأمعاء البائسة في جوفه. الأمعاء؟ مصراني؟ لكن كيف عادت إلى بطني؟

لم يستوعب الرجل نجاته من الموت. لكنه تلك الليلة شرب حليباً حُلب من ضرع بقرة للتو. وفي الصباح أكل خبز شعير مبلولاً بلبن ماعز. الحليب غُلي على النار حتى فار. الخبز أسود، طحينه شعير في الغالب، مع قمحٍ قليل، ولعلهم أحرقوه في التنور، لا يعلم! وجد الخبز قاسياً، مع أنه بلَّه، أما الحليب الحلو الحار فنزل عسلاً في زلعومه. لكن الخبز المحروق وقف على معدته. كان إحساساً غريباً. حين أكل لبنة بعد ليلة شعر أنه لم يأكل شيئاً! كأن الطعام ينحدر من فمه إلى زلعومه إلى سطلٍ خارج جسمه! كأن الطعام لا ينزل في بطنه. ثم إنّه ما إن أكل لقمتين حتى أحسّ بامتلاء شديد، كأنه التهم طنجرة مجدرة كاملة! كيف هذا؟ لم آكل إلاّ لقمتين، وما زلتُ جائعاً، لم أشبع بعد، لم آكل شيئاً، لكن معدتي امتلأت، انتفخت ككرشٍ منفوخ بالماء!

كان عائداً من بين الأموات. ولم يكن يعلم أن مصرانه المقصوص قد انتفخ تماماً. بلقمة تصيبه التخمة الآن. وقال في سرّه إنه شَبِعَ، بلى، شبع! امتلاء بطنه منحه هذا الإحساس الخيالي العجيب بالتخمة.

نام وفي الليل ارتفعت حرارته. استيقظ مرتين أو ثلاث مرّات.

ارتجف الظلام أمام عينيه، وتموج سقف الخيمة. بخار الحمى أحرق حدقتيه. رأى رمحاً ينغرز في ظهر رجل، بين الكتفين، ثم يخرج من صدره لامعاً بالدم. رأى حصاناً يدور برقبة ملوية، كأنه مربوط من رأسه إلى وتدٍ في الأرض، ثم ينطرح على جنبه. رأى رجلاً مبتور الذراعين يسير هائماً في زحام المعركة ثم يهوي على التراب. رأى قناديل تسبح في الظلام، كأنها تطير. ورأى فأساً تعلو، وجريحاً تُقطع ساقه من فوق الركبة. سمع الحديد يطقّ على عظمة الفخذ طقّاً. صاح الجريح في الليل، تردّدت صرخته بين جوانب الخيمة، ثم انطفأت القناديل وماتت الأصوات.

*

شُفي في مغرب اليوم التالي. قبل أن تزول عنه الحرارة ويسترد وعيه، استيقظ وسقط في الغيبوبة أكثر من مرة. في ساعة نومٍ مضطربٍ سمع مطراً يسوط سقف الخيمة وسمع هتافات وصهيلَ أحصنة. خُيِّل إليه أنه يسمع فرقعة بواريد أيضاً. كأنه ما زال في المعركة، يحارب. ثم فتح عينيه ورأى نور الشمس يملأ الخيمة، وسمع النمل الطيّار يطنّ فوق ضمادات قذرة في باب الخيمة. غرق في نومٍ عميقٍ. استيقظ مرة أخرى. ثم فقد رشده. لكنه عند المغيب فتح عينيه ورفع جذعه على كوعيه، باسماً. قد جفّ عرقه البارد. وذهبت عنه الحمّى.

نظر إلى جسمه متفقداً أعضاءه عضواً عضواً، فرأى ساقه عارية من الفخذ نزولاً. السروال مقطوع، لكن الساق ليست عارية تماماً. كانت ملفوفة بالشاش والقماش، محزومة بحزام جلد متين، وبربطة جلد عريضة. استغرب منظر قدمه: بدت ضخمة، ناتئة العظام، غريبة اللون، متقشرة، لا تشبه قدمه! ورأى أظافره ـ غير المقصوصة منذ زمنٍ ـ مقوسة، مُسودة، متكسرة. أما زال حيّاً؟ كيف هذا!

حملوه إلى خارج الخيمة. لسعه الهواء البارد، لكن الجو النظيف طاب له. تفتَّح صدره. رأى نيراناً صغيرة تتباعد بين الأشجار. ورأى الجنود يتحلقون حول قدورٍ يتصاعد منها البخار: يأكلون ويضحكون، وأحدهم ينفخ في الناي. كانوا يُغنون تحت سماء تعجّ بالنجوم. وحملوا إليه بعض الحساء، وخبزاً حاراً تذهَّبَ على الصاج.

جلبوا للرجل عند شروق الشمس قصعة حليب فاترة، وقطعة خبز قاسية (بسكويتة) تركها الضباط الإنكليز. زالت عنه الحرارة تماماً، واتسعت عيناه. نظر إلى أصابع يده اليمنى، ثم إلى أصابع يده اليسرى. بعد ذلك تأمل جسمه. هذه المرة لم يستغرب منظر قدمه.

أكل وشرب ماء. ثم رفع القماش عن بطنه. رأى الأثر الذي يصنعه العَرق وإفرازات الجسم الجريح عند حواف الضمادة وتحتها: كلون الصمغ الذي يخرج من الأذنين. لكنه أشد قتامة. يقبض القلب. أحقاً بقي حيّاً؟ جلبوا له قصعة حليب أخرى، وهذه المرة انقلبت مصارينه من حدّة الرائحة. لكنه عندما شرب الحليب أحسّ معدته تستقر، وترتاح مثل كلب صيد يقعي عند قدمي سيده.

أخبروه أن الإنكليز قد غادروا المعسكر. غادروا مع قتلاهم وجرحاهم إلى بوارج راسية في خليج جونيه. شاهين البارودي لم يرَ الطبيب الإنكليزي المشهور سبنسر، الطبيب الذي أعاد حشو بطنه ثم قطّبه. قِيل له إن الطبيب كان يأتي ويسأل عنه ويفحص جرحه عندما كان محموماً وغائباً عن الوعي. لم يرَه. كل ما يذكره من تلك الليالي الدهرية صورة قناديل تسبح وحدها متهادية كالنجوم في جوف الخيمة المظلمة. كأنها مراكب الصيادين في عرض البحر عند نصف

الليل. يذكر الأضواء بين أعمدة الخيمة التي تشبه العظام العملاقة. ويذكر وجهاً يتبدل إلى وجوهٍ لا تُحصى، بينما عضلات الجبهة ـ والوجنتين والفكين ـ تتقلص وتنكمش: كانوا يبترون ساق المسكين! ورأى كيف يُغير الألم وجه الإنسان.

ذات ليلة سمع جاره يبكي في الظلام. في ليلة أخرى قال للجندي الذي يسقيه ماء إنه لن يشوف ضوء الصباح، وأومأ إلى الرجل الملقى جنبه: رجل يتغطى بفروة ذئب رمادي لا تحجب ساقاً مبتورة من فوق الركبة. عند الفجر لفظ الجريح أنفاسه. سحبوه إلى الخارج. شاهين البارودي مدّ ذراعاً قاسية عندئذٍ وجذب الفروة الرمادية ودفعها تحت ساقيه ثم تغطى ببطانيته من جديد.

طلب عدَّة حلاقة. أعطوه موساً مشحوذاً ومرآة صغيرة تغطيها خدوش الزنجار وطاسة مياه ساخنة وقطعة صابون. بلّ ذقنه متأملاً وجهه. نتأت العظمات تحت عينيه. كيف نتأت هكذا؟ وظهر شريانٌ في الجبهة، عند الصدغ، منتفخاً، أخضر اللون تحت الجلد.

بينما يرغي صابوناً أوجعته الإصبع التي كسرها قبل سنوات طويلة في «ورشة الكرنتينا». أوجعه الكسر القديم أكثر من الخردقات القليلة الباقية في ركبته (لم ينجحوا في نزعها كلّها. بعضها غرق في عظم المفصل). لكن جرح بطنه يؤلمه أكثر من الكسر القديم في إصبعه، وأكثر من جرح ركبته، معاً. أحياناً لا يعرف أين منبع الألم، لا يدري بأي ألم يحسّ، مزّقوه تمزيقاً! حلق ذقنه فأوجعته إصبعه أكثر. لم يفهم لمّاذا توجعه. لماذا توجعه؟ ليست جريحة!

شاهين البارودي لم يتذكر ـ بعد نجاته من الحمّى ـ أنه كسر هذه الإصبع قبل سنواتٍ بعيدة في أعمال بناء المحجر الصحي خارج أسوار بيروت. تلمس إصبعه ثم نظر في المرآة ورأى بين الخدوش

القاتمة هذا الوجه الذي يبدو غريباً. أوجهي هذا؟ ولماذا تنتأ هذه العظمات هكذا؟ لم يتذكر شاهين البارودي وجهه.

أحد الجنود سأله عن اسمه.

قال لا أعرف.

سأله جنديٌ آخر من أين يأتي؟

قال إنه لا يذكر.

سألوه عن أصحابه، عن أهله، عن فرقته، عن بلده.

شاهين البارودي كرّر جواباً واحداً:

ـ لا أذكر.

ـ لا أذكر.

ـ لا أذكر.

ـ لا أذكر.

كانوا يسألونه، يأتون من أطراف المعسكر، ويسألونه، وكان يجيب الجواب نفسه:

ـ ما بعرف.

لا أعرف، قال العملاق، وسكت.

حين نزع ضمادة بطنه أخيراً رأى الأثر القاتم الغريب الشكل:

W

من أنا؟ نظر الرجل إلى العلامة على بطنه، رفع يده، وحكَّ رأسه مفكِّراً. بدا شبيهاً بدبّ.

*

أعتنت به، في فترة النقاهة، أرملة عجوز تقطن خارج قرية جبلية صغيرة في جوار بكفيا. ألقوه على عتبة بابها ملفوفاً في فروة ذئبٍ رمادي. قالوا أجركِ عند ربنا، هذا تركماني إنكشاري مقطوع من شجرة، أتركيه عندك حتى يختم جرحه، أجركِ عند ربّك.

ألقوه في دارها وذهبوا، يقرقعون بسلاحهم وكلماتهم الخشنة التركية. سمعت صهيلاً يبتعد وسمعت ضحكات تفرقع. يضحكون عليه؟ عليها؟ بعد ذلك اختفوا في غبار الطرقات الجبلية المتلوية كثعابين. اختفوا في الغبار الشمسي وبقي العملاق مطروحاً يئن على العتبة.

جرّته إلى الداخل واهتمت به. ماذا تصنع غير هذا؟ تتركه في الباب يسدّه! أراد أن يقصّ أظافره. قصّتها له. كان عملاً صعباً. هذه الأظافر قاسية كالحطب. لكنها نقعتها في الماء والصابون حتى تطرى ثم قصّتها. قصّت أظافره وغسلت ثيابه. بدا عملاقاً طيباً، كالطفل يبتسم حين تناوله إبريق الماء. اهتمت به. حين طالت أظافر قدميه مرة أخرى قصّتها له من دون أن يطلب.

بدأ الطقس يتبدل، وصارت الشمس تملأ البيت وقتاً أطول. أحسّ ذات ظهيرة باشتداد الحرارة فتخلص من قميصٍ خاطته له من كيس طحين، وقعد في الباب يتعرق. ارتفعت حرارته: الحمّى مرة أخرى؟

هذه الشمس عليلة لا تبعث دفئاً في العظام، قالت الأرملة. ثم قالت له أن يلبس عليه لئلا يضربه الهواء ويمرض.

كانت قاعدة عند قدميه تُنقي عدساً، وهو يتمدد على ظهره، ورأت الجرح على بطنه العارية:

M

نهضت لتصنع حساء لفت، وبينما تمر فوق رأسه رأت الجرح ثانية:

W

سألته مرة أخرى عن أهله.

هزّ رأسه لا يدري ماذا يقول.

كانت تسأله عن أهله.

وكان يحتار، ويرفع يداً ضخمة الأصابع، ثقيلة، إلى رأسه.

كيف نسي كل شيء؟ ومتى نسي كل شيء؟ يذكر القناديل تسبح صفراء كأقمار دوّار شمس في الظلام. ويذكر عمود الخيمة. ويذكر أحزمة وحبالاً تتدلى كالشرايين من العمود. يذكر ذلك الوجه يُبدل الألم ملامحه، ثم يغيب. يجرّونه إلى الخارج وتسقط رأسه إلى وراء، بعينين مفتوحتين ميتتين تنظران إلى أصابع تلتقط فروة ذئب رمادية.

تسأله من يكون، ولا يعرف. خارج الباب جرن مملوء ماء. جرن كبّة قديم إسوَد حجره وملأته الأمطار. نظر إلى صفحة المياه الراكدة، تأمل وجهه. يذكر أن وجهه لم يكن هكذا. لم تكن العظام ناتئة في وجنتيه! وعيناه؟ هل تغيَّرت عيناه؟ لا يذكرهما غارقتين في المحجرين هكذا! لكن كيف يتأكد! من يقدر أن يخبره؟

كانت تسأله لماذا لا يأكل. جسمه ضخم كثور، فكيف يشبع من لقمة؟

الأرملة العجوز لم تكن كريمة. أهل القرية يُسمّونها «مرتا البخيلة». ليست بخيلة، بل فقيرة. بناتها تزوجن رجالاً من قُرى بعيدة؛ رجالاً من فالوغا وقرنايل وأرصون وحمانا. بناتها ورجالهم

تركوها هنا وحدها ومضوا واختفوا عن نظرها. أهملوها. ليست بخيلة. لكنها فقيرة.

كيف تُطعم هذا الثور؟ خافت كثيرة أن يأكل العملاق كل ما عندها. فإذا به لا يأكل أبداً! مرّات تُغصبه على الطعام ولا يذوقه. أو يذوق كسرة ثم يسكن كالنعجة في الزاوية. ما هذا المخلوق الضخم العجيب الذي يشبع من طاسة شوربة؟ ما هذا الجاموس الذي تتخمه حفنة فول؟

الشمس التي ظهرت أياماً قليلة لم تلبث أن غابت. اشتدت العواصف. كان ربيعاً كاذباً وجيزاً. ثم انقضى. أظلمت سماء الشتاء. كانت العجوز فقيرة ولا حطب في كوخها. خرج العملاق إلى حرجٍ قريب وعاد محملاً بالحطب. على الطريق أحسّ وجعاً في بطنه، ووجعاً في ساقه المصابة. طرح حمل الحطب أرضاً. ثم نقله بقية الدرب على دفعتين. كانت الحقول موحلة، والحطب مبلولاً. لكن الشمس بانت بعد يومين، وسطعت سبعة نهارات كاملة، فجفّفت الحقول وجفّفت الحطب. حين رجعت الأمطار وريح الشمال العاتية كانت النار تشتعل في قلب الكوخ. ذلك الشتاء لم تبرد الأرملة العجوز.

تساقطت الثلوج وغطّت السهل وغطّت الغابات بالأبيض. ثم انهمر المطر مرة أخرى وأذابها.

سألته عن اسمه، بينما الثلوج تذوب، فقال إنه لا يعرف.

كانت تجيء مرّات من وراء رأسه وتباغته بالسؤال.

لعل المفاجأة تُغير جوابه.

يقفز من مكانه، أو يلتفت مذعوراً، معقود اللسان.

هذه المفاجآت لم تغيِّر شيئاً.

ما زال يجهل اسمه.

في إحدى الأماسي، بينما الرياح تهزّ الكوخ هزّاً، وهي تخبره قصة عن إحدى بناتها (البنت التي تزوجت إسكافياً من قرنايل) دمدم فجأة بكلمات غريبة.

اتسعت عيناها عندئذٍ وقالت هذه تركية، هذه كلمات تركية، تطقّ على الأذن طقّاً، أنت تركي كما قالوا! تركي وتحكي العربية مثلنا!

خرجت الكلمات مع بصاقٍ من فمها. وكرّرت كلمات تركية قليلة تعرفها من سماع الرجال في القرية يلعبون بالنرد (شيش باش، قالت، درجي، ياك، إكّابير)، وخبطت كفّاً على كفٍ، وقالت مذعورة:

ـ إنكشاري تحت سقفي! يا عذرا!

*

منذ ذلك الحين اعتبر نفسه تركياً. عملاق جاء من الأناضول مع الجيوش العثمانية، جُرح جرحاً بليغاً في بحرصاف، كاد أن يُقتل، لكنه نجا، وبقي في هذا العالم. لم يمتْ. لماذا تركوه هنا؟ لماذا طرحوه على عتبة هذه العجوز النصرانية الطيبة الخرِفة الغريبة الأطوار، وذهبوا؟ أليس واحداً منهم، الإنكشارية؟

ذات ليلة سميكة الظلام أيقظه قطيع ذئاب ارتطم بحيطان الكوخ. رفع رأسه فرأى العجوز قاعدةً، ترتجف خوفاً في ضوء الجِمار. كان العواء الوحشي يسترسل مديداً حزيناً في الليل الكبير. جذب الفروة الثقيلة فوق رأسه، وغطس تحت بحر النوم من جديد.

كان يراها أول المساء، بينما نور النهار يتبدد، والطيور تختفي من حقل الشوك، والظلمة تغشى الكوخ، وتغشى الحقول، وتغطي القاطع المقابل بلون دبس العنب ثم بلون دبس الخروب. كان يراها تخلع ثوبها الأسود الصوف السميك الكثير الرقع فيظهر تحته ثوب آخر، مثل الأول، لكنه أفضل قماشاً، أقل ترقيعاً. تنزع هذا أيضاً، فيظهر ثوب ثالث، طويل يغطي جسمها الضئيل من العنق إلى القدمين، ويحجب كامل ذراعيها. هذا الثوب أبيض اللون. ومن تحته، في الأسفل، يظهر طرف سروال قطن أسود. كل هذه الثياب، بعضها فوق بعض!

في أول الليل، ومرات في الصباح الباكر، يراها تنزع منديلها قاعدة في فراشها، وتفك جدائل شعر قاسية تتدلى باهرة البياض، كالكلس توجّ في العتمة، وتذكره بشيء لا يقدر أن يتذكره. ذات ليلةٍ نَعِسَ ـ بعد نصف رغيف «قورمة» ـ فنام وهو يتأملها تُمشط شعرها العجوز بمشطٍ عظم تكسَّرت نصف أسنانه. نام وهو يراقب المشط يعلق في عقد الشعر الخشن، وهي تشدّه بيدٍ، بينما الأخرى تقبض على الخصلة الكثيفة من أعلى؛ نام ورأى في المنام امرأة لا يعرفها، بلا منديلٍ على رأسها، واقفة في نور نافذة تفرم بصلاً وثوماً على لوحِ خشبٍ وتشير ضاحكة ـ بالسكين ـ إلى خروفٍ أصفر يطلّ برأسه من الباب الموارب. استيقظ في الظلمة الكاملة، سمع أنفاس العجوز النائمة، وسأل نفسه من تكون هذه المرأة التي أتت إليه في المنام وأشارت بالسكين إلى الخروف وضحكت باشة في وجهه: من تكون بالنسبة إليه؟ زوجته؟ أخته؟ أمه؟ من هي هذه المرأة التي تفرم بصلاً وثوماً وتضحك؟

تراجعت العواصف وقلَّ سقوط المطر. لكن عواء الذئاب ظلَّ يقتحم الليالي الطويلة. في ليلة أخرى سمع زئيراً يزرع رعباً تحت

الأضلاع. والعجوز أخبرته أن هذا آخر أسد يحيا في غابات بكفيا: أسد مستوحد، لم يبقَ غيره، مرّات يُغير على الماشية، يُروع الأبقار، يقنص عجلاً، مع أنه ختيار، بليد الحركة، وفروته رثّة بالية، كأنه مصاب بالجرب.

سكتت الرعود وظهرت رؤوس العشب، خضراء كثيرة لا تُعد، من شقوق التراب أمام الباب. كفّت العجوز عن سدّ الباب بصخرة لئلا تدخل الثلوج. ها هو الربيع يطلّ، وقطعان الماعز تظهر في الحقول. ازرقت السماء. وخرج الحطّاب من كوخه القائم هناك، عند حافة الغابات ـ في الجانب البعيد، عند طرف براري الشوك ـ ولوّح بفأسه، وألقى السلام صائحاً. كان ذلك في الصباح. وعند الظهيرة جاء الرعاة الصغار للمرة الأولى. وتعرَّفوا إليه.

صاروا يأتون إلى هنا، إلى كوخ العجوز الأرملة المستوحدة، ويبادلونه الحديث. كانوا من قبل يزورون الحطّاب، ويتجنبون العبور أمام كوخ العجوز الأرملة. الآن اختلف الأمر. قلَّت زياراتهم للحطّاب وصاروا يأتون إلى هنا. يضحكون ويشيرون إلى العملاق الباسم العجيب ويُعطونه لبناً وخوخاً برياً قطفوه من الغابة. باتوا يجدون العجوز طريفة، آدمية، ليست بريّة متوحشة بومة بخيلة كما كانوا يحسبون. أعطوها برقروقاً وحليباً. حين عادوا بعد يومين أطعمتهم قريشة وجبناً أخضر مع قليل من العسل. جلبوا لها سمناً، ودجاجة سمينة من أجل صاحبهم العملاق. من أين أتوا بالدجاجة؟ سطوا على القرية؟ حين رجعوا هذه المرة أطعمتهم بيضاً مقلياً بالسمن، مع خبز قمح خبزته صباحاً على الصاج من أجلهم. قعدوا على حصيرٍ أمام الباب، وأكلوا. دخلت العجوز إلى ظلمة البيت ورجعت تحمل بصلاً أبيض. ضحكوا لها وفقش العملاق البصلة الكبيرة بضربة واحدة على عظمة فخذه ووزع عليهم حصصهم. كان

قد قلب الجرن الحجر الثقيل كمن يقلب كرسياً صغيراً ثم جلس عليه. أكل معهم لقمتين.

لا يأكل كثيراً. ما زال مصرانه معقوداً. لا يأكل كثيراً. لكنه هذه الأيام يأكل أحسن من قبل. العجوز التي باتوا يسمّونها «ستّي مرتا» أخبرتهم أنه في الأول كان لا يأكل أبداً، أقل من القطط كان يأكل.

ـ مثل البسينات، قالت. وحبست ضحكتها بيدها.

كانوا يضحكون ويبتلعون لقمات البيض، الرعاة الصغار الشياطين، والأيادي الصغيرة التي لوّحتها الشمس تتقاتل على الصفار اللامع الباقي في المقلى. دخلت العجوز إلى الكوخ ورجعت بقصعة دبس عنب. علت ضحكاتهم عندئذٍ وفاض ريقهم. ارتفع ضحكهم حتى تردد الصدى بين التلال ووعدوا أن يحملوا لها في مشوارهم المقبل جرة سمنة وحليباً وخروباً وجلوداً أيضاً.

ضحكوا وقال أصغرهم صاحب العينين الخضراوين البارقتين:

ـ وبقراً! وثوراً! وجملاً!

شعّت عيناه الخضراوان وهو يشرق بالضحك ورفاقه يخبطونه على ظهره. فضحك العملاق. ضحك مع أنه أحسّ بحزنٍ غامضٍ عميق. لماذا يحزن الآن ناظراً إلى هذا الصبي الجميل بعينيه الجميلتين؟ لماذا يحزن؟ جرح بطنه ما عاد يؤلمه في الليل، والبرد صار أخفّ ولا ينخره كالإبرة تحت السرّة. العجوز قصّت فروة الذئب الرمادي وخاطتها درعاً بثلاث زرد حديد، يلبسها كالمشد حول جذعه فتبعث دفئاً في بطنه وظهره وتبعد عنه آلام الصقيع. معدته من الداخل توجعه إذا أفرط في الأكل. لكنه لا يُفرط. تؤلمه معدته لكن بطنه لا يؤلمه كثيراً. والجرح لم يعد يؤلمه إلاّ قليلاً.

لماذا يحزن ناظراً إلى هاتين العينين الخضراوين؛ هل عنده ابن يشبه هذا الولد؟ ينظر في صفحة الماء فيرى أنه في الثلاثين أو الأربعين: لا بدَّ أن عنده زوجة وأولاداً ينتظرونه في بيتٍ لا يعلم أين هو!

*

جرح بطنه يبرأ. ختم الشق. شُفي. لم يبقَ إلاّ الأثر القاتم الغريب، والقطب المتقاطعة التي تتقطع وحدها. وحتى هذا الخط، قالت له ستّه مرتا، لن يظل هكذا، انتظر شتاءين بعد ويصير أرفع من خيط، لا تراه إلاّ إذا حدقت!

وجد وراء البيت محراثاً مكسوراً. أصلحه وربط الحبال إلى عنقه وكتفيه وجرّ المحراث على صفحة الأرض القديمة. حرث الأرض. انتظر قدوم الرعاة الصغار. وطلب منهم أن يجلبوا له من القرية ما يحتاجه: حبوب لوبياء وفاصوليا، بزر بصل وبقدونس وخيار ومقتي وكوسا وباذنجان وقرع ولقطين، وكم شتلة بندورة! ضحكوا بينما يُعدد أصناف الخضر. ابتسامته الدائمة تضحكهم. وكذلك ضخامته. والنظرة الزائغة، كأنه يراهم ولا يراهم. كأنه يراهم ويرى وراء رؤوسهم أشباحاً تتراكض في حقل الشوك وتتسابق إلى كوخ الحطّاب البعيد وتسترق إليه النظرات من بين أشجار البطم والملول الكثيفة المظلمة.

الرعاة الصغار ضحكوا لصاحبهم الكبير وسألوه لماذا لا يذهب إلى القرية ويجلب منها ما يريد.

لم يرد العملاق عليهم. يسمّونه «التركي» من وراء ظهره. وفي حضرته ينادونه «أنت».

لم يردْ عليهم. سكت. لم يزعل. لكنه سكت. بعد أيام رجعوا يحملون البزور التي طلبها في جوارب قماش.

*

النبع ليس بعيداً. عند حافة الأحراج، هنا، إلى جهة القرية. دلّته العجوز إلى مكانه. وأخبرته أنه إذا أراد أن يقطع الغابات إلى الجهة الأخرى لن يعثر على شيء هناك: كلّها أرض قاحلة بور، ثم تسقط إلى الوادي، ومن هناك يُرى البحر في نهاية الدنيا. لكن لا أحد يذهب إلى هناك. لأن لا أحد يقطع الغابة كلّها. بسبب الأسد. وبسبب الذئاب والضباع والحيّات.

قال إنه يسأل فقط عن النبع. ليملأ الجرار. وأخبرها أنه يقدر أن يذهب وحده.

صار يذهب بالجرار الفارغة ويملأها ويرجع. أصرّت العجوز على مساعدته. بدأت النبتات الخضر تطلّ برؤوسها من قلب الأثلام الصفراء التربة. كانت تربة صفراء تضرب إلى الرمادي، فقيرة، قديمة، لكنها لم تُزرع من قبل، وخيرها فيها، ولو كان قليلاً. زرع التركي الطيب الحقل.

العجوز راقبته ينقب الأرض بمعولٍ عثر عليه وراء الكوخ، فتذكرت المرحوم زوجها. تلك الظهيرة طبخت عدساً. وعند الغروب جلسا معاً كعادتهما يأكلان في ظلّ التينة. لكنها في هذا الأصيل بالذات غلت قهوة أيضاً. مع أنها لا تحبّ أن تفتح علبة البن، فتحتها. وأخرجت الحبوب السوداء المحمصة، وطحنتها بالمطحنة النحاس العتيقة، ثم غرفت البن المطحون بملعقة، وعملت ركوة قهوة تشقّ رائحتها القلب.

أخبرته عن زوجها. كانت الشمس تغيب. ظلال الأشجار تطول وتضرب إلى لونٍ بنفسجي داكن. والحساسين تزقزق زقزقة النهار الذي يموت في الشوكات: أخبرته الأرملة عن زوجها. لم تحكِ عن زوجها. ولكنها حكت عن الحقل الذي كان يحرسه كل خريف.

وحكت عن جلّ الزيتون، هناك، عند حافة الأحراج، قريباً من النبع، هذه زيتوناتنا.

حكت عن بئرٍ غارت وجفّت بعد سنة من حفرها. حكت عن السطح الذي يدلف وكيف اعتاد المرحوم أن يطيّنه بتراب الحوّارة في نهاية الصيف ويرشّه بالماء من الإبريق ليقسو قبل موسم الأمطار. حكت عن المحدلة التي لا تقدر أن تجرها. حكت عن زهور البابونج التي تنبت تحت المحدلة. حكت عن المرحومة أمها التي كانت تصنع أدوية من نسج العنكبوت ولسان الثعلب ونخاع الدجاج وقالت إنها ماتت مفتوحة العينين وهي تخيط صوفاً. كانت ترغي وتفور بالكلام. كأنها عاجزة عن التوقف. سكتت الحساسين عن الزقزقة في جبوب الشوك ولم تسكت الختيارة. حكّت عن الفاصوليا الحمّانية العريضة. حكّت عن كرز فالوغا الأسود القاسي. حكّت عن توت قرنايل الشامي بعصيره الأحمر السكر الحلو كالعسل. حكّت عن لوبياء آرصون الدسمة كلحم الغنم. كانت تتذكر بناتها ودمعت عينها. شربت ما بقي من قهوتها وحكت عن ثلوج الشتاء وخماسين الصيف، وذكرت شيئاً عن دبَلاَن القزّ، وعن عجوزٍ من عائلة بلوط تمت إليها بِصلة دم بعيدة عندها طاحونة في بكفيا تطحن حبوب هذه القرى كلّها، كل هذا القاطع.

سمعها تحكي ورأى خيوطاً تخرج من فمها وتكاد أن تسيل على صحن «المدردرة» (التهم نصف الصحن بشهية مفتوحة لا تشبع بعد نهارٍ من الكدّ والتعب في الأرض؛ لكنه قاوم الشهوة، لئلا يؤرق ألم البطن ليلته).

رأى الكلمات تقع من فمها في فنجان القهوة وبين حبوب الزيتون في القصعة الفخار. أشاح بوجهه ناظراً إلى الأثلام وإلى القصبات المقطوعة الخضراء مطروحة في نور الشمس. أوشك

القرص الأحمر الناري أن يغيب، أن يختفي كلّه. تكاثر الذباب، يحوم على أصابع قدميه وعلى بقايا الطعام. هبَّ هواء المساء. كان يحزن، سامعاً ذكرياتها، مفكراً: «أين ذكرياتي؟ من أعرف أنا؟ من أين أتيت؟». ثم هبَّ هذا الهواء الحلو وحمل أحزانه بعيداً صوب الأحراج المغمورة بالضوء البرتقالي.

غرز قدمه في التراب. إحساسٌ عجيب استولى عليه. هذه الحبّات الجافة تتفتت خشنة بين رؤوس الأصابع. دفن قدمه في التراب الساخن، ورفع وجهه أعلى، واستقبل نسائم المساء. طعم هذا الخبز الذي أكله. رائحة هذه القهوة ومذاقها. الحسون الذي لا يراه بعينيه لكنه يسمع تغريده وراء الزرع بين الأشواك. الشجر المتمايل عند حافة الحقل. البلوطات البعيدة المترنحة كالسكارى. نباح كلاب من جهة القرية. ضجة تحتضر. الخيط الأحمر يُظلم رويداً رويداً فوق قمم القاطع المقابل. الطيور السابحة في الفضاء تبتلعها عتمة المساء الزاحفة. وقدمه تغوص برؤوس الأصابع في التراب الذي يتفتت.

وسمع العجوز تقول شيئاً عن البرغش.

ـ اللَّه يقطع البرغش!

وخبطت بكفّها على رقبتها.

وفكَّر: «ما هذا السكون!» المساء يُقبل بطيئاً، يزحف على حقولٍ مترامية. وهو يشعر أنه عاش هذه اللحظة من قبل. هذا الهدوء! نظر إلى تفل القهوة راكداً في قعر الركوة، وأحسّ أنه يركد «مثل هذا التفل». يا ربّ السموات والأرض من أنا؟ ما أسمي؟ من أهلي؟ أين بلدي وبيتي؟ من أكون؟

سكتت العجوز. ستّنا مرتا انتبهت أن عملاقها التركي شارد

العينين، وأن ذهنه يسبح كالسمكة في عالمه الغامض البعيد الذي لا تعرف عنه شيئاً.

انتبهت إلى شروده الحزين، فسكتت.

ـ هذا كلّه من القهوة، لن أعمل قهوة بعد اليوم! قالت العجوز في سرِّها.

وبقيتْ ساكتة.

أتعبته السقاية بالجرة. النبع ليس قريباً. ذات أصيلٍ، بينما يراقب خِرافاً تنعس عند حافة حقول الشوك المخضرة، قال للعجوز:

ـ سأحفر بئراً.

تلك الليلة رأى في المنام امرأة (شعرها مستقيم أسود يتساقط مبلولاً إلى خصرها) تقف في باب بيتٍ وبين يديها صدر بقلاوة. استيقظ مذعوراً لا يعرف ماذا رأى: كانت تضحك له، ووجهها يتدوّر ويشع منه نورٌ أبيض كالحليب. زوجته؟ لا بدَّ أنها كذلك. لكن حين اقترب منها خطوة دبَّ فيه الخوف. لماذا؟

كانت الشمس تطلع من وراء صنين. بدأ العمل. حَفَر على مسافة من البئر الجافة القديمة. حفر طول قامته، وتابع الحفر. هبط في الأرض رويداً رويداً. ولم يظهر ماء. اختفى رأسه. الخِراف رفعت رؤوسها، وحدقت بعيون زرق واسعة كالبرك إلى حيث يتصاعد غبار وتراب. تابع الحفر نازلاً في الظلمة إلى أسفل، إلى أسفل. العرق يتصبب من جسمه، والتراب يُعمي عينيه. تدفقت الطاقة في عضلاته، وفكَّر: هذا كان عملي، كنتُ أحفر، كنتُ حفّاراً، ماذا كنت أحفر،. آباراً، قبوراً؟

خيَّم عليه ظلّ. رفع رأسه فرأى السماء الزرقاء بغيوم الصيف

العالية الناصعة البياض تتباعد كقصور مرمر، ورأى رجلاً مظلماً يقف عند الحافة، فوق.

أحسّ بضعفٍ في ركبتيه. من هذا؟ كأنه رآه من قبل. لكن النور قوي فوق، يبهر عينيه، لا يقدر أن يتبيَّن ملامح الوجه جيداً.

مدّ الرجل يداً وساعده على الخروج من البئر التي يحفرها. كان هذا الحطّاب: صاحب الكوخ عند حافة الأحراج.

قال له:

ـ اسمي مرقس. أنت لا تعرف اسمك، صحيح؟

مسح العملاق العرق عن عينيه. شرب ماء من إبريق الفخار. وقال إن هذا صحيح.

قال الحطّاب:

ـ لا ماء هنا. الماء وراء الغابة. في النهر أصيد سمكاً أحياناً. ليس طيباً جداً. لكنه يؤكل.

بعد ذهاب الحطّاب نزل إلى الحفرة مرة أخرى. تابع الحفر حتى تبدّد نور السماء. كانت الأرض تنشف تحت معوله، وتقسو، بدل أن تطرى. وقال أن أمطار الشتاء لا تصل إلى هذا العمق. ولهذا تجفّ الأرض أكثر فأكثر. ومع ذلك لم يتوقف عن الحفر. كان ضوء النهار يتلاشى، وصدى الخبطات يرنّ في الجورة العميقة، وقال عليّ أن أتابع، لا أستطيع أن أتوقف الآن. ورفع المعول وضرب بكل قوته وحدس أن الماء سينفجر في وجهه الآن.

لم ينفجر ماء في وجهه. لم تظهر حتى بقعة وحل، أو كتلة من التراب الرطب. فجأة ارتطم المعول بالصخر ارتطاماً قاسياً أجوف. ارتد الحديد على الصخر الصلب، فسرت الارتدادة قاسيةً في ذراعيه حتى عنقه: كاد أن يصرخ ألماً.

كفَّ عن الحفر وعاد إلى الجرار يملأها من النبع، ويرجع. تراه العجوز مقبلاً من بعيد، يعرج على ساقه، والمياه تنطّ من فوهة الجرّة.

فروع اللوبياء تتمدد على حافة الثلم. غَرَسَا القصبات الناشفة، قاعدين بين الأثلام، أو مقرفصين، ثم دلاَّ رؤوس الفروع الطريّة إلى القصبات. كان يلتقط رأس الفرع بين أصابعه الضخمة ويلفّه على أسفل القصبة ثم يسقي الشتلة بطاسة ماء.

مرَّت الأيام، سطعت الشمس. دار العْرقُ الأخضر، ارتفع يُبرعم طالباً النور القوي. لو أنه يقدر أن يسقيه أكثر، لو أن الماء أكثر. لكنه تعب من حمل الجرار. النبع مستواه أعلى من هنا، وعليه أن يتسلق جلولاً، ثم أن يهبط من جديد. تعب من نقل الجرار. يطرح الماء في الحقل فيرشفه التراب العطشان وتُبخره أشعة الشمس (الشمس قوية هنا، الجبل يرتفع نحو السماء، والشعاع يسقط حارقاً). تَعِب من السقاية بهذه الجرّات. وركبته تؤلمه من المشي. بعض الثقوب تنز قيحاً أصفر. ربطها وتركها. لكنه يفكّر فيها، حتى من دون أن يكشف عنها. وبطنه أيضاً توجعه من العدس المطبوخ. الحبوب لا تلائم معدته. ليس في أحسن حال.

رأى ذات ليلة أنه في تلك الخيمة مرة أخرى. قبل الخيمة رأى أنه في معركة في سهلٍ أبيض لانهائي، يحمل رأساً مقطوعة، فيرفعها عالياً كقنديل، ويتقدم. ثم وجد نفسه في الخيمة. كان أحد الجرحى يستلقي قريباً منه ويكلمه. وفي المنام تذكر الحديث كاملاً: رجع الحديث إليه. كان الجريح يسأله من أين يأتي. وهو ـ كالعادة ـ يقول إنه لا يعلم. ثم أخبره الجريح ـ هذا جندي فلاّح من ديار بكر ـ إن العسكر الإنكشاري الذي حارب في بحرصاف جاء إلى هنا من بورصة لا من اسلامبول. هذا كل ما تذكره.

استيقظ في الصباح بمثانة محتقنة فخرج ليبول عند طرف الحقل. استند برأسه إلى جذع التينة. تكررت الكلمتان في رأسه الذي يُكبله النعاس:

ـ بورصة.

ـ اسلامبول.

جاء من هناك إذاً! كما قالت العجوز! لهذا يتكلم التركية! لكنه يعرف العربية أيضاً! بلى، جاء من هناك. لكن لماذا تركوه هنا؟ ماذا لو تركوه ملقياً في سهل المعركة بين الجثث؟ كان جاء أحدٌ وطمره تحت التراب. وانتهى كل شيء. لكنه لا يريد أن ينتهي كل شيء.

*

سأل العجوز أين بلاد التُرك، بلاده؟

لوَّحت العجوز صوب الأحراج، وقالت: «وراء البحر، في آخر العالم.»

الرعاة الصغار، المعّازون الشياطين، باتوا يتركون الأغنام بعيداً من هنا، وراء تلك البلّوطات الخمس في نهاية الأرض البور، البلوطات المتراصفة مثل فرقة من حراس عمالقة. يتركون الماعز هناك، ثم يقطعون السهل القاحل إليه، يتراكضون ويتدافعون بين الشوك ويتعاركون ثم يتصالحون. يلعبون ووجوههم سمراء تتشابه. الواحد منهم يلبس سروالاً قصيراً يكشف الساق السمراء بالجروح التي أحرقتها الشمس. يلف رأسه بقماشة زرقاء أو بيضاء يطويها بعرض ثلاثة أصابع، ويربطها وراء رأسه ربطة عادية شديدة، فيتدلى طرفاها على ظهره. العصبة تمنع الشعر عن النزول على الوجه، وتترك الجبهة جافة.

يتلفتون حولهم بينما يحكون. يطاردون الماعز بنظراتهم كل

الوقت. يأتون من هناك، من وراء البلّوطات المتراصفة، وكل واحد يمشي على ثلاث سيقان. لا يتحرك أحدهم بلا عصاه يضرب بها الأرض، أو يُلوح كأنه يريد التقاط طير أو غيمة.

حين يبتعد تيسٌ عن القطيع يراه مثل بقعة سوداء تتضاءل وتذهب نحو المنحدر العميق إلى جهة الغرب. يقف أحدهم عندئذٍ ويرمي حجراً. يرتفع الحجر في قوس ثم يصغر، وتبتلعه السماء. يمضي وقتٌ ثم تُسمع الطقّة القاسية: حجر يطرق عظماً! قد أصاب التيس في قرنه! ينظرون إلى النقطة البعيدة ترجع إلى القطيع. صدى الطرقة تُكرّره التلال، وثغاء التيس أيضاً.

*

زحفت جبوب الخيار على أصفر التراب وغطّته بالخضرة المغبرة. جبوب القرع سبقتها حتى حافة الجلّ وتدلت على حائط الدكّ القصير. جبوب الكوسى ارتفعت، جذوعها تثخن، وورقها يقسو ويعرض. ظهرت زهورٌ صفر، وفرحت عينا العجوز.

كانت ترى الخضرة تغطي التراب، وترى اللوبياء تعربش على القصب، وتقول:

ـ يا ستّنا مريم! يا عذرا!

وكان العملاق يضحك، وينزع عشباً ضاراً من مساكب البقدونس ويسأل نفسه أين كان يزرع، أين كان يحيا، وماذا ترك خلفه حين جاء إلى هذه الأرض، إلى هذا الكوخ الضائع بين جبالٍ ساكنة! ماذا ترك وأين تركه وكيف يرجع؟

كان يقطف أول قطفة خيار من الثلم حين جاء رجلٌ مع الرعاة الصغار. كان راعياً أيضاً. وجلسوا يتكلمون. بعد ذلك اعتاد الراعي أن يأتي، حاملاً تيناً أو لوزاً أخضر في جيوب قميصه. كان قميصاً

بطبقتين، وفي جوفه يُخفي فاكهة وبزوراً يابسة محمصة وأعشاباً تُداوي السعال ووجع الأسنان والإسهال والإمساك وضربة الشمس.

رآه يعرج وسأله لماذا يعرج.

تردد العملاق لحظة ثم رفع طرف سرواله.

بانت القماشة التي لفَّها على ركبته، مشبعةً بالسوائل الفظيعة الألوان.

قبل أن يلمسها فاحت الرائحة.

وجه الراعي تغيّر عندئذٍ.

ـ من كم يوم تربطها؟

قال العملاق إنه ربطها يوم بذر بزور القرع.

ـ يا أخوت!

الراعي رفع صوته، أبعد يد العملاق الخرقاء، ثم فكّ الرباط بحركة خاطفة. العملاق لم يصرخ ألماً. لكن الراعي سمع صرير أسنانه. حين كشف عن الجُرح المتقيح وقع نور الظهيرة على ديدان تتململ في بقعة اللحم المتآكل. بدت الركبة ذائبة، طرية كالشمع، لكنه شمع بشع اللون، قذرٌ ضاربٌ إلى خضرة العفن. وفي هذه القذارة سبحت ديدان بلون الحليب.

نظّف الراعي الجرح ثم ذهب. عاد عند المغيب مع حكيمٍ عربي اسمه بطرس الجميّل.

قال الحكيم:

ـ من قَطَّب هذه القُطب من دون أن يكوي اللحم؟ أي مجنون فعل هذا؟

سأله الراعي:

ـ والعمل؟

أجابه الحكيم:

ـ لا بد أن نقطعها.

تدخل العملاق للمرة الأولى:

ـ لا.

شرح له الحكيم:

ـ بلا بترٍ تقتلك. انظرْ أثر الغرغرينا. أترى فخذك كيف يتقشر؟ وهذه البيوض الزرقاء بعد ساعة تفقس.

قال العملاق:

ـ لا.

نكش الراعي التراب بحجرٍ، قال:

ـ وإذا كويناها؟

مسح الحكيم بظفره قطرة عرقٍ عن حاجبه. (على رسغه خيط مربوط.) نظر بعينين عسليتين صغيرتين كحبتي حمص إلى الراعي، ثم إلى العملاق (ما به هذا العبيط؟ أيبتسم؟). وتحيَّر. وقع في الحيرة لكنه حافظ على ملامح وجهه جامدة. لم ترتعش تجاعيد خديه. لكن غضون الجبهة تكاثرت. امتلأت جبهته بالأخاديد. كان وجهه محروقاً بالشمس، سمرته قاتمة. كأنه يحيا مُمدداً على ظهره. بربشت رموشه الفضيّة ثم قال:

ـ نكويها بالحديد ونرى. وإذا لم تصلح نقطعها. عسى ألا نكون تأخرنا.

أشعلوا ناراً قبل حلول المساء. أخرجت العجوز من إحدى مخابئها بطحة عرق قديمة. قالت: «هذه بطحة المرحوم». ودفعتها إلى العملاق. لم يفهم العملاق أولاً.

قال الراعي:

ـ اشربها! أشربها كلّها!

كان الكوخ يعجّ بالرجال. أرسل الراعي يطلبهم. اجتمعوا حول العملاق الذي تفوح منه رائحة اليانسون وثبّتوه بالأرض.

العملاق تكلم عندئذٍ:

ـ لست ولداً!

ابتسم الحكيم. لم تبنْ أسنانه المتساقطة، كان حزيناً. قال:

ـ النار نار يا ابني.

حمّوا الحديد طويلاً حتى توهج حُمرةً، ثم اقتربوا. العجوز ابتعدت إلى الزاوية، ترسم شارة الصليب على صدرها، والدمع يخنقها. لم تكن تعلم أن الحديد كالحطب يتحول جمراً! ها هو الحديد الحامي يقترب من ركبة التركي: رجل غطى حقلها بالأخضر. ملأ بيتها سمناً وسكراً وحليباً. كل يوم يأتي إليها أولادٌ، هي التي لم يكن يأتي إليها أحد. والآن يكوونه.

شقَّت زعقةٌ الكوخ. قطعته قطعتين. ثم خمد الكون.

خرجوا من الكوخ. وقفوا لحظة عند حافة الجل يشربون ماء، ويمسحون العرق عن الوجوه. كانوا متعبين. لكن التوتر منعهم من القعود. كأنهم ركضوا من القرية إلى هنا، كأنهم ركضوا من أنطلياس إلى هنا، كأنهم ركضوا من البحر إلى هنا. مسحوا العرق عن وجوههم. وتنفسوا الهواء الطيب العليل. القمر أضاء الحقل الأخضر.

قال أحدهم:

ـ حرام!

وقال آخر:

ـ في دير الشوير واحد مثله.

وهمس ثالثٌ:

ـ لن يرى ضوء الشمس.

حين ظهرت «ستّنا مرتا» سكتوا. تململوا وتأهبوا للرحيل.

أحد الرجال مشى نحو ثلم اللوبياء وتأمل الفروع الخضر القاتمة التي عربشت عالياً على القصبات، ثم استدار نحو العجوز:

ـ منذ متى تزرعين لوبياء؟ هذا زرعكِ؟

ردّت بصوتٍ مبحوح إنه التركي.

قال الرجل بنبرة إعجاب:

ـ يده خضراء!

*

بعد وقتٍ طويل فتح عينيه. رأى سقف الكوخ ولم يرَه. رأى العجوز تقترب ثم تبتعد. أول ما سمعه كان خوار بقرة. بقرة؟ أين هو؟ ثم فَقَد وعيه مرة أخرى.

جاء أحدهم (من؟ الراعي؟ الحكيم؟ الحطّاب؟ شخص آخر؟) وغيّر رباط ساقه. وضع عليها زيتاً، ثم لفّها من جديد. كانت الركبة تحترق تحت الضمادة، وحين تلاشى الحريق بدأ الحكاك. حكاك فظيع. خاف العملاق أن تكون الديدان فقست كما قال الحكيم. لم تنفع النار إذاً!

جاؤوا مرة أخرى وبدّلوا عن الحرق وقالوا إنه يتحسن.

ـ والدود؟ سألهم.

قالوا إن النار لم تترك دوداً.

آخر الصيف استطاع أن يطوي ركبته وأن يقف على ساقه. ستّنا مرتا ذهبت خفيةً إلى الكنيسة في بكفيا، حافية على الشوك، لتفي نذرها. التركي الطيب لم يمتْ. وشُفي.

اللّه ستر، فكّر التركي، اللّه ستر ولم ينفتح جرح بطني.

في تلك الليالي الدهرية التي أعقبت كيّه بملقط الحِدادة غرق في ظلامٍ حارٍ دبقٍ، يحسّ بعددٍ لا يحصى من الأيدي القاسية الصغيرة تقرصه قرصاً موجعاً في جميع أنحاء جسمه. كان يفتح عينيه فيرى أنه ما زال في ذلك السهل البعيد، مصرانه على الوحل، أمعاؤه تسيل على ساقيه، وإبر المطر تتساقط في عينيه. أو يرى الغربان تهطل من سماء رمادية، كأنها قطع حطب تطايرت من غابة تحترق.

ذات ليلة صرخ في الظلام وهو نائم: رأى أنه في تلك الخيمة العالية السقف، داخل قفص الأضلاع العملاقة، ورأى أن القناديل الصفر ما زالت تسبح كالأقمار في الفضاء الأسود الكبير، ورأى أنهم يشحذون فأساً على حجر الجلخ ويستعدون لبتر ذراعه. ذراعي؟ لماذا يبترون ذراعي؟ إنها ركبتي! إنها ساقي! لا تقطعوا ذراعي! وحياة النبي محمد لا تقطعوا يدي! أنا شاهين! أنا لست أبي عبد الجواد! لا تقطعوا ذراعي!

كان محموماً يهتف في الليل، وقامت ستّنا مرتا على ندائه تتلمس الأرض براحة يدها كالعمياء، ولا تعرف أين جرّة الماء وأين إبريق الفخار وأين رأسه الحامية. أرادت أن تستعين بزعيقه لتكتشف الجهات لكنه سكن فجأة. ثم ارتفع شخيرٌ. انتظرت وبينما تنتظر تباعدت غيومٌ في سماء الليل وتسرب نور بدرٍ كاد أن يكتمل من النافذة المشرعة. دخل النور فضّياً يترقرق كمياه النبع، ورأت أن الجرّة على بعد قدم، وأن الإبريق عند رأسها، وأن التركي تقلّب في كوابيسه وغادر فرشته واحتضن خابية الزيت في الزاوية.

حين استيقظ صباحاً كان نسي منامه. الحمّى لم تدمْ طويلاً. لكن الحكاك أنهكه. في تلك الفترة لاحظت الأرملة العجوز تبدل

وجهه. كأنه تحوّل إلى رجلٍ آخر! وهو نائم تحول! اختفت الابتسامة الملازمة لشفتيه، أو كادتْ أن تختفي. عضلات وجنتيه تقلصت. وبانت عقدة بين حاجبيه، فبدا ـ وهو يحلق ذقنه القاسية ـ عابساً عبسة تبعث على الخوف. للمرة الأولى في حياته رأى وجهاً غريباً لا يعرفه يطلّ عليه من قطعة المرآة الصغيرة المكسورة ومن صفحة الماء الراكد في الجرن خارج الباب.

جاء الراعي يزوره حاملاً جبناً. ثم جاء الحطّاب أيضاً حاملاً سلّاً مملوءاً بفطرٍ من الغابة وبيض عصافير.

ذات عصر شوت له العجوز باذنجاناً وتبّلته بالملح والثوم وحبّ الرمان.

ـ هذا من زرعِكَ، قالت له.

كان ثلم الباذنجان كلّه يضوي في الشمس، والأشعة تنزلق على الحبّات السمينة، على القشرة السوداء الصقيلة الضاربة إلى زرقة. نظر إلى الثلم، وأكل بالخبز المرقوق لقمة متبل تلو لقمة متبل وقضم بصلاً سكري الطعم.

قالت العجوز:

ـ لو كان عندي طحينة لأجعله بابا غنوج! أليس هكذا تعملونه في بلدك؟

التركي لاك لقمته ثم كرَّر وراءها:

ـ بابا غنوج. بابا غنوج. مع الطحينة. والليمون الحامض. وزيت الزيتون. صحيح. أذكر. صحيح!

*

في ليلةٍ أخرى أيقظته مثانته المتورمة (مصرانه المقصوص لا يسع ماءً) فقام محاذراً أن يوقظ ستّه مرتا ووارب الباب (يا لصرير

الخشب الفظيع) وخرج إلى الظلام.

كان نقيق ضفدع الحقول ونشيد صرصار الصيف يملأ الفضاء بالموسيقى والطنين، ومشى حتى التينة وبوَّل رافعاً رأسه. أحسَّ بالراحة، كل جسمه ارتاح فجأة، ورأى أن النجوم تملأ السماء كلّها. يا ربّ! ما هذا! في حياته كلّها لم يرَ هذا العدد الهائل من النجوم!

سمع حركة فالتفت صوب جل اللوبياء، ورأى في النور الأبيض، نيصاً يزحف ثقيلاً على التراب وعلى النبت، ثم يهبط عن حائط الدكّ، ويسبح في حقل الشوك.

كان الشوك يتكسر تحته، وهو ينزلق على الصفحة الساكنة، متململاً بأشواكه، بالرِيَش الطويلة القاسية ذات اللونين الأسود والأبيض، كبيراً، بحجم قنفذين أو ثلاثة، هذا القنفذ العملاق الثقيل، الجميل الحركة. كانت حركته بديعة، وشقّ بجسمه حقل الشوك ساعياً نحو دغلٍ من البطم القصير، ثم اختفى.

يا ربّ السموات والأرض! لم يلحقْ به. كان يستطيع ـ ولو أنه يعرج ـ أن يلحق به وأن يقضي عليه بخبطة عصا واحدة. ستّه مرتا أخبرته أن النيص يسطو على الفاصوليا واللوبياء منذ ثلاث ليالٍ. وهو رآها تجمع الظروف المفتوحة الفارغة من الحبّ وتدمدم مؤرجحةً رأسها على كتفيها. كانت غاضبة. وقالت إنها ستجلب فخاً حديداً من القرية. ولم تجلبْ شيئاً.

وقف جامداً كالفزّاعة. ما هذا الليل الكبير اللامتناهي! ما هذا العالم! وهذه القبّة المشكوكة بالنجمات شكّاً! كأن سقف السماء انكسر! كأن النجوم تتساقط من الأعالي، تئزّ، تطنّ! كان السهل مغموراً بنورٍ حليبي، والدرب التي خلَّفها النيص ظاهرة للعين،

وبعض السنابل وجبوب الوزال يرتفع من جديد. غابت الموسيقى لحظة ثم رجعت. تبدل الصوت كلما دار برأسه إلى هذه الجهة أو تلك. وهبّ نسيمٌ عليلٌ.

ستّه مرتا لم تنتبه إلاّ قبل أيام قليلة إلى السر الذي حيّرها طيلة شهور. كانت تجده غريباً حين تناديه فلا يردّ عليها. أين يشرد؟ أين يسرح فلا يسمعها وهي على بعد خطوات؟ لكنه في مرّات أخرى يسمعها وهي تنادي عليه من جلّ الزيتون البعيد، أو حتى وهي تجمع «الشومر» والفطر من الأحراج. مضى زمنٌ طويلٌ قبل أن تكتشف صدفةً أن التركي يسمع من جهة واحدة! يسمع بأذنٍ واحدة فقط! الأخرى معطوبة. اقتربت من الأذن المعطوبة فرأت أنها تشبه السليمة. زعقت فيها فلم يتحرك. معطوبة! هذا هو السرّ!

بقي واقفاً تحت التينة، والنسيم الطيب يوقظ دماغه. طار النوم من جفنيه. مشى قاطعاً سهلاً أصفر إلى صف البلوطات البعيدة. بانت البلوطات كالقلاع الخرافية في نور النجوم، تقاربت في الليل حتى بدت جسماً واحداً، سوراً عالياً أخرس.

ولمعت ذكرى في الرأس المسحورة: أين رأيت شيئاً مثل هذا الذي أراه الآن؟

يوماً بعد يوم بعد يومٍ يشعر أنه يقترب من كشفٍ سيبدل عالمه. قال في نفسه: «سأتذكر». وقال للأرملة العجوز:

ـ بدأت أتذكر!

لم يتوقع ردّة فعلها. بدت غاضبة بلا سبب. نهضت وتركته وحده. ثم نادت من وراء خيمة اللوبياء العالية:

ـ الأرض ناشفة. النمل يخرج من الشقوق. ستيبس الظروف قبل أن يكبر الحبّ.

لم تيبس الظروف. عاد يذهب إلى النبع ويملأ الجرار. يعرج ويتعكز على عصا كالرعاة ويتعب ويملأ الجرار.

وقطفوا اللوبياء أُم نقطة. وقطفوا الفاصوليا البيضاء العريضة. النيص أكل وشبِع ثم اختفى. الأرملة قالت إن الرعاة قبضوا عليه بفخٍ حديد، نزعوا شوكه وسلخوه وأكلوه مشوياً، ولم يطعموها منه.

قالت:

ـ مع أنني أطعمته وأرضعته.

انتبه أن أنفها يحمر كالشمندر عند الزعل. وانتبه كم نال منها الزمن. لعلها كانت جميلة المنظر في صباها، بعينيها المشروحتين وأذنيها الصغيرتين وأنفها الذي يناسب وجهها. لعله كانت جميلة في أيامها، لكن الزمن غطّاها بالتجاعيد، وأنبت ذقناً ثانية تحت ذقنها. تبدو كأنها ابتلعت ضفدعاً. عدَّ خمس حبَّات قاتمة في ذقنها، ورأى شعيرات بيضاً مدببة تنبت من رؤوس الحبّات وتطول أمام عينيه وتميل ثم تقف. كم عمرها؟ كم عمر بناتها اللواتي لم يرَهن أبداً؟

أخذت النهارات تقصرُ رويداً رويداً. ابن المدينة لا يُحسّ بهذا مثل ابن القرية. الصيف ينتهي، ونسائم الخريف تهبّ، والشمس تُبكر إلى الغياب. الرعاة الصُغار جلبوا له خروفاً. وذهبوا.

*

جاء الحطّاب يحمل سمكاً نهرياً. العجوز أخذت المقطف، ودخلت إلى الظلمة الخفيفة، ووقفت تنظر محتارة إلى علبة البنّ: هل تفتحها؟ نظرت إلى السمكات تخفق في المقطف، تبلعط وتلفظ آخر أنفاسها، حمراء بعيون مبلولة، فحسمت أمرها وعملت للحطّاب قهوة.

سأله الحطّاب:

ـ ألا تذكر شيئاً أبداً من بلدك؟ يقولون إن إسلامبول مملوءة بالأبراج الخشب والقصور الرخام والدروب البلاط العريضة. لا تذكرها؟ يقولون السفن تعبر في قلبها، بين البيوت والدكاكين!

هزّ التركي رأسه محدِّقاً إلى الخروف يقضم رؤوس أعشاب ونبتات بدأت تجفّ ويتغيَّر لونها.

خُيّل إليه في تلك اللحظة أن السهل اضطرب، وأن موجة تعبره. (ماذا يرى؟ جيشاً يندفع نحو جيش؟ في مثل هذه الأيام، قبل عام، وقعت تلك المعركة!)

كرَّر الحطَّاب سؤاله.

فأجابه التركي إنه يذكر البحر. بلى، يذكر بلده: يذكر أن البحر كان يُوقظه كل صباح.

أتى بغّالٌ من القرية يقود ثلاث بغلات، وحمَّل حطباً من أمام الكوخ في الجانب الآخر. رأى الحطّاب ـ من هنا ـ يأخذ قروشاً لامعة من البغّال. راقبهما يتكلمان، وهواء الخريف يخشخش في الأحراج البعيدة، ويرسل موسيقى حوله، وداخل خيمة اللوبياء. كل هذه الخضرة بلغت أقصاها الآن، كان يُفكِّر، ناظراً إلى صفرةٍ تُباغت الأوراق. قبل يومٍ أمطرت، وقبل يومٍ آخر سمعوا دوياً بعيداً وظنّوا أنه الرعد، لكن جَندياً عابراً أخبر العجوز أن هذه مدافع العيد.

جاءت العجوز وأخبرته:

ـ هذه مدافع العيد. عيد المسلمين. ليست رعداً.

قال العملاق:

ـ عيد الفطر. صحيح. وأنا لم أصمْ.

ضحكت وقالت إنه نجا بجلده هذه المرة. كيف له أن يعلم أنه وقت الصيام، وهو هنا، في آخر الأرض، حيث لا جامع ولا مئذنة!

ظلّ ساكتاً. بدا في حيرة. وحكّ رأسه بأظافره. انتبهت إلى عناكب بيض على شتلات البندورة. وسألته:

ـ كل بلاد الترك إسلام؟

قال لا، فيهم نصارى ويهود.

العجوز تريثتْ لحظة ثم أفصحت عما يشغل بالها:

ـ ولكن أنت مسلم، صحيح؟

قال إنه لا يعرف. ليس متأكداً. حين يأتيها هذا الجواب («لا أعرف»، أو: «لا أذكر») تعبس. هذه هي العادة بينهما. لكنها هذه المرة لم تعبسْ. بل فعلت عكس ذلك: ابتسمت!

نفضت العناكب عن الورق الأخضر الذي بدأ يسوَد ويقسو، ثم قالت:

ـ هذا أصلاً لا يُهمني!

وقامت غاضبةً. واختفت في جوف الكوخ.

حلّ الخريف. تساقطت الأمطار ونزلت زخّة برد، وأحرقت بالصقيع النبت، ومزَّقت الورق والثمر تمزيقاً. لم تبقَ واقفة إلاّ القصبات اليابسة التي غرزها ـ والأرملة ـ في ثلم اللوبياء البادرية وفي ثلم الفاصوليا الحمراء أول الصيف.

دبدبت ستّه مرتا على الأرض، بين شتلات البندورة المحطمة، وقطفت حبّة زرقاء من هنا، وحبّة خضراء من هناك، وحملتها إلى الكوخ.

قالت:

ـ تحمر وتنضج جنب الفراش. علينا غداً أن نفرط الزيتونات. زخّة نفناف ثانية ويضيع الموسم.

ذهب معها إلى جلّ الزيتون. طوال ثلاثة أيام دبّ معها على الأرض يلتقط الزيتون اللامع من بين الحصى البارد وحبّات التراب. قبل الظهر يحمل العصا الطويلة ويضرب الأغصان. تتساقط الحبّات مع الورق، وتتكسر الأغصان الصغيرة، وتهوي فروع.

تنهره العجوز:

ـ لا تُكسِّر الأغصان! كيف نأكل زيتوناً في السنة الآتية؟ وبعدها؟

تسكت قليلاً ثم تدمدم:

ـ أم أنك لا تهتم؟

وبعد قليلٍ:

ـ ماذا يهمّك إذا تكسرت هذه الزيتونات؟ لم تتعب فيها!

حين تزرق رؤوس أصابعهما وهما يلتقطان حبّات الزيتون عن الأرض الباردة الرطبة، يشعلان ناراً.

عصرت جزءاً من الزيتون في «معصرة بكفيا». وكبست «النخب» منه، أفضله وأقساه وأكبره حجماً، في الخابية الفخار.

بدت شديدة الحزن وهو يحمل الخابية من زاوية إلى أخرى كما أمرته. حمل الخابية الثقيلة المملوءة بالزيتون والماء المملح كمن يحمل إبريقاً! بلى، يعرج، لكنه بات على الأقل يأكل أكثر. أمس أكل رغيف صاج كاملاً، وقت الصباح، مع ملحٍ وزيت طازج أخضر.

تراكضت الأيام وظهرت أسراب البجع في السماء. صفرت ريح الشمال العالية. قالت الأرملة وهي تجمع غسيلاً نشرته على أغصان التينة:

ـ غريب! أمس عَبَر الوروار في عيد الصليب. والآن جاء البجع!

الوروار عَبَر قبل شهور. العجوز لم تستوعب كيف مضى الزمن خطفاً. بعد البجعات ارتفع عواء الذئاب في الأحراج. وذات صباح فتحت العجوز الباب فرأت أن التلال في القاطع المقابل قد تغطّت ببياض الثلج. ندهت:

ـ معقول؟

عصفت الريح واهتزت حيطان الكوخ ودلفت المياه من السقف. نزل المطر في أول الليل يطقطق جنب رأس العجوز. قامت تلعن حياتها، وتلفظ كلمات لم يسمعها من لسانها قبل الآن.

ثم حدجته بنظرةٍ غاضبة:

ـ لأنك لم تحدلْ السطح!

بقيت تهمدر في الظلام كإبريق يغلي على الجمر حتَّى مدّ النوم ذراعه وسحبها من جديلتها البيضاء الطويلة إلى حيث يسحب النوم كل البشر. سكنت ولم يعد يُسمع إلاّ الريح تزوم وتهزّ دُرف النافذة والمطر يقرقع على السطح ويبقبق على الأرض ويطرطق في الجرن خارج الباب.

لم يزرْ النوم جفنيه حتى وقتٍ متأخر. كانت ذكريات غامضة تزوره في تلك الساعة. قبل شهور، في عزّ الصيف، بينما حرق ركبته يُشفى، مشى مع أحد الرعاة الصغار إلى شجرة التوت وراء الكوخ ورأى جبّ خزامى يتفتح تحت الشجرة: رآه ينمو ويفرد عناقيد زهوره البنفسجية ويضجّ بالألوان كأنه مروحة طاووس.

قال للولد:

ـ مثل الطاووس.

لم يفهم الولد.

شرح له:

ـ هذا طائر كبير، يربّونه مثل الدجاج، لكنه ملون، وريشه يشبه العيون.

الولد ظلّ عاجزاً عن تخيل الطائر. اقتربا من جبّ الخزامى فارتفع طنين النحل.

قال للولد إن هذا النحل لا يرعى إلاّ في الشمس.

سكتت الريح ثم عصفت أقوى واشتدت. سمع أغصاناً تتكسر، وغرضاً ثقيلاً يتدحرج وراء الباب. لمع البرق عبر شقوق النافذة، وانقلبت العجوز تحت البطانيات. عناقيد الخزامى، والنحل الذي يرعى الزهر، هذا كلّه من حياة قديمة أيضاً. يتذكر، بلى، يذكر أشياء. أراد أن يقول شيئاً بصوتٍ مرتفع، أن يسمع صوته... ثم أحسَّ ثقلاً في جفنيه. تضاعف الثقل. باغته نعاسٌ وسقط إلى نومٍ عميقٍ خالٍ من المنامات.

ستّه مرتا أيقظته في الصباح. أدهشه نور الشمس وقد ملأ الكوخ. ماتت العاصفة قبيل الفجر وانسحبت الغيوم وشعَّت السماء بالأزرق النظيف العميق. خرج خلفها ورأى أنها صنعت قهوةً بالهال. هذا لم يكن عادياً! ضحك قلبه.

قالت له:

ـ رأيت المرحوم في منامي. قال إنه اشتاق إلى القهوة من يدي.

زقزقت عصافير في التينة. وظهرت فراشات زرقٌ وصفرٌ وخضرٌ كبيرة ـ كل فراشة بحجم الكف ـ تحوم فوق ماء الجرن ثم تتسلل سابحةً عبر الباب الموارب إلى قلب الكوخ.

بعيداً بعيداً ظهر عمود دخان.

جلسا في بقعة الشمس، يشربان القهوة الساخنة. هو يلتف ببطانية. وهي ببطانية. بلغهما نباح كلاب القرية، يمتزج بصياح الديكة وبتغريد الطيور. رائحة الحقول والشتاء ملأت أنفه الضخم، أزكمته. طنَّ نملٌ طيّار. فرقع الهواء بأشعة الشمس.

قال وهو يرفع وجهه، ناظراً إلى الأعالي:

ـ تذكرتُ أهلي هذه الليلة.

لم ينتبهْ إلى الفنجان يرتجف بين أصابعها. سكت نباح الكلاب. لكن ديكاً من الديكة ظلَّ يصيح أعلى فأعلى، كأنه يريد أن يثقب قشرة السماء الزرقاء.

حدّق إلى الأبيض على القاطع المقابل؛ قال:

ـ تذكرتُ أمي.

عَبَر بنظرة حزينة على أثلام الخضر اليابسة الملطخة بالوحل، وتابع:

ـ هي علمتني كيف أزرع وأسقي وأقطف. كانت تزرع الجنينة أمام البيت وأنا على خصرها.

سكت طويلاً. أخيراً لفظت العجوز كلماتها:

ـ وأين أمك؟

قال التركي:

ـ لا أدري. في بورصة ربما.

سألته:

ـ أين هذه؟

قال:

ـ في بلدي.

قالت وهي تزمّ شفتيها وتشدّ على مخارج الحروف:

ـ اسلامبول؟

هزَّ رأسه. لم يلفظ كلمة. انتشرت بقعة الشمس. بردت ركوة القهوة. سألته:

ـ أُسخنها لك؟

لم يسمعها. ولم تسأله مرة أخرى. توقفت الديكة عن الصياح. تردد خوار ثور بعيد. ثم تلاشى الخوار أيضاً. كأن الثور لفظ أنفاسه! وقُرعت أجراسٌ في كنيسة بعيدة، بعيدة جداً، لعلها في القاطع المقابل. سمعتها العجوز فقالت:

ـ ختيار مات هذه الليلة. البرد يقبض الروح.

رسمت شارة الصليب وحدقت إلى الحرج الجامد. الهواء سكن تماماً. الشمس ترفع بخاراً أزرق من الحقول، والفضاء يتموج كأنه يسيل.

قالت إنها هذه الليلة أيضاً سمعت زئير الأسد.

ظلَّ صامتاً.

قالت إن مرقس الحطَّاب قوَّص الأسد مرة في عينه، لكن الأسد بقي حيّاً.

ظلّ صامتاً.

حين تعبت من القعود نهضت ودخلت إلى الكوخ. بعد قليلٍ عادت. وقفت جنب الأذن السليمة وسألته:

ـ تعرف كيف تذهب إليها؟

سألها من دون أن يُغير قعدته:

ـ إلى ماذا؟ اسلامبول؟

حبست غيظها.

ألا يفهم العبيط، أم يتغابى؟ إسلامبول أم البرصاء أم جهنم الحمراء أم... ماذا يبدل اسم البلد؟

قالت:

ـ أمك! تعرف كيف تذهب إلى أمك؟

قال إنه في حياته كلّها لم يسافرْ!

نظرت إليه بعينين متسعتين؛ سألته:

ـ وكيف جئت إلى هنا؟

أجابها:

ـ كنت مع العسكر. يأمر الباشا: «انتعلْ الجزمة». فأفعل. يأمر: «اركبْ على البغل». فأفعل. يأمر: «افرشْ فراشك هنا». أفرش. لم أكن وحدي. كنتُ مع الإنكشارية.

قالت:

ـ فهمت. فهمت.

انتبه أن صوتها لم يعد يشبه صوتها. قال:

ـ تذكرت أيضاً أن. . .

تلعثم، لم يتلعثم، قطع عبارته قطعاً، كأن يداً غير مرئية امتدت وعقدت لسانه. حدَّق أرضاً.

سألته فارغة الصبر، وهي تزيح البطانية عنها:

ـ ماذا؟ قلْ!

أزاح بطانيته هو أيضاً عن صدره. قال:

ـ تذكرت رجلاً في المعركة، رجلاً يشبهني. كأنه أنا. ضخمٌ مثلي. تكلمنا بلغة بلدي. كنا نحارب عسكر إبراهيم باشا المصري. يشبهني كأنه أخي. مات. ضربوه بالنار في بطنه. أنا وهو. هل يكون أخي؟ ربما كان أخي.

حدث أمرٌ غريبٌ عندئذٍ: بغتة تبخر الغضب من جسمها. فجأة أحسّت ستّنا مرتا أن الغيظ الذي كان يغلي كالدبس في جسمها قد ركد وبرد. لم تعدّ غاضبة. ترقرق الدمع حاراً في عينيها. هدّ ظهرها الحزن.

وسمعته يقول بصوتٍ هامسٍ:

ـ كان أخي. رأيت ذراعه على الأرض. لم يتركْ بارودته. اليد ظلّت جامدة على البارودة.

يدها على رأسه الآن. مرّرت الأصابع القديمة بالعِقد المتورمة الزرقاء في الشعر الجَعِد الأسود الغزير، وحكَّت بأظافرها المتآكلة جلدة رأسه القاسية كالحطب. هرشت جلدة رأسه، وسمعت نحيباً بعيداً. كأن رجلاً جبّاراً يبكي هناك، حيث الجبال بيضاء، في القاطع المقابل.

اقترب شعاع الشمس من وجهها، أكثر فأكثر. أغمضت عينيها. سطع النور الربّاني وأحرق الجفنين.

في ظلمات رأسها رأت نفسها في ليالٍ حزينة بلا نهاية تمسح بطنه بالصابون والماء وتُجفف قطرات حمراً. كان يغيب ويرجع ويده تمتد إلى ضمادة ساقه وهي تُبعد اليد، واليد تصارعها. تفتح فمه وتدلق فيه قطرات عرق وتُصلي لستّنا مريم وتصلي ليسوع وتصلي لسبحانه تعالى وتصلي لنبيّ المسلمين محمد وتُصلي للحسين وتُصلي للحدود الخمسة وتصلي لأبي إبراهيم الدروز وتصلي للعذرا للسيدة أم الربّ، عائدةً إلى البداية. لا تعرف من أين يأتي، فلا تعرف لمن تصلي! تُصلي للكلّ وتمسح بطنه بالماء الفاتر وبالزيت الفاتر:

ـ كيرياليسون! كيرياليسون!

قضت ليالي لا تُحصى، تدهن العلامة القاتمة الغريبة، وترى اللحم يدخل في اللحم، وينمو فوق الخط الذي يختفي ويتغير لونه. عَشِقَ اللحم اللحم، دخل النسيج الحيّ في النسيج الحيّ، ولم يفتح الجرح.

صاح الديك ثلاث مرات. فتحت عينيها. بهرها شعاع الشمس.

أنحنُ في الشتاء؟ كانت تهرش رأسه لا تزال، وكان النحيب البعيد يقترب، يقترب، يقترب، وأحسَّت قشرة الأرض تميد. سقط ثقلٌ على بطنها. تحمَّلت الثقل. سَنَدَ شاهين البارودي رأسه على بطن ستِّه وبكى.

بكى حتّى نشَّفَ الماء في أنفه وفي عينيه.

اختفى الحطّاب بين عاصفة ثلجية وأخرى. في تلك الصباحات المظلمة كان زئير الأسد يُسمع طالعاً من الغابات. التركي العملاق رأى الحطّاب يأخذ بارودته وفأسه، ويعبر صفحة الثلج البيضاء الملساء ثم يدخل عتمة الأحراج. بعد ذلك لم يرجع. بقيت آثاره السود الموحلة على الثلج وقتاً، ثم سقطت الثلوج من جديد فغطّتها تماماً.

ظنّ العملاق أن الأسوأ قد حدث للحطّاب. لكن العجوز الأرملة لم تلبث أن أخبرته:

ـ مرقس ذهب مع شباب بكفيا إلى الجانب الثاني من الجبل.

سألها العملاق لماذا؟

تكلمت العجوز:

ـ الدروز يسطون على القُرى منذ الصيف. يسرقون البيوت ويحرقون الكنائس ويذبحون من يعترض طريقهم. يوسف الشنتيري يجمع الرجال بأمر البطرك. كل الشباب ذهبوا للحرب في الشوف.

العملاق قلّب كلمة «الدروز» في دماغه. كان البرد شديداً، ولفّ البطانية على فروة الذئب الرمادية التي يرتديها قميصاً. بعد كوب زهورات ساخنة عند العصر، وبينما الثلوج تتساقط، دمدم مرة أخرى «الدروز، الدروز»، وحاول أن يتذكر متى رأى هؤلاء، أين،

وهل عاشرهم أم حاربهم؟ لم يقدر أن يتذكر: لكن صوراً ـ كأنها من منام ـ عادت إليه. ووجد نفسه يقول:

ـ أفيون قرة حصار.

سألته الأرملة وهي ترفع نظرها عن الصوف بين يديها:

ـ ماذا؟ ما هذا؟

ـ هذه جبال بعيدة في بلادي. فيها جسور من خشب وحبال، تربط بين القمم. كنت أحيا هناك. رأيت عنها الليلة مناماً. الجبال، البرد، أقسى حتى من هذا البرد، وذلك الجسر العالي.

سألته العجوز عن المنام.

ـ كنتُ سائراً على الجسر، وكان هناك ناس وحمير وأصوات. ثم جاء رجل في عباءة صفراء كعباءات الكرد وصار يلكزني في صدري. قلت له أن يتوقف. لم يتوقف. ابعدْ يدك، قلت له. لم يبعدها. دفعته إلى حافة الجسر، فكاد أن يسقط. أمسكته ثم جذبته حتى وقف على قدميه، وتركته. مشيت لكنه لحق بي وعاد يلكزني في صدري. أمسكت به من ذراعه وكتفه ودفعته عن الجسر. سقط على الصخور تحت، وانكسر رأسه.

قالت العجوز:

ـ مات؟

كرّر العملاق شارداً:

ـ انكسر رأسه مثل الفخار.

في تلك اللحظة قُرِع الباب قرعاً عنيفاً. اهتزت الصخرة المسنودة إليه. لكن الباب ظلّ موصداً. الأرملة سمعت الخبطات والصرخات قبله.

ـ من هذا في آخر النهار؟

العملاق أصاخ السمع بأذنه الواحدة السليمة فتبين صوت الثلج الصامت على السطح وتبيَّن همدرة وحشية بعيدة. . . ثم نحيباً. توقف القرع على الباب. لكن النحيب صار أقوى. وحين نادى الصوت هذه المرة عرف العملاق الصوت: هذا واحد من الرعاة الصغار.

أبعد العجوز من دربه وأزاح الصخرة وفتح الباب. دخل الهواء قوياً، أبيض، مثلجاً. رأى ولداً مطروحاً على الأرض ممزق الثياب. على يديه دم. وعلى قميصه دم. نظر الولد إليه ثم أشار إلى السهل الأبيض. كانت آثاره بائنة، من هناك أتى، من جهة البلوطات المغطاة بالأبيض. النور يتلاشى رويداً رويداً، لكن الآثار ظاهرة كثلم على الصفحة التي يشع النور من أعماقها. سكينة الموت تغطي السهل، والثلج يندف ندفاً بطيئاً صامتاً: إلى ماذا يدلّه الولد، وما هذا الدم الأسود عليه؟

اقتربت العجوز من خلفه ثم ركعت جنب الولد تتلمس جسمه الصغير.

ـ ليس مجروحاً! قالت رافعة رأسها.

ردّ العملاق زافراً بخاراً من أنفه وفمه:

ـ هذا ليس دمه.

كان يحدّق بعيداً إلى البلوطات التي تلجّ عتمة المساء، وبينما يُحدّق رأى حركة في الجهة الأخرى، الجهة القريبة من الغابة. كأنه يرى ناراً تقفز بين أكوام الثلج. ثم أدرك أنه ينظر إلى حيوانٍ بفروة صفراء هائلة. كان هذا الأسد. ورأى أنه يجرّ بين فكيه خروفاً أو معزاة. كان الجسم المسكين ينتفض بين الفكّين الضخمين، وتابع العملاق المشهد في الضوء الخفيف. لكن الولد صرخ مرة أخرى.

والعملاق انتبه عندئذٍ إلى أمرٍ غريبٍ: ثمَّة صراخ يأتي من هناك أيضاً، من جهة الأسد. ومع انتفاضة أخرى عنيفة للجسد الراعش بين الفكّين أدرك العملاق ـ واجفَ القلب ـ أنه لا ينظر إلى خروف أو شاة بل إلى ولدٍ! الأسد يجرّ أحد الرعاة الصغار إلى الغابة.

دخل العملاق إلى الكوخ. التقط سكين البصل. ركض قاطعاً السهل إلى الأسد.

العجوز حاولت منعه:

ـ سيقتلك. البارودة لم تقتله. سيقتلك.

قذفها بعيداً وركض يعرج على ساقه حتى بلغ الحيوان الكبير. رأى وحشاً بعينٍ واحدة يستدير وينظر إليه. الدم يسيل من الأنياب. والولد يتخبط في بركة حمراء تتسع على الثلج. لم تكن فروة الأسد صفراء ذهبية كما بانت من بعيد. هنا، على هذه المسافة القريبة، رآها ضاربة إلى سواد، والجرب يأكلها. رفع الأسد رأسه ونظر إلى العملاق. ثم أرسل زئيراً هزَّ الفضاء. وداس بمخلبٍ ثقيل بطن الولد. الراعي الصغير فتح عينين خضراوين باهرتين. والعملاق اقترب من الأسد الفظيع الرائحة. أمسك فروة الرأس بيدٍ واحدة، ثم ذبحه من الأذن إلى الأذن بالسكين القديمة.

سمع الأوتار تتقطع، واللحم يتمزق. فار الدم يتدفق من الرقبة حارّاً، فظيع البخار، فغمر يده وذراعه وطرطش على وجهه. قطع رقبة الوحش كما يقطع صبيٌ رقبة دجاجة. ثم حمل الولد المخضب بالدم، ورجع إلى الكوخ، يعرج في ضوء المساء، والثلج يتساقط.

دفنوا الولد عند البئر الجافة. العملاق حفر الثلج حتى بلغ قشرة التراب. حفر طويلاً، ذلك أنه ـ من دون أن ينتبه ـ كان ينقب الثلج حيث حفر قبل شهور بئراً أخرى جافة.

استمر تساقط الثلج أياماً. عَرِف أن الولد الأخضر العينين كان يُدعى سلمان. تذكره في الصيف، يلاعب الخِراف، ويضحك مع أقرانه. كم كان عمره؟ ولماذا كان يشعر بالحزن كلما نظر إلى الأخضر العميق في عينيه الواسعتين؟

عَرِف أن الراعي الكبير الذي كشف عن ركبته وأنقذه من الموت كان خال هذا الولد.

دفنوا الولد سلمان بعد أن غسلوه بالثلج.

مضى العملاق إلى السهل الملطخ بالدم الأسود وسلخ فروة الأسد المبقعة بالجرب واقتلع أنيابه. كان يعمل لاهثاً، والبخار يخرج في غيومٍ مع أنفاسه، ويُطوق رأسه بالشعر الأسود الكثيف، يطوقه بالبياض. من بعيد راقبته ستّه مرتا.

قالت له بعد ليلتين:

ـ تريد أن تذهب؟

أجابها:

ـ عليّ أن أجد أهلي. ربما عندي أولاد ينتظرون رجوعي كل يوم. لا أقدر أن أبقى هنا.

نزلت الجوارح على جيفة الأسد المكلّلة بالثلج. في الليل زحفت الذئاب ونهشت ما تبقى. بعدها جاءت الضباع، تتخاطف العظام الضخمة البيضاء، وعيونها الذهب المثلثة تبرق في الظلمة وتتوهج. ظلّ الثلج يتساقط حتى غطى بقع الدم.

قال للعجوز:

ـ حين تذوب الثلوج، أذهب.

وهي توقفت عن التهام التين المعقود، وسكنت.

أخذت الأمطار تنهمر. والثلوج تنزلق عن حافة السطح وترتطم بالأرض في دويٍ مكتوم. رأى في المنام الولد سلمان قاعداً عند جرن الماء يحاولُ التقاط يرقات الضفادع. كانت البلاعيط تزلق من بين الأصابع، وتغطس إلى أعماق الجرن، وتخفي نفسها بين وبر الطحالب. ثم رأى الولد يقبض على سمكة فضيّة ويرفعها إليه.

ـ خذْ، قال له الولد.

ـ لماذا تعطيني سمكتك؟

ـ لأنك أخي. ألست أخي الكبير؟

حدّق إليه الولد سلمان بعينين بلون ورق التوت: برق اللون في العين، فأحس بالذعر. ذعر يمازجه ألم. بدأ الألم في عينيه ثم انتشر في كامل الجبهة. استدار حول الجمجمة، وقبض كزنار نار على عظم رأسه.

فتح عينيه فرأى العجوز قاعدةً في نور الفجر الذي يتسرب عبر شقوق الكوخ.

ـ لماذا تنظرين إليَّ هكذا؟

ـ كنت تهذي في منامك. وتأكل سمكاً.

قال إنه لم يكن يأكل سمكاً. لكن الولد الراعي، اللّه يرحمه، جاء إليه في المنام وأعطاه سمكة.

*

أخرجت ستّه مرتا سبع أساور ذهب من أحد مخابئها. كانت الأساور مطمورة في فخارة في التراب، تحت فرشتها، حيث تضع رأسها ساعة النوم.

قالت له:

ـ خذها واذهب إلى الرعاة. هذه تشتري لك عشرين غنمة. تصير راعي أغنام، في النهار ترعى الأغنام وفي الليل ترعى النجوم. وتعيش عندي. غداً أذهب إلى بكفيا وأبحث لك عن بنت طيبة، أهلها أوادم. تتزوجها وتحيا مثل كل الناس حياة طيبة، هنا، ويصير عندك أولاد.

قال العملاق مفتوح العينين، حائر النبرة:

ـ وأهلي؟ وأولادي؟

قالت العجوز وهي تهزّ الأساور:

ـ لماذا تظن أنك ستجدهم؟ أنت لا تذكر من هم ولا تعرف أين هم. قلْ لنفسك أنك وُلدت في هذه الأرض، وأن أمك لم تلدك في بلاد الترك. لا تذهبْ.

*

في تلك الفترة عاد الحطّاب إلى كوخه، وقد غنم حصانين. قال إن الحرب كرّ وفرّ. لكنها انتهت الآن. ضحك وقال:

ـ على الأقل صار عندي حصانان!

سألته العجوز:

ـ ومن ربح؟

فغمغم كلاماً غامضاً وقال إن الأتراك تدخلوا، وإن الجيوش العثمانية صعدت من بيروت إلى الجبل ونصبت الخيم والمدافع في بيت الدين، والوالي أقام في قصر دير القمر. العثمانيون احتلوا كامل الجبل.

أخبرته العجوز عندئذ عن الأسد، وعن الولد سلمان الذي قتله الأسد.

نظر الحطّاب إلى العملاق التركي، بعد أن سكتت العجوز، وقال:

ـ بالسكين ذبحته؟ كيف استطعت؟

لم يُصدق ما سمع. بدا مصعوقاً.

*

المساء يُقبل، وأسراب السنونو تسبح في السماء. ذابت الثلوج في زوايا الجلول. أتى الحطّاب حاملاً سمكاً من النهر وراء الغابة. قال إن النهر يفور بالماء، ورائحة الربيع تملأ الغابة، والخضرة تغطي ضفة النهر.

التفت العملاق صوب ستّه مرتا وقال:

ـ عليّ أن أذهب.

أسقطت العجوز مقطف السمك على التراب:

ـ الآن؟

قال العملاق إنه سيذهب عند شروق الشمس.

تدخّل الحطّاب:

ـ إلى أين؟ في أي طريق؟

قال العملاق إنه سيهبط إلى الساحل ويركب سفينة من السفن إلى بلده.

قال الحطّاب مبتهجاً:

ـ ننزل معاً إلى بيروت. لا شغل عندي هذه الأيام. ونركب الحصانين قليلاً.

*

تلك الليلة، قبل أن يخلد إلى النوم في هذا الكوخ للمرة الأخيرة، أعطته ستّه مرتا الأساور الذهب.

هو لم يقبل أن يأخذها.

فأصرت عليه:

ـ ماذا أصنع بها أنا؟ لماذا احتاجها؟ ألبسُها في هذه البرية، في هذا العمر؟ خذها! قد تفيدك. وطريقك صعبة طويلة.

رضي أن يأخذ ثلاثاً منها، وليس كلّها.

والأرملة مرتا خاطت جيباً داخلياً لفروة الذئب وأودعت الأساور الثلاث فيه.

*

نور الفجر يشقشق. والأشباح الثلاثة تقف في الباحة التراب أمام الكوخ. على بعد خطوة يهمدر الحصانان في الظلمة التي تتبدد رويداً رويداً.

قال الحطّاب:

ـ أنت إنكشاري خيّال، صحيح؟

قال العملاق:

ـ الآن نتأكد.

ثم قفز على صهوة الحصان. واستقام. العجوز نظرت إليه، عالياً، فوق، وقالت في سرّها إنها تراه لآخر مرة: طرحوه قبل سنة على عتبة بيتها، محطماً، جريحاً، يحتضر، وها هو قد رجع فارساً إنكشارياً.

ظلَّت تنظر إلى الشبحين يبتعدان على الحصانين إلى أن ابتلعهما الظلام.

*

خارج قرية أنطلياس اعترضت دربهما العساكر. أحد الجنود سدّد إليهما فوهة بارودة وسأل من هما، إلى أين يذهبان؟

قال الحطّاب:

ـ اسمي مرقس.

قال العملاق:

ـ اسمي سلمان.

أكمل الحطّاب:

ـ وعندنا أهل في بيروت.

سألهما الجندي هل يحملان خبزاً.

أخرج الحطّاب جراباً، ومن الجراب أخرج رغيفاً مرقوقاً مطوياً بشكل مثلث.

بعد ذلك تركهما العسكري يذهبان.

*

على الطريق من أنطلياس إلى بيروت أحسّ العملاق أنه فعلاً يُدعى سلمان. عبرا غابة صنوبر محترقة، فغاصت حوافر الحصانين في الرماد الرطب والتراب. هنا وهناك ظهرت خضرة فروع جديدة، تبرعم عند أصول الجذوع المتفحمة.

فرّت دجاجة أرض أمام حصان الحطّاب مرقس. اختفت ببياضها الفاتن بين الأشجار السوداء. نعقت غربان في السماء.

قال الحطّاب:

ـ احترقت السنة الماضية، أحرقها المصريون.

هو استمر يتأمل أعمدة الفحم الممتدة في أربع جهات إلى ما لا نهاية، تحت بياض السماء.

والحطّاب قال ضاحكاً:

ـ لا تزعل يا سلمان! انظرْ! هناك الطواحين!

ارتاحا قليلاً على ضفة النهر ثم تابعا الرحلة. الحصان تحت التركي بدا مرتاحاً بعد الماء. لكن حصان الحطَّاب ظلّ يلهث. وقال الحطَّاب إن صدره مخنوق، هذا الحصان بغل، ليس حصاناً!

العملاق ـ يحسّ الآن أن اسمه سلمان ـ شعر بالضيق من ضحكات صاحبه الصاخبة. لم يفهم لماذا يضج هكذا، على الجهة السليمة من رأسه، حيث الأذن التي تسمع. تضايق من مزاج صاحبه لأنه كان حزين القلب. ولم يفهم لماذا هو بالضبط حزين القلب. لماذا أحزنته الغابة؟

*

أطلّت ـ من وراء أشجار توت ـ ثلاث مآذن. قال الحطّاب: «هناك! بيروت!» بينما يقطعان «سهلات البرج» خُيل للتركي الطيب أنه يعرف هذه الأرض، أنه مشى بين هذه الأشجار من قبل، أنه حتى تسلقها! يذكر توتات خضراء تتباعد هكذا، ثم حين يخرج من تحت الأغصان الكثيفة الخضرة بظلاّت الورق، يرى سوراً عالياً يسدّ الرؤية، ويغمر الواحد ببرد الظلال الداكنة. بلى، يذكر هذا المكان! يذكره! كأنه كان هنا، في بيروت، من قبل!

همز التركي حصانه ليخرج من بين الأشجار. هنا وهناك بانت أكواخ قال في نفسه إنها لتربية القزّ. همز حصانه والقلب يخفق في زلعومه: بلى، يذكر هذه الأرض، أذكر هذه الأرض، هذه التوتات، كان يقول، وفي تلك اللحظة خرج من بين الأشجار ورأى البيوت. لم يرَ سوراً! كان ذلك حلماً إذاً! لا يعرف هذه الأرض. لكنه يعرف أرضاً تشبهها.

الحطّاب لحق به وهو ينادي عليه:

ـ من هنا، من هنا، نحو البحر.

شدّ التركي اللجام وتبع صاحبه بلا نفس. عيناه أظلمتا. كيف خدعه قلبه هكذا؟ باتت الدنيا سوداء تمتد أمامه إلى حافة البحر. لحق صاحبه مرقس وأذناه تطنّان. الحطّاب يحكي عن بيروت ـ «هذه المدينة ألا تُذكِّرك بمدينتك؟ إنها ليست كبيرة مثلها، لكن فيها الأسواق المملوءة بالبضائع مثل إسلامبول، وهناك المرفأ والسفن والإنكليز، ألا تُذكِّرك ببلدك أبداً؟» ـ والتركي لم يعد يسمع كلماته. هبّ الهواء بارداً وقذف الكلمات بعيداً. لكن الحطّاب لم يسكتْ ـ «انظرْ الناس ما أكثرهم، انظرْ الحمير والبغال، انظرْ تلك الأثواب العجيبة، انظرْ تلك المئذنة، انظرْ هذا الباب الباقي من السور، كان عليك أن ترى المدينة قبل أن يقصفوا سورها ثم يسرقوا حجارته! انظرْ هؤلاء الأولاد وأقفاص العصافير، انظر الدخان، هل تشمّ الرائحة الطيبة، هذه مطاعم، كل هذه الجهة من المرفأ حوانيت شواء، ألا تشعر بالجوع؟ انظرْ هناك تلك المرأة ما أجمل...» ـ استمر الحطّاب يثرثر، والتركي يرى حركة شفتيه ولا يسمع كلماته. ودّ لو تنشق الأرض وتبتلعه! صدره فارغ، وعيناه غائمتان! وكل هذا الطنين! وهذه الوجوه الغامضة! وهذا البرد المباغت!

حين بلغا الأرصفة علما أن سفينة من سفن المساجيري تتأهب لدخول البحر. قبل غياب الشمس ركب التركي سلمان (هذا كان شاهين!) زورقاً حمله إلى السفينة الراسية وراء الصخور (كان ماضياً إلى إزمير، كي يجد بيته، كي يجد أهله!). الحطّاب مرقس ودَّعه ثم استدار متوجهاً إلى المطعم عند باب المرفأ: يريد أن يأكل كفتة مشوية وخبزاً وحمصاً بطحينة، ويريد أن يشرب عرقاً. الرحلة الطويلة ملأته جوعاً! هذه الليلة ينام في بيروت، ينام هنا، وغداً يوم جديد!

موت عبد الجواد
1840

في آخر حياته رجع عبد الجواد أحمد البارودي إلى بيت زوجته القديمة أم زهرة. سهيلة النابلسي البارودي فرحت لنزول الرجل في دارها ولم تفرح. فرحت لأن رجوعه إلى فراشها دلّها إلى موقعها العزيز في قلبه. ولم تفرح لأن أبا شاهين عاد إليها مريضاً. غار رأسه بين كتفيه واصفّرت نظرته وسقط وجهه. معركة بحرصاف هدَّته هدّاً. معركة بحرصاف وما جرى لجاريته الشركسية.

بعد جنازات متعاقبة ترك عبد الجواد البارودي البيت في آخر «الطريق البيضاء» ـ بيت زوجته سعدية الحصّ وابنتيه الصغيرتين هند وورد ـ وحلّ في بيت أم زهرة. الغرفة على السطح العالي كانت خالية الآن، موصدة الباب والنوافذ، تفوح برائحة كلس تكسر القلب. أنهت معركة بحرصاف الجزء الأول من هذه الرواية وأنهت حياة شاهين البارودي القديمة وحملت أبا شاهين إلى قبره. لم يمت الرجل حين بلغه الخبر. مات بعد شهرٍ أو شهرين.

في هذه الفترة أقام عند أم زهرة، ينظر إلى البنت نرجس، يأكل قليلاً، ويخرج إلى السوق بين حينٍ وآخر. لا يبقى في متجر البازركان طويلاً. ولا في دكان الخضر القريب من «الحدادين» القديم. ولا في حانوت الشواء عند باب المرفأ.

الطاقة تلاشت من بدنه. أين الغضب القديم الذي كان ينفجر

فيه إذا تعارك مع أحد؟ قبل أيام ارتطم بضابطٍ إنكليزي في الفشخة، فشتمه الضابط. لم يردْ الشتيمة. إنه حتى لم ينتبه. وتابع دربه.

وحين يرجع إلى الحارة وقت المساء تراه أم زهرة مقبلاً من بعيد وتدمدم:

ـ لا حول ولا قوة إلاّ باللّه.

وقفت تحت القنطرة الحجر فسدَّت باب البيت بجسمها الكبير. كانت تربط جديلة شعرها الأسود الكثيف، وفي عينيها يلمع بياض عنقها وكتفها واللحم المشدود. رَحَمها الزمن، والولادات الأربع لم تفقدها عزّاً أو تسرق من جمالها. بل العكس: كلَّما مضى عليها وقتٌ في هذا البيت الأبيض تغطت كليتاها شحماً وبرق نورٌ من محياها.

رأت عبد الجواد آتياً على الطريق البيضاء التي شقَّها بفأسٍ ومعولٍ قبل زمنٍ بعيدٍ، وحيداً، بذراعٍ واحدة، فعجبت للأيام التي قصفت ظهره، وحزنت. حزنت فذبلتْ رموشها الطويلة وبدت باهرة الجمال مثل بناتها. همست:

ـ ارحمنا يا أرحم الراحمين.

اقترب الرجل بالجبّة الثقيلة القاتمة تحت سماء الخريف الزرقاء الفسيحة، وخيَّل لأم زهرة أنه ينظر بطرف عينه إلى البيت العتيق الساكن حيث عاش مع زوجته الأولى أم شاهين في ماضٍ سحيق. بيت المرحومة صامت الآن لأن عبد الرحيم وعمر لا يرجعان إلى هنا قبل إقفال الأسواق بحلول الظلام. عبد الجواد اخترق الظلال المتكاثرة تحت الجميزة، كاد أن يغيب ويختفي في الظلمات الكثيفة تحت الأغصان، لكنه بان من جديد. الجو تلون ببرتقالي الغروب والضوء انعكس سائلاً مائياً على كلس الطريق. أم زهرة رأت زوجها

تاج رأسها يسحب ساقيه سحباً، بظهرٍ ينحني، وجذع ييبس، كأنه يوشك على السقوط. حين بلغ شجرة التوت ـ الخضراء المزدهرة بموسمٍ ثانٍ من الورق الغضّ الطري ـ رأت حبّات عرق تنضح من وجهه وتتلألأ. ساعدته على خلع الجبّة الصوف. عبقت رائحة المرض. برؤوس أصابعها، لامست عنقاً تنشف وجلداً يتشقق وبشرة يتبدل لونها إلى سواد. قبَّلت كتفه: كانت كتفاً جافة كالحطب، كأن الدم غاض منها!

انطرح على الفراش تحت النافذة. أم زهرة سمعت قرقعة عظام عندئذٍ. بات يرتمي على الطراحات أو الدكّة الخشب كأنه قَدِم ماشياً لا من البازركان أو سوق القطن المجاورة بل من الشام البعيدة موطنه الأول ومسقط رأسه الذي لم يرجع إليه أبداً منذ نزل في بيروت ذات شتاءٍ عاصفٍ قديم.

*

عبد الجواد أحمد البارودي تهدَّم بعد معركة بحرصاف. جسمه العصبي المتين الصلب مثل بنيانٍ قُدَّ من بازلت أزرق كان يُظهر صدوعاً منذ فترة. أم زهرة ما زالت تذكر مرض المرحومة زوجته الأولى أم أولاده الذكور الثلاثة صفية الفاخوري البارودي. حين فارقت أم شاهين الحياة بانت على الرجل الجبّار عوارض القرحة. قهوة الفجر التي تُبعد غيوم النوم عن الدماغ باتت تقذف ناراً في جوفه. رغيف رُب البندورة الصباحي الذي يحبّه مع عرق بقدونس وورقة نعناع وقطرة زيت انقلب فاتحة آلام لا تتراجع قبل صلاة العشاء. الجرح الخفيّ في معدته يلتهب ويشعل بطنه بدبابيس حامية الرؤوس كلما شرب سلطانية لبن أو طلب فولاً مدمساً بالليمون «بوصفير» والحامض من قهوة النوفرة. امتنع عن تناول التبولة التي

تعملها زوجته الرابعة سعدية الحصّ ناعمة الفرم غزيرة البرغل لذيذة مع ورق العنب الطريّ. كفَّ عن انتظار «الشيش برك»، إحد طبخاته المفضلة، وكفَّ عن أكل المحاشي التركية المطبوخة بعصير البندورة، أو باللبن.

كلفدان الشركسية التي اقتناها بعد رحيل أم شاهين داوته بأعشابٍ وبزور ولصقات ومراهم، وعلَّمته أن ينجو من آلام معدته الفظيعة. في الأيام الأخيرة من حياتها افتقدها: لم يعد ينام عندها، في الغرفة البيضاء فوق بيت أم زهرة. انتقل إلى بيت زوجته الرابعة سعدية، الذي كان من قبل بيت زوجته الثالثة هيلانة جروة الحلبية.

أم زهرة تتذكر وجهه في تلك الفترة. صفرة الرمل والعسل لم تكن مازجت سواد عينيه بعد. كانت تُكلمه عن أحفاده، عن أيوب وسلمان ابني سوسن، أو عن إبراهيم ابن ياسمينة الذي ورِث عينيه الواسعتين، فيضحك وجهه، ويصغي إليها. يكون آتياً للتو من البيت في آخر «الطريق البيضاء» وهو يمسح آثار الفطور عن فمه بكمِّه الواسع. يقف لحظة هنا، تحت شجرة التوت المزدحمة بالعصافير، ويأخذ من يدها فنجان قهوة. يسألها عن نرجس فتجيبه أنها نؤوم الضحى، لا تزيح البطانية عن جسمها قبل أن يؤذن الشيخ الظهر. يُسَّرُ بكلماتها التي تلفظها باسمةً، ويأنس بقهوتها ومجلسها ورائحة الهال الفوّاحة. يرفع رأسه نحو الغرفة العالية، فترتبك نظرته ارتباكاً طفيفاً، ويسأل عنها:

ـ والست؟

تعبت الجارية في حملها الذي طال حتى أفزع الداية قدرية الجمل. عبد الجواد اعتاد الوقوف قليلاً مع أم زهرة كل صباح، هنا، تحت التوتة، متحيراً هل يتسلق الدرج إلى المرأة ويلقي عليها

تحية الصباح... ثم لا يفعل. يسأل عنها سهيلة، وسهيلة تبسط كفيها كأنها تتلو الصمدية، ثم تقلب يديها في الهواء وتقول:

ـ اللَّه المعين. إن شاء اللَّه خير، يوم وتُفرج.

وكان يرفع رأسه وينظر من فوق منديلها إلى الغرفة العالية، إلى الدرف المشرعة، إلى ثوبٍ أبيض منشورٍ من غصن السنديانة، وإلى فراشات تحوم فوق أحواض الزرع التي تُسور السطح، فتسبح لاهية صفراء في الفضاء، ثم تغيب في عتمة الباب الموارب... يرى كل ذلك ولا يرى كلفدان المتوارية ويحسب أنها تتمدد في فراشها، ببطنها الكبيرة الثقيلة، تسمع حديثه.

يرفع صوته مرة أخرى. لتعرف الجارية أنه يسأل عنها. ثم يصغي إلى أم زهرة تسأله عن الأخبار أو تذكر له شيئاً سمعته في دار آل الصايغ. يهزّ رأسه ويكرر كلمة واحدة:

ـ طيب! طيب!

ثم يعطيها الفنجان الفارغ، الصغير الضئيل في يده الكبيرة، ويمضي. كانت تراه مبتعداً، منتصب القامة، ينظر إلى الطيور في السماء، وتفكر أنه يتلو في سرِّه كل السور القصيرة التي يحفظها. يظهر عبد الرحيم وعمر، خارجين من بيت المرحومة، وينضمان إليه. تراهم، ترى الظهور والرؤوس الثلاث، حتى يبلغوا الزقاق بين العقدين... ثم يختفون عن نظرها، يغيبون في سوق الفشخة. تدور على نفسها وتدخل تحت القنطرة الحجر وكفّه الكبيرة ما زالت معلقة في الفراغ أمام عينيها... حين أعطاها الفنجان رأت تلك الندبات الأليفة: قبل سنوات بعيدة كانت تلمس هذه الندبات في الفراش الذي يضمهما وتُقبِّل رسغه. ندبات من الشغل بالأرض، وندبات من حزم لفّات القماش بالحبال النحيلة، وندبات من رفع الحيطان ومدّ

السقوف. كل تلك الآثار على اليد الضخمة! تتذكر كفّه وهي تنحني على نرجس النائمة. ثم تتذكر فزعاً في عينيه حين تسأله عن الأخبار: كان ينتظر رجوع ابنه شاهين. عبد المجيد الفاخوري جاء إلى البلد وقال إن شاهين عائد مع ابن خاله محمد، هي معركة واحدة بعد، ثم يرجعان إلى بيروت.

شاهين البارودي لم يرجع إلى أهله. عبد الجواد أحمد البارودي انتظر رجوع بِكره واقفاً على أرصفة الميناء ينظر إلى سفن إنكليزية وعثمانية تُقبل من الشمال، من جونيه، محملة بالجرحى وبجنود عائدين من معركة بحرصاف. الأهالي ازدحموا على الأرصفة نهاراً وليلاً. حتى في الليل كانت السفن تأتي. الأرصفة أنارتها القناديل والمشاعل ونيران صغيرة تباعدت هنا وهناك، أمام ميناء البطيخ، وعند ميناء القمح، يتحلق حولها البعض، يشرب القهوة أو يتحدث مع البحارة والضباط.

كان مساء رائقاً مفعماً برائحة البحر. ثلاثة أيام مضت على المعركة، وكل عصر تصل سفينة من الشمال. في ذلك المساء الثالث الحزين قضت جارية عبد الجواد نحبها بينما تلد له ـ أخيراً ـ توأمين ذكرين.

أم زهرة التي كانت حاضرة لن تنسى أبداً ذلك المساء المظلم. أبو شاهين لم يكن في الحارة. كان على الأرصفة، في الميناء، واقفاً مع ولديه عبد الرحيم وعمر، ينتظر وصول سفينة الجرحى الأخيرة.

هبّت نسماتٌ باردة في ساعات الليل الأولى وحملت صرخات الجارية الشركسية إلى سوق الفشخة، وإلى «العطّارين»، وإلى باب يعقوب البعيد. بكاء كلفدان مزق قلب أم زهرة. الداية انهمكت في

تجفيف الدم النازف بالفوط. النساء في الباب تمتمن صلوات وأدعية. نور السراج ارتجف، ورائحة الفتيل المحترق فاحت. طرطقت درف النافذة. النسيم تحرك في أغصان السنديانة القريبة. صرخت المرأة التي تلد. صرخت ورأت لوناً أحمر يغطي شاشة العينين ولم تفهم لماذا يحدث هذا. ولَّدت صبياناً كثراً وبنات كثيرات في حياتها، لكنها لم تتألم أبداً مثل هذا الألم. ذات مرة وضعت طفلها على الطريق، بين صيدا وبيروت، في رمل الأوزاعي، من دون أن تصرخ صرخة واحدة، ومن دون أن توقظ القافلة النائمة. بحجرٍ قطعت حبل اللحم. وبأصابعها عقدته. فما هذا الألم الفظيع الذي يعصف بها الآن؟ ماذا تلد؟ أليس طفلاً آخر مثل الأطفال جميعاً؟

كان الضباب الأحمر الساخن يُغلف دماغها ويمنع الهواء عن فتحات وجهها وسمعت الداية تقول شيئاً عن رأسين. كانت تلد توأمين إذاً! استجمعت شجاعتها ودفعت بكل ما فيها من قوة، دفعت الأخطبوط المخيف في أحشائها، دفعته إلى الخارج. إذا لم تخرجه من رحمها قتلها. الآن تدرك هذا. عليها إخراجه.

الداية استطاعت أخيراً أن تسحب الطفل الأول. سحبته من رأسه، ورأت الذراعين ثم الساقين تخرجان. التفتت تطلب المزيد من الفوط الجافة. وحين عادت بنظرتها إلى الطفل الذكر من جديد رأت أن ذراعه اليمنى تتعلق بيد الطفل الآخر الباقي ـ حتى اللحظة ـ في ظلمة الرحم. اكتشفت الداية عندئذ أن أحدهما يتأبط ذراع الآخر. لم يُضحكها ذلك. كانا بحجم عجلين. ما فهمت كيف صارا بهذا الحجم في الداخل. ودبّ اليأس في قلبها. هذه ولادة لن تنتهي على خير.

امتنع الطفل الثاني عن الخروج حتى نزفت الجارية المسكينة

دمها. نزفت دمها حتى آخر قطرة.

بينما تلفظ الروح نجحت الداية في فكّ الذراعين المتلاحمين وفي انتزاع الطفل من أصابع أخيه الباقي في الظلمات. انتزعت الطفل ورفعته فوق رأسها لتلتقطه أم زهرة. ثم انصرفت إلى الثاني. رأت أن المسكينة تموت. كان الدم يبلل الفراش الآن ورائحته الحارة الزنخة تملأ فضاء الغرفة الحجر. نادت على الوجوه الغائمة لكي يُشرعوا النوافذ ويشرعوا الباب. ثم مدّت ذراعاً راجفة إلى الأعماق. ارتجفت ذراعها لأنها أيقنت بالفشل. اللعين لا يريد الخروج. حين سحبته أخيراً رأت أنه ميت. كان ساخناً بين يديها، ساخناً كأنه شُوي على الجمر، لكنه كان ميتاً. ما زال لون الحياة في جسمه. لكنه ميت. مات قبل لحظات.

الطفل الذي خرج قبله عاش نحو خمس ساعات. كان يتنفس بصعوبة. ولم يفتح عينيه. لم يرَ هذا العالم أبداً. عاش خمس ساعات في الظلام، راجفاً من البرد، رغم الأغطية. ثم لفظ أنفاسه. كانت مذبحة. الدم الأسود يغطي الفراش والحصر، والرائحة الفظيعة تملأ بالبخار الغرفة الحجر البيضاء العالية. عبد الجواد أحمد البارودي لم يكن هنا. كان في الميناء ينتظر المراكب التي تحمل الجرحى من البارجة الأخيرة الراسية وراء الصخور. السفن تعجز عن دخول المرفأ بسبب هذه الصخور في مدخله. ثم ان البارجة «ليفربول» أضخم من أي سفينة ظهرت في هذه البحار.

المشاعل المضاءة على الأرصفة أنارت المراكب الآتية من الظلام البارد. كانت النجوم قليلة في السماء. والقمر غائب وراء الغيوم. عبد الجواد أحمد البارودي توقف قلبه عن الخفقان حين رأى وجه محمد الفاخوري خارجاً من ظلام البحر بين رفاقه الجرحى. كان قاعداً في أرض المركب، جنب البحّار الذي يجذف،

لكنه رفع وجهه حين رأى المشاعل على الأرصفة ورأى الناس. محمد الفاخوري كان عائداً إلى البلد بذراعٍ مقطوعة!

هجموا عليه. أهله وأهل ابن عمته شاهين البارودي هجموا عليه. كانوا يعانقونه والدموع تفرّ من العيون. لكنه بقي ثابت الجنان. لم تدمع عينه. لم ترتجف عضلة في وجهه. بقي جامداً كرجل. ثم سأله زوج المرحومة عمته صفية، سأله عبد الجواد أحمد البارودي أين شاهين؟

محمد الفاخوري نظر إلى زوج عمته وبقي ساكتاً. لم يعرف ماذا يقول. نظر إلى الأرض فرأى الخزّ يغطي الحجارة ورأى نور المشاعل يتراقص على بقع الماء. هدر البحر في أذنيه. ثم أحسّ كأن الأصوات تتراجع. كأنه يسبح وحيداً في الظلام. كان وحده تماماً. نسي أهله الذين اجتمعوا حوله ينظرون إلى المرفق المشوه الملفوف بالقماش. نسي الرجل الواقف قبالته ـ بذراع واحدة مثله ـ يسأل عن ابنٍ لن يرجع أبداً. نسي كل هؤلاء الذين يركضون بالمشاعل، الذين يصرخون في الليل، والذين يرفعون أقاربهم وأصحابهم من المراكب إلى البرّ. نسي كل ذلك وغرز نظرته في الأرض وحدّق إلى أعشاب بحرية تتهادى في بقعة الماء الضحل. حدّق إلى الأعشاب المتشابكة وفكر أنه لن يرفع وجهه. سيبقى هكذا وينتظر. ينتظر ذهابهم. ينتظر ذهاب هذا الرجل بالذراع الواحدة الذي يسأله عن ابن عمته، عن شاهين.

*

لم يرجع شاهين. رجعت السفينة الأخيرة ولم يرجع. كانت السفن تنقل الجرحى من ساحل المتن إلى بيوتهم على طول الشاطئ أو إلى المدن الأقرب من قراهم في الجبال.

كل الساحل السوري كان يستقبل جرحى من معركة بحرصاف. السفن مضت شمالاً إلى طرابلس، مضت إلى اللاذقية. قسمٌ آخر أبحر في هذا الاتجاه، أبحر إلى بيروت، أبحر إلى صيدا، أبحر إلى صور. الثكنات المهجورة تحولت إلى مستشفيات. والجيوش صادرت المواشي والطيور الداجنة ومخازن الحبوب. العساكر المصرية الهاربة جنوباً أحرقت القرى على الطريق. القوات العثمانية ـ الإنكليزية التي تطاردها دخلت قرى يتصاعد منها الدخان. كان البط يقوقي دائراً حول بركٍ يغطيها الرماد. هنا وهناك ركضت دجاجة مذعورة. في الأعالي دارت الجوارح باحثة عن الجيف. السماء الزرقاء امتدت لا نهائية، لا مبالية، تخترقها من حين إلى آخر غمامة ـ بلون الفحم ـ بذيلٍ لولبي طويل يتصل بالأرض.

الأهالي انتظروا رجوع الأبناء الغائبين. شاهين البارودي لم يرجع إلى أهله. محمد الفاخوري عاد مساء ثلاثاء سامّ الهواء وأخبر أن شاهين البارودي قُتل في معركة بحرصاف: جثته هناك، بين الجثث، مغطاة بالكلس، تنتظر الدفن الجماعي، إلاّ إذا ذهب أحدهم من بيروت وجاء بها. القائد العثماني قدري باشا أمهل الأهالي حتى الخميس. صباح الجمعة يُهال التراب على جثث القتلى في حفرة كبيرة في سهل بحرصاف. يُصلى عليهم، ثم يُهال التراب، وتُغطى البقعة كلّها بمزيدٍ من الكلس.

دفنوا كلفدان والطفلين في مقبرة الخارجة، بين مقبرة المصلى ومقبرة الغرباء، تحت الأسوار. عبد الجواد أحمد البارودي وقف بين المقابر، وتذكر يوم دفن زوجته الأولى أم شاهين، وتذكر يوم دفن زوجته الثالثة هيلانة الحلبية التي كانت نصرانية ثم صارت مسلمة. هبَّ الهواء ورأى القبور تتضاعف أمام عينيه. رأى القبور، ووراء القبور رأى الخيم الكثيرة التي نصبتها عساكر الإنكليز في

«السهلات». رأى غلالة تظهر فوق الشجيرات القصيرة وفوق أعشابٍ ذات زهور ذابلة. تمدّدت الغلالة فوق الشواهد. ورأى الريح تعبث بشجرة سرو شاهقة العلو. كانت السروة تميل ثم ترتفع من جديد كأن يداً جبارة خفيّة تلويها ممسكة بها من رأسها المستدق. رأى بيتاً أبيض بلون حمامة يلمع وراء السروة القاتمة. ورأى غيمة بلون البيت تسبح عند قمة السروة. ثم عادت الريح لاسعةً ـ كما في الأمس ـ عادت ذات فحيح، مملوءة سمّاً، ومزَّقت السحابة البيضاء مزقاً. ارتفعت الشمس أعلى فأعلى. هنا وهناك مشى رجالٌ حزانى. رأى نساء في ملابس الحِداد وسمع صلوات ثم هتافاً بعيداً. كانت الشمس تعلو. لكن شعاعها بدا ضعيفاً ميتاً بارداً. كل جسمه ارتعش في البرد. وسأل نفسه هل يتمكن من بلوغ بحرصاف؟ كانت الأحصنة تنتظر خارج باب السراي. ورأى عبد الرحيم ـ ابنه ـ واقفاً هناك مع الرجال، يطرحون شعيراً أمام الجياد.

ارتفعت الشمس ثلاثة رماح في الفضاء. صارت فوق غابات الصيفي المحروقة. عبد الجواد أحمد البارودي بلغ باب السراي مبلّلاً بالعرق البارد. طوال الليل وهذا العرق الغريب يتسرب من مسام جسده. لا يفهم هذا العرق. كل هذا البرد في مفاصله، ويتعرق! وجد عبد الرحيم يسرج الحصان. تأهبت القافلة للرحيل. عبد الرحيم أمسك بلجام الحصان. عبد الجواد أحمد البارودي قفز قفزة واحدة فصار على السرج. صهل الحصان ثم سكت. عبد الجواد أحمد البارودي قال لابنه بينما يهمز الحصان بكعب قدمه:

ـ انتبهْ للعائلة! أنت الكبير الآن!

انطلقوا في صفٍ غير منتظم. كانوا 13 رجلاً. ارتفع الأذان داخل الأسوار. ظهر قطيع أغنام على الطريق التراب إلى جهة

الكراوية ورأس النبع. عبد الرحيم البارودي بقي جامداً والمخلاة تتدلى من يده. رأى الجياد تبتعد وظلّ يميّز أباه في جبّة الصوف الخضراء إلى أن اختفى بين أشجار التوت المتشابكة. في تلك اللحظة الأخيرة، بينما شبح عبد الجواد أحمد البارودي يمتزج بالورق الخريفي الجديد ويضيع عن الأنظار، حدث ذلك الشيء: سقط الرجل عن حصانه.

عبد الرحيم رمى المخلاة أرضاً وركض. حين بلغ الرجال وجدهم يجتمعون حول أبيه ويمسحون العرق عن وجهه. كان شعره مبلّلاً بالعرق، والعمامة على التراب. سقوه ماء وانتظروه حتى يتكلم.

صاحب الذراع الواحدة نهض وقال:

ـ ساعدني يا عبد الرحيم.

أراد أن يساعده ابنه على الركوب. عبد الرحيم بقي جامداً كالفزّاعة في مكانه.

عبد الجواد أحمد البارودي استجمع بقايا قوة كانت هائلة قبل سنين، وقال:

ـ ساعدني يا ابني، عليّ أن أجلب أخاك. أمسكْ بالحصان.

عبد الرحيم نظر في عينيّ أبيه، وقال:

ـ أنا أذهب يا أبي.

ثم قفز على صهوة الحصان.

عبد الرحيم استقام على الحصان في سرواله الكحلي الفضفاض الذي يرتديه إلى حانوت الشواء كل يوم. قميصه الأسود خفق في الريح. أبوه عبد الجواد خلع الجبّة الخضراء وناوله إياها. أخرج كيس ليرات ذهب من حزامه الصوف العريض وأعطاه إياه. ثم دعا له

بالتوفيق. كان الصوت يخرج هامساً من بين شفتيه. كأنه يحتضر. ثم غلب على الجو ثغاء خرافٍ عابرة. ونبح كلبٌ يحمي القطيع.

*

ارتفعت الشمس إلى كبد السماء. حين بلغوا نهر بيروت شاهدوا الدخان يتصاعد من الطواحين. العجلات الخشب كانت محطمة. عبد الرحيم البارودي شاهد ثعلباً بلون البندورة يطفو ميتاً على صفحة النهر. في الجانب الآخر ظهر رجلان مع خمسة بغال محملة بأكياس الملح. قطعوا النهر في الموضع الضحل منه. كانت رائحته بشعة على غير عادة. وقال أحد الرجال إن النهر أيضاً أنتنت مياهه.

مالت الشمس في قوسها الأبدي. انخفضت حرارة الفضاء وتراكضت الغيوم الرمادية القاتمة في السماء. حين عبروا غابة صنوبر محترقة خارج قرية انطلياس غطى رمادٌ أبيض سميكٌ ملابسهم. غطى الطرابيش والعمامات، غطى القمصان والسراويل، غطى شعور الجياد، وغطى الأيادي. كان الرماد يهمي من القمم. والهواء يهز الأغصان ويُسقط أكوازاً قاسية. صدى الخبطات على الأرض تردّد بين الجذوع المتفحمة. كان الجو حاراً هنا. وحين لمس عبد الرحيم قشور الشجرة السوداء لسعته النار، كأنها كامنة في جوف الجذع الأليف. بعد لسعة النار على أصابعه وجد أشجار الصنوبر مختلفة. رفع رأسه ورأى عبر الأغصان الرمادية قطعة من السماء الرمادية. خيِّل إليه أن الأغصان تخترق الغيوم. وفكّر أن النار بدأت هناك، في الأعالي، ثم انحدرت إلى أرض الغابة، وليس العكس. في تلك اللحظة، غارقاً في هذه الخاطرة الغامضة، رجعت إليه ذكرى بعيدة.

تذكر صيفاً مضىٰ قبل سنين طويلة. كان قاعداً جنب البركة وراء البيت يراقب الضفادع الخضراء عند الحافة. أخوه شاهين كان يقطف

خزامى لأمه صفية من الجبّ الكبير في الجانب الآخر. النحل كان يطنّ في جبّ الخزامى. بدا الجبّ له شبيهاً بطائر الطاووس في حديقة السراي. عناقيد الخزامى البنفسجية ارتفعت غزيرة في الفضاء، فيما النحلات تتطاير بين الزهر والأعواد. حين غطّت الغيوم السماء سكن طنين النحل فجأة. أخوه شاهين أخبره عندئذٍ أن النحل لا يرعى إلاّ في ضوء الشمس. إذا غامت السماء رجع النحل إلى قفيره. هكذا هو النحل.

عبد الرحيم رجعت إليه تلك الذكرى بغتة بينما يعبر الغابة المحروقة خارج قرية أنطلياس. سأل نفسه عندئذٍ كيف عبر الوقت، كيف يعبر الوقت، كيف صار شاهين رجلاً، كيف ترك البلد، كيف جال أراضي السلطنة، وكيف كُتِب له أن يلقى وجه ربّه في مذبحة القنابل في سهل بحرصاف! عبد الرحيم انتابه إحساسٌ غريبٌ بينما يخرج من الغابة السوداء الساخنة: أحسّ أنه لا يصغر أخوه شاهين بثلاثة أعوام! أحسّ أنه لا يصغره أبداً! أحسّ عبد الرحيم عندئذٍ أنه أكبر من المرحوم شاهين.

استقبلتهم الكلاب في مدخل القرية. ثم ظهر ديكٌ عند حافة جلّ. صاح فاهتز عرفه الأحمر. من بابٍ أسود موارِبٍ خرج عجوزٌ أبيض اللحية. أخبرهم أن الطريق خطرة. هناك لصوص يسطون على القوافل ما إن تغيب الشمس. قرروا قضاء الليل في زريبة مجاورة. كانت الغابة السوداء تكتسب لوناً برتقالياً. عصفت ريحٌ مفاجئة بالعالم فتطاير الرماد وغطى العشب على سطوح البيوت. تلاشى نور النهار. للمرة الأولى في حياته ينام عبد الرحيم بن عبد الجواد أحمد البارودي خارج أسوار بيروت. عند الفجر ركبوا الخيول وانطلقوا في الدرب الصاعدة بين التلال.

كانت السماء صافية تماماً. بلا غيمة واحدة. بانت نجمة

الصباح واهنة النور وسط الزرقة اللامعة. وبان الهلال منطفئاً. بعد وقتٍ اختفت النجمة واختفى الهلال. لكن السماء بقيت لامعة. التراب كان مبللاً بمطرٍ خفيف. والجو ناصع مغسول يبرق برقاً. عبد الرحيم تذكر أباه قاعداً في متجره في البازركان يقلب حجراً كريماً بين أصابعه. لمع النور على صفحات الحجر المصقولة. لمع كما يلمع الضوء في هذا النهار.

عند الظهيرة استوت الدرب. عبروا سهلاً قاحلاً ضيقاً فبلغوا هضبة تغطيها أحراج السنديان. قافلة البغال التي أكتروها في أنطلياس كانت تتقدم بليدة وراءهم. الدليل أسرع على بغلته إلى أن بلغ الجياد. أشار إلى دربٍ تكاد لا تظهر بين شجر البلوط وقال:

ـ وصلنا. وراء هذا التلّ وادي بحرصاف.

عبد الرحيم البارودي استغرب وصولهم بهذه السرعة. كان يعتقد أن المكان أبعد. سُرَّ لأنهم بلغوا الهدف سريعاً، وأخرج القربة الجلد، وشرب بعض الماء. الشيخ بشير العود، القريب منه، سأله هل يشمّ الرائحة؟ عبد الرحيم انتبه عندئذٍ أن الجو تبدل. وكلّما تقدموا في الدرب الصاعدة بين الأشواك واليباس صارت الرائحة أوضح، رائحة «الفطيس»، الجيف المتحلّلة في الشمس.

عبد الرحيم كبس أنفه بين أصبعين وحاول أن يقنن الهواء الداخل إلى فمه. كانت رائحة تقتل جملاً. لكنه عزى نفسه أن الرحلة بلغت نهايتها. ما هي إلاّ لحظات ثم يبلغون قمة الهضبة. بعد ذلك ينحدرون إلى السهل. كل واحد يأخذ جثة قريبه. يحملونها على البغال ويرجعون. في طريق العودة يحفظون مسافة ثابتة بينهم وبين البغال. هكذا لا تزعجهم الرائحة.

عبد الرحيم حدَّث نفسه أنه سيعثر على جثة شاهين بيسرٍ. ابن

خاله محمد أخبره أن شاهين سقط جنب سنديانة ضخمة عند حافة المرج. لن يرى غيرها سنديانة بهذه الضخامة. وقريباً من السنديانة سيجد جثة شاهين. سيعرف الجثة لأنه يعرف أخاه.. ومحمد أخبره أن بطنه مبقورة.

*

حين بلغوا القمة ظهر السهل. كانت الشمس تلقي أشعتها عمودية عندئذٍ. ورأوا منظراً لا يُنسى: رأوا تلالاً بيضاً عجيبة، صغيرة، تغطي السهل، ورأوا عدداً لا يحصى من الطيور السوداء يتقافز فوق التلال البيضاء. أين الجثث؟ عبد الرحيم كان يتوقع رؤية مرج تغطيه الجيف! لم يرَ جثة واحدة. فقط تلال بيضاء غريبة الشكل، وغربان ونسور وعقبان تتطاير في فضاء الظهيرة الباهرة. النور الأصفر المتساقط عمودياً من الأعالي الصافية انعكس على اللون الأبيض في الأسفل وارتفع صاعقاً مثل شلالات وانغرز كالإبر الحامية في العيون. المرج في الأسفل تحول مرآة مصقولة. شع النور من القعر، التمع على ريش الطيور الأسود، واخترق الهواء والرائحة الفظيعة. أدركوا في تلك اللحظة أن العساكر غمرت كل السهل بالكلس لمنع انتشار الأوبئة.

عبد الرحيم البارودي مشى وأنفه مسدود بالطيّون يفتش بين الأجسام المتكلسة عن أخيه شاهين. لم يجد سنديانة. لكنه وجد قرمة ثخينة. العساكر احتطبوا السنديانة لليالي الباردة. على مسافة من القرمة عثر على جثة عملاق، محطم الجمجمة، مشوه العنق والصدر. كان بحجم أخيه شاهين. لكنه ما كان مبقور البطن كما قال محمد. النخاع الذي سال من قبة الجمجمة المكسورة كان متجمداً ومعفراً بالتراب والكلس. الكلس منع تكاثر الديدان. لكن مناقير

الجوارح نقبت الجمجمة وانتزعت العينين من المحجرين والتهمت لحم الوجه كلّه.

هل يكون هذا شاهين؟ لكن محمد قال إنه أصيب في بطنه. نظر عبد الرحيم إلى التلال البيضاء التي لا تُحصى ولاحظ مرة أخرى أنها أصغر من التلة التي يصنعها هذا العملاق. نظر إلى القرمة القريبة ورأى أنها تتماوج. كأنها تغيب وراء صفحة من الأمطار. كأنها تُغمر بالمياه. فكّر أنها الأبخرة المتصاعدة من هذا الجحيم، من هذا السهل المغطى بالموت. ثم انتبه إلى طعم الملح في فمه. كانت الدموع تطفر من عينيه. ما كان يبكي. لم يصدر عنه صوت. لكنه عجز عن السيطرة على هذا التدفق المباغت للدموع. فرّت الدموع من عينيه غزيرة حارة. غطّت وجهه وسالت على جبّة أبيه الخضراء. مثل عبد الجواد أحمد البارودي، أحسّ عبد الرحيم في تلك اللحظات بجليدٍ يسري في عظامه. تجمد النخاع في دماغه وحين حاول أن يرفع يده ليمسح المخاط الذي سال من أنفه عجز عن الحركة. وقف كتمثال ملحٍ بين تلال الكلس البيضاء ورأى الغربان تحوم زاعقة.

تحميل الجثث على البغال كان مستحيلاً. لكل جثة تعرفوا على صاحبها حفروا حفرة في جنب المرج. عبد الرحيم البارودي مضى إلى حصانه وجلب الفأس والرفش. كسر الأرض وحفر قبراً وراء القرمة، حيث تنحدر الأرض قليلاً ويظهر عشبٌ أخضر طري وزهور بنفسج وطأتها الأقدام وحطمت أعناقها.

حفر قبراً هنا، وبمساعدة الشيخ بشير العود جرّ العملاق المحطم الجمجمة. أسقطاه في الجورة قبل غياب الشمس.

عبد الرحيم البارودي تمتم الفاتحة تمتمةً وهو يحسب أنه يدفن أخاه شاهين. ودّ لو يتأكد تماماً. فكّر للحظة أن يفتش ثيابه التي ما

عاد يُعرف قماشها ولا عاد يعرف لونها. فكّر أن يفتش ملابسه لعله يعثر على ذلك الغليون الذي أنقذه عمر من سفينة غارقة. لعله يعثر على أي أثرٍ يدله إلى هوية القتيل. لكن الأمر كان مستحيلاً. لأن الجثث كلها نُهبت. هنا وهناك رأى أيدي قطعت أصابعها وأُخذت مع الخواتم والمحابس. كل الجثث كانت حافية. ولا بارودة واحدة بقيت على الأرض، ولا سيف واحد، ولا خنجر. كل الجثث نهبت. والملابس التي بقيت على أصحابها مزقتها المناقير ومزّقتها أنياب الذئاب والضباع والثعالب. الحراس كانوا يطلقون البواريد لإفزاع الحيوانات الكاسرة. وفي الليل يشعلون النار عند حافة السهل. لكن الثعالب الجائعة تسللت إلى المرج زاحفة على بطونها، غير مرئية، كأنها تخرج من أوكار في أحشاء الأرض.

*

انطلقوا عائدين إلى بيروت. هذه المرة اتخذوا طريقاً أخرى لا تخترق قرية أنطلياس ولا تعبر جنب طريق بكفيا ولا تخترق تلك الغابة المشؤومة المملوءة بالأصداء.

ناموا الليل في معسكر ضربوه بين أشجار زيتون وتين وكروم عنب. في الفجر أيقظهم الندى الكثيف البارد. كانوا مبللين بالندى حتى العظام. ارتجفوا في البرد وفي العتمة التي تتبدد. أحسّوا أنهم ناموا تحت التراب، وأن اللّٰه سبحانه وتعالى أعطاهم أن يخرجوا من تحت التراب: أعطاهم أن يحيوا من جديد. أيقظهم من الموت بهذا الندى البارد وأرسلهم إلى عالم الأحياء مرة أخرى. أشعلوا ناراً وذبحوا خرافاً وأكلوا كبدة نيئة ولحماً مشوياً.

*

أهل بيروت نادراً ما أكلوا لحماً في الصباح. لكن الرجال

الـ13 العائدين من أرض الموت في ذلك الفجر المغطى بالندى أكلوا لحماً حتى اتخمت بطونهم. ثم ركبوا الجياد. عبد الرحيم البارودي أشرف على أعمال الشواء. واستغرب جوعه الفتاك واستغرب شهيته العارمة المباغتة. أكل نصف خروفٍ وحده. وشرب ماء حتى أحسّ بطنه تتفلع. الطعام وصل إلى زلعومه، إلى أنفه، إلى أذنيه، ولم يشبع. على الحصان، بينما يبتعد عن المواقد المطفأة وعن مصارين الذبائح التي طمروها في التراب على عجل، هبط النعاس على جفنيه. نام والمطية تهدهد جسمه. ورأى أنه يسحب دلو ماء من البئر وراء بيت أم زهرة. كان يسحب الدلو وانتبه أن الحبل يجرح يده وانتبه أن الدلو ثقيل جداً. ثم رأى وجه شاهين يخرج إليه ضاحكاً من ظلمة البئر. ضحك قلبه حين رأى ضحكة أخيه. وضحك قلبه حين رأى أن أخاه كان مكتحل الجفنين. أمه صفية كانت تحبّ الكحل! في تلك اللحظة ضرب غصنٌ رأسه ففتح عينيه. رأى جدولاً، ورأى جبوب عليق مملوءة بالثمر الأسود الشهي عند ضفة الجدول، ورأى أصحابه على الأحصنة.

كانوا يقتربون من نهر بيروت وفكّر عبد الرحيم أن اللّه أعطاه هذا المنام ليملأه باليقين: العملاق الذي دفنه هو شاهين بالتأكيد. لم يكن متأكداً قبل هذا المنام. لكنه الآن متأكد. مرة أخرى رأى وجه المرحوم يخرج ضاحكاً من ظلمة البئر. استدار الوجه الحبيب، أبيض، ناصعاً، باهراً كالبدر في الليلة الظلماء. وعبد الرحيم البارودي ارتاح قلبه. ارتاح قلبه وارتخت قبضته على اللجام. لن يعرف عبد الرحيم بن عبد الجواد أحمد البارودي أبداً أن العملاق الذي دفنه بيديه كان تركياً وُلِد في قريةٍ بلا اسم في جوار بورصة. سيعتقد دائماً أنه أفلح في تنفيذ مهمته وأنه أودع المرحوم شاهين قبراً منفرداً بين البنفسج البريّ.

في أكثر من مرة، خلال السنوات الآتية من حياته الطويلة، سيرجع إلى هذه البقعة من سهل بحرصاف، ويزور القبر حيث تنحدر الأرض، ويتلو الصلوات على راحة الميت. في ربيع عام 1872 سيأتي إلى هذا المكان مع ابنه عبد الغني. قبل ذلك بأعوام، في خريف 1862 أو 1863، سيزور القبر يصحبه أخوه الأصغر عمر البارودي.

*

لكننا الآن في خريف 1840. رجع عبد الرحيم البارودي إلى البلد فوجد أباه ينتظره. أخبره أين دفن شاهين.

سأله الأب:

ـ وعلَّمت قبره؟

أجابه عبد الرحيم إنه علَّمه بصخرة ضخمة، ثم إن الأرض تنحدر هناك.

لم يكن علَّمه بصخرة ضخمة. فقط وضع كومة حجارة فوق التراب. لكنه ارتبك أمام كلمات أبيه المريض. كَذِب كذبة بيضاء ليرتاح المعلم عبد الجواد.

المعلم عبد الجواد لن يرتاح. بعد رجوع عبد الرحيم سقط إلى أعماق مرضٍ بلا نهاية. كان مرضاً غامضاً. لم يظهر على بدنه أثرٌ يدل على طبيعته. كانت روحه تموت. وكل ما يأكله يزيد اللهب في جوفه. وحدها سهيلة النابلسي البارودي تمكنت من الحفاظ عليه حيّاً: كانت تطعمه أصناف الحلوى بيدها، وظهر أن الحلويات تقبلها نفسه، وظهر (وهذا غريب!) أنه قادر على ابتلاع الحلوى من دون أن يصرخ من حريق معدته.

حفظت أم زهرة جسم زوجها من الموت. لكن روحه استمرت تذبل. ذهب النور من عينيه. وجعل يلوك التبغ بدل أن يدخنه. اسودت أسنانه وفسدت أنفاسه. بات مدمناً على العطوس. يحمله دائماً في علبة فضة في جيب الجبّة. يتنشقه في الصباح، عند الظهيرة، في المساء، بين الصباح والظهيرة، وبين الظهيرة والمساء. لا ينام قبل أن يعطس عطسات جبارة تهزّه هزّاً. أم زهرة رأته يرتجف مثل شجرة في العاصفة.

كان الرجل يقتل نفسه. في البيت وفي المتجر وفي الطريق كان عبد الجواد أحمد البارودي يُرى هائماً سارح النظرَة بليد الخطوة كالسائر في عالم أشباح. تحول صاحب الذراع الواحدة طيفاً قبل أن يموت. في الأيام الأخيرة من حياته كفّ عن الذهاب إلى المتجر في البازركان. كان يخرج من بيت أم زهرة ليقعد تحت أغصان التوتة أو ليصعد إلى السطح. الغرفة التي طهّروها بالكلس ثم بالكبريت ثم بالكلس مرة أخرى كانت موصدة بانتظار الربيع. أم زهرة قررت أن تربي فيها دود القزّ من جديد. الميت يذهب عن الدنيا، والحيّ يبقى. هكذا هي الحياة. الصيف يتبع الربيع. الربيع يتبع الشتاء. والشتاء يتبع الخريف. مسيرة الحياة. اللّه سبحانه حكيم. وما يعرفه الرحمن لا يعرفه إنسان.

تساقطت الأمطار غزيرة وعصفت ريح الشمال. عبد الجواد أحمد البارودي توقف بعد ذلك عن الخروج من البيت. كان يتبادل كلاماً قليلاً مع أم زهرة، أو البنت نرجس، أو هند التي تأتي إليه من البيت في نهاية «الطريق البيضاء». أختها ورد ما كانت تأتي لأنها مصابة بالحصبة. أمّها سعدية تجيء بين حينٍ وآخر، لكنها الآن باتت ثقيلة الهمّة: ما هي إلاّ أسابيع ثم تلد. رحمتك يا ربّ.

أرملة شاهين البارودي خديجة محمد قرنفل البارودي تركت

البيت الأول عند حافة «طريق عبد الجواد» ورجعت إلى بيت أبيها في باب إدريس.

الحاج محمد قرنفل جاء يزور صديقه القديم عبد الجواد أحمد البارودي. لم يأتِ وحده. جاء معه الخياط حمادة المصري. جلسا أمام المنقل وتأملا حمرة الجِمار. أم زهرة صنعت قهوة جديدة ووضعت أقراص معمول بالتمر على صحنٍ من الخزف الأبيض. عبد الجواد أحمد البارودي ظلّ يسعل طوال الوقت. تلك الليلة غطّت حبّات البرد سطوح بيروت وأزقتها. لكن الغيوم تباعدت فجراً، والشمس أشرقت من وراء صنين. عبد الجواد أحمد البارودي فتح الباب في الصباح فرأى نرجس واقفة تحت التوتة في منامة بيضاء تمشط شعرها الأسود الطويل بالمشط. أحسّ للحظة بالانشراح، وبينما ينتشق الهواء البارد، خيل إليه أن الروح ترجع إلى جسمه. شرب القهوة مع أم زهرة ثم طلب ثيابه. سهيلة النابلسي البارودي لم تصدق أذنيها. لكنها هرعت تجلب السروال والقميص والجوارب. زوجها صار يلبس جوارب.

ذهب عبد الجواد أحمد البارودي إلى المتجر في البازركان. وجد عبد الرحيم قد سبقه إلى هناك، ووجد العبدين مونس وسنان يُرتبان البضاعة. لم يفهم لماذا أحسّ كأن كل السوق قد تغيّرت. ثم انتبه أنهم قطعوا أشجار اللوز أمام «قهوة النوفرة». عند الأصيل رأته أم زهرة مقبلاً بخطوة بطيئة. سقط قلبها حين رأته يقترب بليداً بليداً كأنه لن يصل إلى القنطرة الحجر أبداً. حين بلغ مكانها أخيراً دفع يده في باطن جبّته وأخرج منديلاً من الأطلس الصيني الأخضر. جاهد كي يلفظ الكلمة:

ـ لكِ!

ثم أعطاها المنديل المعقود وسبقها إلى الداخل. أسرعت خلفه وساعدته على التخلص من الجبّة الثقيلة. جلس على الطراحة جنب المنقل وارتجف. هي فكّت المنديل فرأت ثلاث أساور ذهب وخاتماً بفصٍ من الياقوت الأزرق. استحت وصعد الدم إلى وجنتيها كأنها ما زالت بنتاً. عبد الجواد رأى ذلك فأخرج من بطنه ضحكة. سألته لماذا هذا؟ فقال هذا من الدكان وليس من قيمتها. تذكرته عندئذٍ في عزّ رجولته يأكل صدراً كاملاً من الكنافة بالجبن ثم يجذبها إليه ويأخذها والباب موارب غير موصد. سقطت الدمعة من عينها وعبد الجواد لم يرَ الدمعة. كان قد مال على المسند، فغمضت عينه، وارتفع شخيره.

*

اقترب عيد الميلاد وجاءت ابنتاه سوسن وياسمينة تزورانه. أخبرتاه نتفاً من أخبار صهريه والمرسلين الأميركان أصدقاء العائلة. بطرس ونصر اللّه الصايغ ارتفع نجمهما في تلك الحقبة. بعد خروج إبراهيم باشا من بلاد الشام، رجعا من يافا، وباشرا استيراد الفحم الحجري من أوروبا للبواخر التي ترسو قبالة بيروت. كل بواخر أوروبا العابرة شرق البحر المتوسط باتت تتزود بالفحم لمراجلها من مخازن بيروت. صارت بيروت المحطة الأهم ـ على هذا الساحل كلّه ـ بعد الإسكندرية وبعد إزمير. العثمانيون نقلوا مركز «ولاية صيدا» من عكا إلى بيروت: كان هذا أمراً لا مفر منه. إبراهيم باشا لم يسحب عساكره من عكا إلاّ بعد أن سوَّتها قنابل البوارج بالأرض. دُمِرت عمارات عكا وسقطت أطلال أسوارها ـ الباقية من أيام بونابرت ـ في مياه المرفأ وردمته. الوالي العثماني سليم باشا نزل في السراي خارج سور بيروت وأنزل عائلته في بيتٍ من بيوت آل تيان التي ظهرت أخيراً في «سهلات البرج». سليم باشا أقام في

السراي بانتظار بناء مركز للولاية على الهضبة غرب الأسوار، الهضبة حيث ثكنات الجيش المصري المثقوبة بالقنابل، الهضبة حيث «مدرسة المسز سميث».

سوسن وياسمينة أخبرتا الأب المريض أن العثمانيين دكّوا، بالبارود، البرج الذي رفعه إبراهيم باشا على الهضبة ووضع فيه خمسة مدافع. العثمانيون نسفوا البرج وجرفوا قسماً من الهضبة: يخطّطون لبناء القشلاق هنا (لاستيعاب الجنود والخيول)، ويخطّطون لبناء مستشفى عسكري. الأب المريض سمع كلمات ابنتيه ولم يسمع. حين قالت ياسمينة إن صخب العمال وهدير الانفجارات والغبار المتطاير عطَّل أعمال التدريس، مال رأس الأب المريض على صدره، أفلتت المسبحة العاج من بين أصابعه، وارتفع شخيره. بدا في تلك اللحظة عجوزاً جاوز الثمانين.

تعطلت مدرسة المسز سميث وتعطلت مدرسة زوجها المخصصة لتعليم الصبيان. بطرس الصايغ اقترح نقل المدرسة إلى دار الأخوين الصايغ الزاهرة. على سفينة المساجيري ذاتها التي حملت محي الدين الفاخوري إلى بيروت بعد غيابٍ طويلٍ، جُلِبت إلى بيروت ـ للمرة الأولى في تاريخها ـ خزائن طليانية بمرايا داخلية على الأبواب، وبتيجان نحاس، وشمعدانات نحاس، معلقة عن جانبي الخزانة الضخمة، للإنارة. هذه الخزانة، وأختها، حُمِلتا إلى دار آل الصايغ. كانت هناك خزانة ثالثة أيضاً. وهذه حُمِلت إلى فيلا القنصل الأميركاني جسبر شاسود. خلال العام التالي ستظهر خزائن طليانية مماثلة في قصور آل بسترس الجديدة وراء «سهلات البرج»، في منطقتي الصيفي والرميل، ثم في الأشرفية. كانت كلّها من خشب الجوز، يظهر في جانبها الختم الذهب لآل مادزاروني الذائعي الصيت. (إحدى هذه الخزائن محفوظة في قصر الكونت سليمان

ده بسترس. انطفأ لون المرايا، لكن الخشب ما زال لامعاً).

تدريجياً بدأت البيوت تُبنى خارج الأسوار. الأسوار تتقطع مثل خيط ماء يجفّ في الشمس. العساكر العثمانية نقبت جزءاً من السور بين باب السراي والزاوية الجنوبية الشرقية للسور، حيث السروات الطويلة، وفتحت هناك بوابة جديدة. كان السور تهدم بعض الشيء في هذه النقطة أثناء القصف. المعاول أكملت عمل القنابل. تساقط السور. وحيث بانت بوابة، بانت سريعاً محلات ودكاكين. السلطان عبد المجيد منح هذه القطعة من الأرض إلى شيخٍ من البلد. لم تلبث البوابة أن سُميت باسمه، وكذلك السوق: بابَ أبي النصر، وسوق أبي النصر.

محمد الفاخوري سينقل زوجته إلى بيتٍ مجاورٍ لهذه البوابة الجديدة ويترك جيرة أقاربه. (سعدية الحص البارودي ستنتقل إلى بيت الفاخوري الفارغ بعد وقتٍ قصير هرباً من الدلف في سقف بيتها).

أراد محمد الفاخوري الابتعاد عن المعلم عبد الجواد، وأراد الابتعاد عن حياةٍ أوشكت أن تقتله.

لم يعد قادراً على رؤية وجه زوج عمته. شاخ الرجل دفعة واحدة بعد مقتل بكره. وسقط وجهه. عائشة هانم لن تلبث أن تضع ولداً ذكراً في البيت الجديد. محمد سمّاه مصطفى تيمناً بالجد. محي الدين، والد محمد، رفع الطفل عالياً وقال إنه يشبه المرحوم شاهين. محمد لم تعجبه العبارة. أحسَّ بشوكةٍ في صدره. لكن هذا الإحساس سرعان ما ذهب عنه. حمل الطفل وصعد إلى السطح ووقف ينظر إلى غروب الشمس. كان البحر الشاسع صفحة برتقالية لا نهائية. الغيوم المتباعدة في السماء كانت باللون ذاته. هبّ الهواء

طيباً، وتلاعب بكمّ القميص الفارغ. محمد نظر إلى طفله وحمد اللّه سبحانه وتعالى. جرح ذراعه ما عاد يؤلمه إلاّ في ساعات البرد. وعائشة هانم راق مزاجها وتبدل طبعها بعد الولادة.

رجع محمد الفاخوري من بحرصاف قليل الكلام. ما رآه في ذلك السهل الأصفر اليابس بدّل نظرته إلى نفسه وإلى العالم. تغيّر محمد «البسّ». قصَّ أظافره الخمسة الطويلة وحلق شعر رأسه. بات يغتسل مرتين كل يوم، ويُشذب لحيته، ويلازم الشيخ العلامة عمر أبو النصر اليافي الذي سُميت البوابة الجديدة باسمه، وكذلك السوق التي ظهرت هنا. بعد وقتٍ قصيرٍ سيبني الشيخ في مدخل السوق جامعاً. السلطان منحه لقب المشيخة قبل عام. محي الدين الفاخوري الذي عاشر الحاج عمر اليافي في دار الخلافة، قال إنه كان يُدرس السلطان القرآن الكريم. محمد الفاخوري بات من مريدي الشيخ. بيته الجديد يلاصق دار الشيخ ونهاره ـ في معظمه ـ يقضيه بين دار الشيخ وبين ورشة المسجد القائمة.

محي الدين الفاخوري جاء إلى ابنه محمد وطلب منه أن يذهب معه لزيارة المعلم عبد الجواد البارودي. الرجل مريض ويبدو أنه على حافة الموت. محمد الفاخوري وقف مستنداً إلى سروةٍ طالما تسلقها المرحوم شاهين في زمن الطفولة البائد، وقال إنه لا يقدر أن يترك الشغيلة بلا مراقبة. كانوا يبنون حيطان الجامع. محي الدين الفاخوري غضب من ابنه ومضى.

بعد سنواتٍ طويلة، في صيف 1890 أو 1891، سيتذكر محمد الفاخوري تلك الظهيرة البعيدة حين جاء أبوه ليأخذه كي يزورا أبا شاهين المريض الملقى على الفراش في بيت زوجته الثانية سهيلة النابلسي. في 1890 كان محي الدين الفاخوري ميتاً. محمد الفاخوري تذكر المرحوم أباه وتذكر تلك الظهيرة البعيدة، بينما ينظر

إلى السروة القديمة وقد فتكت بها أمراض الشيخوخة. وقف بين أحفاده أمام متجر الطرابيش الذي يملكه أولاده ورأى أن الصفرة بدأت في قمة السروة ثم انحدرت حتى بلغت جذورها. تبدل لون الشجرة من الأخضر إلى الأحمر إلى البنيّ إلى الأصفر. يبست وتلاشى أثر الحياة من شكلها الممشوق. الأولاد نظروا إلى حيث ينظر جدهم محمد الفاخوري فأبصروا حمامة تمكث عند قمة السروة الصفراء الشاهقة.

محمد الفاخوري لم يرَ الحمامة. بات بصره شحيحاً. كل ما رآه بقعة بيضاء في أعلى اليباس الميت الفظيع. ظنّ أنها غيمة. أو بقعة على شاشة العينين. لم يخطر ابن عمته صاحب الحياة الغريبة في باله. ولم يتذكر معركة بحرصاف. مضى نصف قرن. مضت حياة كاملة. في نصف قرن تغيّرت أمور لا تحصى. تغيّرت البلد. تغيّر العالم كلّه. وتغيّر محمد الفاخوري. لكن قبل أن تمضي تلك الأعوام كلّها، عاش محمد الفاخوري شهوراً مضنية. في تلك الشهور الأولى التي أعقبت رجوعه من بحرصاف كان يتنفس رائحة بارود كلما فتح فمه. وحتى من دون أن يفتح فمه كانت الرائحة الناشفة المالحة عالقة في خياشيمه، في شعيرات أنفه. ولولا الشيخ اليافي، لولا المسجد الجديد، لولا «جامع الأمين» هذا، لولا ابتعاده عن «حارة البارودي» إلى هذا البيت القائم في ظلال الأسوار المتداعية، لولا ولادة مصطفى وانصرافه إلى ملاعبته، لولا... لولا كل ذلك كان قضى نحبه مختنقاً برائحة البارود الفظيعة العالقة بجلده وشعر رأسه.

محمد الفاخوري نجا من رائحة البارود والدم المحروق ونجا من الموت اختناقاً في فراشه. اعتاد في تلك الفترة أن يخرج من البلد حاملاً طفله الصغير، يضمه إلى صدره. كان يخرج إلى بساتين

زقاق البلاط القريبة، أو يصعد «طلعة الأميركان» إلى حقول الرمان وراء المدرسة. توقف التدريس هنا لا بسبب الضجة في ورشة القشلاق، بل لأن الضباط الإنكليز الذين نزلوا في البلد أخذوا كل الصبيان ليعملوا عندهم تراجمة. محمد الفاخوري رأى الضباط ماشين في الأسواق بلباسهم الغريب والصبيان يمشون قدامهم، خلفهم، أو إلى جانبهم. مع كل ضابطين، أو ثلاثة، مشى صبيٌ يتكلم بلا انقطاع، بالإنكليزية والعربية معاً. في الميناء يفهم الكثيرون الإيطالية. هذه لغة التجارة في حوض المتوسط منذ قرون. لكن الإنكليزية لا يفهمها إلاّ تلامذة المرسلين الأميركان. محمد الفاخوري رأى عمر البارودي مع الضباط الإنكليز واستغرب ذلك لأنه لم يرَ عمر يوماً ذاهباً إلى المدرسة. بدا عمر بعينيه الخضراوين واحداً منهم. لكن سمرته اللامعة ظلت تفضحه.

حين التقى محمد الفاخوري عبد الرحيم البارودي في المسجد الجديد ـ مسجد أبي النصر الذي سمي بعدئذٍ «مسجد الأمين» ـ سأله عن أخيه الصغير: أين تعلم الإنكليزية؟

عبد الرحيم ضحك وقال إن الملعون تعلم كلمات الأميركان من نرجس بنت أم زهرة، وأن الملعونة تعلمت الكلمات من أخواتها.

نرجس اعتادت في تلك الفترة أن تجلس كل عصر مع أبيها العجوز أمام المنقل. كانت أمها سهيلة تدخل وتخرج، والبنت تظل حيث هي في الزاوية تعبث بعقدٍ من الخرز الملون بين أصابعها وتنظر إلى عبد الجواد أحمد البارودي صاحب الذراع الواحدة وهو يذوب ككومة ثلج ويتلاشى في هواء راكدٍ حارٍ. حين تأتي هند أو ورد من البيت في طرف «الطريق البيضاء» لا تبقى نرجس هنا. تبقى قليلاً فقط، تقول كلمة غير مفهومة لهذه (ما زالت تقضم بأسنانها نصف الكلمات، كأن لسانها مقطوع الرأس)، أو تداعب الأخرى بأن تمرر

يدها في شعرها، ثم تغادر. في الخارج لا تجد المعزاة بانتظارها. المعزاة ماتت. مرضت وكفت عن اجترار العشب وماتت. ونرجس ادهشت أمها وأدهشت أباها وأدهشت أخاها عبد الرحيم حين لم تحزن لموت المعزاة.

ماتت المعزاة بعد فترة من نزول الإنكليز في البلد بتلك التنانير الغريبة التي تشبه لباس النسوة لكنها ليست لباس النسوة لأن النساء لا يلبسن أثواباً قصيرة إلى الركب. الفرقة السكوتلندية في الجيش الإنكليزي الثالث حلّت في الثكنات الجديدة على الهضبة خارج باب يعقوب. أحد المهندسين التابعين للفرقة المذكورة ويدعى وليام ماكدوف ابتاع كيساً من عقود الخرز من سوق البازركان وأسّس عادة حديثة في تاريخ بيروت: الضباط الشقر الرؤوس أصحاب العيون الملونة والأصابع الممشوقة والجزم الجلد اللامعة ذات البكلات الفضة أخذوا يوزعون العقود والأساور ذات الرنين على فتيات البلد الصغيرات وعلى نساءٍ غير محتشمات.

عبد الجواد أحمد البارودي ذو الذراع الواحدة رأى العقد في يد ابنته نرجس ولم يسألها عنه. كان يغادر عالمنا. منذ رجع محمد محي الدين الفاخوري بخبر مقتل ابنه الكبير شاهين في معركة بحرصاف لم يذقْ الرجل لقمة خبز واحدة. ما عاد يأكل إلاّ قدراً يسيراً من مربى التين، أو الحلاوة الطحينية، أو دبس العنب، بالملعقة، هكذا، بلا خبزٍ، من أصابع زوجته الثانية سهيلة النابلسي. يعيش على هذا وحسب، وعلى جرعات ماء من إبريق فخار، وعلى التبغ والعطوس.

تغيّرت رائحة أنفاسه. وترك ذقنه تطول. غزا الشيب رأسه وغزا لحيته وغزا شاربه. ذاب الشحم عن جسمه. ظهرت عظام كتفيه وبرزت جوزة رقبته. صار حين يشرب الماء ملقياً رأسه إلى خلف

ترى زوجته أم زهرة الماء نازلاً في زلعومه. شفّ جلده وبدا أن أسنانه ذاتها تشفّ وترقّ حتى بات عاجزاً عن قضم حبّة لوز يابسة.

أم زهرة صنعت له معمول العيد بالجوز في غير ميعاد وبلا مناسبة لعل نفسه تنفتح وتتغيّر حين تفوح رائحة السمن والعجين والسكر. لكن الرجل، الذي شاخ بين ليلة وضحاها، أبعد صدر الحلو من أمام أنفه وأشاح بوجهه ناظراً إلى حيث لا يعلم أحد.

في الأيام السبعة الأخيرة من حياته تباعدت الغيوم في سماء البلد وبان قرص الشمس. كان الوقت شتاء. لكن ربيعاً خاطفاً وجيزاً حلّ على بيروت بين عاصفةٍ ذاهبة وأخرى آتية. خلال هذا الربيع الوجيز دبّ الدفء في الأرض وفي حيطان البيوت. السنة الميلادية كانت توشك على الانتهاء، وبعد زيارةٍ قصيرة من ابنتيه سوسن وياسمينة ذات ظهيرة، وبعد سماعه أخبارهما وضحكاتهما، ورؤيته طفلاً صغيراً يحبو على أرض الدار، أحسّ عبد الجواد أحمد البارودي بحاجةٍ شديدة إلى الخروج والسير في الأسواق. نهض وانتعل جزمةً. رمى جبّةً على كتفيه، قال لأم زهرة إنه ذاهب إلى السوق، وخرج من البيت ذي القنطرة الحجر.

ما كان يدري عندئذٍ أنه لن يدخل هذا البيت مرة أخرى. أذان العصر لم يكن قد ارتفع بعد. عَبَر عبد الجواد أحمد البارودي «الطريق البيضاء» ثم اخترق الزاروب القصير خارجاً إلى سوق الفشخة. واجه المتاجر الواطئة وقناطر الجامع العمري. تذكر أول نزوله في بيروت: نصف هذه المتاجر لم يكن فُتح بعد، والسوق لم تكن مبلطة. هذا المدخل الشمالي للجامع كان يُترك موصداً معظم الأيام. المصلون كانوا يدخلون ويخرجون من المدخل الغربي الكبير، تحت القناطر العالية (القناطر الأقدم) في «العطّارين». أما ذلك المدخل الثالث الشرقي الصغير، المطلّ على سوق الصرامي

وعلى جامع السراي فلم يُفتح إلاّ بعد الزلزلة. واقفاً هكذا في جانب السوق، المزدحم كالعادة، نظر عبد الجواد أحمد البارودي إلى أثارٍ خلّفها القصف في زاوية الجامع (عند تقاطع الفشخة مع طلعة العطّارين) ولم يتذكر أول بيتٍ (أول قبوٍ) نزل فيه حين جاء بيروت ذات شتاء مظلم بعيد.

عبد الجواد أحمد البارودي الذي لم يخرج إلى السوق منذ فترة وقف هكذا عند حافة الدرب المزدحم بالناس والحمير ونظر إلى وجوه يعرفها ولا يعرفها. نظر إلى شجرٍ عرَّته العواصف من الورق. نظر إلى فجوةٍ في حائطٍ أسود عند زاوية الجامع ولم يتذكر خمس درجات تنزل إلى تحت مستوى السوق ولم يتذكر بوابة من الخشب القديم ذات صرير ولم يتذكر قبواً رطباً رائحته تبن وطحلب وصوف. كان ينظر إلى الأشياء أمامه (الناس، الحمير، المتاجر، البضائع، السلال المعلقة من الحبال في فضاء السوق، أغصان شجرة يابسة يُغرد عليها طائر بلون البطيخ الأصفر، الأولاد الذين يتناقرون، بعض الجنود الأتراك)، فيراها ولا يراها في الوقت نفسه. أحسّ بثقلٍ في ساقيه من طول المكوث في البيت، مقرفصاً أمام الكانون والصدأ يغطي مفاصله. وأحسّ بالحيرة: إلى أين يذهب من هنا؟

أوشك أن يمضي يميناً ويصعد في «العطارين» ماضياً نحو متجره في البازركان. لكن شيئاً غامضاً دفعه إلى تحريك جسمه في الاتجاه المعاكس: مضى يساراً ـ وهو لا يعرف أين يذهب ـ حتى بلغ تقاطع الفشخة مع سوق القطن: إذا انحدر نحو البحر يبلغ حانوته عند الميناء؛ إذا صعد متجاوزاً جامع السراي نحو الدهليز وجد نفسه على بعد خطوات من دكان الخضر العتيق. أينما ولّى وجهه رأى أثره في هذا البلد. أينما أخذته الدرب بلغ متجراً فتحه بعرق الجبين. لكنه الآن لا يحسّ فخراً. لا يحسّ إلاّ بالثقل في ساقيه، وبالثقل في

قلبه. وفي هذه المرة لم يقلْ عبد الجواد أحمد البارودي في سرّه إنه المرض، المرض الذي يعبر بعبور الأمطار وغيوم الشتاء. في هذه المرة لم يفتش صاحب الذراع الواحدة عن عذرٍ أو حجّةٍ أو عزاء. كان جاوز ذلك الحد.

وقف تحت سماء مريضة يتلاشى منها نور النهار رويداً رويداً، وحين تعالى أذان العصر أعطى ظهره لسوق القطن وقطع «الفشخة» صاعداً نحو دهليز الحدادين. كان يمشي ولا يرى أحداً ولا يسمع الأصوات. كان يمشي في ظلمته العميقة التي لا يُسبر غورها. هكذا لم يسمع نداء صاحبه الخيّاط حمادة الذي كان يفرد ثوباً تحت حائط الجامع عندئذٍ. ولم يسمع تحية تاجر من آل طرازي كان يغادر أحد دكاكين السمانة والحبوب المجاورة. قطع الدهليز الذي بدأ يعتم وخرج من الجانب الآخر: يريد أن يقعد على المصطبة الحجر أمام دكان الخضر، يشرب شربة ماء ويلف سيجارة. من يكون في الدكان الآن؟ عمر ابنه، أم أحد العبيد، أم عبد الرحيم؟

وجد الدكان مقفلاً ولا صناديق خضر على المصطبة الحجر. عندئذٍ فقط تذكر أن عبد الرحيم أخبره قبل أيام أو أسابيع أنهم أقفلوا الدكان. ذكر له ابنه سبباً. عبد الجواد أحمد البارودي حاول في ذلك الغروب أن يتذكر السبب فعجز عن التذكر. لم يزعجه الأمر. فكّر أن هذا يساوي ذاك. في النهاية الدكان مقفل. استدار ليعود إلى ظلمة الدهليز: سينزل إلى حانوت الشواء ويقعد هناك، يرتاح قليلاً ويدخن سيجارة ناظراً إلى البحر... ربما يدخن أرجيلة أيضاً. كانت خاطرة عبرت سريعة في خياله كعصافير قديمة طالما رآها تتقافز بين أشجار في هذه الساحة: ساحة العصافير... وخيل إليه أنه يرى الأولاد ـ الذين صاروا الآن رجالاً ـ يظهرون من جهة نزلة الدركاه ليأخذوا الأقفاص التي علقوها على الأشجار. كانوا يحملون قضبان

الدبق وبعضهم يحمل أقواس نشاب وسهاماً مروسة الرؤوس. دامت الرؤيا لحظة ثم تبدّدت. الأشجار قُطعت. في مكانها ظهرت الدكاكين، تغمرها الآن ظلال الكنيسة. وتذكر صديقه الشمّاس الياس دبّاس: هل يكون في الكنيسة الآن؟ استدار لينزل صوب الدهليز فرأى جرذاً ضخماً عند حافة المصطبة الحجر.

تحرك الجرذ زاحفاً ببلادة حتى بلغ الزاوية، تلك البقعة ذاتها حيث اعتاد صاحبه المرحوم موسى يعقوب مزراحي المكوث على حصيرة يجذبها من دكان الخضر الذي كان معمله قبل زمنٍ بعيد. تجمد الجرذ الضخم هناك، ورأى عبد الجواد أحمد البارودي خطّاً قاتماً خلَّفه الحيوان في زحفه الثقيل من حافة المصطبة الحجر إلى الجدار. كان خطاً عريضاً بلون طينٍ أصفر. ابتعد صاحب الذراع الواحدة ودخل الدهليز البارد الرطب.

لن ينزل إلى حانوت الشواء على الميناء الذي جعل عبد الرحيم اسمه «محطة الشام». لن ينزل إلى حانوت الشواء ليرى ابنه واقفاً بين المناقل والأراجيل، والزبائن يتوزعون الطاولات، والسفن الإنكليزية تظهر من جديد قبالة الشط. كان المساء يُقبل والبرد يُقبل ورائحة الموت تُقبل. شمَّ الرائحة في ذلك الخط الأصفر العريض على المصطبة أمام الدكان المقفل. شمَّ الرائحة في فجوة قنبلة في حائط جامع قديم. شمّ الرائحة في هواء هذا الربيع الصاعق الوجيز. وشمَّ الرائحة في ثيابه. لم يكن مخطئاً: عبد الجواد أحمد البارودي كان يرتدي في ذلك الغروب الأخير الجبّة الخضراء ذاتها التي لبسها ابنه عبد الرحيم إلى سهل الجثث المتكلسة في بحرصاف.

*

خرج عبد الجواد أحمد البارودي من ظلمة دهليز الحدادين فوجد نفسه وسط زحمة المصلين الخارجين من جامع السراي. ردّ

على التحيات باقتضاب وذهب كالسكران متعثر الخطى، كأنه يزلق على أرض مبلّلة، فقطع سوق الفشخة مسرعاً، ثم انعطف وولج الزاروب بين العقدين. بانت «الطريق البيضاء» توجّ في المساء الحزين المقبل، ورأى شجرة كبيرة مظلمة أمام بيتٍ سَكَنَهُ مع أم شاهين سنوات. الرجل لن يعرف لماذا تذكر المرحومة زوجته الأولى عندئذٍ. السماء لن تعطيه وقتاً كافياً للتفكير في هذه الأشياء. لن يعرف لماذا تذكر صفية الفاخوري البارودي واقفةً عند العتبة، تلتف بشالٍ أبيض، وبين يديها طفلٌ يُرسل سعالاً طويلاً... كان السعال يصفُر في ليل الكون النائم والأنفاس تفرُّ من الفم الصغير فلا تعود. لكن الطفل عاش. عاش ولم يمت. عاش وصار رجلاً... ثم قتلوه.

للمرة الأخيرة في هذه الحياة الفانية يقطع عبد الجواد أحمد البارودي «الطريق البيضاء». لا ينتبه إلى نور سراجٍ أصفر يتلامع داخل بيت الصيّاد الدرزي، ولا يسمع أصوات النساء وراء الدرف الموصدة، ولا يشمّ رائحة العدس المطبوخ. يجاوز الشجرة الكبيرة الأولى (الجميزة) من دون أن يلتفت إلى هذه الجهة أو تلك. حين يبلغ الشجرة الكبيرة الثانية يحسُّ ـ واجف القلب ـ أن الطاقة كلّها تلاشت من جسمه.

عبد الجواد أحمد البارودي استند إلى التوتة ونظر إلى بيتٍ يبعد خطوات ونظر إلى بابٍ موصدٍ وإلى قنطرةٍ حجرٍ وإلى غرفةٍ بيضاء عالية. أراد أن يرفع صوته، أن ينادي على أم زهرة. لكن الصوت لم يطلع من حنجرته.

العائلة

تزوج عبد الرحيم بن عبد الجواد أحمد البارودي مرتين. رُزق من زوجته الأولى ثلاثة أبناء ذكور وخمس بنات، ومن الزوجة الثانية بنتاً واحدة. سمّى بكر أبنائه حسين، وثانيهم عبد الغني، وثالثهم عبد الفتاح. وُلد حسين سنة 1847. لكنه قضى ـ مع عمه عمر ـ بالكوليرا التي أفرغت بيروت من سكانها سنة 1865. مات حسين بلا عقب. ترك أرملةً شابة لم تلبث أن تزوجت صيّاداً من آل عيتاني خارجةً من «حارة البارودي» ومن هذا الكتاب. الابن الثاني لعبد الرحيم البارودي قصته طويلة، لا يمكن إيجازها هنا. يبقى الابن الأصغر: عبد الفتاح، الملقب بـ «الدمياطي». وما نعرفه عنه ليس قليلاً. لكن قصته تقدر أن تنتظر الآن.

تزوج عبد الرحيم البارودي مرتين إذاً. توسع بتجارة أبيه. وأنشأ خاناً ومعامل وصار من الأعيان. ثم مات سنة 1890 عن 63 عاماً. لكن هذا البيروتي الذي فَقَد أهله باكراً، ووجد نفسه ـ وهو دون الرابعة عشرة ـ مسؤولاً عن أخٍ يصغره بثلاثة أعوام، وعن عددٍ من الخالات والأخوات الصغيرات (إحدى خالاته ـ زوجات أبيه ـ كانت حاملاً توشك أن تضع حين مات أبوه عبد الجواد)، هذا الشاب الذي كان يبدو خاملاً في طفولته، عاش في بيروت القرن التاسع عشر حياةً حافلةً بالتجارب والحروب والأوبئة والحوادث

جعلته يبدو ابن ثمانين عاماً وهو على فراش الموت. ما نعرفه عن هذا الرجل مصدره «الشجرة النسَّبية لأسرة البارودي البيروتية»، والحكايات التي سمعها الكونت سليمان ده بسترس من فم جده لأمه عبد الغني بن عبد الرحيم البارودي، ومن والدته سلطانة البارودي ومن خالاته الكثيرات. لا حاجة للقول إن عدداً من التفاصيل الخيالية قد أضيف إلى القصة. تفاصيل أضافها الرواة، وهذه طبيعة التناقل الشفاهي. وتفاصيل أضيفت أثناء تدوين الكتاب، وهذه طبيعة الكتابة. (عبد الرحيم البارودي يُذكر أيضاً في بعض الرسائل التاريخية(*) بصفته واحداً من أوائل الوجهاء البيروتيين الذين سعوا للحصول على امتيازٍ سلطاني لشق طريق عربات بين بيروت ودمشق سنة 1856، أي قبل عامين من حصول الكونت الفرنساوي أدمون دي بيرتوي على الامتياز المذكور).

لا يمكن فصل قصة صعود نجم عبد الرحيم البارودي في تلك الحقبة من تاريخ بلادنا عن التحولات التي عصفت آنذاك بمدينة بيروت وبالجبل اللبناني وبالداخل السوري العميق. سقوط الأسوار بعد القصف الثلاثي الإنكليزي ـ النمساوي ـ العثماني، في أيلول (سبتمبر) 1840، غيَّر المدينة إلى الأبد. بين ليلة وضحاها نقَّب الأهالي بالمعاول السور الذي يتداعى. بين ليلة وضحاها زالت حدود البلد. للمرة الأولى هبّ الهواء المحمل بالرمل وغطى الأزقة كلّها. لم يعترض سورٌ موجات الرمل الذهب. صارت الذئاب تدخل بين البيوت في الليل، وحين يرتفع العواء المتوحش تحت درفات النوافذ يستيقظ الأطفال من النوم ويزعقون بالبكاء. مع حلول الشتاء تدفقت سيول الوحل إلى قلب المدينة. هذا أيضاً كان يحدث للمرة

(*) «أبواب بيروت» (المطبعة الميمنية بمصر، 1872).

الأولى. جرى السيل من رأس النبع، كرج في نزلة الكراوية إلى «سهلات البرج»، ارتطم بحيطان مقابر الخارجة والغرباء والمصلى كما يحدث في كل شتاء، لكنه في هذه المرة، وبدل أن يصنع مساحة من المستنقعات بين المقابر وسور بيروت، لم يجد سوراً يسدّ تدفقه العارم: تجمع السيل العارم، يغلي بالأتربة والأغصان والحجارة والعظام والفئران والحيوانات النافقة، ارتفع منسوبه وهو يرتطم مرة تلو أخرى بأصل السور الباقي، ارتد واستجمع قواه وهجم من جديد، ثم غمر ما بقي من السور (كان ارتفاعه خمسة أمتار، صار لا يرتفع متراً!) وتراكض هادراً بين البيوت، جارياً في الدهاليز، منحدراً نحو سوق الفشخة، جارفاً كل ما يعترض دربه، متساقطاً على الدرجات إلى المخازن والمتاجر والبيوت الواطئة. كانت كارثة من الوحول. وعلى وجه الوحول طفت جماجم بشرية منبوشة من «مقبرة الغرباء»، صقيلة البياض.

لماذا نقّب الأهالي السور؟ نقبوه لبناء بيوت وزرائب ودكاكين. نقبوه لأن البلد امتلأت بالعساكر وبالتجار الآتين مع سفن الأتراك والإنكليز. هؤلاء يحتاجون إلى مساكن: يدفعون إيجاراً عالياً. ولا يسألون.

في تلك الفترة ارتفع الحائط بين بيوت البارودي وبين سوق القطن. عبد الرحيم قال لخالته أُم زهرة إن الحائط يرد العيون، ثم التفتَ نحو أُم هند (التي وضعت أخيراً طفلة سمّتها فاطمة)، ومتذكراً كم لوعتها الحيّات في زمن نزولها في الغرفة على السطح، قال:

ـ ونرتاح من الحيّات!

ساعده في بناء السور أخوه عمر والأحباش العبيد. كانوا يقولون في البلد ضاحكين:

ـ المدينة صارت بلا سور، وأولاد البارودي يعمرون سوراً!

حمّى التعمير اجتاحت بيروت. ضجة وغبار وحركة. معلمو العمار يتكاثرون، والبيوت تظهر كالفطر وتتكاثر خارج الأسوار القديمة. الكل يريد أن يبني. جرجس دبّانة بنى زرائب في «سهلات البرج» (مكان بناية Virgin الآن) مع أنه لا يملك ماشية أو حتى دجاجاً. حين سخروا منه ردّ عليهم:

ـ يصير عندنا، يصير عندنا! وحق العذراء يصير!

ابن دبّانة بنى الزرائب لأن حجارة السور سائبة؛ اغتنم الفرصة ولم يندم. حوادث 1841 في الجبل اللبناني أرسلت موجة هاربين من دير القمر. الموارنة والدروز تعاركوا، وأحرقوا حقولاً وبيوتاً. وقع قتلى. وجُرِح بشر.

إلياس نعمة اللّه نزل فاراً ممزق الثياب مع زوجته وأولاده من بيت الدين، يقود طرشه خلفه. استأجر زريبة من جرجس دبّانة لماشيته، واستأجر زريبة أخرى لنفسه وعائلته، وحوّلها بيتاً.

خلال تلك الأيام، أو بعدها بقليل، جاء شاهين بن عبد الجواد أحمد البارودي إلى بيروت ولم يعرفها. عَبَرَ هذه السهلات التي طالما تسلّق أشجارها ـ راكباً على حصان غنمه صاحبه الحطّاب في حرب 1841ـ فخُيل إليه أنه يتذكر نفسه. خُيّل إليه أنه يعرف هذه الأرض! يعرف هذه التوتات الخضر! ويعرف الشواهد الحجرية بين الجذوع، ووسط الظلال المتراقصة! انتظر أن يرى السور العالي القاتم. لو رأى ذلك السور ـ سور بيروت العتيق ـ لو رأى الرجل ذلك السور كان عرف بلده وعرف نفسه. لكنه لم يرَ سوراً. أهالي البلد سرقوا السور كلّه وغيّروا بيروت إلى الأبد. بيروت تغيّرت، لم

تعد هي نفسها، صارت مدينة أخرى. وشاهين البارودي هو أيضاً تغيّر، لم يعد ذاته، صار رجلاً آخر. صار تركياً! (هل يعثر على أهلٍ هناك، وراء البحر؟ هل نراه مرة أخرى؟)

بيروت لم تتحول مدينة تركية برجوع الأتراك إليها. العصور العثمانية عادت إليها ممتزجة بعادات وافدة من وراء البحر: البوارج الأولى التي رست وراء صخور الميناء، بعد فرار المصريين، لم تكن عثمانية. كانت إنكليزية. عن ظهر الدراعة «ليفربول» والدارعة «بافوس» نزل جنودٌ في تنانير (هذه الفرقة السكوتلندية) يعزفون في أبواق عملاقة نحاس. الموسيقى هزّت البلد بدوي أقوى من دوي القذائف. وبعد غروب الشمس تضاعف الصخب بدل أن يتلاشى ويموت. الإنكليز البحارة سكروا في مشارب بيروت ثم اجتاحوا السوق العمومي: تلك الليلة ـ وفي ليالٍ أخرى آتية ـ ستتحول بيروت إلى جنّة البحارة الإنكليز. جنّة للبحارة لكن ليس للأهالي الذين يطلبون النوم والهدوء. نزل الإنكليز في مدينتنا، ومع العوالم المصريات والسودانيات الباقيات في السوق العمومي من أيام إبراهيم باشا، حولوا بيروت إلى سدوم وعمورة.

عبد الرحيم البارودي تابع تسوير حارته التي ورثها عن أبيه عبد الجواد. أخواله آل الفاخوري تأملوا نشاطه وقالوا فرخ البط عوام، وهذا الشبل من ذاك الأسد. كانوا يظهرون أمام حانوت الشواء على المينا ـ الذي جعل اسمه «محطة الشام» زمناً ثم غيَّره إلى «مطعم المرفأ» ولكن الناس ظلوا يُسمّونه «محطة الشام» ـ وهم يتثاءبون. يقولون إن النوم في بيروت الفوقا مستحيل مع هؤلاء الملاعين. مشارب المدينة تقع فوق سوق الفشخة الذي يقسم البلد قسمين؛ والسوق العمْومي فوق أيضاً. «دار البرتقال» تجاور السوق السيئ السمعة وتجاور «زاروب حليمة» (مكان مطعم السوسة الآن).

كل العوالم مساكنهن هناك. فكيف ينام الواحد في الليل؟ الإنكليز الشُقر يجولون بعد الشُرب في الطرقات وهم يدقون الأبواب بالقبضات. إذا تعبوا انطرحوا على الدرب وناموا. يطلع عليهم نور الصباح وهم في الطريق، ثيابهم مغبرة، ووجوههم مبقعة بالأحمر الشمندري. كل أيامهم يقضونها على البوارج، وسط البِحار، في عطشٍ للشُرب وجوعٍ للحم النساء، فإذا نزلوا إلى البرّ عاثوا في بيروت فساداً! بيروت الفوقا لا تنام الليل حتى تغادر الدارعة «بافوس» المرفأ.

ـ حظك كبير يا عبد الرحيم، بيتك في بيروت التحتا! والآن صار عندك سور!

وعبد الرحيم البارودي يبتسم لأخواله، ويسكب القهوة المرّة في الفناجين الشفّة الزجاج. يسألونه عن الأحوال ويخبرهم أن المخزن انتهى بناؤه والحمد للّه، وقريباً تصل القافلة من اللاذقية. صار عبد الرحيم يتاجر بالتبغ!

نظر الفتى الواسع العينين إلى الجنود الأتراك والإنكليز يدخنون كالمشاحر، والدخان يخرج من أنوفهم وأفواههم، وعرف من أين تؤكل الكتف: في بلدٍ تعجّ بالعساكر التجارة بالتبغ أفضل تجارة! التبغ بيعه أسهل من بيع الشواء. ثم إن المشاوي وحدها لا تكفي. استعان عبد الرحيم بخالته أُم هند (سعدية الحصّ البارودي) وبدأ يبيع طبيخاً. الضباط العثمانيون تولعوا بمحاشي أُم هند. يأكلون الكوسى والباذنجان والقرع المحشي بالرزّ واللحمة والمطبوخ بعصير البندورة فيحسبون أنهم في استانبول، في الوطن البعيد، في البيوت التي يحنّون إليها. يأكلون حتى التخمة ثم يدخنون تبغاً من عند عبد الرحيم. ومع الدخان يأكلون حلوى أيضاً: حلويات خالة عبد الرحيم الأخرى (سهيلة النابلسي البارودي) يرغبها الأتراك

والإنكليز معاً. «كنافة أُم زهرة النابلسية» ذاع صيتها. أما المهلبية بالحليب وماء الزهر وبالسكر والرز المطحون فصار يُحكى عنها على بوارج الإنكليز في عرض البحر الأبيض المتوسط. يسمونها «المهلبية» ويغمزون بعيونهم لأنهم رأوا بياض أم زهرة وسُمنتها حين نزلت مرة من البيت حاملة الصواني والقصعات المدوَّرة إلى مطعم عبد الرحيم.

الإنكليز الملاعين يطلبون الطعام الثقيل منذ الصباح. يفتحون عيوناً محمرة من الكحول ويسقطون على الكراسي وراء الطاولات على المصطبة أمام عبد الرحيم. يكون آتياً من الجامع أو البيت للتو ودماغه لم يتفتح تماماً بعد، فيسمعهم يطلبون اللحم والبيض والحليب والقهوة. يعجب من شهيتهم ولا يفهم كيف يأكلون اللحم وهم يتثاءبون! كل مطاعم الفول في البلد أقفلت أبوابها برحيل المصريين. لا، ليس كلّها، لكن معظمها. الإنكليز يمقتون الفول المدمس، نفسهم لا تطلب إلاّ المقانق في الصباح. يا لطبعهم العجيب! أما الأتراك فلا يريدون الفول والحمص، نكايةً بالمصريين وحسب! (يوسف الصقعان منيمنة ـ الذي رجع للعمل عند بيت البارودي قبل فترة ـ اكتشف وسيلة مبتكرة لمراضاة العثمانيين: لا يعمل الفول مدمساً بالخل والثوم كما يعمله المصريون، لا، لا يضع خلاً أبداً، بل يعصر حامض ليمون ويمزجه بالثوم المدقوق ثم يخلطه بالفول ويضيف على وجه الطاسة الفخار زيت زيتون أخضر. وإذا شكا الجنود من وجع البطن رشّ كموناً هندياً أيضاً، لأن هذا البهار الطيب الأصفر يجعل هضم الحبوب سهلاً.)

مثل الطيب أبيه عبد الجواد من قبله أيقن عبد الرحيم باكراً أن البحر باب الاسترزاق في هذا البلد. أهل بيروت لن يدفعوا قروشهم في مطعمه. عندهم بيوت وزوجات وبنات يعرفن فن الطبخ. ماذا

يكون هذا الفن؟ أن تعجن العجين وتخبزه في الفرن. هذا سهل. وأن تفرم الخضر وتلقيها مع الموزات في قدرٍ تغلي على النار. وإذا لم تكن الموزات متوفرة، فبلا موزات. نأكل طبخنا بزيت، أو بسمن، أو بقورمة، ونترك اليخاني للإنكشارية. لن يدفع بيروتيٌ «بلدياتي» قروشه في مطعم على الميناء. لكن أبناء البحر يدفعون. هؤلاء الجنود يدفعون، هؤلاء الضباط. وهؤلاء التجار الذين يأتون مع البوارج، ويتدفقون. هنا يدعسون الدعسة الأولى، ما إن يتركوا الأرصفة. يأتون إلى «مطعم المرفأ» وثيابهم المنفوخة تفوح برائحة الملح والعفن والبن وأعشاب البحر والتبغ وعنابر السفن والمدن اللامرئية الكثيرة البعيدة. عيونهم زائغة، ويغطسون في سحابة الدخان المرتفعة من أشياش الكفتة المشوية، ثم يغرقون في الكراسي أو على الفرش عند حائط المصطبة، بين أحواض الفل والياسمين التي زرع أغراسها المرحوم أبو شاهين ومات قبل أن يراها تخضر وتبرعم ثم تعربش على القصبات التي غرزها هنا ابنه الأصغر عمر... عربشت الخيمة الفواحة الرائحة بورقها الأخضر اللمّاع وزهورها الثلجية البياض (كل زهرة بخمس بتلات)، صارت بهجة للعيون! يراها المسافرون المتعبون وهم ينزلون من الصنادل والمراكب على الأرصفة فيقصدونها عابرين زحمة المكارين والحمَّالين والإبل والبغال والحمير. يقصدون الخضرة والزهر الفوّاح الرائحة والطعام الطيب. هذه هي الجنّة. في هذه اللحظة. الإنكليز يأكلون البيض المخفوق، على جنبه شرائح اللحم المقلية بالسمنة. والفرنسيس (بلى، هم أيضاً يأتون من ليون ومرسيليا، يتاجرون في بلدنا ويشترون الحرير الخام وزيت الزيتون)، أهل باريز يأكلون في مطعم المينا البيض المسلوق سلقاً خفيفاً فلا يقسو صفاره، ويشربون الحليب. الأتراك الضباط يطلبون ـ في الصباح، وفي الظهيرة أيضاً ـ

مناقيش الزعتر والكشك واللحم بعجين. عبد الرحيم لم يفتح فرناً للمعجنات بعد، لكنه يرسل أحد الأحباش، أو عمر، أو يوسف، إلى الفرن القريب من جامع النوفرة، أو إلى إلى «فرن داوود» عند البازركان، لشراء ما يطلبه الجنود. إذا طلبوا «صفيحة بعلبكية» أضاف صنوبراً للحمة بعجين! المهم ألا يقول «لا» أبداً، دائماً أهلاً وسهلاً، دائماً ضاحك الوجه، لا، ليس ضاحكاً، بل باسم الوجه، يوزع بسمته باعتدال على الوجوه، فلا يعود الناظر ينتبه إلى أثر الجدري ـ جدري الطفولة ـ في وجهه المربع، ولا يعود الزبون مهتماً إلاّ بالقعود وانتظار طعامه والشراب. الوالي العثماني مدحت باشا ذاته يرسل من القشلاق خادمه اسبيرو لشراء الفتّة باللبن والحمص بالطحينة! أطيب حمص بطحينة في بيروت!

هل نستطيع اليوم، بعد مرور 165 عاماً على نزول عساكر الإنكليز عندنا، أن نتخيل بيروت أربعينات القرن التاسع عشر؟ بيروت عبد الرحيم البارودي ليست بيروت أبيه عبد الجواد. ما سيعرفه الابن لم يعرفه الأب. (مات عبد الجواد البارودي قبل زوال الأسوار: كان في أيامه الأخيرة يسير في الأسواق فلا يرى الأشياء تتغيّر أمام عينيه. كان غارقاً في الظلمة، معدته تنزف دماً وكبده يتشمّع، يتقدم إلى حتفه، عاجزاً عن ابتلاع اللقمة بعد أن فَقَد بكره شاهين.)

عبد الرحيم البارودي المولود قبل ثلاثة أعوام أو أربعة من الفتح المصري شهد التحولات الكبرى لبيروت. المدينة التي كانت بلدة زراعية مسورة، تستلقي على البحر محضونة ببساتين التوت، ولا يجاوز عدد سكانها خمسة آلاف نسمة، تبدلت بعد قدوم المصريين وبعد إنشاء الكرنتينا بمبادرة القنصلاتو الفرنساوي غيز: صارت بيروت باب البلاد الشامية على البحر. تدفق إليها التجار الفرنجة

فعجّ الميناء بالسفن. قدمت قوافل الإبل والبغال والحمير من الجبل ودمشق وحوران وحلب تحمل الحبوب والحرير والقطن والتبغ والعفص للدباغة، تلقي أحمالها في الأسواق وعلى المرفأ، ثم ترجع من حيث جاءت محملة بالمنسوجات الأوروبية والأراكيل والشوك والملاعق والسكاكين والقناديل. عبد الجواد أحمد البارودي كبر مع بيروت التي تضاعف عدد سكانها مرتين في الثلاثينات، ثم مات. مات أثر خروج المصريين.

عبد الرحيم وَرِث أباه. وَرِث قمصانه القطن البيضاء الضاربة إلى صفرة الزعفران الطيِّب العطر (كقمصان الرسول الكريم صلَّى اللَّه عليه وسلَّم)، ووَرِث مع القمصان المصبوغة بالزعفران إيماناً عميقاً باللَّه عزّ وجلّ: لم يقبل عبد الرحيم البارودي يوماً أن يبيع المنكر في «محطة الشام». شاربو العرق كانوا يذهبون إلى الحوانيت النصرانية المجاورة حاملين أشياش الكفتة واللحمة من حانوته. لم يبعْ عبد الرحيم عرقاً ولا نبيذاً. كان إذا رأى أحد زبائنه زائغ النظرة من العرق الكوراني الرخيص ـ في «حانوت طوبياً الذي يقابل المصطبة ـ يشيح بوجهه بعيداً. لم يبعْ خمراً ولم ينسَ صلاةً ولا زكاة.

مثل أبيه عبد الجواد من قبله أدار باله على الجامع العمري الكبير وعلى كل إمام حلّ في هذا الجامع. الأب جدَّد المحراب بخشب الأرز قبل أن يموت، والابن فرش الجامع كله بالسجاجيد والحشايا والحصر. حتى إن الحصر غطّت مدخل الجامع، وخرجت من تحت القناطر المطلّة على سوق العطارين! سنة 1844، قبل أن يكتب كتابه على زوجته الأولى ابنة خاله محي الدين الاسطمبولي الفاخوري، أهدى عبد الرحيم البارودي الجامع العمري (وقد رجع للتو من رحلةٍ أولى إلى دمشق) خزائن من خشب لمداسات المصلين وكنادرهم. كانت هذه أولى خزائن كنادر توضع في جامع ببيروت:

عبارة عن رفوف خشب صُفَّت في باب الجامع الغربي (قناطر العطارين) على يمين الداخلين. (هذا التقليد ما زال محفوظاً ـ ومعمولاً به ـ إلى هذه الأيام: خلال سنوات الحرب اللبنانية، بين 1975 و1990، أُقفل الجامع وتهدمت حيطانه. لكن بعد 13 سنة على انتهاء الحرب رُمِم وعاد إلى عهده الأول).

تزوج عبد الرحيم البارودي عائشة الفاخوري كريمة خاله محي الدين وأسكنها البيت حيث وُلِد. عائشة كانت في سن أخيه الصغير عمر، وُلدت مثله سنة هجرة أبيها الحاج محي الدين من بيروت إلى اسلامبول، فراراً من الجيوش المصرية. تزوج عبد الرحيم سنة 1260 هجرية، ورُزِق ابنته الأولى سنة 1261: سمّاها صفية على اسم المرحومة أمه وفرح بها فرحاً لم يُعرف له مثيل في المدينة منذ زمنٍ بعيد. نحر الخراف، وملأ الكؤوس بالشربات، واحتفل بالبنت كأنّ عائشة ولّدت له ذكراً لا أنثى! أخواله ـ أهل زوجته ـ ضحكوا منه. وحده جده المفلوج مصطفى غندور الفاخوري لم يضحك من ابن الشامي المرحوم: حين وضعوا الطفلة بين يدي العجوز رأى في العينين لمعة قديمة يعرفها. الطفلة الصغيرة صفية لم تنظر إلى وجه الختيار ثم تبعد نظرها: ظلّت تحدق إليه بنظرة قوية مملوءة بالعاطفة الجياشة. كانت هذه نظرة صاحب الذراع الواحدة صهره عبد الجواد! سبحان الخالق الناطق! البنت تنظر نظرة جدها!

تولع عبد الرحيم بابنته صفية حتى كاد ولعه بها يشغله عن تجارته ومطعمه. في تلك الفترة ارتفعت أعمدة الدخان الأسود فوق جبال الشوف مرة أخرى، تماماً كما حدث قبل أربع سنين. عام 1841 وقعت حربٌ أولى بين الدروز والموارنة، وعام 1845 وقعت حربٌ ثانية. سيُقال بعد ذلك أن صفية وُلدت «سنة الحرب الثانية»، أو «سنة السهلات».

أهل بيروت سمّوا 1845 «سنة السهلات» لأن سهلات البرج تغيَّرت بعد نزوح عائلات جديدة من الجبل إلى بيروت. قُطعت أشجار التوت وظهرت أكواخ وبيوت. المدينة تتمدد أفقياً، وهذه أسهل بقعة يمكن التمدد فيها.

الجانب الآخر من البلد، الجانب الغربي، محاصر بالهضبة العالية حيث أنشأ الأتراك القشلاق (ثكنات العساكر) مكان برج إبراهيم باشا الذي نسفوه.

أما الجانب الجنوبي (شارع الأمير بشير اليوم) فغير مرغوب لسببٍ بسيط: وجود «السوق العمومي» الباقي بين باب الدركاه وباب يعقوب. السور لم يتهدم في هذه الناحية بعد، لأن حجارته متداخلة بالحيطان الخلفية لبيوت السوق. الخواجه أسعد فياض (المحفوظ اسمه إلى زمننا على شاهدٍ في مقبرة مار متر) ضحك وهو خارج من كنيسة مار جرجس بعد قدَّاس الأحد، وقال إنها مدينة عجيبة هذه المدينة، كل أسوارها وقعت فانكشفت نوافذ البيوت على العيون، إلاّ سور السوق العمومي ونوافذ العوالم المصريات بقيت مستورة! العوالم مستورات لأن السور عندهن لم ينقبه أحد!

لا يبقى إلاّ الجهة الشمالية، وهذه سهول لانهائية، لكنها من الماء المالح الأزرق الأجاج، لا ترتفع عليها عمارة.

خرجت بيروت من الأسوار شرقاً، إلى «سهلات البرج». السور في الجهة الغربية، بين «دار البرتقال» وباب إدريس، ستبقى بعض أقسامه منتصبة شبه كاملة كما هي إلى ما بعد حوادث 1860. (الكونت سليمان ده بسترس يذكر أنه حتى قبيل انتصاف القرن العشرين، أو عند انتصافه، في أيام حكومة الرئيس سامي الصلح، كانت أطلال السور باقية في تلك الناحية، حيث شارع المصارف

اليوم. كانت أطلال السور قائمة هناك، وكانوا يُسمّون السوق الممتدة بمحاذاتها سوق الحدادة، وهي عبارة عن أقبية مظلمة متصلة يُنزل إليها بسبع درجات إلى تحت مستوى الأرض؛ ويقعد في مدخلها ـ حيث تنكشف قبب العقد على نور السماء ـ كشاشو الحمام الذين يبادلون ما غنموه من حمام بحمامٍ أو بمال. كانت سوق الحدادة تنعطف إلى حيث يجلس الحدّادونَ، والحديد يشرقط بين الأيادي، بين المطرقة والسندان، يشرقط ويضيء الوجوه، وصدى الطرطقة يتردد بين الحيطان ويمتزج بالنداءات والهتافات وبروائح الفول والمناقيش والسمك المقلي، ففي آخر سوق الحدادة كان يوجد حانوت تملكه أرملة من آل الصليبي يقلي سمكاً طازجاً كل يوم ويقدم «صيّادية» كل يوم جمعة).

أعمدة الدخان المتعالية فوق الجبل والمرئية من سطوح بيروت ردّت عبد الرحيم البارودي إلى نفسه. أعطى الطفلة لأمها كي تُرضعها ومضى على «طريق عبد الجواد» وخرج إلى سوق الفشخة وبدل أن ينعطف يساراً ثم ينحدر في سوق القطن إلى مطعمه، انعطف يميناً، ثم صعد في العطّارين، يلقي التحية على التجار والمعارف. خطوته سريعة واثقة، وعيناه مشغولتان. كأنه يفكّر أفكاراً غير مألوفة. انعطف وصعد إلى جامع النوفرة، ووقف هناك، عند زاوية البازركان، حيث متجر أبيه المرحوم، الذي ضمنه منه قبل سنوات الحاج راغب قباني. وقف ناظراً إلى الأثواب والقنابيز والسجاجيد والقناديل ونرابيش الأراجيل المعلقة من أغصان الأشجار القليلة الباقية، ومن سقوف الدكاكين وفي مداخلها، ينظر إلى التجار والزبائن والحمّالين والشغيلة والعبيد، ولا يرى ما ينظر إليه. ألقى التحية على أحد معارفه من آل مشموشة، وردّ سلام أحد المشايخ المغاربة، ثم أسرع خطاه مرة أخرى، وعبر البازركان وخرج من

الجهة الأخرى فوجد نفسه أمام «دار البرتقال». لبث واقفاً أمام البوابة القديمة المنفوشة بالمطر لحظة، ثم غيَّر فكره وذهب يساراً يعبر الأزقة الضيقة التي تشبه المتاهة (لحظة ضوء ولحظة ظلمة بحسب توالي القبب والدهاليز) حتى خرج إلى نزلة الدركاه. وقف رمشة عين أمام ثكنات المصريين العتيقة التي تحولت ثكنات عثمانية ثم انحدر في النزلة نحو ساحة العصافير التي صارت تُسمى ساحة مار جرجس بسبب الكنيسة المجاورة، ثم شاع لها اسم بسيط: ساحة جرجي (وهي ساحة البرلمان أو ساحة النجمة الآن). كانت النزلة مزدحمة بالناس والحمير التي لا تسلك الأقنية المعمولة لها في وسط الزقاق لأنها حمير! وارتطم ببغّال فكادت الخبطة تفكّ مفصل الكتف الأيمن من محله. نظر إلى البغّال بنظرة أبيه القاسية فابتعد الرجل بأسنانه السود من طريقه، ابتعد هو وبغله القوي الناصع البياض واختفى في الزحام. رأى عبد الرحيم عندئذٍ أرغفة صاج يفقس عليها البيض ثم تسقى زيتاً. ورأى رجلين يتساعدان على حمل خابية فخار مملوءة بزيت السمسم (يعرف أنه زيت سمسم من الرائحة الشهية الحارة). ثم رأى ثلاث نساء عابرات في أثواب حرير ملونة، وعلى شعورهن أغطية من القماش الإنكليزي الموشى بالترتر وخيوط الذهب. النساء الضاحكات ملأن عينيه لحظة، ثم اختفين ـ كما اختفى البغّال قبلهن ـ في زحمة الدركاه. انحدر عبد الرحيم نحو الدهليز. وقف أمام دكان الخضر العتيق الذي حوّله منذ سنوات إلى دكان تبغ، يبحث بنظراته عن أخيه عمر ولا يعثر عليه. أين الشيطان الأخضر العينين المحروق بماء البحر؟ أين هو الآن؟ رأى علي سلامة، الذي طال ولم يعد ولداً، واقفاً في عتمة الدكان يُرتب الغلايين القصب الممشوقة المطعمة بالحجارة الملونة، ويدندن أو يصفر، وظهره لمدخل الدكان وللعابرين. أراد عبد الرحيم أن ينادي

عليه وأن يسأله أين عمر، ثم لم ينادِ. انشغل بمتابعة فوج هائج من الإنكليز خرج من ظلمة الدهليز القريب ووقف بين سلال فاكهة وخضر، فوج كامل من الجنود، يتبادلون اللكز والغمز والضحك والركلات، ويرطنون بلغتهم العجيبة. كان يعرف بعضهم، وحين رأى أنهم سيكلمونه إذا اقتربوا، وأنهم سيقطعون بالتالي حبل أفكاره، وضع رأسه في الأرض، ومضى في الزقاق إلى يساره، وقطع سوق الصرامي عابراً بين الكندرجية ينظر إلى مسامير وشواكيش وعلب خشب مملوءة بالصمغ العربي، وأخرى حديد مملوءة بالصمغ الأفرنجي الذي بدأ تجار باب إدريس يستوردونه أخيراً، صمغ فظيع الرائحة إذا وقعت منه نقطة على الإصبع أحرقت الجلد، يلتصق بالأصابع التصاقاً، حتى إن الكندرجي تلتصق يده بالحذاء الذي يعمله. . . عَبَرَ بين الرجال الذين ينحنون على لفات الجلد وعلى السكاكين بوجوه صفراء، كأنهم يعانون ألماً مزمناً في بطونهم وظهورهم، وخرج إلى العطّارين من جديد وانعطف يميناً ودخل تحت القناطر إلى صحن الجامع العمري. مثل أبيه عبد الجواد (عند كل قرار وخطة) مضى إلى الحصيرة في الزاوية الجنوبية الشرقية، وراء المحراب، حيث النافذة المستطيلة العالية، القريبة من الباب الذي يُترك موصداً. من انشغال باله نسي حتى أن يتوضأ! ثم تذكر! فاستدار مسرعاً نحو البركة.

عند خروجه من الجامع، بعد صلاة الظهر، كانت الخطة قد اكتملت في رأسه: سيبني خاناً! تلك الليلة، على طعام العشاء، أعلم عبد الرحيم البارودي زوجته بقراره. كانت تقطع له رغيف الخبز، وعينها على صفية التي نامت للتو بعد أن غسلتها في الطشت بمياه فاترة. لكن قبل أن تقتح فمها وتدعو له بالتوفيق سمعت الدعسات الأليفة وراء الباب ثم سمعت الطرقة القوية. عبد الرحيم قال تفضل،

وعمر دخل تسبقه رائحة البحر، وهو يسدّ الباب بجسمه.

*

تغيَّر عمر البارودي كثيراً في هذه الأعوام الخمسة. حين كانوا يبنون سور الحارة اعتاد أن يحمل الحجارة بالجردل الجلد بدل أن يحمل العتبات الصخر مع أخيه ومع الأحباش. كان يشتغل شغل النسوة والأولاد، ولا يستحي. لماذا يستحي؟ كان جسمه ما زال جسم ولد! ثم إنه ـ منذ ذلك الوقت البعيد ـ وهو يحبّ البقاء قريباً من خالته أُم زهرة. كان عبد الرحيم يضحك ويقول إن عمر وجد أماً بدل المرحومة أُم شاهين، وعمر كان يضحك... في ذلك الزمن الأول وحسب، كان يضحك لهذه العبارة. بعد ذلك صار يهرب بعينيه المحتالتين بعيداً.

خلال خمسة أعوام، بين 1840 و1845، تغيَّر جسمه، تضخم كأنه يتورم، اخشوشن صوته وبانت عليه علائم الرجولة. صار شبيهاً بالمرحوم أخيه شاهين البارودي. لم يبقَ من عمر القديم ـ ظاهراً ـ غير العينين الخضراوين الشقيتين. ظلَّ يحبّ البحر، ويحبّ الغوص وصيد الإسفنج والاستلقاء على شط «الرملة البيضاء» وحيداً مع الصدف والسلاطعين والنوارس. لم يتبدل. وسيبقى الصبي الشيطان القريب من القلب دائماً. ولن يخسر تلك النظرة التي تبعث الضحكات في قلوب خالاته وشقيقاته، حتى رجوعه من «حرب القُرم». (حرب القُرم وصقيع بلاد الروس سيغيّران عمر. هذا كلّه يحدث في المستقبل: بعد زمنٍ على رحيله مع «الفرقة البيروتية» لخدمة السلطان في تلك الجزيرة المثلجة النائية، يرجع إلى البلد برأس بيضاء الشعر، وارتجافة من الجليد حلّت بين الكتفين فلا تذهب حتى ولو جلس بين كوانين الفحم ومناقل الشواء ونيران المواقد، لا تزول الرجفة. سُمّي بعد ذلك «البردان» ثم «الصقعان»

وهذه إحدى عائلات بيروت اليوم. وهو الاسم ـ الكنية الذي التصق بيوسف منيمنة من قبل؛ الولد الذي خدم عند المرحوم عبد الجواد في دكان الخضر ثم في حانوت الشواء القديم الأول قبل أن يلتقطه المصريون من السوق، فيحلقوا شعر رأسه ويلبسوه البزة النظامية الرمادية، ويرسلوه مع بارودة يأكلها الصدأ لحراسة قلاع الأناضول الباردة).

لكن قبل أن تمضي الأعوام ويغادر عمر البارودي بيروت كما غادرها من قبله أخوه الكبير شاهين، كانت مغامرات (وخطط) أخرى في انتظاره. مباشرة بعد انتهاء بناء الحائط العالي وراء بيوت الحارة، بل حتى قبل الانتهاء، بدأ عمر يتكلم عن بناء زريبة أغنام بين بيت أم زهرة وبيت المرحومة الحلبية (المرأة النصرانية التي تزوجت أباه عبد الجواد وأسلمت ثم ماتت). بناء الحائط بدأ من أعلى سوق القطن إلى أسفله. الحجارة الأولى كوموها عند البركة جنب كوخ الأحباش. أولاد موسى وسنان الصغار شاركوا في نقل التراب والحصى والطين. كانوا يعملون ويغنون أغاني غريبة لا يعلم أحد أين تعلموها أو متى تعلموها. وعمر كان يضحك وهو يتعلّم منهم كلمات لغتهم الأفريقية الغريبة ويردد معهم أغانيهم. أم زهرة تبتسم حين تراه شارداً، واقفاً على الحائط الذي يرتفع رويداً رويداً، ينظر إلى صفحة البحر وإلى شراع مثلث أبيض يعبر الأفق. تقول «امسكْ! امسكْ!»، وهي ترفع عتبةً إليه، والعرق ينضح من جسمها السمين، وهو ينظر نزولاً وينتبه من شروده. حين وصلوا في البناء إلى «صبيّرات سرسق» بدأ يحكي عن زريبة! عبد الرحيم سأله من سيبني له هذه الزريبة، «الحوريات وجنّ البحر»؟

مع ذلك وافق عبد الرحيم على الخطة. قطيع الأغنام ليس فكرة سيئة. عمر لا يحبّ القعود لا في حانوت الشواء الذي صار مطعماً

حقيقياً، ولا في دكان التبغ. يحبّ البراري هذا الصبي. البحر، والبريّة. يذهب مع ابن خاله خليل إلى الصيد في برية الرأس (رأس بيروت) حيث تكثر الأرانب أو في حرج الصنوبر حيث تُرى الغزلان وفي قفار برج حمود وغابات الأشرفية العالية (هناك الثعالب الحمراء) فلا يرجع إلاّ مع حلول الظلام. قطيع الأغنام فكرة حسنة. يتلهى بالخراف، يرعاها، وينفع بينما يتلهى. المهم أن يُبعد الذئاب والضباع والثعالب عن القطيع. وهذا سهل. لأنه يحبّ الصيد.

بنوا الزريبة واقتنوا خرافاً للمطعم وبقراً للحليب. أم زهرة ارتفعت شكواها في تلك الأيام. أولاً الحائط: هذا السور ـ الذي بُني لصد العيون وازعاجات الجنود المهابيل وإبعاد الثعابين ـ ضيَّق عليها عيشتها، صارت تعجز عن التنفس في الصيف. ردّ عنها العيون لكنه ردّ تيّار الهواء عن نوافذها أيضاً: كأنها بيديها سدّت الشبابيك بالحجارة. أولاً الحائط، وبعد ذلك هذه الزريبة: كلّما هبّت نسائم البحر عصراً غطّت رائحة البعر والقاذورات فراشها وغطّت الطعام والأواني والكشك الممدود وغطّت الثياب الرطبة المنشورة من أغصان التوتة. هذا لا يُطاق. حتى العجين تغيّرت رائحته، بعد هذه الزريبة. حتى العجين!

لم تطل شكوى أُم زهرة لأن عمر سرعان ما دبّ فيه السأم. ضجر من الماشية ومن حياة الرعاة المملة. ضجر سريعاً (كل يوم كل يوم كل يوم يقود القطيع من ساعة الفجر إلى البرية وراء القشلاق، ولا يرجع إلى البلد إلاّ ساعة الغروب! ما هذه العيشة!). ورَكِبَته نزوة أخرى: يريد أن يأتي بقاربٍ ويصير صياد سمك! طول عمره يحبّ البحر ويحبّ الخروج مع الصيادين. نصف أصحابه من البحارة دروز عين المريسة، وجارهم الصيّاد ابن عائلة النجار طالما أخذه معه إلى عرض البحر!

احتار عبد الرحيم مع أخيه لا يدري ماذا يصنع. خاف أن يقسوه فيتباعدا كما حدث لأبيه عبد الجواد مع أخيه شاهين. لا يريد أن يبتعد عمر عنه. كلما طلب شيئاً أعطاه ما يطلب. حين جاءه يقول إنه يريد السكن في الغرفة العالية فوق بيت أم زهرة قال له إنه إذا أراد مساحة لنفسه يبني له بيتاً هنا، فوق هذا البيت... ثم تركه ينقل فراشه إلى الغرفة البيضاء (صار لونها بتعاقب الأمطار والشمس رمادياً) فوق بيت أم زهرة.

طيلة الأعوام الفائتة ظلّ عبد الرحيم واسع الصدر مع أخيه الصغير، سمحاً هادئاً مقدار ما يستطيع. حتى حين أراد عمر أن يذهب للعمل في «خان الأخوان الصايغ» الجديد قبل عامين لم يقل له عبد الرحيم لا. بلعها مع أنه يحتاجه في شغل المطعم وفي دكان التبغ. بلعها وسكت. وتركه يذهب. لكن عمر لم يبقَ عند أصهاره غير يومين أو ثلاثة ثم ترك شغل الخان.

سأله عبد الحريم باسماً:

ـ لم تحبْ الخان والناس؟

ردّ عمر:

ـ الخان شغله حلو، لولا صهرك بطرس!

الآن يفكّر عبد الرحيم: هل أصهاره أحسن منه أم أشطر؟ الزبائن يعجّون كالأغنام في مطعمه وأمام دكان التبغ، ثم إنه يعرف كل المكارين الشوام وأصحاب القوافل الحلبية منذ كان ولداً طري الأظافر. مثلما بنى بطرس ونصر اللّه وإبراهيم الصايغ خاناً، سوف يبني خاناً. (بعد بطرس ونصر اللّه تزوج إبراهيم ـ أصغر الأخوة الثلاثة ـ نرجس البارودي ابنة أم زهرة. صاروا ثلاثة أخوة متزوجين من ثلاث أخوات. وصارت الدار الكبيرة في «حيّ الإفرنج» تُسمى

«دار الأخوات». أهل الحيّ ينتظرون خروج الأخوات الثلاث للفرجة على جمالهن. لم تلد امرأة من آل البارودي طفلة إلاّ وخرجت الطفلة فاتنة الجمال تقول للقمر انزلْ لأقعد محلك. صفية ابنة عبد الرحيم تبتسم وهي نائمة فيرقص قلب من يراها رقصاً، ينسى كل همومه ويشكر ربّه الكريم على هذه الحياة).

عمر البارودي سقط بجسمه العملاق على الجانب الآخر من سماط العشاء، وقال «يا كريم»! ثم غرف بلقمة المرقوق الكبيرة نصف صحن اللبنة وغمّس اللقمة في قصعة الزيت الأصفر الذهب ورفع اللقمة إلى فمه. عبد الرحيم نظر إلى أخيه العملاق يلحس الزيت واللبنة البقر الطازجة عن أصابعه الداكنة اللون، ثم نظر إلى زوجته عائشة وضحك.

كانت عائشة تغطي الطفلة صفية واستدارت في نور القمر المتدفق من درفة النافذة المفتوحة، أقوى من نور السراج على الحائط، وقالت:

ـ ألف صحة!

فرفع عمر عينيه الخضراوين عن المائدة، وقال وهو يلقي حبّة زيتون لامعة السواد في جوفه:

ـ يا مساء الخير! نامت؟

أحبّت عائشة عمر منذ دخلت هذا البيت. عرفت الطفولة التي تملأ بدنه الضخم من النظرة الأولى. لم يغشها صوته الخشن القوي، ولا غشّتها القمصان التي تتمزق على عضلاته. كان يستطيع أن يحمل زوجها عبد الرحيم بيدٍ واحدة وهو قاعد على الكرسي الخيزران ثم يحطّه. كان يغلبه بسهولة في الكباش مع أن عبد الرحيم وَرِث عن أبيه الزند العصبي وطرقة السندان القاسية. رأت زوجها مرة ينقب

التربة وراء «الطريق البيضاء» بالمعول ـ تلك البقعة الموات التي تغطيها قشرة الكلس الجافة الصلبة ـ فأدهشتها الحجارة تشرقط تحت حد المعول ثم رأت التربة الصفراء تظهر من تحت الكلس. ضربته تهدّ هدّاً. ومع ذلك يغلبه عمر في الكباش. صحيح أنه مرّات يبدو لاهثاً وهو يغلبه، وصحيح أنها مرّات تظن أن عبد الرحيم لا يضع كل قوته في زنده وهو يبارز أخاه الصغير، لكن مع كل هذا فعمر أقوى من عبد الرحيم (هل هو أقوى حقاً؟ وماذا يغيّر هذا؟ إنه عملاق، انتهينا!).

بعد ولادة صفية زادت عائشة حبّاً لعمر. ولع عمر بصفية أوشك أن يفوق حبّ عبد الرحيم لها. (كانت عائشة تقول أمام أمها وعماتها ـ وعائلة الفاخوري الكبيرة كلّها ـ إنها أكثر بنت محظوظة خرجت من «دار البرتقال» إلى بيت الزوجية، منذ عمتها المرحومة أم شاهين. لا يوجد ببيروت رجال مملؤون بالعاطفة النبيلة مثل رجال البارودي، تقول. وحين تُذكرها إحدى بنات عماتها بزيجات المرحوم عبد الجواد الكثيرة يسقط وجهها بغتة وتكفّ عن الكلام!).

لم يُنغص حبّ عائشة لهذا الرجل الطفل عمر إلاّ الأخبار التي أخذت تسمعها أخيراً من هنا وهناك ـ خصوصاً من بنات أعمامها ـ عن غزواته في «السوق العمومي». في البدء لم تصدق. عمر الطيب الكريم يذهب إلى بيوت العوالم! الصغير عمر؟ معقول؟ إلى بيوت العوالم؟

ظلّت عائشة لا تصدق ما يُقال عن عمر حتى رأته بعينيها الاثنتين عائداً ذات ليلة مقمرة منحوسة وهو يترنح على الطريق البيضاء، «يُطوطح» يميناً ويساراً، سكران سكرة إنكليزية معتبرة، وثيابه منكوشة. رائحة العرق كانت تفوح وتسبقه مثل سرب فراشات. وفي النور الحليبي الذي يسبح خلاله جسمه العملاق

كثور، أحسّت عائشة الفاخوري الأنفاس تتدافع كالأرانب في صدرها ثم تسدّ حلقها سدّاً: لم تصدق في البدء أنه عمر! حسبت أنها ترى ـ في النوم ـ كابوساً!

لم يكن كابوساً. مع أن الليلة بدأت من الأول منحوسة. بعد صلاة المغرب جاء زوجها عبد الرحيم مقفل الوجه يجرّ عباءته على الأرض ولا يرد سلاماً. هذه ليست عادته أبداً. ولم تعرف ما به. لم يلاعب صفية. أكل لقمة ورقد في فراشه. صفية التي تُعاني مغصاً أتعبتها قبل أن تسكن وتنام. وهي ـ عائشة ـ اغتسلت ومسحت بالدهن الطيب العطر رقبتها ثم استقرت جنب تاج رأسها. لكن عبد الرحيم لم يهتم وأعطاها ظهره. وهي غفتْ بعد تحديقٍ طويلٍ إلى السقف العالي المظلم: كم مرة حدقت عمتها أم شاهين إلى هذا السقف ذاته، بجسور الصنوبر المسودة، قبل أن يأخذها النوم إلى حيث يأخذ النوم كل البشر؟ غفت ساعة أو أقل ثم أيقظها ألم بطنها. كأن مغص الطفلة انتقل إليها بالعدوى. استيقظت وقامت تضغط بطنها بيدها. وحين خافت أن توقظ بحركتها عبد الرحيم ـ أو الطفلة صفية ـ التفّت بالجبّة العتيقة الثقيلة وواربت باب البيت وخرجت. رأت عندئذٍ النجوم تلمع في سماء البلد مثل عددٍ لانهائي من ثقوب بيضاء في القماشة الكحلية القاتمة: خرج النفس من صدرها! يا رحمن يا رحيم! ما هذه الليلة المباركة بالأنوار! كان المشهد بديعاً. كل تلك النجوم! والجميزة الكبيرة تتفرع أغصانها مورقة وتسبح وتتثاءب كأخطبوط في الفضاء الفضّي الكبير... كأن الماء يغمر الأرض كلها ويشع بالأضواء. زال الألم من جسمها وجلست على العتبة تسمع موج البحر الهائج يتردد في هدأة الليل، وتتأمل الطريق وراء الشجرة توجّ بكلسها تحت نور النجوم. في تلك الساعة من السكينة (هذه النعمة التي وقعت عليها من السماء وأبعدت عن قلبها

السقم) في تلك الساعة المباركة ظهر ذلك الشبح المظلم، يدنو كالعملاق المشؤوم في حكايات جدتها، يدنو كالغول مترنحاً بين العقدين، يغادر فم الزاروب، ويقترب أكثر فأكثر على «طريق عبد الجواد».

كان يُبرطم بكلامٍ غامض عجيب يشبه أناشيد الجنود في السهلات خارج الأسوارِ (هناك، في سهلات البرج، ضرب الإنكليز الخيم وطوقوا المعسكر بالكلس لإبعاد الحشرات والحيّات). ويترنح فجأة فيخرج عن حدود «الطريق البيضاء» ويدخل بين الأشواك أو يوشك على الارتطام بأحد أبواب البيوت المتكاثرة الهاجعة، لكنه لا يلبث أن يرجع إلى الطريق، كأنه رُبط بحبل سرة غير مرئي إلى الدرب ذاتها. رأت رقبته تلتوي، ورأت رأسه يرقص على كتفيه، وتخيّلت حبلاً يلف رقبته، ويجرّه جرّاً على هذه الطريق الكلسية البيضاء، فلا يقدر أن يبتعد عن حدودها أبداً. من هذا العملاق السكران؟ ولماذا يجيء إلى «حارة البارودي» في آخر الليل؟ هل يبغي خيراً أم يبغي شراً؟ وما قصته؟

اقترب حتى وقع النور على شعره ووجهه. عندئذٍ فقط رأت وجهاً تعرفه ولا تعرفه. هذا وجه عمر، الأخ الأصغر لزوجها، لكنه أيضاً ليس وجهه. عمر عيناه واسعتان، يبرق من أعماقهما لونٌ عشبي أخضر، كأنه لون الطحلب تحت المطر. عيناه واسعتان حلوتان، وحين ينظر إليك يملأ قلبك المرح، وتضطرب بين أضلاعك بهجة. لم تَره مرة آتياً على «طريق عبد الجواد» حاملاً صنارة الصيد والمقطف إلاّ وتركت ما في يدها وقامت تستقبله وتدعوه إلى عصير أو شربات أو كعك أو حلوى. تحب القعود معه وتنتظر أخباره عن البلد وأهلها. أما هذا الوجه الذي تراه الآن، في آخر الليل تحت هذه السماء التي تخترقها المذنبات ودوائر الضوء البرتقالي... هذا

الوجه المشوه الملامح، المتراخي العضلات، المبقع بالأزرق والبنفسجي والأبيض، كيف يكون هذا وجهه؟ أهذا عمر حقاً؟ أين صفاء الخضرة في عينيه؟ وقع نور النجوم في مقلتيه فرأت لوناً كالدم أحمر، كربّ البندورة أحمر، لكنها بندورة احترقت على النار، فاسودت أيضاً! ما هذا اللون الغريب؟

نظر إليها وهو يعبر تحت الجميزة ويده على رأسه متابعاً دربه صوب التوتة أمام بيت أم زهرة، نظر إليها بطرف عينه نظرة واحدة فنزل الثلج قطعاً مسننة في عمودها الفقري. كأن السكاكين تمزق جلد ظهرها. تعرّقت ثم برد العرق وتحبحب كالملح البلوري على رقبتها وتحت إبطيها. ما هذه النظرة؟ من يكون هذا الجنّي الذي ولج جسم عمر؟ وأين ذهب الولد الطيب؟ أي شيطان حلّ في الحارة في هذه الليلة؟ وماذا يطلب؟ ولماذا رمقها بتلك النظرة المفزعة؟

تابع الرجل دربه تحت سماء النجوم واختفى في ظلال التوتة ذات الأغصان المستحية المتدلية. اختفى في الظلام. بان لحظة يقطع الطريق بين أشجار الورد الجوري إلى القنطرة الحجر البيضاء. وغاب وراء شبح شجرة أخرى ترتفع جنب درج الغرفة العالية. اختفى الغول عن بصرها، لكنه ظلّ في رأسها: من هذا الرجل المخيف؟ كيف يكون «هذا» عمر؟

عادت إلى البيت وأقفلت الباب بالرتاج واندسّت تحت الأغطية. كان عبد الرحيم يُهمهم في نومه، واطمأنت إلى رائحة جسمه ونامت. كانت رائحته زعفراناً. غرقت في نوم عميق، وحين استيقظت في الصباح (ها هو نور الشمس يملأ المكانَ، وعبد الرحيم يضحك وهو يحمل صفية ويطوي إحدى البطانيات وينظر إليها نائمة)، وتمغطت متثاءبة، عادت إليها الذكرى بلا ألم، بلا ذعر، بلا رعب الليل وسماء النجوم وغموض البلد النائم ورائحة الخمر

والعرق... عادت إليها الذكرى، كأنها من زمن قديم معطوب، كأنها من كابوسٍ رأته في حياة أخرى، في بيت آخر، في مكان بعيدٍ... كان شعوراً غريباً غامضاً، لكنها امتلأت به: لا، لم تَرَ غولاً الليلة! لا، لم يكن عمر شريراً! لا لم يدخل الشيطان جسمه! وحتى لو رجع إلى الحارة في الظلام مترنحاً، يُتعتعه السكر كالكفار الإنكليز، حتى لو عاد سكران من المشارب أو حتى من بيوت العوالم، فهو لم يرمقها بنظرة حقيرة، كلا، لم يحدث ذلك أبداً، هذا مستحيل، لا بدَّ أنه المغص في بطنها، لا بدَّ أنها النجوم، لا بدَّ أنه الليل، لا بدَّ أنه السهر والتعب... عمر لن يفعل ذلك أبداً. لن يرمقها بمثل تلك النظرة. حتى ولو استبد به السكر، حتى ولو امتلأ نجاسة... أليس الأخ الأصغر لعبد الرحيم؟ أليس العم الطيب الذي يحمل صفية على كتفيه ويدغدغ بطن قدميها ويركض بها بين الحيطان؟

*

ها هو الآن قاعد على الأرض يأكل اللبنة مغمسةً بالزيت ويسمع عبد الرحيم يحكي مرة أخرى عن خانٍ يريد أن يبنيه. عبد الرحيم يلفظ كلمة «خان» والنور يلمع في عينيّ عمر. يكف عن تغميس اللقمات في الزيت ويصغي. وجهه يبرق. هذا الطفل العملاق كم يحبّ الخطط! يقفز عن الأرض، ينسى الطعام، ويرفع صوته وهو يتكلم. يتكلم والقوافل تكرّ أمام عينيها. لا يخشى أن يوقظ صفية من نومها. ولعله يريد إيقاظها ليتسنى له أن يلاعبها. أهي فكرة عبد الرحيم أخرجت من جوفه طاقة خيالية؟ عائشة تراه يذهب إلى هذه الزاوية، إلى تلك الزاوية، أصابعه ضخمة، يفتح يده ويغلقها، يقعد جنب عبد الرحيم، يعانق كتفه، ثم ينهض، لا يعرف ماذا يصنع بجسمه الضخم. الحيطان تحاصره. يذهب إلى الباب الذي نجّره

المرحوم أبو شاهين بيدٍ واحدة ويفتحه وينادي على عبد الرحيم. عائشة تضحك وتقول لعبد الرحيم أن يقوم وإلاّ أيقظ عمر الصغيرة أو أسقط السقف على رؤوسهم. عبد الرحيم يبتسم وهو يقوم إلى أخيه، وعمر يرتفع صوته وراء الباب، يتكلم عن خانات بسترس وبيهم والصايغ.

عائشة وحدها الآن. خرجا إلى تحت الجميزة، وتسمع صوتهما إلى هنا. يرسمان الخطط للخان الجديد وهي تنظر إلى صفية. ما أحلى نومها! وفضة القمر تسيل من النافذة وتتسرب في الهواء وتملأ الفضاء برداً. الضوء يُنقط بطانية صفية، والطفلة غارقة في نومها. لا تدري عائشة لماذا تنهمر الدموع من عينيها. تريد أن تصلي. أن تنهض وتغسل يديها ووجهها ثم تتوضأ وتبسط سجادة عبد الرحيم القديمة وتصلي ركعتين. هذا ما تريده الآن. لكنها تبقى جامدة حيث هي، تنظر إلى الحُفر في قصعة اللبنة، وتنظر إلى كسرة الخبز تجفّ في هواء الليل وتقسو. صوت يأتي من الخارج، وعواء ذئاب بعيد. ليس بعيداً جداً. منذ سقوط الأسوار، بات الصوت أقوى. مع أن بواريد الإنكشارية والإنكليز قتلت نصف ذئاب رأس بيروت ونصف ثعالبها. هذا القمر الكامل يجعل العواء أقوى، يجعل العواء طويلاً، حزيناً، حاداً، بلا نهاية... كأنه يطلع من جوف بئر!

عائشة تتذكر أشياء. وتشعر بالخوف. تخشى ما سيحدث. لا تعرف سبب خوفها. لكنها تمسح وجهها. عليها أن ترفع الأطباق. وإلاّ أكلها النمل.

ونحن نترك عائشة ترفع الأطباق إلى «النملية» وتردّ الخبز إلى السلّ وتغطيه بالقماش، ونتبع الأخوين البارودي إلى تحت الجميزة الكبيرة. في ظل هذه الأغصان، ذات أصيلٍ رطبٍ بعيد، جلس عبد الجواد أحمد البارودي مع أقاربه آل الفاخوري يشربون القهوة

المرّة وينتظرون خروج الداية قدرية الجمل من البيت الصغير: في ذلك الأصيل البعيد لم يكن عبد الرحيم خرج من بطن أمه بعد... كيف عبرت الأعوام؟ كيف صار عبد الرحيم رجلاً؟ كيف قضى عبد الجواد بعد ضياع بكره شاهين؟ وكيف تحول عمر الصغير ـ جنّي البحر ـ إلى هذا العملاق المتورم البدن الذي لا يدري ماذا يريد؟

الغيوم القطن تغطي جانب القمر، والهواء يلاعب الظروف في شجرة الخروب. خشخشة كالموسيقى تتراقص في الفضاء، والبيوت كلّها هاجعة. حتى القشلاق، على الهضبة العالية في الغرب، لا يصدر عنه صوت. حتى عسكر القشلاق خلد إلى النوم. لكن عموداً من الدخان يُرى صاعداً هناك، وراء الحائط الأصفر العالي: لا بدَّ أنهم الحراس الأتراك، يُشعلون ناراً ويستدفئون ويعملون «زهورات» أو قهوة. النار تؤنس في الليل. والشراب الساخن يُنعش.

القمر في كبد السماء يتدور كرغيف الخبز. بيروت تنام. عمود دخان أبيض يتعالى من القشلاق الذي لم يُسقف قرميداً بعد، فيقابله عمود دخان آخر يرتفع من جهة الشرق، من «جلّ الإنكليز».

سمّوا جلول التوت عند حافة «مقبرة الخارجة» «جلّ الإنكليز» لأن الإنكليز بنوا اصطبلات أحصنة هناك، وبنوا وراء الاصطبلات ـ في جوار «الصيفي» ـ فرن العسكر. في هذا الفرن يُخبز خبز الجيش. فوق الفرن أُقيم المطبخ، يرتفع منه الدخان ليلاً نهاراً وتفوح منه الروائح والأبخرة. عمود الدخان يتبدل لونه من أبيض إلى أزرق إلى أسود، يتكاثف ثم يغدو نحيلاً كخيط، لكنه لا يغيب أبداً. الناس من داخل الأسوار يرونه. (الأسوار زالت لكن الأهالي ما زالوا يقولون «فلان يسكن بباطن البلد»، و«فلان يقطن خارج الأسوار»).

هذه ليلة مشهودة. القمر ينثر فضةً على الأشجار والمآذن والسطوح. وعبد الرحيم بن عبد الجواد أحمد البارودي يتأمل السماء فوق «سهلات البرج» ويقول لأخيه عمر انظرْ، هل ترى العمود الأبيض، سبحان اللّٰه، هناك بإذنه تعالى، سنرفع الخان.

يقول نصف الخطة التي تسكنه كالوسواس منذ وقتٍ. يقول سنبني الخان هناك، ولا يقول ماذا سيُسمي الخان. لم يُقرر بعد: هل يُسميه «خان عبد الرحيم» أم «خان البارودي»؟ كلّما فكّر في هذه المسألة، وراجع قلبه، أحسّ بشوكٍ ينبت في حلقه، في الحنجرة والزلعوم وقصبة الهواء. لا يدري لماذا، لكنه يتريث، لا يحسم في أعماقه هذه المسألة. عليه أولاً أن يبني الخان. (إذا وفقه اللّٰه يبنيه في عامٍ أو عامين. بعد ذلك يقرر ما يسمّيه).

عبد الرحيم لم يكن يعلم عندئذٍ أن الخان لن ترتفع حيطانه وتُسقف في عامين أو ثلاثة أعوام. ولم يكن يعلم أنه لن يُسمى «خان عبد الرحيم»، ولا «خان البارودي»، ولا حتى «خان الشام». الخان المذكور عُرِف في تاريخ بيروت باسم «خان التوتة» قبل أن يغلب عليه اسم «خان القزاز» (خان الزجاج). الرحالة الطلياني ماريو فابري يُسمّيه في رسائله «خان البلد». أما صاحب خريطة 1872 العثمانية فيشير إليه ـ خطأً ـ على أنه «خان الأروام».

استغرق بناء الخان سبعة أعوام. أكثر من مرة، في هذه الفترة، توقفت أشغال التعمير تماماً، واعتقد أبناء بيروت ـ وعبد الرحيم واحد من هؤلاء ـ أن الخان لن يكتمل أبداً. الرجل الذي طالما ملأه الأمل والعزم بدأ هو أيضاً يؤمن أن هذا المشروع كُتب له الفشل. حارب بكل قدراته ليكمل بناء الخان. وفقط في النهاية، حين فَقَد الأمل في إكماله، غدت الأمور سهلة وفتحها اللّه في وجهه.

استغربت عائشة واستغرب عمر واستغربت أم زهرة واستغرب آل الفاخوري، كل هؤلاء استغربوا قرار عبد الرحيم شراء أرض من الوقف الإسلامي عند حافة مقبرة المصلى المقفلة. لماذا يبني الخان هناك، بين خيم الإنكليز وزرائب جرجس دبّانة التي تحولت بيوتاً للنصارى الهاربين من دير القمر؟ لماذا يبني ابن المرحوم عبد الجواد خاناً بعيداً من شط البحر وبعيداً من مطعمه (محطة الشام) وبعيداً من داره (حارة البارودي ذات الأسوار) وبعيداً من قلب البلد؟ لماذا يبني خارج الأسوار، بين أولاد البريّة، في أرض الواوية والتوت والأشواك؟ لماذا لا يبني هنا، جنب المطعم في جلول عيسى ساسين الذي مات عن أرملة فقيرة لا تمانع أن تبيع هذه التينات كلّها، هذه الأرض المتدرجة، بثمن التراب؟ إذا بنى هنا، لصق المطعم المزدهر، يستطيع أن يطلّ من نوافذ الخان على شجرة الخروب وراء

الحائط المقابل، الحائط الذي بناه مع عبيده الأحباش لرد العيون عن بيته وبيوت خالاته! يستطيع إذا شاء أن يطلع إلى سطح الخان وينادي على زوجته عائشة في الجانب الآخر من سوق القطن ويسألها ماذا تطبخ؟

سألوا عبد الرحيم البارودي لماذا يبني خارج البلد ولا يبني جنب مطعمه، داخل باب الدباغة؟

قال إن المكان ضيق، لن يتسع للخان.

سألوه كم يريد أن تكون مساحة هذا الخان؟

ابتسم وقال اللّٰه كريم، ولم يقل ما يفكّر فيه: كان يحبس الخطة في بطنه. لكنه في الليل، راقداً جنب عائشة، أخبرها خطته: يريد أن يبني أوسع خان في البلد، خاناً أوسع من البازركان، أوسع من خان الملاحة، أوسع من خان الروم (خان الأروام)، أوسع من خان الحرير، أوسع من خان بسترس، وبالتأكيد أوسع من خان الصايغ. يريد أن يعمل سقوفاً عالية، ومستودعات فسيحة، ويريد أقبية عقد تحت المستودعات، وباحة في الوسط تنزل فيها قوافل حلب والشام معاً، ببوابة شاهقة وقنطرة حجر تعبر من تحتها البغال والإبل ذات السنمين. لا يوجد في بيروت كلّها خان تدخله الإبل. الجمل ضخم، ليس بغلاً أو حماراً... والخان الذي يطلب أن يبنيه، سيكون بإذن اللّٰه تعالى، حديث البلد كلّها، وحديث أصحاب القوافل، من هنا إلى بغداد.

عائشة الكثيرة الخوف سألته لماذا لا يبني الخان هنا، جنب «طريق عبد الجواد»، داخل سور الحارة؟

وعبد الرحيم ضحك حتى أوجعته أوصاله. حَضن عائشة ورفع جسمه على جسمها. كان عواء الواوية يُسمع في الليل الساكن، وقال

لها أن رائحتها طيبة هذه الليلة. وهي قالت: «فقط الليلة؟». وعبست. رأى عبستها في الظلام، وزاد ضحكاً. منذ رحلته مع أبيها الحاج محي الدين إلى دمشق، في الصيف الذي سبق الزواج، والأحلام تملأ رأسه. رأى في دمشق عمارات أدهشته. فتح فمه ونظر بعينين واسعتين إلى الجامع الأموي ثم إلى قصر عائلة استامبولي اليهودية. كل هذه القناطر! كل هذه العقود العالية! كل هذه الحجارة الملونة المطعمة! كل هذه الدروب المبلطة!

عائداً مع خاله من دمشق إلى بيروت، يعبران مع قافلة شامية وادي الحرير ووادي القرن وسهل البقاع وسلسلة الجبال والمضائق بين السلاسل تفتحت في أعماقه أشجار لم يعرف بوجودها من قبل: أشجار تنمو بين أضلاعه، وأغصان تبرعم وتخضر وتتفرع وتُزهر. عنده خطط لا تحصى. ليس خانعاً. يريد أن ينتفع، ويريد أن ينفع. يسمع خاله يحكي عن تخت السلطنة، وعن «حي الشوام» على ضفة بحر مرمرة، وعن حرائق اسلامبول وكيف تبنى القصور بعد الحرائق. قبل انطفاء النار في الخشب يبدأ البناء من جديد، هكذا يكون الإيمان باللّه عزَّ وجلّ، يقول خاله، والهواء يداعب لحيته البيضاء، ونور سهل البقاع يلمع في عينيه وعلى بشرته السمراء البارقة...

كان يخبره عن الباذنجان الذي يشوى على المناقل، أو يُقلى في الزيت العميق على الكوانين، ويصف له حريقاً أتى على نصف المدينة حين عبرت القطط جنب الكانون المملوء جمراً فسقط الكانون والتقطت القطط النار وتقافزت تموء وتركض والنار تتوهج من صوفها وتشرقط بين البيوت... كلّها بيوت من خشب، الحيطان خشب، والسقوف خشب، والشرفات المعلقة فوق مياه البوسفور خشب... اشتعلت اسطنبول كلّها. حتى الماء تأجّج بالنار. وفرقع خشب البيوت وفرقع الخيزران وانفجر. كانت الأخشاب تطير في

الليل من هذه الجهة إلى تلك الجهة، وأحياناً تسقط على مراكب وسفن أبقار تعبر الماء فتحرق السفن والبضاعة عليها. لكنك في الصباح ترى الناس يطمرون الموتى ويستخرجون الثمين الباقي تحت الرماد ويعبرون بين أعمدة دخان تتصاعد من الحارات وقد حملوا المعاول والفؤوس والبلطات، ليقطعوا شجراً جديداً، ليحفروا أساسات جديدة، وليرفعوا بيوتاً أخرى... هذه المرة، إذا استطاعوا، يبنون بالحجارة لا بالخشب فقط. ما فات مات، والحياة لمن يبقى. بسم اللّٰه الرحمن الرحيم.

أول نزوله في بيروت، بعد رحلته الشامية، أهدى عبد الرحيم البارودي الهدايا إلى الجامع العمري الكبير، ووزع أموالاً على أرامل البلد. كانت توجد «قفة خبز» توزع خبزاً على الفقراء عند زاوية الأوزاعي، على مسافة قصيرة من الجامع المذكور، وإلى هذه القفّة أرسل عبد الرحيم عبيده محملين بأكياس الحنطة. من أعطاه سبحانه فعليه بإفادة الآخرين. كلّما أعطيت أعطاك ربّك.

لكن عائشة كثيرة الخوف. تخاف ما سيأتي. تذكر من طفولتها ضجة الليل، ورجلاً يتحرك بين مشاعل، ويربط على بطنه زناراً عريضاً خاطوا في جوفه الذهب، ويأخذ عن الأرض أغراضه محزومة في بطانية، ثم يغادر البيت. تذكرُ بكاء. من يبكي؟ أمها؟ أخواتها؟ ومن يكون الرجل؟ كان يحملها أحياناً، أو يضعها على فخذه ويربت على رأسها! أهو الأب الذي تسمع أنه في بلد السلطان، هناك حيث الدروب مفروشة بالذهب والجواهر، حيث الكل يصلي في وقت الصلاة؟ أم أنه واحد من الأعمام؟ لا تعرف من كان. ولا تعرف هل الذكرى حقيقية. تتوالى الأعوام وكل ما تذكره يمتزج بمناماتها وكوابيسها. تذكر أيضاً ليلة اهتزت فيها الأرض ومادت فأوقعت باب «دار البرتقال». وقع الباب ووقع أحد الحيطان. تذكر أيضاً مرض

أمها. وتذكر قصف البلد وقنبلة سقطت في البئر خارج البيت. الآن لا تذهب إلى «دار البرتقال» إلاّ في الأعياد. لا تحبّ الذهاب لأن جدها بات أعمى. بعد الفالج صار أعمى. لا يرى الآن شيئاً. وحين تنظر إلى بياض عينيه المطفأتين تخاف.

لا تحبّ الابتعاد عن هذا المكان. تحبّ هذه الحارة ذات الأسوار: هنا بيتها وزوجها وعائلتها. هؤلاء أهلها الآن. وهذه الحارة حلوة، فيها الأشجار، وفيها هذه الطريق البيضاء، ويلفّها هذا السور العالي الذي يبعد العيون وأولاد الحرام. بكت حين صعدت مع بنات عماتها إلى سطح «دار البرتقال» ورأت الناس ينقبون بالمعاول سور بيروت. لماذا ينقبون سور البلد؟ لم تفهم عائشة سبب ذلك. كانت الضجة تفزعها. كل تلك الطرطقة طوال النهار. والغبار الذي يرتفع إلى الأعلى ثم ينزل على الزبيب الممدود على السطح وينزل على التين اليابس وينزل على الرؤوس. تعطس ويملأ الماء عينيها وتسمع الرجال يقولون إن البلد تخرب بهؤلاء الإنكليز الكفار.

تسمع حديثاً غامضاً عن «زاروب حليمة» والفسق وقلّة الحياء. وإذا أرادت أن تسأل سؤالاً خافت من النظرات وخافت أن يؤخذ كلامها على غير ما تقصد. ثم رجع الأب الذي لم تعرفه يوماً. رجع بباخرة يسمّونها المساجيري، باخرة نار تنزلق على وجه البحر بلا شراع، فيها محرك من محركات الفرنجة الذين لا يؤمنون باللّه، تسبح على وجه الماء مثل طائر بجناحين أو مثل حوت. رجع الأب، ضخماً، عالي العمامة، غريب الرائحة، قاسي العينين، أجش الصوت.

ولم يرجع وحده. رجع مع زوجة وأولاد، وحين رآها أعطاها يداً يغطيها الشعر، بخواتم زرقاء الفصوص، لكي تُقبلها. قبّلت يد الأب ثم تراجعت إلى المطبخ، واختفت بين القدور، ووراء فخارات

القاورما. هنا وهناك تراكضت العمات والخالات، بين عناقيد البصل والثوم والبامية المجففة. . . العناقيد تتدلى من جسور السقف، والرؤوس تعبر، والمناديل تتطاير، وعائشة في الزاوية، تقضم أظافرها. ثم تطلب منها جدتها أن تغسل البطاطا من التراب. وهي تغسل البطاطا، وبينما تملأ قدراً بالماء وتمزح مع بنت عمها، تستعيد الطمأنينة.

هذه أكلة عمها خليل المفضلة. البطاطا بالصينية. قبل المصريين لم يعرفوا البطاطا، يقول جدها. هي أيضاً تحبّ هذه الأكلة. يسلقون البطاطا ويهرسونها ويمدّوها كالعجينة في كعب الصينية. عائشة ماهرة في الطبخ. وعبد الرحيم تولع بطبخاتها. هو أيضاً يشتهي البطاطا بالصينية. تعملها له كثيراً. وتبحبح الصنوبر والجوز والبصل واللحمة في الحشوة. الحشوة تقليها بزيت الزيتون على نار قوية قبل أن تمدها على عجينة البطاطا. لا تمدها على العجينة إلاّ بعد أن تمسح العجينة بالزيت، ثم تمد طبقة بطاطا ثانية فوق الحشوة. وهذه أيضاً تمسحها بالزيت. وفوق الزيت ترش فتات الكعك. رائحة الصينية في الفرن، والزيت يغلي على وجهها، تملأ التنور والبيت كلّه. صفية تفتح عينيها من نوم الظهيرة، وحسين يرفع الصوت بالبكاء، يطلب حليباً. الكلّ يجوع مع هذه الرائحة. وعبد الرحيم يضحك كثيراً هذه الليلة. مع الكبّة وسلطة البندورة والبصل والنعناع اليابس، يلاعبها ويخبرها عن نهاره وعن الورشة. أخباره كثيرة: المطعم والدكان والمرفأ، والورشة. الورشة دائماً. هذا الخان الذي بدأ يبنيه. حماسته للعمل تثير فيها حماسة، فتبعد قليلاً خوفها ووساوسها. لعن اللّه الشيطان. لعن كل الوساوس. بسم اللّه الرحمن الرحيم.

لكن كيف لا تخاف عائشة؟ سرعان ما بدأت المشاكل. الأرض

عند حافة مقبرة المصلى كثيرة الصخور. لم يكن أحد يعلم أن هذه البقعة من سهلات البرج كثيرة الصخور إلى هذا الحد. التربة هنا رملية فقيرة لا ينبت فيها إلاّ التوت والجميز. (التوت لدود القزّ، وفيه ثمار الهزّاز الأبيض العسل. الجميز نورِّقه للأغنام، لكن الأغنام لا ترغبه علفاً. وفي شهر آب (أغسطس)، حين يطلع القمر، يمتلئ الجميز بالثمار. الثمار تبرق بين الورق، ستّها الختيارة تقول إنها تحبّ الجميز أكثر من التين، وتجده أحلى طعماً. عائشة تحبّ التين، لا تحبّ الجميز. ثم إن الجميز يوسخ الأرض. تكنس ثماره صباحاً فتقع ثمار أخرى عند الظهيرة. يُبقع الأرض تبقيعاً. حافة الطريق الكلسية، «طريق عبد الجواد»، سوداء من الجميز!).

تربة السهلات كلّها فقيرة، مملوءة حصى. لكن أحداً لم يرَ من قبل مثل هذه الصخرات! هذه الجلاميد! تكسرت المعاول على الصخور عند حافة المقبرة. اقتلاع أشجار التوت كان سهلاً. احتطبوها بالفؤوس وباع عبد الرحيم خشبها لفرن الإنكليز وربح ثمنها ذهباً. لكن هذه الجلاميد كيف يقتلعها؟ عند توتة قديمة تفحمت بالصواعق، ثم برعمت عند أصلها فروع توت خضراء جديدة، وأخذت تعربش على ذرات الهواء وترتفع نحو نور الشمس، هناك، عند التوتة التي تشبه هيكلاً أسود يتغطى بالأخضر، شعر عبد الرحيم البارودي للمرة الأولى بقنوطٍ غير مفهوم. كانوا يحفرون حول صخرة بدت كأنها مغروزة في جوف الأرض، عميقاً عميقاً عميقاً، بحيث يستحيل قلعها. شعاع الشمس يقع على الرؤوس، والعرق يسيل على السواعد ويقطر على الصخرة ثم يتبخر. الحرّ فظيع، والحديد يشرقط على الصخرة، وعمر البارودي يدور حول التوتة السوداء المجوفة البطن ويتلمس اللحاء القاسي. سرعان ما يفقد هذا العملاق حماسه. في البدء حطّم أكثر من صخرة. واقتلع من أعماق التراب

جلاميد أضخم من عتبات السور. الآن لا يعمل. يتلهى بمراقبة الشغيلة، بإصدار أوامر لا يُبالي بها أحد، بالذهاب والإياب، بالدوران حول هذه التوتة التي تخرج منها أذرع خضراء عجيبة... يذهب إلى البلد أو إلى معسكر الإنكليز حين تعلو الشمس كبد السماء، ويقول إنه ذاهب للصَّلاة. يسمع الأذان فينط. يرمي المعول أو البلطة أو ما يحمل ويقول: «وقت الصلاة». وعبد الرحيم يغضب ولا يُبدي غضباً. يتركه يذهب ولا يتبعه حتى بنظرة. يعلم أنه لن يدخل إلى البلد من باب الدباغة بل سينعطف وراء التينة أمام حارة الأمير ناصر الدين ويذهب وراء فرن الإنكليز حيث ينحدر الشط نحو مراكب اليونان، أصحابه. ولن يرجع إلاّ مع أذان المغرب. تحمّس للورشة في البدء. والآن يتلاشى حماسه كأن الشمس تبخره تبخيراً. عند هذه التوتة السوداء، عند هذه الصخرة العملاقة، استولى الأسى على عبد الرحيم.

أولاد إلياس نعمة اللّه، أحد الديريين القاطنين على مسافة قصيرة، في زريبة تحولت بيتاً، ركضوا يطاردون عجلاً فالتاً. العجل ركض نحو التوتة ثم استدار ومضى، يفرّ من بين الأيدي ساعياً إلى البعيد. اختفى العجل بين الأشواك أول طلعة الكراوية. والأولاد اختفوا. انتبه عبد الرحيم عندئذٍ إلى غياب الضجة: أين الطرطقة وصراخ العمال؟

انتبه من شروده الحزين، من قنوطه المباغت، فرأى أنهم اجتمعوا في ظل أحد الحيطان، يفكّون صرّر الزوادة ويشربون الماء. كان أحدهم يغسل يديه، والمياه تنزل من إبريق الفخار. ورأى عبد الرحيم المياه تتبخر قبل أن تقع على اليدين! ما هذه الرؤيا العجيبة! كانوا يتكلمون ويقضمون بصلاً أبيض ويغرفون بالخبز المرقوق «المجدرة» من طنجرة الحديد ويلقون حبّات الزيتون

المجرح في أفواههم. الزيتون الأخضر ليس هذا موسمه، فكّر عبد الرحيم، ثم لاحظ أنهم يشيرون إلى غيوم ممشوقة القوام تعبر السماء العالية، فوق الزرائب وبيوت القزّ القريبة. ألقت الغيوم ظلّاً فوق الصخرة التي تحطمت عليها آماله، لكن الظلّ سرعان ما عبر وابتعد نحو رمال «الصيفي». تنهد عبد الرحيم. كيف حلّ كل هذا التعب بين أضلاعه؟

من أين يجيء كل هذه القنوط؟ لم يكن يوماً هكذا. نظر إلى أصابعه، إلى التراب، إلى خيط نمل يسعى بين ورق يابس وينزل في ثقب. نملة تحمل حبّة قمح وقعت على جنبها. اختفت النملة ثم بانت. جاءت نملة أخرى وساعدتها. قرية النمل الصغيرة تعجّ فوهاتها بالنمل. راقب النمال الشقراء شارداً ولم يأكل زوّادته. أخذ ينعس. هذه الليالي ـ مع كل التعب في النهار ـ ينام نوم الدببة. ينام نوماً ثقيلاً لا يوقظه معه بكاء أو عواء أو شخير. لكنه في الليلة الماضية لم ينم جيداً. أيقظه كابوس. يذكر أنه رأى كابوساً. حاول أن يتذكر ما رأى. لم يقدر. وقام إلى الوضوء والصلاة.

حفروا حول الصخرة وحفروا. ما هذه الصخرة؟ كأنه عمود دُقَّ في التراب! متى يبلغون كعب هذه الصخرة؟ حفروا حفرة أعمق من بئر! ينزل الواحد إلى أسفل فلا نراه من هنا! وينظر الواحد من تحت ـ من قعر الحفرة ـ إلى الشغيلة أصحابه في الأعلى فيخيل إليه أنه يقف عند أصل سور البلد العتيق وينظر إلى الحراس فوق السور. لكن نور الشمس باهر، يعمي العينين الآن، لأن قعر الحفرة مظلم. الظلام هنا سميك، كأن النور لا يبلغ هذه النقطة العميقة... ومع ذلك لم نصل إلى كعب الصخرة بعد! هذه ليست صخرة. هذا جدار صخر! من بنى هذا الجدار هنا؟

ذات أصيل، والنور يتساقط من الأعالي برتقالياً رطباً،

وعبد الرحيم يجول على الشغيلة ويدور حول الصخرة ويشعر بالأمل من جديد (كان آتياً من صلاة الظهر لتوه)، سمع نداء من أعماق الجورة. كان الصوت ينادي، يقول شيئاً، ويضحك. لم يفهموا الكلمات. لكن الضحكة كانت كافية: بلغوا أسفل الصخرة.

لم تكن صخرة. كانت جداراً مطموراً. وحين نقبوا التراب حوله ابتسم عبد الرحيم. لن يضطر لبناء قبو هنا. لأن الأسلاف بنوا من أجله القبو. عليه أن يصلح هذا الحائط العملاق. وبعد ذلك يبني عليه. هذه يد اللّٰه. سبحان اللّٰه.

سُرّت عائشة تلك الليلة وأنّبت نفسها الأمّارة بالسوء، أنّبت نفسها على خوفها. أعوذ بربّ الناس إله الناس ملك الناس من شر الوسواس الخنّاس يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس. عائشة تصلي مفتوحة العينين في الظلام، وعبد الرحيم يخبرها الأخبار، ويغفو قبل أن يكمل أخباره. حين ينقلب على ظهره يرتفع من جوفه الشخير. كأنه عجوز.

لامت عائشة نفسها على خوفها، لكن الخوف سرعان ما رجع. مثل موجة تذهب وتجيء هذا الخوف. كانوا يحفرون عند حافة المقبرة تماماً حين رنّت المعاول رنيناً مشؤوماً. لا ترنّ على صخرٍ هذه المرة. ترنّ على عظم. من دفن موتى هنا، وراء حد المقبرة؟ أخرجوا هياكل عظمية، وأخرجوا سبع جماجم. جماجم نساء وأطفال. عرفوا من حجم الجماجم. مَنْ دفن نساء وأطفالاً هنا؟ كان هذا شؤماً. ملأوا الحفر بالتراب وخسر عبد الرحيم مساحة. لن يبني على قبور. هذا لا يجوز. يا ربّ يا غفور يا رحيم.

ندم عبد الرحيم على إخباره عائشة خبر الهياكل والجماجم. رأى خوفها فندم. ذُعِرت عائشة.

بعد ذلك تحسنت الأحوال زمناً. الصخور التي استخرجوها ليست نحساً بل العكس. هذه صخور نافعة. نافعة للبناء. تحتاج إلى تقصيب لكنها حجر متين. ونحن نبني خاناً. من دون الحجر المتين كيف يُبنى الخان؟ هذه الصخور بركة، نعمة من عند الربّ.

الشمّاس إلياس دبّاس، صديق المرحوم عبد الجواد، جاء مع صاحبه المعلم حمادة المصري (أحد أشهر الخياطين في بيروت ذلك الزمان)، ليتفرجا على الورشة. عبد الرحيم طلب كراسي القش لصاحبي المرحوم أبي شاهين وطلب القهوة والأراجيل وشربات التوت وطلب بطيخاً. الشمَّاس العملاق الحجم نظر إلى عمر البارودي يساعد الشغيلة على دحرجة إحدى الصخور وقال:

ـ يا عضرا!

كادت الدهشة أن تربط لسانه. استنجد بالعذراء أم الإله ولم يقل إنه قد رأى شبحاً. كان يتذكر شاهين البارودي. صلّب على صدره. وشرب القهوة.

المعلم الخيَّاط أخرج من جيب القمباز إبرة وخيطاً وصار يرتق ثقباً في قماشة بين يديه وهو ينظر إلى الشغيلة يرفعون الحيطان تحت سماء بيضاء والعرق يقطر من أنوفهم. بينما ينظر إليهم يسندون عتبة ويخرجون النفس اللاهث من الصدور انتبه أن العملاق اختفى. عبد الرحيم قال إن هذا يحدث كثيراً، وضحك. قال إن عمر يكره هذا العمل، ويكره كل عمل، أخي مولود تنبلاً، قال عبد الرحيم. والمعلم حمادة المصري أخبره أن حكمة ذلك عند اللّه. بدا حزين الصوت. عبد الرحيم تذكر عندئذٍ أن أحد أبناء المعلم حمادة كان من أصدقاء عمر في زمن الطفولة، وأن الابن المذكور (يذكر وجهاً مغطى بالنمش الأحمر) غرق بينما يسبح مع عمر في خليج عين

المريسة، حيث تكثر التيارات. (روى عمر أمامه مرة، وكان أبوه عبد الجواد ما زال على قيد الحياة، روى عمر أنه يوجد تحت سطح ذلك الخليج كهف يزيد عمقه عن سبعين متراً، وتنبت فيه أشجار حمراء اللون، غريبة الأوراق).

أهالي بيروت اعتادوا الخروج عند العصر للفرجة على ورشة الخان. يأتون حاملين الحمص الأخضر المشوي أو بزور اللقطين المحمصة ويقفون عند حافة المقبرة المقفلة ويتأملون الأشغال. (هذه المقابر الثلاث، المصلى والخارجة والغرباء، أُقفلت كلّها، ولم يعد أحد يدفن فيها موتاه، منذ سقوط أسوار البلد. صرنا ندفن الموتى في مقبرة السنطية الإسلامية في الجانب الآخر الغربي ـ حيث قسم من الأسوار ما زال قائماً ـ وفي مقبرة الروم الكاثوليك المجاورة لها. لا ندفن الموتى جنب بيوت الأحياء. الأسوار سقطت الآن. السنطية بالتأكيد لا تكفي. ومقابر أخرى بدأت تظهر حول البلد. بانت مقبرة إسلامية على هضبة الباشورة، إلى الجنوب من جلول الشلفون والغلغول، ليس بعيداً من طلعة الكراوية. بانت مقبرة مسيحية على تلة الأشرفية، على هضبة القديس ديمتريوس، فصار اسمها بمرور الوقت مقبرة مار متر، وستتحول لاحقاً ـ بتراكم الثروات في مدينتنا ـ إلى مقبرة تشبه قصراً تُزينه تماثيل رخام. هذه المقابر التي تظهر بعيداً من باطن بيروت لن تبقى بعيدة. سرعان ما سيمتد إليها العمران. لكن في ذلك الزمن الأول، زمن وقوع الأسوار، كانت تعتبر بعيدة: الموتى إذا حلّوا فيها عجزوا عن الرجوع إلى البلد).

حين حلّ الأضحى لم يذبح عبد الرحيم البارودي خرافاً أمام «مطعم المرفأ». هذه عادته منذ سنوات. لكنه هذه المرة خرج بالخراف إلى وراء باب الدباغة وذبح الأضاحي عند هيكل التوتة

السوداء حيث سترتفع قنطرة الخان العالية. ذبح الأضاحي على الصخرة التي أوشكت أن تحطم أماله كلّها ورفع الصلاة إلى ربّه ووزع اللحمة على المحتاجين. من مكانه كان يستطيع أن يرى نساء البلد ماشيات في الأثواب الناصعة البياض بين أشجار السرو وسط المقابر التي فتحت بواباتها. الكل يترحم على موتاه وهو أيضاً يترحم. عائشة خرجت من «حارة البارودي» وجاءت مع قريباتها وزارت المقابر. ثم عُدن إلى باطن البلد. تلك الليلة أخبرته أنها رأته من بين الشواهد الحجر ورأت الشغيلة والناس حول الحيطان التي يبنيها. قالت إنها لم تكن تعلم أن البيوت صارت كثيرة هكذا في البرّية!

تكاثرت البيوت خارج الأسوار في تلك الحقبة. المؤلفات التاريخية تخبرنا أن ذلك المد العمراني يعود إلى نزول الإنكليز في بيروت بعد قصف 1840، وإلى تدفق أمواج النازحين من جبل لبنان بعد حوادث 1841 و1845 واقتتال الدروز والموارنة. الإنكليز جعلوا البحر أقرب إلى بيروت. البحر والبلاد وراء البحر. والنازحون جعلوا الجبل أقرب إلى بيروت. الجبل والمدن وراء الجبل. صارت بيروت حلقة الوصل بين العالم البرّاني (ما وراء البحر) والعالم الجوّاني (ما وراء الجبل).

عبد الرحيم البارودي أراد أن يبني الخان في سهلات البرج، لا ليكون أوسع خان يُبنى في بيروت وحسب، ولكن أيضاً ليكون خان القوافل الآتية من حلب ودمشق وحوران، قبل أن يكون خان التجار الفرنجة الذين يحملهم البحر إلى هذا الشط. لم يبنِ بين النصارى الفارّين من الجبل، كما اعتقد أخواله، بل بنى حيث يستطيع استقبال القوافل الشامية قبل أن تبلغ هذه القوافل الخانات المنافسة على المرفأ وداخل باب الدباغة. كانت هذه خطته: أن يسرق هذه القوافل إلى خانه!

ما كان يدري عندئذٍ أن حوادث الجبل التي حرّكت فيه الخطط (رأى أعمدة الدخان ترتفع فوق الجبال فأدرك أن الحياة لا تحبّ الفاتر الساكن؛ عليه أن يتحرك؛ أن يحمي داره ورزقه وعياله؛ أن يستفيد ويسترزق ويوسع أعماله)، ما كان يدري أن هذه الحوادث نفسها ستكون باب الرزق وباب الخراب معاً. ولا كان يدري أين تأخذه أحلامه. مثل أبيه عبد الجواد وُلِد عبد الرحيم محارباً. لا يحبّ السكون. كلّه طاقة. في بدنه حرارة جوّانية تتقد كل ساعة، وعليه أن يصرف هذه الطاقة. عمر مثله، لا ليس مثله، بلى، لعله مثله: والفرق أن عمر لا يعرف أين يضع طاقته. ما زال لا يعرف. أما هو، عبد الرحيم، فيعرف. هذا هو الفرق.

أعمال البناء تتعرض للتأخير مرة تلو أخرى. حين تبدو الأمور وكأنها تجري الجريان السهل الذي لا يُعرقله سدٌ أبداً، تحدث الكارثة. تغلَّب الرجل على الصخور ثم تغلَّب على الجماجم الفارغة العيون، لكن موجة جديدة من النازحين أفسدت أشغاله. ذات ظهيرة جاء إليه ضابط إنكليزي مع فرقة جنود وقال إنه يحتاج إلى عمال!

سأله عبد الرحيم كيف ولماذا وما هذا؟

كانت دوامة صراع يائس بكلمات عربية وإنكليزية، وأخرى مركبة من اللغتين معاً، لكن عبد الرحيم اضطر إلى التسليم بالخسارة في النهاية (لو كان عمر هنا، هل كان يفيده؟). أخذ الجيش الإنكليزي كل الشغيلة، وذهبوا!

سخَّر الإنكليز الأهالي في بناء الأكواخ للنازحين الجدد. الإنكليز والأتراك معاً سخَّروا الأهالي. لكن عبد الرحيم لعن الإنكليز ولم يلعن الأتراك لئلا يُغضب أخواله. ثم أن الوالي العثماني سرعان ما أوقف أعمال السخرة. والشغيلة عادوا إلى الورشة.

رجعت الأعمال إلى عهدها السابق ولم ترجع. الحيطان ترتفع ببلادة. ومرّات يبدو كأنها تنخفض بين ليلة وأخرى. كيف يحدث هذا؟ تُرصف الحجارة، صفاً فوق صفٍ، فكيف يغدو الحائط أقصر؟ لا نبني إلى أسفل، بل إلى أعلى! كيف يحدث هذا؟ هل يخرج الجنّ في الظلام من المقابر ويسرق حجارتنا؟

هذا تماماً ما يحدث. لكن الجن لا علاقة له بالأمر. اكتشف عبد الرحيم أن أهل السهلات يسطون على حيطانه. هؤلاء النازحون المقطوعون من شجرة، الذين أتوا إلى هذه الأرض بلا ثياب ومال، يسرقون عرق جبينه. يتعب النهار كلّه ليرفع حائطاً، فيتسللون في الليل ويسرقون الحائط. يريدون حجارة. المقالع بعيدة. المقالع في وطى المصيطبة وفي الرملة البيضاء، ولا بغال عندهم ليحملوا الحجارة من هناك إلى هنا. كل حجارة السور نُقبت ونُهبت، ويريدون حجارة. بلا حجارة كيف يرفعون بيوتاً ها هنا، وكيف يحتمون من عواصف الشتاء الآتية؟ أكواخ الخشب وخيم القماش التي نصبت من أجلهم تداعت وتحطمت وبعثرتها هبّة ريح الخريف الأولى! الشتاء يدنو، والسفن تختفي من عرض البحر. حين صفرت الريح الشمالية اختفى الشغيلة. تحت الأمطار التي تسوط توت السهلات ذابت حيطان الخان المشؤوم، ذابت كأنها من ملح!

فار الغضب في بدن عبد الرحيم مثل ربّ البندورة، مثل الدبس الذي يغلي على النار. فار الغضب من أعضائه وهو ينظر إلى الحيطان التي نُقبت وسُرقت أثناء العاصفة. كانت النسائم لاسعة البرودة. والسماء صافية الزرقة الآن. وبعيداً تظهر الثلوج: كلّلت قمم صنين، ثم زحفت نزولاً حتى بلغت الهضاب فوق خليج جونيه. لم يرَ عبد الرحيم عندئذٍ أبيض الثلوج. ولم يرَ أزرق السماء الساطع. ولم يرَ أسراب البجع والوزّ البرّي تقطع الفضاء فوق

السهلات. لم يرَ إلاّ هيكل التوتة السوداء التي تركها واقفة، لا يدري لماذا تركها واقفة (الشغيلة اعتادوا أن يحفظوا الزوّادة معلقة في جوف التوتة فلا تجرها الثعالب وبنات آوى والقطط، ولا تأكلها الكلاب). نظر عبد الرحيم البارودي إلى خُربة الخان (لن يكتمل هذا الخان المنحوس أبداً!) ففار اللون الأسود من عينيه وغطّى العالم كلّه.

غمر السواد السهلات وغمر الأكواخ الحقيرة وغمر بيوت اللاجئين أبناء الجبل أصحاب اللهجة الغريبة بالحروف القاسية التي تطقّ في الأذن طقّاً. لا يقبلون دعوة إلى قهوة أو تبغ أو طعام، دائماً يبدون مهذبين مؤمنين أتقياء، وفي الليل ينهبون أملاكه! الكلاب! أنجس البشر! امتلأ عبد الرحيم غيظاً، لطم بقبضة يابسة التوتة اليابسة. لم تؤلمه قبضته. التوتة صقلتها الأيام والأكف الناعمة. طالما رأى النسوة واقفات هنا، وعلى الأرض أحمال التوت، كل ذلك الورق الأخضر، كل تلك الفروع الطرية، يسترحن لحظة قبل أن يحملن الربطات إلى بيوت القزّ. لحاء التوتة القديمة بات ناعم الملمس، يبرق مصقولاً، لامع القشرة، ملوناً بأزرق عميق، كأنه حُقن بمادة زرقاء تحت الغشاء. سكن غضب عبد الرحيم. بغتة سكن غضبه. لا يدري كيف حدث هذا. رأى ظلّه، رأى وجهه منعكساً في الجذع المصقول، في الصفحة الزرقاء. رفع عينيه ونظر إلى طيور بيض تقطع السماء. من الأعالي نزل النور، نزل في صدره. أخذ نفساً عميقاً. كان الهواء سام البرودة، لسع رئتيه لسعاً. عاد الغضب في لحظة. سرقوا الحائط الغربي كلّه، أهلكه ذلك الحائط، أهلكه الحجر الرملي، وأهلكته العتبات الزلقة التي نبشوها من التراب، أهلكه ذلك الحائط قبل أن يرتفع، وها هو قد اختفى... تلاشى. كلّه سرقوه تحت المطر. الملاعين! ولا يجد في البلد معلم عمار

واحداً! الجنود أخذوا كل المعلمين! الجنود وآل سرسق الذين يبنون قصوراً في الرميل، قصوراً من رخام! وبلا معلمي عمار لا يرتفع الحائط مستقيماً، ولا تضبط العقود. كل القبب تقع، والأعمدة تميل. ثم يأتون ويسرقون الحجارة! حتى الجسور الخشب سرقوها!

موجة غضب عالية تتبعها موجة قنوط. ارتفاع ثم هبوط ثم ارتفاع... ولطم التوتة مرة أخرى. ألا يصلي الصلوات الخمس في مواقيتها؟ ألا يبذل الزكاة بسخاء؟ ألا يرعى خالاته وبنات خالاته، شقيقاته من أبيه؟ ألم يقرض أصهاره آل الصايغ ذهباً حين احتاجوا إلى ذهب؟ ألا يساعد الأرامل والأيتام والمحتاجين؟ ألا يسلك سلوك أبيه عبد الجواد ويحفظ عرضه ويُربي البنين؟ أليس مسلماً ورعاً تقياً يعطي من كل قلبه ويسعى إلى خير المسلمين؟ فما بال الدنيا تُسوّد عيشته! ولماذا يتخلى عنه الرزّاق الرحمن الرحيم؟ استدار ابن عبد الجواد، ووجهه ساقط، ومشى نحو البلد. لم يذهب في طريقه المعتاد، بين البيوت التي تتكاثر عند حافة معسكر الإنكليز. ذهب في الطريق الأخرى، ومضى نحو سوق أبي النصر. لا يريد أن يذهب في الدرب العابرة خارج باب السراي في محاذاة المقابر إلى أن تبلغ باب الدباغة. لا يريد أن يذهب في تلك الدرب (يسمّونها «الطريق الجديدة») لأنه لا يريد أن يتأمل كل تلك البيوت. يعرف أنها تُبنى من حجارة خانه. ويخاف إذا رأى رجلاً واقفاً في باب داره، يخاف أن يتعارك معه، وربما بطحه أرضاً، وربما صرعه. ألا تجري دماء عبد الجواد الحامية في عروقه؟ ألم يترك صاحب الذراع الواحدة بيته وأهله وبلده بعد أن فتح بسكين الموز بطن أخيه؟

أعطى عبد الرحيم ظهره لتلك البيوت، وللمقابر جنب البيوت، وسار نحو جامع أبي النصر. سار بخطوة ثقيلة، والناس الذين يعرفونه تجنبوا إلقاء السلام عليه. مشى مقطب الجبين، مظلم

النظرة. حتى الأولاد الذين يلعبون بالوحل فرّوا من طريقه. قبل أن يبلغ الأطلال انتبه إلى الأشباح تتقافز حوله، وانتبه إلى صرخات وظلال تخفق على العشب اليابس الذي غطته وحول. مداسه غاص في الوحل. ذيل عباءته تلطخ بالوسخ. لم يهتم. لكنه رفع وجهه الأسود حين سمع تلك الصرخات. عند حافة السور الباقية رأى ولداً يُطعم بنتاً فصوص برتقالة. للوهلة الأولى لم يعرف لماذا تبكي الطفلة. ثم رأى عظامها. كانت العظام ظاهرة تحت الجلد. ورأى أن الولد أيضاً ظاهر العظام. كأنه كُسي بجلدٍ شفاف، كأنه كُسي جلدَ طيورٍ! الثياب القليلة على الجسمين الصغيرين تهلهلت وتمزقت. عضّات الصقيع الزرقاء تغطي الظهر والأطراف والبطن. ما هذا يا ربّي، ما هذا يا خالق السموات والأرض؟

لفّ الولدين بعباءته وأخذهما معه إلى البيت. محمد الفاخوري (ابن خاله الذي قُطعت يده في معركة بحرصاف) رآه من أعلى المئذنة.

*

«أهل السهلات» جاؤوا عند انتهاء الشتاء إلى ورشة الخان وبدأوا يُعمرون الحيطان مع الشغيلة. لم يقبلوا أجراً مقابل العمل. قالوا «هذه العونة حقك يا حج». عبد الرحيم البارودي لم يكن حجّ إلى مكة المكرمة بعد. لكن الكلمة نزلت في أذنه ماء سلسبيلاً. سمّوه الحاج عبد الرحيم، من قبل أن يحجّ. ولم يقبلو أجراً مقابل عملهم. قبلوا منه الزوّادة: الخبز والملح والعدس المطبوخ. لم يقبلوا شواءً. قالوا هذا حقك يا حجّ، أنت كريم، والكريم معه الربّ.

*

كانوا جبليين. قساة الأجسام، أقوياء القلوب، يعملون في الحرّ والقرّ ولا يكلّون. يُصلون في الكنيسة يوم الأحد. ولا يذهبون إلى صلاة في أيام أخرى. اشتغلوا عنده. كانوا مهرة في بناء الأعقاد، ورفعوا حيطان الخان سريعاً. حين هبّت نسائم الخريف من جديد، ركّبوا في مدخل الخان الجديد بوابة سنديان ضخمة يُقال أنها إحدى بوابات سور بيروت الخمس العتيقة.

*

الخان لم يكتمل بعد، لكن هيكله بات ظاهراً للعيان. المدخل ظهر. البوابة رُكِبت (سوف تُطلى بالأزرق السماوي الساطع بعد أعوام). أعقاد الجانب الشرقي تراصفت في صفٍ طويل. لكن الأمطار تتساقط، والأشغال ستتوقف حتى الربيع.

*

وفي هذا الشتاء حُمَّ عبد الرحيم البارودي. خشي أقاربه أن تكون الحمّى المالطية التي ظهرت تلك السنة في بيروت. لم تكن المالطية. صارع الموت ونجا كما نجا أخوه شاهين في زمن الطفولة. خلال أيام المرض اكتشفت زوجته عائشة أن زوجها لا يبني خاناً فقط خارج الأسوار، بل يبني أيضاً ـ ومن دون أن يدري ـ عزّاً ووجاهة. «أهل السهلات» توافدوا تحت المطر للتسليم عليه، وللسؤال عن صحته، ما إن شاع خبر مرضه. حتى وهو محموم، وعدوى الحمّى سريعة الانتقال سهلة الفتك، حتى عندئذٍ أتوا يسألون عنه ويعرضون خدماتهم. الأحباش الطوال القامة وقفوا بالمطر يسيل على بشرتهم القاتمة ويقطر من جلودهم، خارج باب البيت، تحت الجميزة. وفود الناس لم تكف عن المجيء على «طريق عبد الجواد» المبلولة وعن تغطية سجاجيد البيت بالأتربة والوحل. ثم صاروا

يخلعون المداسات في الباب ويدخلون حفاة. كانوا كثراً، يتشابهون كأنهم أخوة، وبعد خروجهم تكتشف عائشة أنهم تركوا قروشاً وفاكهة مجففة وجوزاً ولوزاً تحت الفراش وفي الزوايا!

*

في ساعة الكارثة، أيام الحمّى الملعونة والخوف على عبد الرحيم، اكتشفت عائشة أيضاً معدن أم زهرة النادر. خالة عبد الرحيم، زوجة أبيه النابلسية، أخذت صفية وحسين إلى بيتها لئلا تنال منهما العدوى المشؤومة. طيلة ذلك الشتاء تعهدتهما ـ مع الولدين اليتيمين اللذين أنزلهما عبد الرحيم في دارها. اعتادت عائشة أن تلتف بجبّة خضراء قديمة وتهرع تحت خيوط المطر إلى البيت وراء التوتات لترضع حسين. كان الحليب يفرّ من صدرها ويبقع ثوبها ويبقع الجبّة. لم تفهم لماذا يفور حليبها هكذا برضاعة حسين، كما لم يفرّ أبداً برضاعة صفية. بات الحليب يوقظها أحياناً من النوم، وهو يجري حاراً على بطنها. سهيلة النابلسي البارودي، أم زهرة، التي غدت من جديد أمّاً لأربعة أطفال لم يخرجوا من بطنها، قالت لعائشة الطيبة الصغيرة أن هذا ربّها يذكرها ويتفقدها؛ قالت أم زهرة إن هذا الحليب الذي يفور من صدرها إشارة إلى شفاء أبي حسين القريب. قالت ذلك في يوم أحد، وكانت أجراس الكنائس تقرع وتدعو النصارى إلى القداس. بعد القداس يأتون في الثياب النظيفة إلى «حارة البارودي»، ويسألون عن الحاج. أم زهرة قالت يوم الأحد إن عبد الرحيم سيشفى إن شاء اللّٰه قريباً. يوم الجمعة قام ولبس قميصاً جديداً لم يلبسه من قبل وسار إلى الجامع.

عبد الرحيم البارودي قام من المرض نحيل العود، جاحظ العينين، أصفر البشرة. لكنه ذهب إلى صلاة الظهر في «الجامع

العمري الكبير» ورجع إلى البيت يصحبه أخوه. عمر البارودي اعتاد أثناء هذا الشتاء أن يغيب عن الحارة طويلاً. أين يذهب؟ يقول إنه يذهب إلى الخان، لحماية الأعقاد الفارغة الجوفاء من أولاد الحرام، من السرقة! هذا ما يقوله. لكنه لا يذهب إلى الخان. لا يبقى في الحارة لأنه يمقت رؤية أخيه الوحيد مريضاً، ملقى في الفراش، بلا حول ولا قوة. ولا يبقى في الحارة لأن هذه الأمطار السوداء تزرع فيه ضجراً فظيعاً. يقعد أحياناً عند أم زهرة، تحت الغرفة حيث ينام عادة، يقعد عند أم زهرة ليلاعب الأولاد الأربعة. لكنه لا يقعد كثيراً. يخاف أن يبقى مجاوراً أم زهرة، خالته ذات الجسم الأبيض البضّ السمين، هذا الجسم الذي يُلوِّعه كلما ألقى بدنه القاتم الهائل في الفراش، فوقها، في الغرفة الحجر العالية.

يخشى البقاء في الحارة فيفرّ بالطاقة الحبيسة التي تغلي في أعضائه، يفرّ من أسوار الحارة إلى «السوق العمومي».

*

خطبة الجمعة تكررت في خاطر عبد الرحيم الخارج من الحمّى الطويلة، وهو قاعد في ذلك المغرب يسمع أخاه عمر يحكي عما يجري بين الأهالي والإنكليز. قبل حلول المساء جاء يوسف منيمنة أيضاً (عائشة تسمّيه «السقعان» وتخاف من وجهه، تقول إنها تشعر بالبرد في جوفها كلّما رأته. لكنها مع ذلك تشفق عليه، وتقول إنه آدمي ويخاف ربّنا). يوسف الذي يتولى شؤون المطعم ويشرف على عمل علي سلامة في دكان التبغ، قال إن الوضع لم يعد يُطاق وأن الوالي ذاته «طلع خلقه من الإنكليز». فهم عبد الرحيم أن الجنود صادروا في الشتاء دوابّاً وماشية من الأهالي. ووعدوا أن يردّوا ما أخذوه أو يعوضوا الأهالي بالمال.

ـ كلّه كذب بكذب، قال يوسف منيمنة.

ـ سرقة ونهب، أردف عمر.

أخذوا الدواب لنقل الحطب وأنهكوها بالأشغال بلا علف حتى مرضت وبردت وماتت. أما الماشية فذبحوها وأكلوها. الكفار الملاعين، بلا ذمة كلّهم، بلا حياء، وبلا دين. أفسدوا الأرض. ودخلوا الخان وعاثوا فيه فساداً. عساكر الإنكليز تخيم في قلب الخان الآن. الأعقاد المكتملة في الجانب الشرقي صارت مركزهم الجديد. والباحة المسقوفة، الجزء المسقوف من الباحة حولوه اصطبلاً للخيول. كارثة. بلى، كارثة. وعمر البارودي لم يقل شيئاً من ذلك أمام عائشة لئلا تحزن! كارثة. والأعقاد فرشوا أرضها قشّاً وتبناً. ينامون هناك الآن. هم وأبقارهم وثيرانهم. أبناء الكلبة. ويبولون على الحيطان!

*

قالت عائشة لعبد الرحيم إن خالته أم هند لم تأتِ وتسأل عن صحته إلاّ مرة واحدة!

ـ كأن بيتها ليس وراء «الطريق البيضا»، كأن بيتها في البرّية!

قالت «في البرّية» وسكتت. بدت خائفة.

*

كانت في الخامسة أو السادسة حين ضاعت خارج باب يعقوب، في بساتين الرمان المجاورة لمدرسة الأميركان. منذ ذلك الوقت تخشى الابتعاد عن البيوت. في رقادها وصحوها تتخيل جهنم الحمراء برّية من الغابات والأشواك يرتفع فيها عواء بنات آوى. «دار البرتقال» كانت دائماً الجنّة المسوّرة حيث تريد البقاء إلى الأبد. حظّها الطيب ـ سبحانه تعالى يرعاها دائماً ـ أعطاها ألا تخرج من

«دار البرتقال» إلاّ إلى هذه الحارة: «حارة البارودي». هنا أيضاً تحضنها الأسوار. هنا أيضاً تشعر بالأمان. هنا أيضاً لن تضيع. هذه الأسوار حمايتها.

*

أم هند المقيمة في الجانب الآخر من «طريق عبد الجواد» لم تكن قليلة الاهتمام بابن زوجها وبصحته كما اعتقدت عائشة. صحيح أنها ليست ضرّتها أم زهرة، لكنها هي أيضاً تهمّها صحة عبد الرحيم. حين علمت أنه محموم حزنت وابتأست وذكرت المرحوم (كانت هي من عثر عليه، تحت التوتة. للوهلة الأولى حسبته يرقد هناك، نائماً. ثم رأت الدجاج ينقر التراب جنب رأسه). ذكرت أبا شاهين ونظرت إلى بناتها حولها وخافت عليهن. تحبّ عبد الرحيم لكنها تخشى زيارة البيوت في الجانب الآخر. سعدية الحص البارودي لا تنسى أبداً ذلك الثعبان يلتف على بدن هند، فوق سطح أم زهرة. تخشى الثعبان بالعين الصفراء المدوّرة. ما زالت تراه في مناماتها.

*

كفّت الأمطار عن التساقط وظهرت السنونوات في سماء بيروت. مع هذه الطيور جاء كالعادة الربيع. أطلّت الأعشاب خضراء حول المحادل على السطوح وخرج الجنود الإنكليز من خان عبد الرحيم. لم يخرجوا راضين. على مضضٍ غادروا الخان. الوالي العثماني ذاته طلب خروجهم.

عبد الرحيم البارودي طلع إلى مقر الوالي في القشلاق مع وفدٍ من أبناء بيروت. على رأس الوجهاء والأعيان والمشايخ مشى ثلاثة رجال: صاحب «التزام الملح» الحاج عزت بيهُم، والخواجة بطرس

طراد، والحاخام يعقوب عطية. حضروا أمام الوالي ورفعوا عريضة مطالب. لم يفعلوا هذا من رأسهم. الوالي أوحى إليهم بذلك: هكذا يُحرج القنصلاتو الإنكليزي والقنصلاتو الفرنساوي معاً. الشكاوى تتشابك (مصادرة الدواب والمواشي والبيوت ليست إلاّ شكوى واحدة! هناك غيرها: المشارب والسوق العمومي مثلاً؛ ولكن أيضاً احتكار الفرنسيس لتصدير الحرير الخام؛ ومطاردة البواخر الفرنجية لمراكب الصيادين!). طلبات الأهالي لا تُعد، والوالي عليه رعاية مصالح الرعية. والأهم الأهم أن يُوفق بين هذه المصالح وبين رغبات الباب العالي. والأهم من كل هذا: أن يفعل كل ذلك بما يخدم مصلحته. هذا هو الأساس: مصلحته. ليس هناك ما هو أهم.

طلب الأهالي ـ للمرة التي لا يعرفون رقمها ـ نقل المشارب ونقل السوق العمومي إلى خارج البلد. سكان الأحياء القائمة بين باب يعقوب وباب الدركاه لا ينامون الليل. هذا طلب قديم يرقى إلى العصور المصرية. في ذلك الزمن، وبعد عرائض رُفِعت إلى محمد علي باشا نفسه، وجّه ابنه إبراهيم باشا الأوامر إلى الوالي محمود نامي لإقفال المشارب وطرد العوالم من بيروت. هذا كلّه مفصل في سجلات محفوظة عند الشيخ مصطفى غندور الفاخوري وعند السيد فتيحة (عبد الفتاح بك حمادة، عضو مجلس شورى المدينة، ثم رئيس المجلس) وعند الحاج عزت بيهم. الحاج بيهم ذاكرته مخيفة، يذكر ماذا أكل فلان الفلاني من الأعيان في المناسبة الفلانية في دار الخواجة الفلاني: وقف على رأس وفد وجهاء بيروت وقرأ أمام الوالي عريضة المطالب وذكره بسيرة السلف الصالح وقبّل طرف ثوبه. الحاج محي الدين الفاخوري (الملقب بالإسطمبولي لنزوله في الآستانة زمن الاحتلال المصري) اقترب خطوة أخرى، وأصرّ على نقل السوق العمومي خارج الأسوار. كان شامخ القامة، عالي

الرأس، عمامته كبيرة تكاد تسدّ الباب حين يدخل منه. وسبب ثقته بنفسه أنه أحد مستشاري الوالي ولا يتكلم إلاّ بعد أخذِ وردٍ، وبعد أوامر سرّية من الوالي ذاته.

خرج الإنكليز من الخانات والبيوت التي صادروها؛ وسمح الفرنسيس للتجار البيروتيين بتصدير الحرير الخام بلا وساطة فرنسية إذا شاؤوا؛ وانتقلت العوالم إلى خارج البلد. خرج قسم من العوالم. وأعلن قسم آخر التوبة. ثم عاد قسمٌ. وتراجع عن التوبة قسم. رجعت حليمة إلى عادتها القديمة.

*

المهم أن عبد الرحيم البارودي أنهى خلافه مع الإنكليز على خير. لم يتضارب معهم. لم يلحق به أو بهم أذى. وظهر العمال في باحة الخان من جديد، يحملون المطارق.

لكن خلافاً آخر نشب في تلك الفترة: عمر البارودي تعارك مع ضابط إنكشاري خارج أحد المشارب. نطحه في وجهه ثم حمله وألقاه في جرن البغال أمام الثكنات داخل باب الدركاه (حيث مطعم Scoozi اليوم). الضابط الأبيض الأشقر ذو الأصول الجركسية النبيلة لم يقبل الإهانة. التقط بارودته وسدّد بإحكام ثم حرَّك أصابعه المبلولة البردانة. فرقعت البارودة ورأى عمر البارودي الوهج أصفر صُفرة قلب البيضة قبل أن تظلم الدنيا في عينيه ويسقط على ظهره. سقط مثل عمود وفقد الوعي.

لم تُصبه النار. أحد الجنود ضربه ببلاطة تبن قبل أن يرش الخردق الفضاء. نجا من الموت بأعجوبة. ولم يصدق أنه نجا حتى سمع أخاه عبد الرحيم يلعنه ويلعن ساعته ويدفعه في صدره واقفين فجراً في نزلة الدركاه.

لم يفهم عمر البارودي غضب أخيه عبد الرحيم. تلقى الدفعات بلا دفاع عن النفس. كيف يردّ على هذه اللطمات من الأخ الذي طالما رعاه وربّاه وتعهده ودافع عنه في وجه الجبّار عبد الجواد؟

تلقى عمر هجمة أخيه في صدره، ثم استدار ومضى مبتعداً. مشى ومشى ومشى وخرج من البلد كلّها واختفى عن الأنظار. دام غيابه نهارين ثم عاد.

أثناء غيابه حزِن عبد الرحيم: ظنَّ أنه فَقَد أخاه.

وُلِد عبد الغني البارودي، الابن الذكر الثاني لعبد الرحيم بن عبد الجواد أحمد البارودي، في «سنة حلب» (1850). كانت سنة مباركة على عبد الرحيم. رجع من الحجّ والتين يزهر فسمع الزغاريد بينما يخطو على «الطريق البيضاء». لم يعرف في البدء سبب الزغاريد. ثم جاءت صفية تركض، وحسين يتبعها، وخرجت إحدى خالاته إلى تحت الجميزة، وندهت:

- صبي يا حج!

سمّاه عبد الغني. مُزِجت الشربات وذُبحت الخِراف. كان الاحتفال مزدوجاً: «حارة البارودي» تحتفل بالصبي، وبالعائد من مكّة المكرمة الذي جاور قبر الرسول الأعظم. عاد مُلوحاً بالشمس، وعلى كفّه اليمنى علامة حمراء: الحبل أحرق يده. من الشام إلى المدينة المنوّرة ركب جملاً. بعد رجوعه ظلّ يرى نفسه في المنام زمناً يتهادى عالياً بين الغيوم، فوق الجمل.

أثناء غيابه تغطى الولدان اليتيمان (الصبي اسمه زكريا؛ أخته تدعى دحنون، كالزهرة البرّية) بالشحم. لم تعد عظامهما ظاهرة. أم زهرة تعتني بهما: تطغمهما خبزاً، وكنافة، ولحماً. حين رآهما لم يعرفهما: الولد بشعره الأسود الغزير، والبنت بالعينين العسليتين

تبرقان صحة بعد جوعٍ. كفكف على الرأسين الصغيرين وشكر ربّه على البركة.

تلك السنة وقعت الفتنة المشؤومة في حلب. أفواج المسيحيين الهاربين من المدينة السورية البعيدة قطعت جبالاً وأودية وسهولاً، هاربة إلى شط البحر. ما الذي يجذبهم إلى هذا الشط؟ حطّوا الرحال في «سهلات البرج». والآباء اليسوعيون الفرنسيس استقبلوهم بالخبز والماء والأناجيل. الأميركان أيضاً، الإنجيليون الذين جاؤوا قبل سنين من وراء البحر ونزلوا في بيوتٍ خارج باب يعقوب وأقاموا المدارس للصبيان والبنات، الإنجيليون أيضاً هبّوا إلى المساعدة: حضروا إلى الحاج عبد الرحيم أبو حسين البارودي، وهو قاعد بين أصحابه وأقاربه على المصطبة أمام مطعمه يدخنون الأراجيل، واستأجروا منه الخان الذي لم يكتمل بعد. استأجروا الخان موسم الشتاء لإيواء اللاجئين النائمين في العراء. الحاج مانع قبل أن يعطيهم الخان. مخزن التبغ جنب المطعم ضيق، وهو يحتاج إلى الخان (إلى الأقبية التي اكتملت) من أجل تخزين البضائع. مانع أيضاً لأن النازحين قد يخربون العمارة مثلما فعل الجنود من قبلهم. لكن الآباء الأميركان أقنعوه. أحد هؤلاء كان طبيباً، واعتاد أن يعوده وهو محموم، وعائشة قالت إنه أعطاه دواء من قارورة زجاج. ترك الحاج عبد الرحيم الأميركان يستأجرون الخان: أصلاً كل قوافل الشام تكف عن التوافد في الشتاء. والمخزن يكفي الآن لتبغه. ثم إنه لا يقدر أن يُخيب ظنون الناس به. صار الحاج عبد الرحيم من الأعيان. أهل السهلات يُجلّونه منذ بنوا نصف بيوتهم بحجارة من ورشته.

*

تكاثرت البيوت على حافة «الطريق الجديدة» بين بابي السراي والدباغة، وراء الأسوار القديمة. هذه الطريق لم تلبث أن طالت، فالتفت حول بنيان «الدباغة» القاتم المتداعي الشنيع المنظر، ودارت حول حارة الأمير ناصر الدين التنوخي (حارة الحاج عبد اللّٰه القوتلي اليوناني التي طالما اعتلى سطحها يوسف الإنكليزي)، ثم انحدرت متعرجة فمستقيمة نحو ساحل البحر. لن تلبث في الربع الأخير من القرن التاسع عشر أن تكتسب اسماً جديداً: «الطويلة».

لكن في ذلك الزمن الأول، حين بلغتها موجة نازحين جديدة، آتية هذه المرة من حلب ومن قرى تجاور حلب، كانت ما زالت تُسمى «الجديدة». اسمها هذا محفوظ في سجلات المحكمة الشرعية العائدة إلى تلك الحقبة، ومحفوظ في حجّة إقرار كاترينا ومرتا الدوماني بإبراء ذمة شقيقيهما مرقس وبولص من «الدار الكائنة في محلة قناة الجديدة خارج باب السراي» في 26 رمضان 1271 هجرية؛ هنا النص الحرفي:

الحمد للّٰه تعالى السبب الداعي لتحريره هو أنه بتاريخه حضر إلى المجلس الشرعي جرجس ابن موسى فريجة الوكيل الشرعي عن المرأتين كاثرينا ومرتا بنتي الخوري نقولا أبي الروس الدوماني الثابتة وكالته عنهما شرعاً في الإقرار والمصادقة لأخويهما مرقس وبولص المشهور بالحدّاد فيما اشترياه من والدهما الخوري نقولا المذكور وذلك جميع الدار الكاينة بمحلة قناة الجديدة خارج باب السراي بشهادة كل من حنا ولد جرجس الجمال ونقولا ولد بشارة أبو ستة العارفين بهما المعرفة الشرعية وغب ثبوت وكالة الوكيل المذكور على الوجه المعتبر الشرعي أقرّ في صحة منه ومن موكلتيه المذكورتين أن

كاترينا ومرتا لا تستحقان ولا تستوجبان قبل اخويهما مرقس وبولص ولا عندهما ولا عليهما ولا في ذممهما لا ديناً ولا عيناً ولا إرثاً ولا مورثاً ولا تركة ولا متروكاً ولا عقاراً ولا منقولاً ولا دعوى ولا طلب بوجه ولا سبب... على هذا الإقرار المقر لهما تحريراً في 26 رمضان سنة 1271.

شهود الحال

السيد مصطفى قرنفل	**السيد عبد اللّه سعادة**	**المعلم ميخاييل مهنا**
نقولا ولد بشارة أبو ستة	**نقولا ولد يوسف الدوماني**	**حنا ولد جرجس الجمّال**

ولعل الطريق المذكورة (قناة الجديدة، أو الجْدَيْدة كما عُرفت بين الأهالي) قد اكتسبت اسمها بعد نزول أبناء حلب فيها. فعبد الغني بن عبد الرحيم البارودي أخبر حفيده من بنته الكونت سليمان ده بسترس أخباراً كثيرة عن الحلبيين الذين عمّروا البيوت في «السهلات» وكانوا جيران الخان الذي بناه أبوه عبد الرحيم. وفي حلب حيّ مشهور يُسمّونه «جُدَيْدة حلب»، وآل طرازي سكنوا الحيّ المذكور، قبل نزوحهم على دفعات إلى بيروت. وكانت أكبر موجات النزوح هذه بعد حوادث 16 تشرين الأول (أكتوبر) 1850 التي أحرقت متاجرهم ومخازنهم وأحرقت الكنيسة السريانية المملوءة بالكنوز وتحف الخشب والثريات المطعمة. وإذا كانت المؤلفات التاريخية تذكر أن السبب الأساس للنمو السكاني السريع في بيروت النصف الثاني من القرن التاسع عشر هو الحوادث الطائفية في جوارها ونزوح المسيحيين إليها من الجبل اللبناني وسهل البقاع ووادي التيم ودمشق (خصوصاً بعد حركة 1860)، فإن هذه

المؤلفات لا تُفصل الكثير بخصوص الهجرة الحلبية، هجرة 1850 خصوصاً.

مع أن القارئ يستطيع ـ اليوم: في القرن الحادي والعشرين ـ أن يعرف أثر هذه الهجرة في مدينتنا بزيارة واحدة إلى مقابر بيروت: زيارة إلى مار متر (الأشرفية) مثلاً؛ أو ـ وهذا أفضل ـ زيارة إلى المقبرة الإنجيلية المتاخمة لمقبرة اليهود، جنب السوديكو سكوير، أعلى تلّة الناصرة المشرفة على بيروت القديمة المندثرة بلا أثر.

*

مطر غزير ينهمر فجأة على الشوارع. السيارات تمضي مسرعة. الجو يُعتم. المظلة تنكسر. في الحائط إلى يمينك فجوة. الرصيف محطم هنا، والحفرة امتلأت بالأمطار، والشتاء يسيل عليك. ترى فجوة الجدار ثم ترى باباً من الحديد الأسود. الباب موارب. إذا دفعته رأيت حديقة: ما هذا؟ الدرجات تطلع إلى مساكب مزروعة بالورود، وهنا وهناك تتعالى سروة قاتمة الخضرة. فجأة تصحو السماء. ما إن تدخل المقبرة حتى يكفّ المطر عن التساقط. في لحظات وجيزة تتباعد الغيوم، تسطع السماء بالضوء الأزرق، تطول السروات المغسولة، وتتطاير حمائم بلون الثلج. كيف يحدث هذا؟ مظلتك انكسرت، ترميها جانباً، وتسير عابراً ممرات مبلطة بين القبور. تقرأ الكلمات المنقورة في الشواهد الرخام، تقرأ الألقاب والتواريخ، تقرأ الصلوات والأدعية، ترى الصور القديمة التي حال لونها، وتتأمل الأكاليل اليابسة. لا بعوض ولا ذباب يحوم في هذه المقبرة. هذا كل ما تذكره من مقبرة مار متر: الرائحة والحشرات التي تنسج خيوطاً عنكبوتية أمام وجهك. في هذه المقبرة، أعلى تلّة الناصرة، لا ترى برغشاً وذباناً. فقط سروة انكسر فرع من فروعها،

فاسود اللحاء، هناك، في الأعالي، حيث يبرق أزرق السماء.

*

«أهل السهلات» استقبلوا الحلبيين بينهم. كانوا مثلهم مهجَّرين، وسرعان ما باتوا جميعاً أبناء بيروت. لم يتحولوا بيروتيين بين ليلة وضحاها. تحولوا بمرور الأعوام، وتعاقب الأجيال. هذه هي الحياة التي أُعطيت لهم: ماذا يفعلون؟ احترقت بيوتهم وحقولهم ودكاكينهم ففرّوا إلى هذه الأرض. نزلوا في خان التوتة وبيوت القزّ والأكواخ المجاورة. آل طرازي الذين سبقوهم في الهجرة إلى بيروت، وآل نجّار وجروة وآل الصايغ، والعائلات الأخرى الحلبية التي جاءت إلى بيروت مطلع القرن التاسع عشر وبعد زلزال 1822، مدّت الآن يد العون. مدّتها على مضض. آل الصايغ أصهار عبد الرحيم تبرعوا للمنكوبين بأكياس ملح وسكر وطحين. لكن حين أرادت بعض العائلات أن تنزل عندهم في الخان على الشط، من دون أن تدفع ذهباً، زعموا أن الخان مملوء بالبضاعة، بضاعة للطليان، وبضاعة للقبارصة، ماذا يصنعون بالبضاعة؟

قالوا إن الخان لا يتسع، ثم إن سقوفه تدلف في الشتاء، وأمواج البحر تغمر حيطانه. عبد الرحيم البارودي التقى صهره بطرس الصايغ على الطريق، أمام حانوت التبغ، فسأله كيف الخان، أما زال عامراً بالبضائع؟ وبطرس الصايغ استاء من كلام عبد الرحيم واكفهر وجهه. لكنه بعد يومين مرَّ على مطعم عبد الرحيم، ليس وحده، ولكن مع أخويه نصر اللّه وإبراهيم. وقالوا إنهم يأتون في عمل. رياح الشتاء هزّت الياسمينة، وقطرات الماء قطرت على طرابيشهم. حين سمع عبد الرحيم البارودي ما يعرضون أصابه الذهول: يريدون شراء «خان التوتة»!

قال هذا خاني، خاني الذي لم أُنهِ عمارته بعد، وبإذن اللّٰه تعالى يكون من أكبر خانات البلد، لماذا أبيعه؟ لا أحتاج مالاً.

أجابه الأخوة الثلاثة (كانوا يتحدثون مثل شخصٍ واحد، كأنهم اتفقوا على كل عبارة) أن الخان يسكنه اللاجئون الآن، وليس سهلاً إخراج اللاجئين منه، وهم يريدون مساعدته ليس أكثر. هذا واجبهم.

شكرهم عبد الرحيم البارودي على نخوتهم. كان وجهه مقفلاً الآن. وتذكر نصر اللّٰه الصايغ طباع عمه المرحوم، طباع عبد الجواد. سمع النبرة الهازئة اللئيمة في صوت عبد الرحيم فقام واقفاً. الحمرة ورَّدت خديه. من وراء ظهره دخل التيار البارد إلى المطعم المدفأ بالمناقل وكوانين الجمر. بطرس بالساعة الذهبية المتدلية على بطن قميصه التفت ونظر إلى أخيه إبراهيم. كانا يستعدان للقيام حين أبرقت السماء ورعدت ثم انهمر المطر متدفقاً مثل طوفان.

*

وحدهم آل طرازي بلّوا قلوب الحلبيين. أكثر من أي عائلة أخرى في البلد، ساعدوا المنكوبين.

الكونت ده بسترس حفظ في مكتبته رسائل من خوارنة حلب وتجارها أُرسلت إلى الكونت ميخائيل طرازي من أطراف الأرض، تشكر كرمه المسيحي. الحلبيون الذين ساعدهم الكونت طرازي ظلّ بعضهم في بيروت، وهاجر قسم آخر منهم ـ لاحقاً ـ إلى وراء البحر، إلى الإسكندرية ومرسيليا ومانشستر وبوينس أيرس وسنتو دومينغو ونيويورك. من حلب إلى بيروت إلى أصقاع العالم... ولم ينسوا جميل آل طرازي، قال الكونت. تبعثروا على الخريطة فبلغوا البرازيل غرباً والصين شرقاً، حتى شاع المثل: «أعرج حلب جاوز الهند».

أسرة مسك استقرت أخيراً في ليفرنو ومراكش. أسرة صعب في لندن. أسرة كبابة في روما. أسرة جروة في البندقية. عائلات غالي وشاشاتي وقندلفت وهنا وطباخ في باريز. آل ضاهر وأسود وعجوري ومراش في ليون ومارسيليا. عائلات كوسا ووازن وتوتونجي وعيساوي وحجّار وأنطاكي وحوّا في بيروت والقسطنطينية وصيدا. آل فرج اللّه وأرقش وبخاش ودنبكلي ودوناتو وبشخنجي وشلحت وكعيكاتي وعجوري في الإسكندرية. آل صبّاغ ودقّاق وقراالي ومظلوم وصقال في القاهرة. آل استنبولية ودلال وخوري وخراط في بيروت والسودان المصري. آل عبود وعبديني وحداد ونمنومة في بيروت وبعقلين (جبل لبنان) وبغداد والبصرة.

اشتهروا باللسان العسل والكف النظيفة عموماً والحساب الذهني السريع. اغتنوا وحصلوا على ألقاب من ملوك أوروبا وبابوات روما. وظلّوا حتى موتهم يذكرون أيام نزولهم في «خان التوتة» خارج أسوار بيروت. (إلياس صعب ابن الخوري باسيليوس صعب المقتول في حلب، إلياس صعب المعروف لاحقاً بالمركيز صعب، كان في الثالثة عشرة حين نزل مع اللاجئين في «خان التوتة» الذي استأجره الأميركان من الحاج عبد الرحيم البارودي. اشتغل عند الإنكليز يجمع الوزال والحطب للفرن ويمسح أزرار البذلات النحاس بالحامض والرمل، حتى «سنة القُرم» (1853). الحرب فتحت له باباً: تطوع في «الفرقة البيروتية» وركب الباخرة مع المتطوعين. لكنه لم ينزل على ساحل سيفاستوبول. فرّ في البحر إلى الساحل المصري، واشتغل بمسك الدفاتر في طنطا والإسكندرية. تعرَّف على القس أندراوس الحلبي باني كنيسة مار إلياس في «درب الجنينة»، فساعده القس على الزواج ثم حصل له على وظيفة في إحدى المدارس المسيحية. درَّس الرياضيات واللغة العربية وكان

يُعلم تلامذته الفَرق بين اللهجات في بلاد الشام، ثم رجع إلى أعمال التجارة وفتح دكاناً يبيع الأقمشة. أحد أولاده عُين مديراً لمحلات سليم وسمعان صيدناوي الشهيرة في القاهرة. ابن آخر تولى إدارة مخزن «البرينتان» المشهور في الإسكندرية، وبات في أيامه الأخيرة من أصدقاء الملك فؤاد. ثمَّة ابن ثالث أيضاً، توظف في قلم الترجمة الخديوي، وهو كاتب رسالة الشكر والثناء إلى الكونت طرازي وأولاده. هذا الابن الثالث سمّاه أبوه، ميخائيل، على اسم الكونت ميخائيل طرازي، عرفاناً بالجميل).

كان شتاء غزير الأمطار كثير البروق. عجّ الخان بالأصوات والروائح والبشر. الحاج عبد الرحيم البارودي وجد بيته فجأة عُرضة لطوفانٍ بشري. كانوا يجيئون إليه في «حارة البارودي» أو في «محطة الشام» أو في «مخزن التبغ»، يبحثون عنه حتى يعثروا عليه ويلقوا التحية. لهجتهم مميزة، وحرف الجيم يطلع شديداً من بين أسنانهم. كلَّما سمع واحدٌ منهم أن هذا الخان الذي يحمي أولاده من البرد والرعد والمطر، ملكٌ لرجل غير مسيحي، ملكٌ لتاجر مسلم يتيم، دخل البلد يبحث عن هذا التاجر المسلم اليتيم، يطلب أن يبوس يده، أن يبوس رأسه، وأن يشكره على هذا الجميل. لا يُغير شيئاً أن الأميركان يدفعون للحاج إيجاراً. لا، لا يُغير شيئاً، هذا رجل كريم، يُربي عائلة كبيرة وحده، يرعى يتامى، ويُرسل إلى «خان التوتة» كل يوم جمعة ثلاثة حمير محملة بالطحين.

*

«سنة حلب» سمُيت أيضاً «سنة الذهب». إلى جانب الفقراء أتى الأغنياء أيضاً. أتوا محملين بأكياس الدنانير، فسال الذهب في بيروت، وانخفضت أسعاره.

الحاج عبد الرحيم البارودي أصابه الحظ مرتين في تلك الحقبة: وجد شريكاً حلبياً أسّس معه معملاً للمنسوجات خارج باب الدركاه (حيث «مجمع اللعازارية التجاري» اليوم)، على أساس أن اليد العاملة الماهرة في حياكة المنسوجات والمطرزات باتت متوافرة بأجورٍ زهيدة في بيروت، في خان عبد الرحيم نفسه!

وعثر، بمعونة أقاربه آل الفاخوري، على طريقة جديدة لمضاعفة الأرباح من تجارة تبغه: احتكر، بمرسومٍ أصدره الوالي العثماني، حق استيراد التبغ من اللاذقية.

*

في تلك الأيام حقّق عمر البارودي حلمه القديم وتحول صائد سمك. اقتنى قارباً وبات يدخل إلى عمق البحر ويصيد بالشصّ والشبكة. يصيد في النهار ويصيد في الليل. يأخذ قنديل الزيت ويتوغل في البحر، وحده أو مع رفاق من عين المريسة، ويبقون في عرض البحر حتى يطلع ضوء الفجر وتغيب الأسماك. يصيدون بالجاروفة ويرجعون بمراكب مثقلة سرديناً ويبيعون ما يصيدون على بسطة الميناء.

ما لا يُباع يُوزع على الأقارب والأصحاب والأيتام والأرامل والفقراء. أهل حلب الذين حلّوا في «سهلات البرج» اكتشفوا في تلك الفترة، كما اكتشف الديريون من قبلهم، السمك المشوي والسمك المقلي وصيادية السمك بالرزّ الأسمر وطاجن السمك. لم يستسغ الجبليون ثم الحلبيون طعم السمك في البدء. ثم استساغوه. وصار حساء السمك وجبة يومية في السهلات. أهالي بيروت ـ أبناء بطن البلد القدماء ـ قالوا إن السهلات تتحول الآن بحر سمك: حتى الحيطان تشبعت برائحة السمك. أينما مشيت بين البيوت التي تتكاثر

هناك رأيت النساء قاعدات على العتبات ينظفن السمك من الحراشف والأحشاء، ويقطعن الرؤوس والأذيال لعمل الحساء مع الكراث والبصل.

الحاج عبد الرحيم البارودي احتار لا يدري ماذا يعمل مع أخيه. كان أمام خيارين: يعارضه فلا يسمح له باقتناء مركب صيد والبقاء في الماء ليلاً نهاراً؛ أو يدعه يفعل ما يشاء فلا يقطع العلاقة الطيبة بينهما. الحاج أبو حسين، المملوء تقوى ونباهة هذه الأيام، اختار أن يحفظ الصداقة مع أخيه (الأخ الطفل الذي يحيا في بدن عملاق)، وأن يتحمل كلام الناس (معقول هذا يا «حج بو حسين»، كل هذه الدكاكين والأشغال ويتركك وحدك، ويذهب وراء البزري والسلطان والسلطعون، معقول يا حج؟). اختار عبد الرحيم ألا يعبس في وجه عمر، وأن يتركه يفعل ما يريد. كانت هذه رؤيته: لا بدَّ أن يكبر عمر، لا بدَّ أن ينضج، وعندئذٍ يرجع إليه. (لكن الناس يحكون: عمر لم يعد صغيراً. لم يعد ولداً حتى ولو حفظ نظرة الأطفال الشقية في عينيه الخضراوين. صار مارداً، ومنذ سنوات دخل سن الزواج. لكنه لم يتزوج بعد. لماذا لا يُكمل دينه؟ كيف لا يتزوج؟ ليس قاصراً. الناس يعلمون أخباره. دخوله وخروجه من بيوت المومسات المصريات ليس سرّاً. الناس يحكون. ليس ولداً).

لم يعد عمر ولداً. لكن الأولاد ظلّوا يركضون إليه ويلعبون معه. الكل يحبّه. آل الفاخوري مولعون به، حتى ولو لم يملأ مطبخهم قريدساً وسلطان إبراهيم وسلموناً بحرياً. (هذا السمك انقرض من البحر الأبيض المتوسط مطلع القرن العشرين. قتله مازوت البواخر. يشبه السلمون النهري المشهور لكن لحمه يضرب إلى بياض. ليس زهرياً. وفي طعمه دسامة لحم الغنم).

أم حسين، عائشة الفاخوري البارودي، نسيت الليلة الغامضة المنحوسة ورجعت تنتظر قدومه على «الطريق البيضاء»: عمر البارودي لم يعد من أهل المشارب. كفَّ قبل زمن عن معاقرة الخمر. ابتعد عن المنكر وسلك الصراط المستقيم. يوسوس له الشيطان فيطرده. لا يريد أن تغزو الدماء عينيه. مذ تعارك مع ذلك الضابط الجركسي ونطحه وبطحه بطربوشه في جرن الماء، وكاد أحدهما أن يقضي نحبه، ولولا سبحانه كانت كارثة... منذ ذلك الفجر الرمادي البعيد حين غضب عليه عبد الرحيم، وهو يحاول الابتعاد عن العرق والنبيذ. عِشرة أبناء عين المريسة (هؤلاء الدروز الأتقياء) أفادته. البحر أيضاً أفاده. حين يسبح يحسّ النار تغادر بدنه. تنزل النار من عظامه إلى الماء. يسمع وشيش انطفائها.

دروز عين المريسة نفعوه. وسهل المياه الزرقاء المالحة ينفعه. يجذف أحياناً إلى شطّ الرملة البيضاء. يجاوزه ويجذف حتى رمل الأوزاعي. يغطس في تلك الأماكن المقفرة، حيث اعتاد أن يغطس في زمن الطفولة، فيعود إلى مكان قديم. بين المرجان والطحالب وتفاح الماء وسمك الكهرباء، تحت سطح المياه بعشرين متراً، ينسى خالته أم زهرة بجسمها الأبيض السمين، وينسى من يكون. الثقل يزول من بدنه الضخم، والأعضاء تتراخى وتسكن وتموت.

لكنه بينما يدخل «حارة البارودي»، كابساً شعره الرطب بين يديه، ينتصب بكل خلاياه من جديد. يصير كالحطب وهو يخطو ثقيلاً على «طريق عبد الجواد». كم يودّ لو يفرّ بعيداً، لو يمضي إلى البحر، فيبقى بين الأمواج، ولا يطلع إلى اليابسة أبداً! لكن البحر لا ينفع دائماً. يمضي إلى سنار السودانية عندئذٍ، أو إلى «الملكة محاسن»، أو إلى أستير. أستير تحيا في بيتٍ صغير فوق باب الدركاه. ليس بيتاً. غرفة مربعة بكوّة عالية. من الكوّة العالية ترى

السماء والغيوم في السماء وأنت مطروح على ظهرك.

الرياح تقذف الغيوم بعيداً، وهو يشعر بالحاجة إلى البكاء. استير تحك رأسه بأظافرها المكسرة، وعمر البارودي يحلم بما لا يستطيع الحصول عليه. سأله عبد الرحيم لماذا لا يتزوج، لماذا لا يدعه يأتي له ببنت تناسبه، من بيتٍ يناسبه. الواحد يحتاج إلى امرأة ترعاه وتُرتب بيته، تطبخ طعامه وتغسل ثيابه وتنجب أولاده. لماذا لا يتزوج؟ عمر البارودي ابتسم ثم أطلق ضحكة ولوَّح بيده. قال شيئاً ما عاد يذكره. كيف يقول ما يفكّر فيه؟ لن يقول أبداً. هذا غير ممكن. الشرع لا يسمح به. سبحانه لا يسمح. فكيف حتى يفكّر فيه؟ أليست زوجة أبيه؟

السماء ـ مثل قعر البحر ـ يتغيَّر لونها بتبدل الفصول. يراقبها عبر الكوّة العالية. الأظافر تخمش قشرة رأسه السميكة، لكن وحدته عميقة، عميقة، لا يبلغها ظفرٌ أبداً. يمضي الربيع ويحلّ الصيف ثم يأتي الخريف. وفي الشتاء لا يقدر أن يغطس في البحر. وإذا غطس يسحبه الموج أو تسحبه التيارات إلى حيث سحب التيار علي الصغير. في الشتاء تحاصره أسوار الحارة وتخنق أنفاسه. كأن جسده الحبيس يتورم ويتضخم شتاءً. الأمطار تتساقط والبرق يبرق داخل جسده. الرعد يضج بين أضلاعه. ولا يدري ماذا يصنع. ترك الغرفة العالية على سطح أم زهرة وانتقل إلى الزريبة. صنع من التبن فرشة وصار ينام بين الأغنام. ثم هجر الزريبة وأصلح سقف البيت الأبعد المتروك ـ هذه الغرفة التي يدلف سقفها منذ زمنٍ ولا يحيا فيها أحد ـ وصار ينام هنا.

ترك الزريبة لأن رائحة السكر المحروق التي تتسرب من مطبخ أم زهرة ظلّت تمنع عنه الراحة. لكنه حين نزل عند طرف «الطريق البيضاء» أدرك أنه هنا أيضاً لن يرتاح. اليتيمان ـ زكريا ودحنون ـ

الصبي وأخته، يأتيان إليه، إلى هذا البيت الغارق في ظلال الجوزة، محملين برائحة الأرملة سهيلة النابلسي البارودي: رائحة الكنافة بالجبن، ورائحة التوت الذي تفرمه لدود القزّ. أم زهرة رجعت تُربي الحرير في الغرفة العالية.

ينتظر سكون البحر ليغطس إلى أعماقه. لكن البحر لم يعد يسكن حتى بانتهاء الشتاء. كل الأشياء تتغيَّر. والبحر أيضاً يتغيَّر. ما هذه البواخر التي تملأ البحر؟ ما هذه السفن والزوارق والمراكب؟ أينما غطس غمرته ظلال المراكب. وحين يطلع من تحت الماء يرى الأخشاب تحاصره. ومرات تطرق رأسه!

البواخر تملأ البحر قبالة البلد. المياه تزبد وتفور. والمواعين تنزلق على صفحة المرفأ، وعلى الخليج أمام الكرنتينا. مجاذف تحرث سهل الماء، وهو يهرب بجسمه إلى نقطة آمنة. حين يخرج من البحر، والمياه تقطر من أنامله وشعره، يشعر بجسمه ثقيلاً، كأنه أفرغ من مادته وحُشِيَ رصاصاً. فجأة يهدر الهواء في أذنيه وعينيه ويحسّ إحساساً غامضاً أنه عاش هذه اللحظة من قبل. من هنا، عن هذه الصخرة المطوقة بالطحالب وقناديل البحر اللاسعة، يرى الشط البعيد، ويرى نساء حلبيات (يعرف أنهن حلبيات من طولهن المفرط؛ أولاد بيروت الصغار يفزعون من الحلبيات الطويلات. لكن رجال بيروت يرغبون هذا الطول: الحلبيات لسن قصيرات كالبيروتيات! ثم إنهن ـ بعد الطعام والاستقرار وزوال الهمّ وتعب السفر والترحل ـ يتغطين بالشحم، فإذا تزينت الواحدة منهن بعد ذلك بالثوب الأطلس الفاقع الخضرة الطويل إلى الكاحل، ذابت ركب الرجال!).

لماذا يأتيه هذا الإحساس كلما خرج من أعماق الماء؟ يقضي وقتاً طويلاً تحت، يسبح فوق القشرة الملساء في القعر، بين خطوط النور ذات صفرة اللقطين. لون شبكة النور يتبدل مع الفصول. قبل

زمن بعيد، في عهد الطفولة، كان هذا يذهله. الآن لم يعد يذهله. الأعوام سرقت الدهشة.

نظر عمر البارودي إلى السفن الكثيرة بالصواري العارية من الأشرعة ترسو عند الصخور، حيث أطلال القلعة البحرية. (يذكر جسراً هناك، جسراً بخمس قناطر، يربط الأطلال باليابسة. يذكر مرساة يعلوها الصدأ كالأصداف ويذكر مدفعاً سقط من فوق حين اهتزت الأرض واهتز البحر. كان زلزالاً. في ذلك الوقت كان أبوه على قيد الحياة، وأخوه الكبير شاهين كان سارحاً في البرية مع الطفار الدروز... يذكر ذلك الوقت. ويذكر الجنود المصريين باللباس الرمادي يتدفقون في سوق الفشخة ويطلعون في «العطّارين» وهم يصيحون ويضحكون، رائحة الحشيشة تفوح من ثيابهم، بواريدهم تتكسر من الصدأ، ويطاردون النساء بالكلام البذيء. يذكر صفّاً من حوانيت واطئة عميقة، ليس بعيداً من «فرن داوود» في أعلى البازركان، ويذكر القدور الكبيرة بالفول والحمص يُسلق فيها طيلة الليلة. يذكر الروائح. لا يشمّ رائحة الفول المدمس مرة إلاّ ويتذكر ذلك العهد. كيف تعبر الأعوام؟). نظر عمر إلى البضائع تُنزل من السفن بالحبال أو تُرفع إليها وأحسّ بالتعب. ما هذا التعب؟ لماذا يتعب هكذا؟ ومن أين يجيء هذا الشعور الغريب؟ لماذا يقول في نفسه إنه عاش هذه الساعة من قبل؟ لا يصدق حديث أصحابه الدروز عن الإنسان الذي يعيش أكثر من حياة واحدة. لا يصدق هذا. يقولون فلان نطق، نطق وذكر إنه كان يعمل حدّاداً أو نجّاراً في حياة سابقة. يسمع ذلك ولا يصدق. لكنه الآن، في هذه الساعة من الأصيل البرتقالي البارد، ناظراً ـ من صخرة في قلب الماء يفور الزبد على حوافها ـ إلى مدينة تكبر أمام العينين بينما ينظر، فتتكاثر بيوتها ومتاجرها وتفور وتغزو بالحيطان والأسواق البرية المحيطة،

الآن يحسّ أنه عَبَرَ هذه اللحظة من قبل: هذه اللحظة، بكل تفاصيلها، بأدق حركة في الأمواج عند قدميه، بعدد البواخر ذاته عند صخور المدوّر، بالمواعين السريعة المتطاولة الظلال على صفحة المرسى، بالناس في الثياب السوداء والكحلية والبيضاء والحمراء على الأرصفة، بعنابر المرفأ والعمارات الجديدة ذات الشبابيك الزجاج التي رفعها آل سرسق وبسترس وبسّول وطراد وفياض وبيهُم، بالرايات الخافقة فوق بنايات القناصل الأجنبية، بكومة البطيخ (جبل من بطيخ طولكرم) أمام مينا البطيخ، بالصناديق على الرصيف الجديد العريض حيث تسعى الجرذان في ساعة المساء وترتطم بقوائم البهائم المحملة فتفزعها؛ بهذه السماء اللانهائية؛ بالغيوم القطن المصبوغة بعصير البندورة؛ هذه اللحظة تتكرر بأدق التفاصيل. كأنه يحيا حياة مسحورة. ما هذا السحر! ثم ينكسر السحر كلّه: يسمع صراخاً في الميناء، ويرى أن البحارة والعمال أسقطوا إحدى البالات العملاقة في الماء، وأن أحد المواعين قد مال على جنبه وانزلقت عنه البالات الأخرى. العمال يقفزون إلى البحر لإنقاذ البضاعة. والصراخ يعلو على الأرصفة. ومراكب أخرى تسرع للنجدة. ينكسر السحر دقيقة، بينما البضاعة التي غرقت في اللجة تطفو من جديد، تخرج في صوت مدوٍ، والشمس تغيب وتسيل كالشمع البرتقالي على الوجوه المكدودة. وعمر يريد أن يغطس ويساعدهم، لكنه يظلّ في مكانه. يظلّ في مكانه لأنه ينتبه عندئذٍ أن السحر لم ينتهِ بعد. هذا أيضاً جزء من اللحظة التي تتكرر: في المرة السابقة أيضاً وقعت بضاعة عن حافة سفينة. انقطعت حبال وسقطت بضائع وارتفع صراخ. ثم أُنقِذت البالات المبلولة. هذا كله جرى من قبل.

المساء يُقبل. والمشاعل تشتعل كالعيون على طول الأرصفة.

العمل يتأخر. البواخر لا تحصى وكلّها تنتظر الدور. دور للتفريغ ودور للتحميل.

هذه مدينة عجيبة. لماذا تطلب كل هذه البضائع؟ ماذا تصنع بها؟ لكنه يعلم أن المدينة لا تطلب لنفسها. تطلب لبرّ الشام كلّه. تطلب لبيروت وللجبل المجاور وللسهل العريض وراء الجبل ولسلسلة الجبال الأبعد وللصحراء التي تعجّ بالمدن وراء سلسلة الجبال. برّ الشام كلّه، مدن لا تحصى، وكلّها أكبر من بيروت بمرات. لم يسافر بعيداً بعد. لا يدري لماذا يوجعه بطنه كلما ابتعد عن البلد. حقاً يوجعه بطنه: ذات مرة جاوز مع أبناء أخواله برّية رأس بيروت، ثم يمّموا جنوباً، وتسلقوا الهضاب. كان يبتعد عن المدينة ولم يعد يبصر حتى رؤوس المآذن، وحين بدأ يشمّ روائح الجبل وغابات الجبل دخل البرد في بطنه وأصيب بإسهال.

في مرة أخرى، كان يصيد الثعالب في بساتين برج حمود، ورأى قطيع غزلان. فرّ القطيع منه نحو الجرود الشمالية ثم دخل أحراج صنوبر وراء الرمال. طارده وقتاً طويلاً ثم انتبه ـ والشمس يغيب نورها وتغطس في الأفق ـ انتبه أنه ابتعد كثيراً. جلس على الأرض يلهث، والعرق يبلّ ثوبه، وفي تلك الدقيقة انتابه مغصٌ فظيع. ليس مغصاً! عضلات معدته تنقبض انقباضاً مؤلماً، مثل قبضة تشتد، كأن يداً غير مرئية تعصر معدته وتُمزق الحجاب الحاجز. وأصيب بإمساك! أليس هذا غريباً!

لم يرَ مدناً أخرى بعد. يخشى الابتعاد عن البلد. وإذا نام بعيداً من «حارة البارودي» يكون عند بيت العود (رفاقه) في قرية عين المريسة المجاورة. (هذه القرية الدرزية الصغيرة إلى الغرب من أسوار بيروت، عند ضفة الخليج المملوء سمكاً، ستتحكم بعد منتصف القرن التاسع عشر بعواطف البيروتيين الراغبين في تعمير

البيوت والقصور خارج الأسوار. هذه نظرية لا نقع عليها في مؤلفات تاريخية، لكن عجائز «عبد الوهاب الإنكليزي» يميلون إليها. الكونت بسترس اعتاد ترداده أمامي، نقلاً عن جده لأمه عبد الغني بن عبد الرحيم البارودي. لنتذكرْ أن القرن التاسع عشر زمن فتن وحوادث دموية بين الدروز والمسيحيين في جبل لبنان، كما بين المسلمين والمسيحيين في حلب ودمشق. لهذا نرى التجار المسيحيين البيروتيين يبنون قصوراً إلى الشرق من الأسوار، وليس إلى الجهة الغربية منها. إذا ذهبوا غرباً جاوروا دروز عين المريسة! لا يريدون هذا. يشترون الأراضي وراء سهلات البرج: في الرميل والصيفي والتباريس. وعلى سفوح جبل الأشرفية يرفعون القصور الإيطالية الرخام. كلّها قصور بقناطر عالية، وكلّها تلمع بالبلاط الطلياني، وبالزجاج الملون المصهور في أفران البندقية. عائلة بسترس هي أيضاً ترفع قصوراً هناك. الجهة الأخرى من الأسوار (جلول الزيتون والتين وكروم العنب عند القشلاق ووراء القشلاق) كل هذه البراري ظلّت خالية من البيوت، تتوزعها بعض الأكواخ لتربية القزّ، إلى أن ابتاع الأميركان أرضاً سنة 1870 حيث تينات ربيز وجميزات لبابيدي. ابتاع الإنجيليون أرضاً شاسعة لبناء جامعة. أهل بيروت استغربوا (لماذا يبني الأميركان بيتاً بين الواوية، في برية الرأس؟) لكن دانيال بلس، المبشر الذي اختار تلك البقعة، يخبرنا في مذكراته أنه لم يلجأ إلى شراء الأرض إلاّ بعد فحصٍ متأنٍ وجولات طويلة على الحقول المحيطة ببيروت. لم يفهم بلس كيف ظلّت هذه الهضبة المشرفة على البلد وعلى خليج عين المريسة خالية من العمار والبشر، بينما عجّت الجهة الشرقية من بيروت بالقصور والمزارع! لم ينتبه دانيال بلس إلى خوف السراسقة والمهجرين الشوام الأثرياء من البناء وراء القشلاق التركي، على الهضاب فوق

عين المريسة. لو عاش بلس في زمن الحرب الأهلية اللبنانية الحديثة، لو رأى المدينة تنقسم إلى مدينتين بين 1975 و1990 بخط تماس يلمس طرف عين المريسة، كان انتبه. لكن في ذلك الزمن البعيد كان التاريخ أقل امتلاء: مثل بيتٍ لم يُفرش بعد).

المشاعل تنير الأرصفة. والعمل لا يهدأ. هذا قفير نحل. المدينة تستورد ما يملأ أسواق اليابسة السورية كلّها، وترسل إلى وراء البحر كل ما يخرجه هذا البرّ من خضر وفواكه وحبوب وتبغ وحرير. الكل يسعى وراء الحرير. وعمر يعلم أن أخاه يخطط الآن ـ بعد أن فتح مع الحلبي ابن عائلة توتونجي معمل منسوجات ـ يعلم أن عبد الرحيم يسعى لشراء «خلاقين» وتحويل الزريبة إلى كرخانة حرير. يبدأ بكرخانة صغيرة، ليتعلم المصلحة، ثم يتوسع.

الحاج عبد الرحيم يُسبّع الكارات، يقولون في البلد. كار واحد، مصلحة واحدة، لا تكفيه. لم ينهِ بناء الخان في السهلات بعد، لكنه مع ذلك يفتح معملاً مع نسّاج حلبي مهجّر، ويبعث وسطاء إلى الخواجة إبراهيم سرسق لشراء «صبيرات سرسق» وبناء حارة قرميد هناك! ليس هذا فقط: احتكر شراء التبغ من القوافل الشامية! ليس هذا فقط: يشتري الخلاقين ودواليب الحل، يريد فتح كرخانة! (أقاربه آل الصايغ توسطوا له عند الخواجه غابريال جبيلي، مالك كرخانات جبيلي التي تتعامل مع «شركة أرملة غيران» الفرنساوية. الخواجه سيبيع الدواليب القديمة التي تحبك حريراً بخيطين، لأنه يزود معمله بدواليب أحدث ـ من ليون ـ تحبك حريراً بثلاثة خيوط!).

ابن عبد الجواد يُسبّع الكارات، ويُقال أيضاً أنه سيتزوج على امرأته، مع أن آل الفاخوري أرباب نعمته. من دون الحاج محي الدين الإسطمبولي، عمه أبو زوجته، كيف كان يحصل على التزام

التبغ من الوالي؟ من دون قوافل آل الفاخوري كيف كان يملأ مخازنه؟ (ليس مخزن التبغ فقط. استرد أخيراً حانوت البازركان، وملأه بضائع من دمشق!).

آل الفاخوري إذا أرسلوا قوافل واستقدموا قوافل رأيت البغلة الأولى تبلغ مضيق ظهر البيدر بينما البغلة الأخيرة تخرج للتو من باب الدباغة. إلى هذا الحد قوافلهم طويلة! ولا يأخذون من عبد الرحيم أجرة النقل! معقول؟ معقول وأكثر من معقول: ألم يفعلوا ذلك من قبل مع أبيه الشامي صاحب الذراع الواحدة؟ هؤلاء أهل خير. وكلّهم كرم. ثم إنه يفيدهم هو أيضاً.

سليم سلامة، الرجل الذي يربي نحلاً ويشتار عسلاً، قال في «قهوة النوفرة» إن الحاج البارودي يشتري مع أخواله الفاخوريين الأراضي وراء مقبرة الباشورة. «سهل الناصرة» كلّه صار ملكاً له. ويشترون في ناحية المصيطبة أيضاً. سليم سلامة يعرف حركة الأراضي لأنه يبحث عن المراعي لقفرانه. وهو كلّما وجد مرعى طيّباً مملوءاً بالزهور مضى إلى صاحب الحقل ليطلب إذناً بإنزال قفران النحل فيه. يعرف في المراعي. ولأنه يعاشر النحل لا يميل إلى الحكي كثيراً. فإذا تكلم لم يُطلق الكلام جزافاً. لسانه ليس طويلاً. متى قال شيئاً صدقه الناس. يظهر في «قهوة النوفرة» مرةً كل موسم، يأتي إلى هنا فيجيء إليه الناس لشراء العسل. وأحياناً يذهبون إلى حانوت التبغ ويطلبون العسل من ابن اخته. علي سلامة لا يشبه خاله. الخال نحيل، عظامه تبرز من جلده، لوزته متضخمة. لا يلبس إلاّ الأثواب الفضفاضة. يُرى طائراً عند حواف الجلول، والريح تخفق في ثيابه. علي سلامة ليس بديناً، لكنه مملوء الجسم. الحاج البارودي لا يبخل عليه، وطعام «محطة الشام» يُسمن.

الحاج البارودي يُسبّع الكارات (التبغ والنسيج وشراء الأراضي

والتخطيط لعمارات وكرخانات) لكنه مع هذا لا ينسى مطعمه. المطعم أيضاً يتوسع: صارت هناك قعدة محترمة على سطحه، بطاولات ومقاعد وعرائش عنب تظلّل القاعدين. الخواجات يجلسون فوق. والضباط الأتراك إذا سهروا عنده بذلوا العثمليات بسخاء وفرت الدموع من عيونهم: تخفق قلوبهم بالحنين وهم يأكلون شيخ المحشي الذي تطبخه أم هند، سعدية الحصّ البارودي.

البلد كلّها تفور بالأشغال. الشباب الذين يرجعون إلى بيروت هذه الأيام من الخدمة الإلزامية في عساكر السلطان المفخم، لا يعرفون بلدهم. إلى هذا الحد تتبدل المدينة! كل هذه البيوت في السهلات! كالفطر تنمو! ومع زوال الأسوار واحتطاب التوت صارت البيوت تُرى من بعيد. قبل ذلك ما كان يُرى إلاّ المآذن!

المدينة تتغيَّر ولا أحد يفتقد الأسوار العتيقة السوداء ولا أحد يفتقد زمن إبراهيم باشا. مع أن تلك الأبواب المطلية بالأزرق الطلياني البارق كانت منظراً بديعاً! زال الطلاء وتخلعت أبواب السور وبعضها صار في مداخل خانات جديدة. باب السنطية ابتاعه اليهود من الإنكشارية وأخفوه في حارتهم بانتظار بناء الكنيس الجديد. منذ زمنٍ يخططون لهذا الكنيس. لكنهم لم يتفقوا بعد على مكان بنائه. لا أحد يفتقد الزمن القديم. الحياة سريعة، وتغدو أسرع فأسرع.

الجنود يعجّون في الأسواق، وحين ترسو إحدى الدوارع الفرنجية ترتفع زغاريد السوق العمومي. معقول! المصريات والسودانيات بلا مخ! يزغردن ويرقصن، ولولا الحياء يضربن الصنوج! لم يخرج السوق العمومي إلى وراء السهلات بعد، مع أن «الوالي وعد مجلس الإعيان». هناك مشاكل. مشاكل مع الإنكليز (نصف العساكر غادروا في الخريف الأخير). ومشاكل مع الفرنسيس

(هذا القنصلاتو الجديد لا يطيق وجه الوالي. مع أنه كان سفيراً في اسلامبول!)

لا أحد يفتقد ما مضى. الحياة إلى أمام تسير. محمد الفاخوري الذي عاد بيدٍ واحدة من بحرصاف صار شيخاً في جامع أبي النصر (جامع الأمين). عنده زوجتان وقبيلة أبناء، وبيتان متجاوران يطلاًّن من خلف على السهلات وعلى المعسكر (كل تلك المدافع التي لا ينال منها الصدأ، هل تُذكره بسهل الموت البعيد حين ينعكس عليها شعاع الشمس الصباحي؟). ويطلاّن من أمام على سوق أبي النصر وعلى القبّة الحجر لحمام الدركاه (صار للحمام زجاج قيشاني ملون يُزين الكوى المدورة العالية؛ عند الظهر يقطر الزجاج عرقاً وبخاراً، كأنه يتغطى باللؤلؤ). السوق صاخبة، وإذا أراد الرجل أن ينام القيلولة عجز عن النوم. كل تلك النداءات! والباعة! والحمير التي تنهق! والأجسام التي تتلاطم! والشتائم والسباب! الإنكشارية يعاركون الأهالي، والأهالي يعاركون الإنكليز، والإنكليز يعاركون الإنكشارية، والإنكشارية يعاركون الإنكشارية! اختلط الحابل بالنابل، والتجار يقعدون في المداخل العالية عن أرض السوق، حولهم أكياس البضاعة والصناديق، والأراجيل التي تقرقر. يطلبون الطعام إلى الحوانيت، وينعسون بعد الطعام متكئين إلى مساند، والبرغش يحوم على القصعات، ولا ينامون. الأولاد أيديهم طويلة، والسرقة في الزحمة أسهل من شُرب الماء. السوق صاخبة، والروائح تملأ الفضاء (العرق والتوابل والشواء والعطور). كيف ينام الواحد قيلولته والضجة تجتاح الشبابيك؟

ضجة من هذه الجهة، من بطن البلد، وضجة من الجهة الأخرى، من السهلات. سوق كاملة ظهرت عند حافة المقابر المقفلة، هناك حيث ترقد عظام الأسلاف تحت التراب الرطب.

سوق كاملة يسمّونها الطريق الجديدة (في القرن العشرين ستظهر طريق تحمل هذا الاسم وراء المصيطبة. . . أثناء ذلك كانت «الطريق الجديدة» الأولى القديمة قد تغيّرت كثيراً وتغيّر اسمها إلى «سوق الطويلة»). دكاكين تتراصف جنب بيوت، وبسطات تغطي الأرض! بعد أن غادر بعض الإنكليز المعسكر حلّ في البيوت التي فرغت مهجّرون شوفيون وحلبيون. «خان التوتة» قلّت فيه العجقة، يقولون، ولعله يُخلى قريباً، وعندئذٍ يستطيع الحاج البارودي أن يكمل أعمال البناء: كل الجانب الجنوبي من العمارة المستطيلة لم يسقف بعد، ولم تُمد فوق حيطانه الجسور.

خان التوتة المنحوس قد يُخلى قريباً. وعندئذٍ ربما استطاع الحاج البارودي أن يُصلح ما تهدم من جانبه الشرقي، وأن يكمل التعمير. الحلبيون استأجروا بيوتاً بباطن البلد. ومع قروض الكونت ميخائيل طرازي والخواجه انطون طرازي ومساعدات القناصل الأجانب بنوا بيوتاً في جوار مقبرة الباشورة. واحد منهم بنى بيتاً عند حافة «سهل الناصرة». وقبل أيام خرجوا في جنازة ودفنوا ميتاً في مقبرة تخصهم: بهذه السرعة صارت عندهم مقبرة. الآن صاروا من أهل البلد، هكذا يقولون، لن يرجعوا إلى حلب، عندهم موتى في بيروت الآن، تحت تراب بيروت!

البعض يقول سنرجع إلى حلب، والبعض يأبى الرجوع. وإذا رجع سيرجع ليأتي بما تركه هناك، أو ليبيع ما يملك. هذه المدينة طيبة، يقولون، وأهلها طيبون. قريبة من البحر، والبناء في سهلاتها يسيرٌ. المرفأ على بُعد خطوة، والأسواق مملوءة بضاعة. لماذا يرجعون إلى حلب؟ لتحرق الغوغاء متاجرهم من جديد؟ الحمار لا يسلك الدرب الخطأ مرتين. وهم ليسوا بالحمير!

هذه أرض طيبة. لماذا يتركونها؟ فيليبوس أرقش، أبوه

القندلفت سمعان أرقش ذبحوه داخل «خان حلب» ثم ألقوا جثته من فوق البوابة لتنهشها الكلاب وتلغ في دمها، فيليبوس يزرع الآن سهل الناصرة قمحاً وبندورة. طلب الإذن من الحاج البارودي فأعطاه الرجل الكريم النفس ما يريد.

صحيح أن الأرض التي استصلحها كانت صخراً وشوكاً وصبيراً ورملاً، ولكنه أصلحها. أحرق الشوك والوزال والقندول، ونقبها، واستخرج صخورها (كل الصخور نقلتها البغال إلى سهلات البرج: الحاج أبو حسين سيكمل البناء قريباً). تربتها كلسية فقيرة، هذا صحيح، لكنه نقل إليها التراب الأحمر من رأس بيروت. لم يعمل وحده. كل أولاده الصغار عملوا معه. الأولاد الذكور في الحقل، والبنات في المعمل خارج باب الدركاه. كل الحلبيات يعملن في مصنع المنسوجات هناك. وفي الكرخانات التي يملكها آل فياض وكبابة وطراد وجبيلي وعيتاني وبسترس وإدريس. صحيح أن الأجور زهيدة، لا تكفي لشراء الخبز والزيت، لكنها قروش. والقرش على القرش يجمع، وإذا مضت الأيام يصير ليرة. الكل يعمل. والمهجّرون يخرجون من «خان التوتة» لأنهم لن يقبلوا أن يلحسوا العسل كلّه (عسل إحسان الأهالي والأرساليات). يخرجون من الملاجئ المؤقتة ويعمرون بيوتاً. الحضرة السلطانية، ممثلة في الوالي العثماني، توزع عليهم بعض الأراضي عند أطراف السهلات، وبعيداً في الجرود القاحلة. يبنون بالطين والقصب والوزال، وبالحجارة أحياناً. هذه الأرض طيبة. حتى ولو كانت رملية فقيرة التربة، لا تُنبت إلاّ صبيراً وسنطاً، حتى ولو تدفقت بالسيول في الشتاء ولطخت حيطانهم وحلاً وسدّت بجيف الحيوانات الأزقة، مع كل هذا بيروت طيبة. ليس أدلّ على طيبتها من هذا الحاج عبد الرحيم الذي سكت عن سرقة الحجارة من خانه. مرة تلو المرة!

البيوت الفقيرة والحوانيت الطين التي تظهر عند حافة «الطريق الجديدة» تعرف فضل الرجل. أمين العطّار بائع الحنّة والمسك الذي نجا من حوادث حلب بدهائه (تدلى بحبلٍ إلى قعر البئر بينما ينهبون بيته ويحرقونه، تدلى بحبلٍ إلى قعر البئر، وحين ابتعدت الأصوات خرج من الظلام وصعد إلى السطح. رأى البلد تحترق! قفز على سطوح حلب، تحت القمر المدوّر كعينٍ، من حيّ مار توما إلى السور البعيد قفز، ثم فرّ في البرية. قطع الجبال والأودية والسهول إلى أن بلغ بيروت) أمين العطّار الذي يقطن الآن كوخاً عند حافة مقبرة الغرباء المقفلة يعرف فضل عبد الرحيم البارودي. (حتى إنه نظم فيه أبيات زجل. الرجل صاحب كلمات فخمة. إذا شرب عرقاً زحلاوياً مثلثاً جاد بالعبارات المرصعة وأدهش السامعين. كلما وُلِدَ لأحد الأعيان طفل ذهب إليه ونظم أمامه زجلاً مرتب الكلمات تبعاً لحساب دقيقٍ يُسمّونه «حساب الجُمَّل». فإذا سمع الأبيات رجلٌ عارفٌ، استدل من ترتيب كلماتها وحروفها على تاريخ ميلاد الطفل المذكور: يعرف اليوم والشهر والسنة، يعرف ساعة الولادة أيضاً). متى أصابه جوع ذهب إلى «محطة الشام» فحصل على عظام السلسلة يعمل منها شوربة تملأ البطن. ليست عظاماً تُرمى. عظام غنية بالشحم واللحم! يعمل شوربة شهية، يطفو على وجهها النخاع الدسم، مع نباتات برّية يقطفها من أحراج رأس بيروت. هذا كان في البداية. الآن لا يطلب عظماً. لا يحتاج إحساناً. رآه الحاج عبد الرحيم مرة يحمل مقطف العظام فسأله ماذا كان يعمل في بلده؟ حين عرف رتّب له شغلاً في سوق العطّارين، عند الحاج يوسف قرنفل.

العطّار عاد عطّاراً من جديد. عند صلاة الظهر، والناس يتدفقون إلى الجامع العمري الكبير، يقف منتصباً في مدخل الحانوت

الضيق المزدحم بأكياس التوابل والسلال والعناقيد المجففة، يقف هنا مرتب الهندام، غارقاً في ضوع الكهرمان والعنبر، ليلقي السلام على الحاج عبد الرحيم. هذا الحاج لا ينسى صلاة أبداً! مثل الساعة يشتغل! قبل أن يسكت المؤذن تراه مقبلاً من سوق الفشخة. ولا يجيء وحده أبداً. تراه آتياً من بعيد، بعباءته الجوخ المقصبة وعمامته الصوف النظيفة. من حوله أصحابه التجار، ووراء الجماعة يسير العبيد العمالقة الأحباش، شعورهم خشنة كالليف. بشرتهم تبرق صيفاً شتاء، صقيلة كأنها طُليت زيتاً. لباسهم فضفاض فاقع الألوان، أزرق وأصفر ونيلي وأحمر، يبدون كالأشجار المتحركة بثياب منشورة عليها وراء الأعيان الماشين. قامات الأحباش عريضة، حتى إنهم يغطّون مشهد سوق الفشخة في الخلفية، ويحجبون الحمير المحملة والسلال المعلقة أمام الدكاكين. تسمع الصخب وهم يقتربون، فإذا بلغوا قناطر الجامع سكتوا احتراماً للدين.

الكلّ يسكت، والحلبي العطّار الباقي على نصرانيته، تدمع عينه وهو يرى الجماعة تتخلص من المداسات عند حافة الحصائر والسجاجيد، وتستعد للوضوء. حركة رجل واحد يتحركون. ويرى بين أنامل الحاج عبد الرحيم مسبحة عاج بشرابة فضة ونقود أسدية مثقوبة. مسبحة عاج 99 حبّة قالوا له إن الحاج لا يدعها من يده لأنه وَرِثها عن المرحوم أبيه.

عادت إلى «حارة البارودي» في تلك الفترة امرأة كانت نُسيت تماماً في بيروت. لم تعد وحدها. عادت مع قبيلة أولاد، وسبّبت ذعراً في البلد. لكن قبل أن نأتي إلى هذه الساعة ـ وبما أن العائلة الجديدة الآتية من بعيد سوف تنزل في بيت سهيلة النابلسي البارودي ـ لنرى كيف كانت أحوال أُم زهرة عندئذٍ.

فتنت أم زهرة الإنكليز بحلوياتها. حتى إن الحاج عبد الرحيم كلّف أحد أولاد الحبشي سنان (هذا بكره أحمد) بتوصيل صدور الحلو مباشرة من البيت الراقد عند حافة «الطريق البيضاء» إلى معسكرات الإنكليز في السهلات. حين أخذ الإنكليز يطوون الخيم ويجمعون العتاد ويركبون البحر مغادرين، فوجاً إثر فوج إثر فوج، تنفست أم زهرة الصعداء. تعبت من العجن والخبز، تعبت من صواني الكنافة والصفوف والبصمة والبُرمة والمعمول المدّ بالفستق الحلبي والجوز البلدي؛ كرهت رائحة القطر والسكر المعقود؛ صار يُغشى عليها إذا شمَّت ماء ورد وزهر! سُرَّت لرحيل الإنكليز. وحين سمعت الداية قدرية الجمل تقول إن لسانهم يتمرمر الآن في عرض البحر ابتسمت. منذ زمنٍ تحوم العجوز حولها. تأتي وتشرب قهوة وتدخل في حديث الرِّجال. يبدو أن الحاج ملحم إدريس يطلب قربها. أم زهرة ردّت أنها شبعت زواجاً.

كل واحد في همّه. الصبي أحمد الكوشي (هكذا ينادون الحبشي في بيروت ذلك الزمان: «الكوشي». وهي تسمية ترد في «التوراة» أيضاً كما ترجمها إلى العربية كرنيليوس فانديك المرسل الأميركي الطبيب المقيم في بيروت القرن التاسع عشر) الصبي أحمد الكوشي اغتم عندما رأى بيوت الإنكليز في السهلات تفرغ من الرجال الشقر الزرق العيون. من دونهم كيف يشبع معمولاً على الطريق من بطن البلد ـ من «حارة البارودي» ـ إلى وراء المقابر؟ كيف يشبع من الحلو الآن، وأم زهرة كفَّت عن إشعال الفرن ومدّ العجين في الصواني وخلط الخلطات وهي تتنهد؟ كيف يشبع؟

كل واحد في همّه. والحاج عبد الرحيم لا يجد الوقت الكافي ليشعر بالهمّ والقلق. العمل يدفعه إلى مزيد من العمل. النشاط يفور في جسمه، يمنعه من القعود لحظة واحدة، وحين يحلّ المساء تراه أم حسين يتثاءب قبل أن يكمل عشاءه. لا يكاد يلاعب الأولاد قليلاً، ويردّ على سؤال أو سؤالين، حتى تجده مدّد هيكله الملآن (كرشه ليس كبيراً، لكن جسمه يتغطى بنعمة الشحم ووجاهة اللحم)، على التخت الجديد العالي، وانقلب على ظهره. تعبوا كثيراً في تركيب هذا التخت هنا، مع ضيق المكان، وقال الحاج «هذه إشارة»! وضحك فضحك معه النَّجار والشغيلة. صار المكان ضيقاً. وآل سرسق باعوه جلّ الصبّير في نهاية «الطريق البيضاء»، وهذا الربيع يبدأ بناء الحارة: يريد بيتاً كبيراً مستطيلاً، وفوق البيت القرميد الأحمر العالي مثل هرم. هذا البيت ـ حيث ولَّدته أمّه ـ بات ضيقاً.

ليس عنده وقت ليضربه همّ. مع أن أحوال العمل تثير القلق. معمل المنسوجات لا يملكه منفرداً، عنده شريك فيه، وهو لا يعرف هل يثق بهذا السرياني! مضطر للشراكة معه لأن الرجل يعرف هذه المصلحة. يعرف كيف يحبك القطن والحرير في قماشٍ واحد

يسمّونه «الألاجة»، ويعرف كيف يتولى شؤون العاملات الحلبيات. هو يشعر ببعض الحرج بينهن. كلّهن يطلبن رضاه لكنه لا يعرف كيف يتصرف بين النسوة السافرات. يخاف حتى ان ينظر إليهن، يخاف ربّه.

ثم أن بعض الحلبيات بلا أدب. أخبروه أن ثلاث حلبيات في «كرخانة دبانة» انتقلن من شغل الكرخانة ـ وقذف الشرانق في خلاقين المياه المغلية ـ إلى السوق العمومي. «الملكة محاسن»، الباقية في البلد من أيام المتفرنج محمود نامي، ضمتهن إلى بيتها. وحتى الحلبيات الباقيات في «كرخانة دبانة» لا يعتصمن بحبل الإيمان. دكّة الحلبية رخوة، صاروا يقولون في الأسواق. وأول من ينشر هذه الأخبار مسعود حدّاد ناظر «كرخانة دبانة». هذا الناظر أسود النظرة، مع أنه يُلعب حاجبيه المزججين طوال الوقت، ويُكحل رموشه. رجل عديم الحياء. عديم الرحمة أيضاً. يُقال عنه أقاويل. ولسانه سليط يسلق سلقاً. لم يترك حلبية من شرّه. ويميل إلى الصبيان كذلك. الحاج عبد الرحيم لا يطيق ذكره ولا يطيق منظره. التقاه مرة في حمام الدركاه فاستعاذ باللّه من الشيطان الرجيم، وصار لا يزور الحمام المذكور بعد ذلك. يذهب الآن إلى حمام البازركان، أو إلى الحمّام وراء «خان الحرير»... ثم إن هذا الحمّام أقرب إليه. قهوته طيبة. وأرضه ليست زلقة. الأرض الزلقة تقتل. الشيخ المسقاوي وقع في الحمام وهو يخرج من الماء ويتنشف، وقع ودقّ رقبته قبل أن يشرب فنجان القهوة الحلوة.

الحاج عبد الرحيم عنده أشغال أخرى يفكّر فيها. سُرِقت إحدى قوافل التبغ وكان دفع ثمن البضاعة. الخسارة الكبرى تقع على أقاربه آل الفاخوري إذا طلب استرجاع المال، فكيف يطلب؟ البدو ضربوا وهربوا، أخذوا التبغ كلّه، والآن يدخنونه في الصحاري، أو يبيعونه

في حمص وحماه وحلب، وربما حملوه مرة أخرى إلى اللاذقية، وباعوه هناك! يعملونها! هؤلاء الملاعين! فماذا يصنع؟ يطلب المال من الحاج خليل أم ينتظر ويرى ماذا يعمل الحاج وحده؟ قرر عبد الرحيم أن ينتظر.

الأشغال كثيرة. يُرسل طبخاً للقشلاق، ولبيوت الضباط الكبار. كلّهم يوصون على المشاوي والمحاشي. في عروق أم هند يجري دم تركي أصيل. نَفَسُها طيبٌ. الأشغال كثيرة. والخان كاد يفرغ من اللاجئين: أعمال تقصيب الحجارة بدأت وكذلك مدّ الجسور. استجلب للسقوف العريضة جسور الصنوبر من وراء برج حمود، وجلب قافلة كاملة من الجسور من سفوح جبال المتن. هذه القافلة تقاسم حمولتها مع الشيخ حمد العيتاني الذي يتولى بناء العنابر الجديدة عند أرصفة المرفأ. حين بلغت القافلة «السهلات» تراكض الأهالي للفرجة عليها. جذوع الصنوبر طويلة، فوّاحة الرائحة، يغطي قشرتها الصمغ. الحاج عبد الرحيم انتقى الجذوع التي لا يكثر الصمغ على لحائها. الصمغ معناه أن خشب الشجرة يضربه السوس وتسعى فيه ديدان الخشب. هذا الصمغ تُفرزه الشجرة كي تقتل الحشرة. من أخبره هذا؟ العطّار الحلبي الذي أحسن إليه، أمين العطّار أخبره. هذه تدابير سبحانه. يرى النملة على الصخرة في طرف الأرض، ويجد لها عملاً! يا ربّ يا رزّاق يا حكيم يا كريم!

تعلَّم عبد الرحيم على أبيه أن يؤمن باللّه تعالى ويعتمد عليه. في كل ساعة يُردد الشهادتين. لا إله إلاّ اللّه محمد رسول اللّه. يواظب على الصلاة في الجامع العمري ولا يُهمل زكاة أبداً. عندما حجّ إلى مكة المكرمة شعر أنه يسير على الغيوم. طائفاً بالكعبة بين الطائفين ترقرقت الدموع في عينيه وملأ الأمان قلبه. تذكر المرحوم أباه عندئذٍ يتوضأ أمام جامع النوفرة، في البركة المرمر، وتذكر المرحوم أخاه

ذاهباً مع الأب إلى الصلاة ذات جمعة. ركع وصلى وذكر أباه عبد الجواد وأخاه شاهين وأمه صفية، وحين رقد في الفراش بين الراقدين تلك الليلة رأى مناماً عجيباً: رأى أنه يطوف مع أهله جميعاً، كلّهم في اللباس الناصع الأبيض، وكلّهم ينظرون إلى سماء مملوءة بالغيوم القطن: كانت سماء خريفية، سماء مغسولة بالأمطار، تتوزعها الغيوم، والشمس أشرقت للتو فصار بطن الغيوم رمادياً قاتماً لكن حوافها تضيء بالنور الأبيض ـ الأصفر المشع. الغيوم لا تقدر أن تحجب هذا الشعاع الباهر البهيّ. استمر المنام زمناً طويلاً، يطوفون حول الحجر المكعب الأسود، يتجهدون، وينظرون إلى أعلى، إلى الغيوم المضاءة بالشمس. ثم تغيَّر المكان. وجد نفسه فجأة في بيروت من جديد، يعبر زقاقاً ضيقاً يعرفه من أيام الطفولة وراء كنيسة الموسكوب القديمة، ليس بعيداً من سوق أبي النصر، يعبر الزقاق المظلم ثم يفتح بوابة قريبة من حمام الدركاه ويدخل، فيرى ـ قاعداً على الأرض، في اللباس الأبيض ذاته ـ أخاه شاهين. كان هذا المرحوم، هو ذاته، لم يتبدل أبداً. كم يشبه عمر! لولا لون العينين! وألقى عليه السلام. جلس عبد الرحيم على الحصيرة، تناول قصعة خزف مملوءة بالمغلي من أخيه. حبّات اللوز المقشرة على وجه الحلوى المطبوخة برزٍ مطحون وسكر وبهارات بدت كأنها حصى بيضاء مفلطحة. خاف في المنام أن يقضمها فتتكسر أسنانه. وشاهين ـ كأنه سمع أفكاره ـ قال:

ـ كُلْ، كُلْ، لا تخف، هذه من الجنّة!

فتح عينيه فرأى الراقدين ورأى القبب العالية ورأى أعمدة رخام في الجهة البعيدة: عدَّ الأعمدة التي يوجّ رخامها في الظلام. كانت سبعة. عدّها مرة أخرى: وجدها تسعة! حيَّره ذلك كما حيّره المنام. عند طلوع النور رأى أنها عشرة أعمدة. في الظلام لم يرَ جيداً! على

الجمل، خارجاً إلى الصحراء مع أصحابه، بكى. كان مملوءاً بحبّ اللَّه ورسوله وصحبه وأهله والدنيا والآخرة. لن ينسى أبداً تلك الساعة: على فراش الموت، بعد سنوات طويلة، وهو يرقد محاطاً بأبناء وحفيدات في «حارة البارودي» المسقوفة بالقرميد، تذكرها. تذكر تلك الساعة لأنه كان يستعد للرحيل عن الدنيا. وتذكرها بسبب الغيوم: برأسه على المخدة، كان يرى ـ عبر النوافذ الفسيحة العريضة ـ البحر الأزرق والسماء الزرقاء الممتدة فوق البحر الأزرق وغيوم الخريف القطن البيضاء التي تُزين السماء، وتتلوَّن حوافها بالأصفر الباهر البهيّ.

*

لكن قبل أن تحلّ تلك الساعة، كانت أعمال لا تُعد في انتظاره. أعمال وصدمات وخيبات: سقط السقف في القسم الجديد من الخان، هذا القسم الشمالي، سقط السقف سقوطاً مدوياً وقتل رجلين ينقلان حجارة. وقع السقف وتصدع حائط طويل واهتزت حيطان العقد المجاور. لكن هذا العقد المتين، الذي بُني قبل ثلاثة أعوام، لم يتصدع. العقد لا يتصدع: حائط مزدوج، وبين الحائط والحائط مسافة متر معبأة بأكوام تراب ورمل وحجارة. (أثناء الحرب اللبنانية الطويلة، في الربع الأخير من القرن العشرين، تحولت بيوت العقد القديمة الطراز إلى ملاجئ).

اهتزّ الحاج عبد الرحيم أمام الكارثة: هذه أمور كانت تحدث في تلك الأزمنة. يقع سقف أو يسقط جدار ويُقتل عمال. هذه أمور ما زالت تحدث في أيامنا. لكن هذا لا يبدل شيئاً: حزن شديد أصاب الحاج وهو يرى الجثتين تُرفعان من بين الأنقاض. كان وجه أحدهما مسحوقاً!

بعد الدفن أمر الشغيلة بوقف أعمال البناء. كان الصيف انتصف. وأولى النسائم الباردة تهبّ في أنصاف الليالي، وتنذر باقتراب الخريف وموسم الأمطار. مع هذا أمر بوقف العمل. لا يريد أن يبني الآن. عليه أن ينتظر. الرجلان من عائلة واحدة: عائلة مُحب. عندهم صبيان وبنات. لكل منهما امرأة، وكل امرأة من الاثنتين باتت ـ في ساعة واحدة ـ أرملة. رأى العيون الحمراء في الدفن، وحزن. وقف، والتُراب يُهال، حزيناً.

كأن هذا الخان لن يكتمل بناؤه أبداً!

*

في تلك الأيام السوداء حلّت نكبة أخرى بالعائلة. النكبة الأولى جاءت من «السهلات» القريبة، لكن النكبة الأخرى أتت من صيدا البعيدة، في الجنوب، وراء نهر الأولي.

عصفَ الهواء الأصفر بصيدا. المرض وصل إليها مع حجّاج فرنسيس راجعين من أورشليم. الحجّاج الأربعة ماتوا في «خانَ الفرنج» ودُفنوا في مقبرة الكاثوليك، وراء «كنيسة جميع القديسين» القديمة. تحت هذه الكنيسة، التي تهدمت عند منتصف القرن العشرين، كانت توجد مغارة يسمّونها «مغارة السيدة»، ويقولون أن أُم الإله نامت فيها ليلة. هذا كلام عامة، ولعلهم استوحوا الحكاية من «مغارة السيدة» في مزرعة مغدوشة الواقعة إلى الشرق من صيدا، على هضبة تطلّ على البحر. إذ تتناقل الأجيال في تلك الناحية خبر نزول السيدة العذراء في المغارة المذكورة أثناء انتظارها رجوع السيد المسيح من جولاته في هذه البقاع. وعندهم اسم آخر لها: «مغارة النطرة» (مغارة الانتظار).

الحمّى انتقلت من ملابس الحجاج الأربعة وأبدانهم والخواتم

الذهب في الأصابع إلى أجسام الرجال الذين تولوا عملية الغسل والدفن. كانوا في معظمهم من أبناء الطائفة الكاثوليكية، يحيون في بيوت متجاورة عند شط البحر. (كاثوليك صيدا صاروا كاثوليكاً في القرن السابع عشر، وقبل ذلك أيضاً. تحولوا عن الأرثوذكسية ـ دين الأجداد ـ طلباً لحماية الفاتيكان. كيف يحميهم الباب الروماني؟ بأن يكفّ عنهم أذى القراصنة. ذلك أن المسيحيين الصيادنة يتاجرون بالبحر مع دمياط المصرية. ومن دون حماية بابوية، من دون العلم البابوي مرفوعاً على سفنهم، تسطو عليهم قراصنة مالطة!).

الكوليرا انتشرت هنا، حيث سوق الحِسبة، أولاً. وعندما هبّت نسائم البحر انتقلت الكوليرا إلى أعماق صيدا. حارة اليهود، التي تجاور حارة الروم الكاثوليك، تلقت الموجة القاتلة في صدرها. بين ليلة وضحاها ارتفع البكاء من الشبابيك. وارتفعت الرائحة.

الأحياء الإسلامية حاولت أن تعزل نفسها عن المرض. لكن هذه الأحياء القديمة تتداخل. ثم ان الكل يختلط بالكل في الأسواق. والمريض لا يُعرف دائماً. مرّات يكون الواحد مريضاً وهو ذاته لا يدري أنه مريض. أعراض الكوليرا تشبه أعراض أمراض كثيرة مألوفة. تؤلمك بطنك وتصاب بالإسهال الحاد، أو ترتفع حرارتك، أو تشعر أن نفسك مقلوبة. لا تفكّر أنه الهواء الأصفر... تحسب أنه الرشح أو هي ضربة شمس. ثم يقوى المرض.

الحظ البائس تفاقم بتراجع النسائم الغربية بعد انتشار المرض، وهبوب رياح الشرق. ارتفعت درجة الحرارة، وشعّت الشمس، فارتفعت الأبخرة من القاذورات على الشط، وارتفعت الأبخرة من المقابر، وارتفعت الأبخرة من المستنقعات بين البيوت. الهواء الأصفر يغزل نسيج عنكبوت على النوافذ، والناس يموتون.

كانت كارثة. حصد الوباء، في أقل من شهرين، 137 رجلاً، و158 امرأة، و96 طفلاً. زهرة البارودي نقوزي ترملت. زوجها ناظر مسلخ صيدا كان أول من مات في «حي القلعة». دفنته (لم تدفنه. أخرجته ـ تبعاً للقانون ـ إلى أمام الباب وقد ربطت على رقبته قماشة قاتمة، فأتى الجنود وحملوه إلى حيث يُدفن الجميع ويُحرق متاعهم). دفنته وألبست أولادها كل ما في البيت من ثياب (غلت الثياب طويلاً على النار)، ألبستهم الثياب طاقاً على طاق، حتى باتوا يحركون أطرافهم بصعوبة، كأنهم يلبسون دروعاً من حديد... ثم خرجت بهم من صيدا المنكوبة، وقطعت الهضاب والرمال حتى بلغت «خان الأوزاعي».

كان خاناً متداعياً مهجوراً لم يُصلحه أحد منذ أحرقه العسكر المصري الهارب قبل أكثر من 11 سنة. نامت الليل مع أولادها في هذه الخربة (لو أنها وحدها كانت بلغت بيروت قبل غياب الشمس، لكن مع الأولاد هذا مستحيل، وعليها أن تحمل طفلتين، كل طفلة تحت إبط، وفي هذا الهواء، مع الرمل في العينين، وهذه الأثواب التي تثقل على صدرها!). نامت الليل على عواء الواوية، والنار تطقطق، والشرر يتعالى من الحطب والوزال، وعند الفجر أيقظت الأولاد، هزّتهم من النوم، ففتحوا العيون على نور العراء القوي (مع أنه الفجر) وسمعوا ـ بأذان لا تفهم معنى ما تسمع ـ هدير البحر العجّاج الفظيع على بُعد أربعة أمتار ليس أكثر! أين نحن؟ لم يعرفوا أين هم.

أطعمتهم كسرات الخبز مع مربى اللقطين الذي تحمله في فخارة، وتركتهم يقضون حاجتهم وراء الحائط، ثم قالت هيا! كانت تسابق الشمس، وتخشى دوريات الإنكشارية. تخاف أن تؤمر بالرجوع إلى صيدا. لم تصدق أنها تمكنت من التسلل عبر طوق

الحجر الصحي. استعملت الحيلة: زحفت مع الأولاد عبر بساتين البرتقال وقطعت النهر على جسر الخيزران العتيق الذي لم يعد يستعمله أحد. خرجت من صيدا، لكنها لم تنجُ بعد. إذا رآها الإنكشارية ردّوها من حيث جاءت. لا رحمة في قلوبهم. لا رحمة. حين تتذكر المناظر التي رأتها من النافذة ـ وزوجها مريض ينضح عرقاً ويهذي ـ حين تتذكر يقف شعر بدنها: رأت رجلين مريضين يتعاركان واقفين أمام سبيل الماء. لم تفهم لماذا يتعاركان. وكانا يتكلمان لغة لا تعرفها. ليست التركية. تعرف التركية، والمرحوم أخوها طالما عاش في «دار السعادة» وحارب في صفوف الإنكشارية. تعرف التركية. تعاركا وتجادلا بلغة خشنة فظيعة كبرطمة الحيوانات. ليست العبرية. تعرف العبرية. المرحوم أبوها كان أعزّ أصحابه يهودي من آل مزراحي. وزوجها المرحوم (اللّٰه يرحمك، كيف تتركني وحدي مع كل أولادنا؟) زوجها الساطورجي طالما عاشر يهوداً بشعور طويلة ملفوفة كالكعك وصاحَبَهم. وإحدى جاراتها يهودية، تأخذ منها ملحاً وسكراً إذا احتاجت. وفي الأعياد ترسل لها مع ابنٍ اسمه حبقوق على اسم نبي عندهم حلوى يعملونها بالقرفة، لاذعة الطعم، فيها لسعة فلفل، لكنها طيبة.

من النافذة الصغيرة (كانت النافذة أكبر، لكنها طرقت على درفاتها لوح خشب لتمنع دخول أبناء الحرام، وخوفاً من رؤية العابرين زوجها طريح الفراش مسكوناً بالهواء الملعون الأصفر) من النافذة الصغيرة رأت الرجلين يتلاطمان ويصيحان بلغة عجيبة.

من هما؟ لماذا يتعاركان هنا؟ كأنها ترى كابوساً. هذا الوباء كلّه كابوس. صيدا كلّها كابوس الآن. ذقن أحدهما نابتة، سوداء الشعر، وعيناه تفوران كراهية. ضرب الآخر على رقبته وسقطا معاً على الأرض. ردّت النافذة وهي ترتجف وتنضح عرقاً. قبل أن تغيب

الطريق رأت اللئيم يلتقط بأصابع مُروسة كالمخالب حجراً عن التراب. لا إله إلاّ اللّه. لا إله إلاّ اللّه. ارحمنا يا ربّ!

رحم الربّ زهرة البارودي نقوزي، فأوصل الأرملة التي ينادونها أم خالد إلى برّ الأمان. أوصلها إلى بلد أهلها، إلى بيروت.

هل وصلت إلى بيروت؟ المرأة لم تعرف المكان. من دون السور بدت المدينة مكاناً آخر. كانت سمعت أخباراً كثيرة عن نمو البلد وتغيره. قوافل التجار تعبر الدرب بين بيروت وصيدا كل يوم. ومرّات يزورها أقارب ومعارف. كانت تسمع. عشرة أعوام وهي تسمع. وأكثر. لكن السماع غير النظر. لم تعرف بيروت! للوهلة الأولى خافت أنه الهواء الأصفر قد خبل عقلها... ثم سكن روعها وهي تتأمل المآذن العالية الثلاث. نظرت إلى المئذنة المستطيلة للجامع العمري الكبير تحتل النقطة الوسط بين المئذنتين المدورتين لجامع النوفرة وجامع السراي فاطمأنت. عبرت الأسواق المكتظة وهي تحضن أولادها كالدجاجة تلمّ الصيصان تحت الجناحين، إلى أن بلغت مدخل «حارة البارودي». لم تتغيّر سوق الفشخة كثيراً، فتنفست المرأة العائدة الصعداء. هذه متاجر تذكرها. وتذكر هذه السلال المعلقة بالحبال، تتحرك من هذه الجهة إلى تلك، وتتدلى في الفضاء. تعرف هذه الحوانيت، لم تتغيّر كثيراً. وها هو القبو العقد، ومن هنا ندخل... دفعت أولادها أمامها ونظرت إلى بكرها خالد حاملاً أخته على ظهره وابتسمت له. كانت ابتسامة بين الثقة والخوف. لكنها ما إن رأت «الطريق البيضاء»، «طريق عبد الجواد»، تمتد أمامها وأمام الأولاد، حتى أشرق وجهها. ضحكت ورفعت صوتها وهي تقول:

ـ اللّه كبير. اللّه كبير.

ثم وجدت نفسها تركض، وتسبق الأولاد على الدرب.

*

تغيّرت زهرة في هذه الأعوام حتى صارت تبدو أكبر من أمها. سهيلة النابلسي البارودي رحمتها السنون فحفظت شبابها. ظلّ جسمها ـ مع بدانته الفاخرة ـ مشدوداً، بينما تهدل جسم ابنتها بعد 12 ولداً وبنتاً. دزينة أحفاد لم يروا جميعاً جدّتهم الشابة، لأن بعضهم مات رضيعاً... وواحد منهم (عبد الجواد) مات قبل أن يبلغ السادسة: وقع في البحر، وقع عند حائط سوق الحسبة، حيث يُنظف الصيادون السمك، وقع فانكسرت رأسه الصغيرة على الصخر. انتشلوه من الماء، وكانت ثيابه ملطخة بأحشاء السمك.

أم زهرة حضنت الأولاد الذين ينادونها «ستّي». الصبي أحمد الكوشي الذي صادف وجوده في بيتها عندئذٍ (يساعدها مرّات في حمل التوت للقزّ، ويجلب إليها ما تطلب من السوق) نظر واقفاً تحت القنطرة الحجر إلى المشهد العجيب، ولم يفهم. من هؤلاء الأولاد؟ من هذه المرأة الممزقة الثياب التي تشبه أم زهرة؟ (ما زال وجه زهرة حافظاً جماله القديم... مع كل الكوارث ما زالت جميلة). ولماذا ينادي الأولاد على أم زهرة «ستّي؟» هؤلاء ليسوا أحفادها. لا يعرفهم. لم يرهم أبداً! يعرف أحفاد أم زهرة الذين يسكنون «دار الأخوات» في حي الإفرنج داخل باب إدريس، لكن هؤلاء السعادين لا يشبهونهم. يعرف أيوب وسليمان وعالي الصايغ أبناء سوسن البارودي الصايغ بنت أم زهرة. ويعرف إبراهيم الصايغ ابن الستّ ياسمينة. يسمّيها الستّ ياسمينة لأن الكل يسمّونها هكذا، ولأنها تعطيه حين تراه لوزاً ملبّساً بالسكر الملون. يعرف أحفاد سيدته، لكنه لا يعرف هؤلاء! من هم؟ ولماذا تبكي أمهم وهي تحضن أم زهرة؟ ماذا يُبكيها؟ ولماذا الأولاد أيضاً ـ بكل هذه الثياب

المغبرة الغريبة ـ يبكون معها؟ ولماذا أظافرهم مكسرة ويغطيها الوسخ؟ هو ـ الكوشي ـ أنظف منهم!

*

نزول العائلة الجديدة في «حارة البارودي» زرع ذعراً في بيروت. المرأة جاءت بأولادها من مدينة يفتك بها الهواء الأصفر! هل أخطأت زهرة البارودي نقوزي حين بكت أمام أخيها الحاج وروت ما يجري في صيدا وكيف لفظ زوجها أنفاسه الأخيرة بين ذراعيها؟ لعلها أخطأت. واساها الحاج أبو حسين مقدار استطاعته لكنه شعر بالخوف وهي تُقبل يديه وتسقي جلده بدموعها. خاف وحين قطع الخطوات القليلة إلى بيته لم يدخل من الباب بل مشى خطوات قليلة أخرى وغسل يديه وذراعيه طويلاً في مياه البركة. شعر بالخوف لأنه يعرف أشياء عن هذا المرض الذي يُسمّيه الإفرنج «كوليرا». هذا مرض فظيع. ملاك الموت يلبس في يديه قفازاً أصفر. مرض مخيف. ألم تقل أخته للتو أنها عبرت زقاقاً كاملاً في المدينة المنكوبة وهي تخطو على الجثث، لم تطأ قدمها الأرض مرة واحدة من أول الزقاق إلى نهايته! معقول!

أخطأت زهرة حين عبَّرت عن خوفها بهذا الرؤى الكابوسية. لعلها مشت على موتى حقاً، ولعلها لم تمشِ. هذا لا يُبدل شيئاً. كبرت القصص في بيروت فضُرِب الحجر الصحي على البلد ولم تعد القوافل تجيء من جهة الأوزاعي. الناس لم يفهموا كيف تمكّنت بنت البارودي المنسية من اختراق الطوق حول صيدا (الجنود الأتراك يحاصرون الوباء بالبنادق) ومن عبور الحواجز والدوريات مع أولادها، ومن الوصول إلى بطن بيروت، على هذا النحو، وأنفاسها مملوءة هواء أصفر. كأنه الغول دخل المدينة! هذه المنحوسة! هذه المنحوسة! ليست مثل أخواتها سوسن وياسمينة ونرجس، ليست

مثلهن، من الأول منحوسة، جمالها مثل جمالهن لكنها منحوسة! تزوجت ساطورجياً بائع لحمة من صيدا البعيدة! لم تتزوج خواجه من البلد! آل الصايغ صاروا خواجات. وعادوا يذهبون إلى الكنيسة. ظلّوا على الإسلام ردحاً، وكان المرحوم عبد الجواد حيّاً، والآن يطلّون على الكنيسة من حينٍ إلى آخر. يُقال أن الستّ ياسمينة تُغني «مزامير داود». ولعل هذا كذب بكذب. ليس الأمر مهماً. الإرساليات تتقاتل الآن على خطف السريان الحلبيين إلى كنائسها. ولا أحد يهتم بآل الصايغ. ثم ان آل الصايغ في الختام «أميركان». كبيرهم ترجمان عند قنصل الأميركان. أوسطهم لا يفارق المرسلين في حلهم وترحالهم. وصغيرهم يستورد السكر الأبيض الأميركاني (القوالب) ويقطعه ويبيعه بالمفرق إلى تجار الفشخة والبازركان. بنات البارودي الثلاث، الأخوات المقيمات في دار الصايغ الزاهرة، حظهن في السماء. أما هذه الكبيرة زهرة فحظها التراب!

بدأ الذعر في قلب بيت الحاج عبد الرحيم قبل أن ينتشر كحلقات الماء في بيروت. زوجته الطيبة عائشة نسيت ربّها حين سمعت الخبر: الهواء الأصفر! الحمّى الصفراء! هنا! وراء التوتات! في بيت خالتك أم زهرة!

جُنت أم حسين. كان أبو حسين يعلم دائماً الخوف الذي يُغشش في جوفها. خَبِر هذا الخوف وعلّم نفسه أن يتعامل ـ بالصبر ـ معه. في بدء زواجهما كان يحتد ويغضب. لم يكن يفهم لماذا تخاف إلى هذا الحد. ثم أقنع نفسه أنها طفلة. طفلة عاشت بلا أبٍ (كان الحاج الإسطمبولي في «دار السعادة») فامتلأت خوفاً. (أخبرته مرة كابوساً فجعلها تحلف على القرآن أنها من اليوم وصاعداً لا تنام قبل أن تُصلي «سورة الناس» بعد الفاتحة. لم تكن تقرأ. فعلّمها الآيات حفظاً. وكان أحياناً يراها تدمدم بالكلمات وهي

تغسل الأولاد أو تكنس الأرض أو تمسح بالزيت مفاصل البوابة.) الخوف جذوره ضاربة في عائشة الفاخوري البارودي، لكن إيمان زوجها يسندها. مع هذا ارتخت ركبتاها أمام خبر الكوليرا.

تشبثت بأكمام زوجها وفرّت دموعها وهي تحلف أنها لا تقدر، لا تقدر أن تحيا في هذا البيت إذا بقيت الأرملة هناك مع أولادها. قالت إنها لا تخاف على نفسها، تخاف على الأولاد، وسألته ألا يخاف على حسين وصفية وعبد الغني وحوراء وزاهرة؟ هزّ عبد الرحيم ذراعيه، خلّص نفسه من يديها، وقام واقفاً. كان الغضب يفور في رقبته. أحسّ لحم الرقبة ينتفض، يكاد أن يتمزق. دم عبد الجواد الجاري في عروقه فار وأحرق عينيه باللهب. رفع قبضة مهددة وقال أخاف ربّي، لا أخاف غير ربّنا، ماذا تريدين، أن أطرد أختي وأولادها من بيت أمها؟

رأت أم حسين سحنة عبد الرحيم تكفهر كما لم ترَه يكفهر يوماً. بات الوجه أسود مظلماً. تراجعت خائفة وسكتت. لكن سلسلة أفكار وصور معتمة لم تلبث أن انطلقت من جديد في دماغها. استجمعت شجاعتها عندئذٍ، وأصابعها تتلمس الفرشة بحثاً عن غطاء طفلتها، ثم صاحت أنها ستذهب إلى بيت أهلها، لن تبقى هنا.

الحاج عبد الرحيم لم يُصدق ما يسمع. الكلمات دخلت أذنيه لكنه لم يفهم. كيف يفهم؟ إذا أراد زيارة «دار البرتقال» اعترضت مرة تلو أخرى. لا تحب أبداً الخروج من الحارة. تقول هذا بيتي ولا أحبّ أن أتركه دقيقة. لا تغادر سور الحارة أبداً. إلى سوق الفشخة لا تخرج. لا تقبل. المناسبة الوحيدة التي تخرج فيها هي الأعياد وموسم زيارة المقابر. عدا هذا لا تخرج. والآن تريد الذهاب إلى أهلها؟

اقترب منها. فزعت فارتمت صوب الطفلة النائمة. خافت من عينيه. وخافت أيضاً من أنفاسه. أدركت أنها ترتكب خطأ لا يغتفر؟ لم تدرك. لم تكن تفكّر. الخوف ركب جسمها وأخذها إلى حيث يأخذ الخوف كل البشر: كانت في الظلام الآن، وحدها. بات العالم رعباً بلا بداية أو نهاية.

الحاج عبد الرحيم لم يتذكر في تلك الساعة ما علمته إياه الأعوام. نسي الحيلة والنباهة والسماحة. كان مذعوراً هو أيضاً. نسي كل ما تعلمه. تعلم على أبيه الاجتهاد والإيمان، تعلم على أمه الصبر، وتعلم من عمه الحاج الداهية الإسطمبولي كيف يتعامل مع البشر ويأخذ منهم ما يريد من دون أن يسيء إلى كراماتهم. شطارته في التجارة جزء من طبعه العجيب: دوماً يحفظ على وجهه بسمة سمحة مبطنة بحزمٍ لا يلين. إذا تعرض لهجوم تلقى الهجوم ككومة رمل، امتص الهجَمة كلّها، تركها تدور وتبرم في خلاياه، ثم ارتد تلقائياً في هجمة معاكسة. لا يكسره هجوم. لا يتحطم. خارج البيت، في أعماله المتشعبة الكثيرة، يأخذ ويعطي، يُرضي بالكلمات العسل، يُهادن ويُكرم بالهدايا، على أساس أن الكريم مع خلق اللّه تُكرمه الدنيا، وإن لم يُكرَم الآن، يُكرم في الأهم، في الآخرة. كرمه يعطيه تفوقاً في التجارة. وسلطاناً. وإن لم يظهر ذلك فوراً، يظهر على المدى البعيد. الحاج عبد الرحيم يعرف من أين تؤكل الكتف. يحترم الناس ويحترمونه. ولا يُضطر إلى رفع صوته إلاّ في ما ندر. لكنه مع عائشة يحتار أحياناً في أمره. العاطفة المتدفقة في صدره تنزل كالحجاب ـ ترتفع كالحجاب ـ على عقله. التفكير السليم يُعطب عندئذٍ. فيها نفس من أبيها الإسطمبولي هذه العائشة. الحاج محي الدين هو أيضاً متقلب المزاج. مرات، في الأصيل، يُرى ماشياً في البساتين خارج باب يعقوب، وإذا سلموا عليه لم يرد

سلاماً. ليس تكبراً. ولكن يبدو كأنه لا يسمع أحداً. إذا أمطرت عليه السماء عندئذٍ لم ينتبه أنها تمطر. عنده سويداء. وعائشة أخذت هذا الطبع عنه، أخذته مضاعفاً مئة مرة.

ما أنقذ الاثنين في تلك الساعة المشؤومة كان بكاء الطفلة. فتحت الطفلة عينيها وأطلقت صيحات الجوع. (كان نهمها إلى الحليب فظيعاً؛ حتى أن أم حسين باتت تشكو من ألمٍ في صدرها وتضحك.) مع الصيحة الأولى استرد العالم الواقعي حدوده. كانت لحظة وحي: نور قذفه اللّه من السماء فوقع في الصدرين المضطربين. تراجع الكابوس وسكن فوران الدم الأسود في بدن عبد الرحيم.

*

لم تترك عائشة الفاخوري البارودي بيتها. قبّلت يد زوجها وسألته أن يرسل الأولاد إلى «دار البرتقال». لن تترك هذه العتبة أبداً إلاّ إلى القبر، قالت، ولكن الأولاد في «دار البرتقال» يبقون في أمان.

الحاج عبد الرحيم قال إن أخته زهرة لا تسمح لأولادها بالخروج لئلا يصيبوا بالعدوى أحداً. لا يخرج ولدٌ من بيت أم زهرة أبداً. وزهرة لا تخرج. أم زهرة تقيم في الغرفة على السطح. والبيت مثل الكرنتينا.

أم حسين قالت إنها مع هذا خائفة، ولن ترتاح إلاّ إذا ذهب الأولاد إلى دار أهلها.

ـ ورِضاعة الصغيرة؟

قالت أم حسين إنها ستُبقي الطفلة معها.

*

رحيل أولاد عبد الرحيم إلى «دار البرتقال» أرسل موجه ذعر جديدة في «حارة البارودي». هذه المرة جاء إليه وفدٌ كامل من الجيران: كل البيوت أتت. جرجي تامر (اسمه منقور في «مار متر»، تراه وأنت خارج المقبرة، تراه من الشارع) أتى مع أولاده. أبو سلمان النّجار (صياد السمك الدرزي الذي أفسد أخاه عمر ـ أين عمر؟ ـ بحبّ البحر) أتى. كذلك ابن النصولي أتى. ومع ابن النصولي جاء رجلٌ يعمل عنده، في مخزن الفيالج، رجل من عائلة بيضون، مشهور بالورع، لا ينظر إلى امرأة أبداً، لا يمدّ يداً إلى قرشٍ حرام، ومتى حلّ رمضان رأيته صائماً مبسوط الأسارير، لا يغتم لجوعٍ، بل يبدو كأن النور يشع من أعماقه فرحاً بالشهر الفضيل. حين يُضرب مدفع الإفطار في القشلاق، وتأتيه بنته بحبّة التمر ينظر حواليه كأنه يتفحص الأرض وما عليها ـ مملوءاً بالهدوء ـ ثم يأخذ التمرة. هذا رجلٌ يرغب الحاج عبد الرحيم أن يسرقه من مخزن الفيالج إلى «حانوت البازركان». يتفاءل برؤيته في الصباح، ويتبادلان سلاماً خاصاً دافئاً كأبٍ وابنه كلما التقيا.

لكن اليوم الحال ليست حسنة. هذا الوفد المذعور لا يحمل إلاّ شؤماً. اليوم لا يتفاءل برؤية عزّت بيضون. من أين نزلت هذه الكارثة على رأسه، هذه الأرملة الهاربة من الهواء الأصفر إلى بيته؟ ألم يَكفِه سقوط السقف في الخان الذي ـ في لحظة ـ أوشك أن يكتمل؟ ألم يكفه موت الرجلين ونكبة آل محب، لتحلّ عليه الآن هذه الكارثة؟ جلب طبيباً من الأميركان. والطبيب الذي يلبس زي الخوارنة أخرج من صندوق بسيورٍ عدته، وقاس حرارة الأولاد ولداً ولداً. قاس الحرارة مرتين وقاس نبضة القلب وفحص العيون والأحلاق والتورم الأزرق الخفيف في رقبة الابن البكر خالد. ثم طلب الأم المتوارية أيضاً. طلب أن يفحص زهرة!

الحاج عبد الرحيم أجابه إن هذا لا يجوز عندهم. والطبيب ابتسم (يعرف هذه الأمور، منذ زمنٍ يحيا هنا، وفي كل مرة يسأل الأسئلة ذاتها، ويطلب الطلبات ذاتها) ثم علَّم الحاج عبد الرحيم كيف يدخل ويفحص أخته بنفسه، أو يُعلِّم خالته كيف تفحصها. ليس صعباً. المهم أخذ الحرارة. والمهم أن يسألها عن لون بولها وخروجها وأشياء أخرى. أعطاه كل المعلومات اللازمة، والحاج يريد أن يفهم أولاً ماذا كانت نتيجة فحص الأولاد (خاف ويد الطبيب تتلمس رقبة الصبي الطرية)، والطبيب يتجاهل الكلام عن الأولاد، ويصرّ على فحص الأم زهرة.

تحدث جرجي تامر أولاً. قال إن الحارة كلّها حزينة لمصابه، وحزينة لمصاب أخته التي ترملت، ولكن الحزن لا يُلغي العقل، وعلينا التفكير في أولادنا. الهواء الأصفر سريع العدوى، في الريح ينتقل، وبلا الريح ينتقل.

الحاج عبد الرحيم هزّ رأسه وقال أعرف، أعرف.

تابعوا الكلام وهو يسبّح بحبّات العاج الملساء العتيقة ويفكّر أنه بالتأكيد يعرف، والدليل أن «محطة الشام» باتت خالية من الزبائن. لا أحد يطلب المحاشي والمشاوي والحلويات من مطعمه الآن. يخافون من الهواء الأصفر. مع أنه كفَّ عن طلب الخبز والحلوى من «الحارة» مذ حلّت هذه النكبة في بيت أم زهرة. لم يعد يطلب منها أن تعجن وتخبز أبداً. وحتى من بيت أم هند لم يعد يطلب هريسة ومخلوطة وكبّة وأبلما. بيت أم هند يقابل بيت أم زهرة، والبيتان يشربان من بئرٍ واحدة. لم يعد يطلب طعاماً من حارته، واقتصر طعام «محطة الشام» على ما يُشوى فيها وما يُتبل من حمص وفول وباذنجان... ومع ذلك لا أحد يأكل عنده. الخوف خبط البلد. خبطها بالكف على رأسها.

السبب ليس زهرة فقط. هناك عائلات أخرى دخلت المدينة تحت جنح الظلام. اخترقت الطوق الذي ضربته العساكر ودخلت البلد. الوباء انتشر في القدس وحيفا وأريحا ويافا وطولكرم وصيدا وصور، يُقال ظهر الهواء الأصفر في حاصبيا وراشيا أيضاً، والكلّ يهرب من الوباء لئلا تصيبه العدوى. صيدا تكاد أن تفرغ من أهلها. يهربون إلى الهضاب وإلى الجبل.

المرسلون الأميركان والرهبان الطليان والآبار اللعازاريون الفرنسيون أشاروا على الوالي العثماني بالحيطة والحذر، لكنهم قالوا إن هذا الذعر زائد عن اللزوم. «مجلس شورى بيروت» اجتمع وقرر فرض قيود على حركة البيوت التي تستقبل ضيوفاً من المدن الموبوءة. المشكلة الكبرى كانت «السهلات»: أكثر من 17 عائلة هاربة من جنوب البلاد نزلت في الخان المتروك. خان من؟ خان صاحبنا عبد الرحيم.

الحاج البارودي استقبل وفد الجيران بأعصاب هادئة (هذه الأيام يقضي نصف نهاره في الجامع العمري. الجامع يحتشد بالناس هذه الأيام، على غير عادة. لكن عبدالرحيم يختلي بذاته في الزاوية وراء المحراب ـ مجلس المرحوم أبيه المفضل ـ وإذا ضاق عليه المكان، والمكان قد يضيق مع هذا الذعر الذي ملأ القلوب بوفاة سبع نساء على الطريق خارج البلد، إذا ضاق عليه الجامع العمري الكبير ذهب إلى «محطة الشام» وطلع إلى السطح، إلى القعدة الخالية على السطح، وجلس هنا، يدخن نَفَس أرجيلة ناظراً إلى البحر القليل السفن؛ حتى السفن تخاف!).

انتظرهم حتى انتهوا من الكلام وتعبوا. تلقى الكلام المتدفق كالأنهار، تلقاه ساكناً. لم يقاطعهم. من حينٍ إلى آخر يقول «أعرف، أعرف»، أو: «بسم اللّه الرحمن الرحيم. بسم اللّه الرحمن

الرحيم». أو: «اللّه يبعد المرض». أو: «مفهوم، مفهوم». تركهم يتكلمون حتى خرجت الأنفاس كلّها من صدورهم، وهمدوا.

طلبهم بسيط: إخراج الأرملة المسكينة وأولادها من بيت أم زهرة إلى أي مكان خارج «الحارة». فالحارة محاصرة بسور، وهذا السور يحبس الهواء داخل الحارة، فإذا كانت في الحارة عائلة واحدة مريضة يُصيب المرض ـ لا سمح اللّه ـ كلّ العائلات الباقية. والحاج عبد الرحيم عارف بهذا. في الشتاء، إذا أصاب الرشح بيت جرجي تامر، فهو لا يلبث أن يصيب بيت أم هند وبيت الأحباش وبيت... واحد يعطس هنا وبدنه يهتز، فيردّ عليه الآخر يعطس من البيت المقابل!

هزّ الحاج عبد الرحيم رأسه ثم أسقط مسبحته العاج في جيب ثوبه. هذا يعني أنه سيتكلم أخيراً. فماذا سيقول؟

نظر الحاج أبو حسين البارودي إلى الشيخ عزت بيضون. أخذ من عينيه الطيبتين الأمل، ثم قال للجميع ناظراً في وجوههم نظرة المخلوق المملوء خشوعاً أمام مشيئة الخالق:

ـ الخيار خياركم. تريدون أن أُخرج أختي من بيت أمها، أُخرجها. تقبلون أن تبقى مع أولادها في البيت الموصد ولا تخرج منه أبداً، أُبقيها. أنتم جيران السراء والضراء. لن أرد لكم يوماً طلباً. أبداً.

*

بقيت الأرملة المسكينة مع عائلتها في بيت أمها داخل «حارة البارودي». الطبيب أعلن منذ الزيارة الأولى أن البيت يخلو من الهواء الأصفر. انتظر حتى لحظة خروجه من تحت القنطرة الحجر العالية ثم قال لعبد الرحيم أن يرتاح قلبه. الكلّ بخير. العدوى لم

تصب لا الأولاد ولا أمهم الحزينة. نجوا. بإذن اللّه نجوا. والربّ يحمي المؤمنين. وأنت يا حاج مؤمن.

الطبيب كرّر كلامه تحت التوتة ثم تحت الجميزة، رافعاً صوته ليُفهم الجميع ـ في هذه البيوت المرتجفة عند حافة «طريق عبد الجواد» ـ أن الهواء الأصفر لم يستوطن الحارة. ومع كل هذا لم يقع الأمان في القلوب. الخوف بيسرٍ يقع. الأمان لا.

ظلّ الجيران على ذعرهم. حتى بعد أن شكلوا وفداً ودخلوا على الحاج عبد الرحيم وطلبوا إخراج الأرملة من الحارة، حتى بعد تلك الساعة وخروجهم من عنده وعيونهم في التراب، حتى بعد ذلك لم يفارقهم الخوف.

ماذا يصنعون؟ كفّوا عن النظر إلى تلك الجهة، جهة البيت الأبيض بالقنطرة الحجر العالية. أقفلوا النوافذ الغربية والشمالية. وصاروا يغسلون ثيابهم كل يوم، ويغسلون رؤوسهم كل يوم، ويرفعون إلى السماء الصلاة. وإذا تنفسوا جربوا أن يتنفسوا الهواء من جهة سوق الفشخة.

*

نجت بيروت من الوباء. مات 11 رجلاً و13 امرأة، ولم يمت غير تسعة أطفال. نصف الضحايا قضوا نحبهم خارج الأسوار. ولم يكونوا من أهل البلد. والذين ماتوا من أهل البلد نصفهم لم يمت بالكوليرا. الطبيب الأميركاني الذي صار من أصدقاء الحاج عبد الرحيم قال إنهم ماتوا خوفاً. الخوف يقتل أيضاً: عضلة القلب تنقبض ولا ترتخي بعد ذلك، فيموت الواحد. لأن هذه العضلة تضخ الدم في العروق والشرايين. من دون الدم الذي يبرم في جسم الإنسان تموت.

ـ سبحان اللّه.

الوباء لم يدخل البلد. الناس خرجوا من الخان في «السهلات» مرة أخرى. والسفن رجعت ترسو قبالة الميناء، عند الصخور. (هذه الصخور يُخطط «مجلس الشورى» منذ زمن لاقتلاعها وتوسيع المرفأ. لكن المسألة صعبة. تحتاج مالاً وجهداً ووقتاً. و«مجلس الشورى» لم يحزم أمره بعد. الحاج الإسطمبولي محي الدين الفاخوري لا يعارض الاقتراح الذي تقدم به الخواجات فرعون وسرسق وطرازي وطراد وفياض لكنه أيضاً لا يدعمه كفاية. الخواجات تجارتهم بالبحر مع الفرنجة، وهو تجارته بالبرّ مع الشوام. عبد الرحيم البارودي اقترح عليه خطة لتوسيع الدرب الضيقة الصعبة وراء هضبة رأس النبع، ووراء سهل الناصرة. هذه درب القوافل الآتية من الشام والذاهبة إليها. درب تهمّ آل الفاخوري وتهمّ آل عيتاني وبيهم وإدريس. المسلمون تجارتهم بالبرّ والقوافل؛ ليست بالبحر والبواخر. هكذا انقسم «مجلس الشورى»: قسم يدعم توسيع المرفأ، وقسم يدعم تحسين الطريق من بيروت إلى دمشق. نبدأ بهذه القطعة، قال عبد الرحيم، ثم نتابع توسيع القطع الأخرى حتى نبلغ سهل البقاع! والحاج الإسطمبولي اتسعت عيناه وهو ينظر إلى وجه أبي حسين. . . هل كان عندئذٍ يقارن بينه وبين المرحوم شاهين؟ لكن شاهين لم يكن يوماً متوقد الذهن! كان طيباً، سريع الحماسة! لم يكن هكذا لمّاحاً!)

نزلت الأمطار في الوقت المناسب وغسلت الأجواء. ثم أشرقت الشمس دافئة، طيبة النور. هبّت نسائم طرية، حلوة، فسكنت القلوب. العصافير تُغرد في الأشجار. رؤوس الأعشاب تتراقص على السطوح. والأبقار ترتع في البرّية. أسراب الطيور تعبر السماء. والأسواق امتلأت ببضائع من جديد: القوافل تصل من

الداخل السوري، والبواخر تأتي من وراء البحر. رُفِع الحجر الصحي. الأولاد يلعبون في الساحات، ويكشطون بالسكاكين الصمغ عن الأشجار ويعملون منه دبقاً للعصافير. البهجة تعمّ المدينة. موجات الفرح تتدفق من النوافذ التي شُرعت أمام الهواء والشمس. ثم تجري بين البيوت. الناس يُقبلون على الطعام والشراب، ولا أحد إلاّ العجائز يزور الكنائس الآن ويشعل الشموع.

الهضاب امتلأت بالمتنزهين. وسيدات آل سرسق خرجن إلى أعلى جبل الأشرفية وبسطن الشراشف وأخرجن من السلال جبناً وخبزاً ونبيذاً ومأكولات فرنساوية. هذه نزهات لم يُسمع بها من قبل إلاّ في بلاد الملوك والملكات، بلاد الأمراء والأميرات، بلاد الكونت والفيكونت والمركيز، بلاد الزجاج والشوارع المبلطة المنارة وراء بحر بيروت، وراء البحر الأبيض المتوسط. أثناء الوباء (والذعر من الوباء) كنّ حبيسات القصور الرخام العالية في الرميل والصيفي والتباريس، تمشط إحداهن شعرها أمام المرآة وتقرأ موليير وراسين. بعضهن غادر بالسفن الشراعية إلى قبرص. بعضهن غادر إلى الإسكندرية وباريز. الآن الكلّ هنا. السنونوات تملأ السماء، والدلافين تتقافز في عرض البحر.

الوباء أنسى الناس كوارث سابقة. مع أنه هذه المرة لم يكن كارثة. أحياناً يكون الخوف من الكارثة بحجم الكارثة التي لم تأتِ. هذا ما جرى في تلك الحقبة. (بعد أعوام سيأتي الوباء حقاً، وتأتي الكارثة. سنة 1855 يأتي الطاعون الأسود ويمسح عن وجه الأرض بيوت السهلات الفقيرة. سنة 1865 يأتي الهواء الأصفر ـ حقاً يأتي هذه المرة ـ فتفرغ بيروت من سكانها، وتُنكب «حارة البارودي»).

بين ما نُسي: رجلان من آل محب. ما إن رُفعت تدابير الطوارئ الصحية حتى دبّ النشاط في ورشة الخان خارج الأسوار. الحاج

عبد الرحيم أبو حسين البارودي قال لعمه الحاج الإسطمبولي إنه غيّر رأيه، لن يُسمي الخان «خان البارودي»، سيتركه على الاسم الذي شاع له بين أبناء البلد.

قال الحاج عبد الرحيم إنه أوصى الخطّاط الطلياني (يسمّونه الطلياني، مع أنه بيروتي من أمٍّ بيروتية من آل الداعوق ومن أبٍ مغربيٍ «سيدٍ» ـ من طبقة الأسياد، وشارع «السادات» في رأس بيروت يحملُ اسمهم إلى يومنا هذا. فقبورهم هناك، قريباً من فيلا عز الدين أو السفارة السعودية، وأهل قريطم اعتادوا سماع «همسات السياد» خارجة من تحت التراب في الزمن السابق على الحرب العالمية الثانية. يسمّونه الطلياني لأنه لا يخطّ إلاّ بالحبر الطلياني ذي البريق واللمعان، طلاء لا يطفئه لا مطر ولا شمس.)؛ قال الحاج عبد الرحيم إنه أوصى الخطّاط عبد الغفّار الطنجاوي المغربي الطلياني على لوحة البوابة.

الحاج الإسطمبولي ابتسم ابتسامة الثعلب وقال:

ـ ستُسميه «خان عبد الرحيم»؟

وعبد الرحيم طأطأ رأسه خجلاً ـ «هذا الرجل العجيب! كأنه يقعد في دماغه، يفرش ويتربع»! ـ وتلمس المسبحة في جيبه وهو يقول:

ـ أعوذ باللّه. أعوذ باللّه. لستُ مغروراً يا عمي. الغرور باب الشيطان. سأُسمّيه «خان التوتة». وإن شاء اللّه نفتحه هذا الصيف.

هزّ الحاج الإسطمبولي رأسه:

ـ اللّه يرحمك يا «بوشاهين». . . يزرعون ونحصد.

في اللحظة ذاتها كانا يتذكران صورة واحدة: عبد الجواد أحمد

البارودي صاحب الذراع الواحدة، خارج الأسوار، تحت الأمطار، أول نزوله في هذا البلد. (هل تذكرا مثل تلك الصورة فعلاً؟ هل يعرفانها ـ مثلنا ـ أصلاً؟ ليس هذا مهماً. كل هذه الأمور انقضت قبل زمنٍ بعيد. الخان ذاته لم يلبث أن اندثر. في مكانه الآن: تمثال الشهداء.)

*

لوحات الخط واللافتات (الأولى خشب؛ الثانية قماش) التي تُعلق على الخانات والمخازن والمتاجر دخلت إلى مدينتنا في وقت مبكرٍ: الوالي على بيروت من قبل المصريين، الأمير محمود نامي، أدخلَ هذا المظهر المديني الحديث على بيروت أيام كانت بيروت لم تزل بلدة عتيقة مطوقة بالأسوار العتيقة تتنفس بشبابيك عتيقة الهواء العتيق. ماريو فابري الرحالة والرسام الذي جاء إلى بيروت مع بوارج الإنكليز في أيلول (سبتمبر) 1840 استوقفته أسراب الوروار في سماء البلد واستوقفته هذه اللوحات الملونة: وجدها طريفة! (كتب أنها تشبه جواهر كريمة مرمية في بركة وحل!). بطرس البستاني، صاحب «دائرة المعارف» (1877)، يبدأ مادة «بيروت» بالعبارة الآتية: «مدينة جميلة»؛ لا يذكر هذه اللوحات واللافتات، لكنه يشير إلى حقيقةٍ أخرى مهملة: الدور الإنكليزي الحاسم في انتشار العمران خارج الأسوار. بعض المؤرخين يميل إلى بدء تاريخ المدينة الحديث في سنة 1860. هذا غير دقيق. ولعله يصدر عن تجاهل معلومة بسيطة: الإنكليز لم يقصفوا الأسوار ليطردوا المصريين ويرجعوا بالبحر إلى بلادهم. لا. بعد القصف نزلوا في بيروت. فتحوا الشام أمام بضائعهم. وظلّوا عندنا زمناً. بطرس البستاني الذي نزل من الجبل إلى بيروت في زمن الفتنة الطائفية وعاش بين المرسلين الأميركان، لم يكتب عن العساكر الإنكليزية باستفاضة، لكن إشارته الحازمة

الوجيزة تكفي. لم يكتب بطرس البستاني عن علاقة البحارة الإنكليز بمشارب البلد أو بالسوق العمومي مثلاً. غوستاف فلوبير، في المقابل، يذكر أنه نزل سنة 1850 ضيفاً على كامي روجييه، الرسّام الفرنساوي الذي يدير البوسطة في بيروت: مدير البوسطة العثمانية (البريد) اشتهر في اسطنبول بمغامراته الجنسية، تماماً كما اشتهر لاحقاً في بيروت. كان يطلب «العوالم» إلى بيته، إلى دارٍ فسيحةٍ خارج الأسوار.

السوق العمومي كانت بلا لافتة. بلا لوحة تعلن عنها. اللوحات لم تكن كثيرة، ولا اللافتات. لكن حتى قبل زمن الأمير محمود نامي ـ عاشق باريز وصديق الطهطاوي ثم عدوه اللدود ـ وُجدت «لوحة خط» في مدينتنا. لوحة كُتب عليها: «أوتيل توماس كوك». اللوحة المذكورة صادها صيادٌ بالشبكة بعد غرق سفينة مبحرة نحو القدس. هذه المعلومة يذكرها كرنيليوس فاندايك جنباً إلى جنب معلومة أخرى حصل عليها من زوجته البيروتية: أول شتلة بندورة جاءت إلى بلادنا سنة الحملة الفرنسية على مصر (1798). أتى بها أحد الآباء الفرنسيسكان بالبحر. الأميركان كانوا على عداوة مع الفرنسيس؛ اعتراف فاندايك بهذا السبق (والبندورة من نباتات أميركا) يبدو مؤثراً!

*

ذكرنا «السوق العمومي» والبندورة لنصل إلى عمر البارودي. أين عمر؟

طوال فترة الذعر من الهواء الأصفر اختفى عمر البارودي عن الأنظار. حتى أن بال عبد الرحيم بدأ ينشغل عليه. لكن يوسف منيمنة طمأنه: عمر مرّ قبل يومين على المطعم وقال إنه يُقيم خارج

الأسوار. أين يقيم؟ عند الحلبي فيليبوس أرقش ـ الرجل الذي أحسن إليه عبد الرحيم فتركه يزرع جانباً من «سهل الناصرة» قمحاً وبندورة. (هذه الأراضي اشتراها قبل فترة بنصيحة من خاله سليمان الفاخوري. فيها حجارة ممتازة للبناء. ليست رملية كحجارة «مقالع الوطى»، فلا تمتص بالتالي الرطوبة. ترنّ رنين المعدن، ولها لمعان.)

عمر البارودي لم يكن يقيم عند فيليبوس أرقش كما قال. لكنه اعتاد أن يذهب إلى تلك الحقول كل صباح ومساعدة الرجل في زراعة الحقول وسقايتها بالماء. بالصدفة وجد هذه السلوى: كان يتصيد حجالاً وراء الهضبة. صاد حجلة عند حافة الحقل المزروع فوقعت بين الشتل. قطف حبّة بندورة حمراء ناضجة، وجلس يقضمها. كان طعمها فاتراً شهياً. رآه فيليبوس من بعيد وعرفه. اقترب وتحدثا. كان الحلبي يحمل دلاء الحديد الثقيلة آتياً من النبع فساعده ابن البارودي العملاق. المياه دلدقت على ظهره وسالت على جلده وابن البارودي ضحك مسروراً بالماء. بقي مع الرجل الحلبي يساعده بالسقاية حتى غروب الشمس. تلك الليلة استغربته صاحبته أستير: بدا لها مملوءاً فرحاً. على غير عادة نام نوماً طيباً ولم يشخر في الليل.

حين طلع الصباح غادر «السوق العمومي» من بابه البرّاني. (صارت للسوق بوابة يسمّونها «باب بيروت»، ويضحكون. هذه البوابة تقع في النقطة الوسط بين بابي الدركاه ويعقوب. أثناء الحجر الصحي الذي ضُرب على البلد وُضعت الحواجز على بابي الدركاه ويعقوب. «الملكة محاسن» ثقبت أحد الحيطان الخلفية ففتحت باباً على حقول الغلغول والشلفون. هذا الباب ـ المطلّ على معمل المنسوجات الذي يملكه، شراكةً، حلبيٌ نصرانيٌ وبيروتيٌ مسلمٌ ـ

سُمي أيضاً «باب جهنم» على أساس أن العاملات اللواتي يهربن من معمل «الألاجة» إلى بيوت السوق هنّ في طريقهن إلى جهنم. لكن «الملكة محاسن» اختارت أن تسمّيه «باب الجنّة»، لأن من يدخل سوقها يتنعم باللحم الطيب الثري، ولأنها إذا خرجت من السوق إلى البساتين حول بيروت أحسّت نفسها تتنزه في الجنّة.)

عمر البارودي بات ينام الليل عند أستير، ويقضي النهار في «سهل الناصرة». اضطر إلى نسيان البحر في تلك الأيام لأن الجنود نزلوا إلى الشط وأشعلوا النيران بين كثبان الرمل منعاً لدخول الهاربين من الكوليرا: الوالي أصدر هذه الأوامر، بعد أن دخل رجال هاربون من صور، دخلوا إلى بيروت سباحةً. سبحوا إلى هنا من الجنوب! قِيل إنهم جاؤوا في مركب، والمركب تحطم على صخرة الروشة حيث كهوف الوطاويط. فسبحوا من الروشة إلى بيروت.

أُقفل البحر في وجه عمر البارودي فعثر على بحرٍ آخر في الجانب الآخر العالي من بيروت. بحر من القمح الأصفر وسهول البندورة الخضراء. الحلبي يُسمي البندورة «طماطم». لم يلبث أن صار يُسمّيها ـ مثل أبناء بيروت ـ بندورة. ساعة العصر، يقعد مع عمر البارودي ويدخنان التبغ بالغليون الخشب الطويل. العرق ينشف على الجلد والحسون يزقزق. على مهل يُقبل المساء.

*

أولاد فيبلبوس لا يفارقون العملاق حين يظهر. يلاعبهم. يحمل ثلاثة منهم معاً، ويركض عند حافة السهل. يرميهم في الفضاء ويلتقطهم. أحد الأولاد يناديه عمّي، فيصير الأخوة جميعاً ينادونه هكذا: عمّي. حتى إن أصغرهم يحسب أنه فعلاً عمّه أخو أبيه.

كلّما عثروا على حجر غريب الشكل واللون في البرّية حملوه

إلى العملاق. عمّي العملاق يحبّ هذه الحجارة. يحبّ أن يأخذها معه في ثوبه عند المساء. إلى أين يأخذها؟ إلى مَنْ؟

الملكة محاسن غابت من تاريخ بيروت زمناً، غمرها الظلام، ثم طفت كالقمقم من تحت الماء. بانت من جديد. في الفترة الأخيرة من زمن الحكم المصري أقفل إبراهيم باشا المشارب وأقفل السوق. استجاب لضغط الأهالي والأعيان فأقفل السوق. الأمير نامي أصابته الخيبة، والقوّاد حبيب بوغوص الأرمني هجر بيروت. قال مودعاً الملكة محاسن على المرفأ:

ـ على بيروت السلام. لا تدفني نفسك هنا يا ملكة.

الملكة لم تذهب. قالت إنها تعبت من السفر. بعد إقفال السوق خرجت مع ثلاث عالمات إلى بيت خارج باب إدريس. مع نزول الإنكليز في بيروت عادت من المنفى وفتحت الأبواب الموصدة في السوق العمومي.

هذه المرأة الأسطورية التي تنام النهار وتسهر الليل خلبت ألباب البيروتيين والإنكليز والأتراك وأُمراء الجبل معاً. قبل ذلك خلبت ألباب كبار الضباط الألبان في الجيش المصري. كانت ـ مع ولعٍ شديدٍ بالملوخية ـ لا تأكل إلاّ لبنة البقر والبصل الأخضر (اليازجي يذكر أن طعامها كان العسل والبطاطا المسلوقة!). ولا تشرب من المنكر إلاّ كأس عرق عند الفجر، أو في ساعة الصباح الأولى. تشرب الكأس سكّاً، بلا ماء أو ثلج، تشربها كجرعة دواء، ثم تضع رأسها على المخدة وتنام.

من العالمات القديمات لم يبقَ معها إلاّ سنار السودانية. كُشكُ هانم ماتت بالديزنطاريا سنة «الحركة الأولى» (الحرب الأولى بين الدروز والموارنة في جبل لبنان). ماتت كُشك هانم فتقاسمت

الباقيات ثيابها وزينتها وصرن كلما أكلنا عنباً حامضاً يذكرن أخبارها.

الملكة محاسن قليلة الكلام، لكن كلامها مرتب. إذا حكت أصغى الخواجات. ولا تحبّ الثرثرة. السوق العمومي يغرق في صمت الأموات إذا أشرقت الشمس. كأنه ليس داخل الأسوار. كأنه مقبرة. فإذا غاب نور النهار شعشع بالأضواء وارتفعت الموسيقى من شبابيكه.

الملكة عندها وصية واحدة لبناتها. في غرفتها التي لا تدخلها إلاّ سنار وخادمتها التركية (عجوز من أزمير رائحتها مشمش مجفف) خزانة مملوءة بالحجارة الملونة وأصداف البحر. على طاولة إسطمبولية عالية جنب سريرها، حجرٌ أحمر اللون، يستقر مستوحداً على مخدة مخمل ناصعة البياض. المخمل الأبيض نادر الوجود. سنار اعتقدت أن وجه المخدة معمول من الحرير أو القطن. لكنه ليس حريراً. وليس قطناً. هذا مخمل أبيض لا يُصنع إلاّ في فيينا عاصمة الامبراطورية النمساوية. الطاولة بثلاثة أقدام، صفحتها مربعة، مرصعة، وليست فسيحة، يعملونها لمنافض السجائر أو لأصص الزهور. ولا تستخدمها أبداً. طاولة للزينة، عليها مخدة مخمل ناصع البياض، وعلى المخمل هذا الحجر الشفاف الغريب، لونه لون المرجان أو الياقوت. وفي جوفه ظل.

الملكة عندها وصية واحدة لبناتها: مرة واحدة يُسمح للعالمة ـ أي عالمة ـ بدخول غرفة الملكة. تجيء بها إلى هنا ـ متى بدأت العمل عندها ـ تجيء بها إلى هنا، وتقول لها إن عليها منذ اليوم أن تُخرج قلبها من صدرها وتتركه على الرفّ.

ـ هذا قلبي.

تدلّ بإصبعٍ كئيبة إلى الحجر على المخدة، ثم تميل بوجهها نحو الباب. تخرج «العالمة» الجديدة، فتقفل الخادمة التركية الباب على سيدتها. هذا وقت السكوت. السكوت والصلاة.

*

لكل واحد صلاته. بعيداً من «السوق العمومي»، داخل «حارة البارودي»، تُصلي سعدية الحصّ البارودي إلى ربّها أن يُخرج الثعابين من كوابيسها. هذا الكابوس الملعون. تستيقظ فزعة مبلولة عرقاً، وتهرع إلى بناتها الثلاث، تتلمس نومهن: هند وورد وفاطمة.

لكلٍ صلاته. الحاج عبد الرحيم أبو حسين البارودي يقف أمام مدخل الخان وينظر إلى العمال يرفعون اللافتة. ليست لافتة. بل لوحة من خشب الأرز المحفور.

في هذا الأصيل البرتقالي المترامي، والجو مغسول نظيف، يبدو الخان مثل سفينة أو مثل قلعة خرافية خرجت للتو من بطن الأرض. هذه العمارة الفخمة المستطيلة! هذه العتبات الحجر! هذه القناطر! هذه الكوى المدوّرة العالية! وشرفة الطابق الثاني! والنوافذ العريضة! ينظر الواحد إلى البنيان المنحوت نحتاً، فلا يشبع من النظر. القنطرة فوق البوابة الكبيرة تتوسطها عتبة مرمر. هذه القنطرة عملها المعلم اليهودي أبو جميل عطية، أشهر معلمي العمار في بيروت. قبب القشلاق كلّها شغل يده. (أثناء ورشة بناء القشلاق على الهضبة غرب الأسوار اعتاد المعلم عطية أن يدحرج ـ مع أولاده ـ حجارة إلى قعر الوادي المجاور. في وقتٍ لاحق بنى تحت، في قعر الوادي، حارةً حجراً مربعة، ثم سقفها قرميداً. هناك، سيُبنى أواخر القرن التاسع عشر كنيس اليهود الكبير. الوادي ما زال إلى يومنا يحمل اسم المعلم عطية: «وادي أبو جميل».)

الحاج البارودي ينظر إلى الخان وإلى قمم صنين البعيدة وإلى صحن البحر الأزرق وإلى اللوحة التي تتعلق في الفضاء وتتأرجح قبل تثبيتها:

خان التوتة

حرف النون في كلمة «خان» يشبه الكأس. وحرف الواو في كلمة «التوتة» يشبه رقم تسعة كما يكتبه الفرنجة في الدفاتر. الناس يتحلقون ويتأملون اللوحة ترتفع في الهواء، وتتأرجح، والحاج يشعر بفراغٍ غامضٍ في صدره. ما هذا الفراغ في صدره؟ كأن يداً غير مرئية تعصر الأعضاء غير المرئية في قفص الأضلاع، داخل القفص الصدري! ما هذا الألم تحت الثدي الأيسر؟ هل هو قلبه؟ صاحبه الأميركاني أخبره عن القلب، وعن الشرايين، وقال له إن عليه أن يأكل شحماً أقل وأن يدخن تبغاً أقل وأن يشرب قهوة أقل! الحاج ضحك وقال الأعمار بيد اللّه، أنت الكاهن، لستُ أنا الكاهن!

لماذا يوجعك في هذه الساعة قلبك يا ابن عبد الجواد؟ لماذا يوجعك قلبك يا ابن صفية وعبد الجواد؟ لماذا يوجعك قلبك واقفاً في «السهلات» التي تباعدت توتاتها الخضر يا عبد الرحيم!

رسمت الحمائم قوساً فوق سروات المقابر، ثم غابت بين الغيوم.

خريف بيروت قصير. الغيوم المرمر تتباعد في سماء ساطعة الزرقة. يخرج حارسٌ من تحت «البرلمان» وينثر حبّاً على البلاط البركاني. الحمائم تنزل عن السطوح، عن التمثال أعلى السفارة الإيطالية، وعن أفريز النافذة المواجهة لساعة العبد. العقرب القصير جامد على الرقم الروماني X. العقرب الطويل جاوزه للتو. أزواج الحمام تتقافز، تنقر الحبّ، وسرب فتيات يحملن مظلات ملونة، مطوية، يعبر متقافزاً كالحمام، وينحدر في «شارع حسين الأحدب» نحو نوافير البلدية. على زجاج المطعم تتلألأ قطرات ماء. في كل قطرة نقطة نور غير مرئية، سرّية.

ـ لكن لماذا يُقتل شاهين البارودي في بحرصاف؟ لماذا لا يرجع إلى بيروت، إلى بيت أبيه، كما رجع محمد ابن خاله؟ يسألني وليد.

أقول إنني أحاول أن أكون دقيقاً مقدار ما أستطيع. صحيح أن «الشجرة النسَّبية لأسرة البارودي البيروتية» لا تقدم معلومات تفصيلية كثيرة، لكن القليل الذي تحويه صريح، وحاسم. الرجل مات سنة 1840. لم يعشْ أكثر. الكونت ده بسترس ذكر معركة بحرصاف كاحتمال، لم يجزم. لكن هذا يكفيني. الدّقة أملت أن يموت في ذلك التاريخ، وألا يرجع إلى بيت أبيه.

ـ لكنك تؤلف رواية. لا تكتب تاريخاً. ألا يحق لك، في الرواية، أن تتركه يعيش؟

*

سنة 1990 أو 1991، أعبر «الغربية» إلى «الشرقية». خط التماس بين شطري المدينة بات أخيراً خطّاً خيالياً. تعبر الآن من جهة إلى أخرى فلا يقتلك الرصاص. الحرب انتهت. أترك الجامعة الأميركية من باب البحر وأسير على الكورنيش حتى عين المريسة وأتابع السير. هذه أول مرة أجاوز نهاية الكورنيش وأجاوز منطقة مينا الحصن ثم أجاوز منطقة الفنادق وأتابع السير. تلوح أمامي البنايات الممزقة بالشظايا والرصاص ولا أكفّ عن السير. أتسلق متاريس وأقع وأقوم. أنفض التراب عن ثيابي وأسير. أرى جرذاً يختفي وراء حائط مهدوم. أرى ذباناً أخضر سميناً يطنّ على درجٍ نازلٍ إلى تحت الأرض. أكبر من هذا الذبّان حجماً لم أرَ في حياتي.

بعد سنوات طويلة، في شتاء 2003، سأقرأ وصفاً فظيعاً للمدن الألمانية المدمرة بعد الحرب العالمية الثانية. أقرأ وصفاً للذبّان الطنّان الأزرق الذي يحيا على دم الجيف وكيف تنتفخ الذبابة بالدم حتى تعجز عن تحريك أجنحتها. تسمن بالدم فتفقد القدرة على الطيران وتصير تئن وتزحف على الطريق. عند وقت التزاوج يتكوم الذبّان بعضه فوق بعض، ويتحرك مثل عمود أسود، مثل مخلوق خُرافي. لم أقرأ هذا الوصف للذبّان الذي يتحول إلى عمود، إلى مسخٍ بملايين العيون. لكنني رأيت ما يشبهه، سنة 1998، وراء المسلخ، على ضفة نهر بيروت، حيث تُرمى بقايا الذبائح: بقايا يُفترض أن تُدفن أو تُحرق أو تُعالج بمواد كيماوية. لكنها تُترك في العراء.

دخلت الوسط التجاري المحروق من جهة وادي أبو جميل وباب إدريس. لم أكن عندئذٍ أعرف أسماء هذه المناطق. كانت عالماً مجهولاً بالنسبة إليَّ. دخلت الدمار وأنا لا أعرف أنني أقطع أمام جامع النوفرة ثم أمام الجامع العمري الكبير ثم أمام البلدية. الشوارع متاهة غامضة محروقة من الأسلاك والأخشاب والحديد المحطم والبراميل وتلال التراب التي ينبت عليها العشب. رأيت جندياً يركض وهو يزعق. فهمت أن المنطقة كلّها مملوءة بالألغام، وعليَّ أن أبتعد.

أشار إليَّ أن أتراجع، بدا مذعوراً. أين الألغام؟ استدرت واختفيت بين البنايات السوداء المخلعة النوافذ والدرابزين. في مكانٍ ما ـ لا أدري أين، لكنني رويت بعد سنين طويلة أمام رينيه الحايك وجوزف سماحة أنه شارع المعرض، وأن البناية هي على الأرجح بناية الإيتوال، مع أنني قبل ذلك ظننت أنها البناية التي يقع أسفلها مطعم ديو؛ أما الآن فلم أعد حتى متأكداً أنه شارع المعرض، بل صرت أميل إلى الاعتقاد أن البناية المذكورة كانت تحت ويغان، تحت سوق الفشخة القديم، تحت «البلدية»، ولعلها بناية في شارع عبد الملك، «طريق عبد الجواد» قبل زمن بعيد، حيث مقهى غراند كافيه اليوم، وتحته محلات الساعات السويسرية التي تبرق في الواجهات على مخدات المخمل والحرير ـ في مكانٍ ما وسط الدمار اللانهائي، وجدتني أدخل بنايةً سقط نصفها، وأطلع على الدرج، وأنحني وألمس بأصابعي الدرجات لئلا أسقط من فوق. كنت أطلع وأطلع وأطلع، كأنني أرتقي مئذنة، ومن ثقبٍ في الجدار رأيت جبال النفايات التي تسدّ البحر.

لم أكن أعلم عندئذٍ أنني أنظر إلى مكب النورماندي المشهور، الذي سيتحول، في المستقبل الغامض، واجهة بحرية ـ بأشجارٍ

وأبراجٍ ـ لمدينة سوليدير المرممة.

كنت أطلع وأطلع وأطلع. ووجدتني على القسم الباقي من الطابق العلوي. لم أجد سطحاً. وجدت قضبان حديد وحجارة تنحدر فوق رأسي ولا تبلغ الأرض. جلست، أخرجت علبة الدخان من جيبي، أشعلت سيجارة، ونظرت إلى البحر. نظرت إلى النوارس تتطاير بين قمم جبل النفايات، وبين البيوض البيض التي تُفقس في عرض البحر، ودخنت ثلاث سجائر. أذكر ـ مع مرور هذه الأعوام كلّها ـ عدد السجائر التي دخنتها. كيف أذكر؟

بنايات القسم التحتاني من بيروت (تحت سوق الفشخة، أو شارع ويغان) أفخم من بنايات القسم الفوقاني (ما بين ويغان وشارع الأمير بشير). أفخم بالشرفات الرخام، بالأعمدة المحفورة، بالنقوش في القناطر، وبالحديد المُطرق المشغول. إذا تجولت بين العمارات وقرأت التواريخ الباقية على العتبات منقورة في الحجر فهمت السبب: بنايات بيروت التحتا، بُنيت أواخر عشرينات القرن العشرين: بين 1925 و1929 (ارتفعت على ركام بيروت العثمانية المدمرة.)

بنايات بيروت الفوقا (منطقة المعرض مثلاً) ظهرت في الثلاثينات: بين 1930 و1936. الطابع الأوروبي (الفرنساوي والطلياني) مشترك بين القسمين. لكن القسم التحتاني أفخم: المال الذي بُذل فيه، أكثر من المال المبذول بعد أعوام في القسم الفوقاني.

مع أن هذه العمارات كلّها ظهرت من العدم في زمنٍ واحدٍ: زمن الانتداب الفرنسي.

1 ـ لماذا اقتصرت الفخامة على الشطر التحتاني؟

2 ـ لماذا بُنِيَ الشطر التحتاني قبل الفوقاني؟

الجواب على السؤال الأول قد يكون الأزمة الاقتصادية العالمية. بعد 1929 خفض التجار البيروتيون سقف طموحاتهم. عملوا البنايات بلا أعمدة مرمر، بلا حفرٍ ونقشٍ في كل جدار وشرفة. (شارع المعرض لا تصطف على جانبيه البنايات الفاخرة المصطفة على حافتي شارع فوش.)

جواب السؤال الثاني: البحر.

*

البار في الطبقة العلوية من أوتيل فينيسيا ـ إنتركونتيننتال. الوقت قارب نصف الليل. نهاية تشرين الثاني (نوفمبر) 2004. المدينة في الأسفل نهر أضواء. ليس نهراً. هذه أنهار كهرباء لا تُحصى تتدفق إلى البحر، إلى كورنيش يمتد عند حافته بحر بلا نهاية ترصعه هو أيضاً الأضواء: هذه مراكب الصيادين، يضيئون في البعيد اللامرئي البعيد قناديل الكاز، ينتظرون السمك، وعلى رؤوسهم مشمعات تقيهم برد البحر.

المكان ليس مزدحماً هنا.

ـ عندهم 200 نوع ويسكي.

أبتسم وأقول إنني أعرف هذا من موقع الإنتركونتيننتال على الإنترنت. وعندهم العدد ذاته أيضاً في فندق فانذُم ـ إنتركونتيننتال المجاور.

ـ هذا فارق العُمر. أنا عديم الخبرة الإلكترونية.

أقول إن خبرتي شبه معدومة، تقريباً، هي أيضاً.

الوقت يعبر. الوسط التجاري غارق في الكهرباء. سفوح

الجبال تتوهج أيضاً. السيارات لا تتوقف عن العبور، بعيداً، حيث ترتفع أبراج مضيئة. القمر يستدير. أسمع الصوت الخمسيني يحكي عن حرب الفنادق (1976)؛ عن برج المرّ الذي تحوّل أثناء حرب المخيمات إلى حبس؛ عن الهوليداي إن الباقي مثل السان جورج بلا ترميم؛ عن منظر بيروت من أعلى برج المرّ، عن مدرسة البيزنسون التي تُرى في الأسفل بقرميدها الأحمر والشجر الأخضر للحديقة، مدرسة «راهبات المحبة» أجمل ما تراه العين من أعلى برج المرّ، هل تعرف عدد طبقاته، هل تعرف أن على سطحه ـ حتى هذه الساعة ـ علب تنك «تاترا» مملوءة بالجفصين؟ علب Tatra، وتنكات سمنة حيوانية لم تعد تُباع في الأسواق.

*

أسراب الحمام تملأ سماء البلد. تحوم في أقواس واسعة، وإذا ألقت قاذوراتها بقّعت التراب والعشب بمطرٍ أبيض ضارب إلى الزرقة. بيوت الحمام فوق سطح «دار البرتقال» تظهر من مئذنة الجامع العمري الكبير. يستطيع عمر البارودي، وهو يقف هنا، مع الإمام الضرير، أن يرى بيروت كلّها، مطروحة تحته. لا يرى الأزقة جميعها لأن معظم الأزقة مسقوف بالقِبب. الدهاليز أكثر من الدروب. والبيوت كأنها تتساقط على البيوت. الإمام الضرير ما زال يحفظ في رأسه صورة بيروت القديمة: بيروت ذات الأسوار. أصابه العمى قبل سقوط الأسوار بزمنٍ طويلٍ. في هذه الرأس العظم المتوجة بشعرٍ أبيض ما زالت بيروت مدينة بسورٍ سميكٍ عالٍ حجرٍ، وبأبوابٍ تفتح وتوصد بالقفل والمفتاح. لم يسقط السور في رأس الضرير. ولم تظهر بعد بيوت «السهلات».

أجمل ما يُرى من أعلى المئذنة طريق كلس توجّ بياضاً وتنحدر

بين أشجار وبيوت إلى أن تبلغ حارة من الحجر الجديد الأصفر مسقوفة بقرميد.

على الدرجات العريضة الثلاث أولاد بيض وسود يغنون على صوتٍ عالٍ أغنية أولاد:

ـ يا أولاد الكوشي
عندنا جاروشة
جاروشة مين
الحاج إسماعيل
بناته سود
زي العبيد
يا أولاد الكوشي.

*

عبد الفتّاح البارودي، الابن الذكر الثالث للحاج عبد الرحيم، وُلد في الحارة الجديدة. عبد الغني نفسه، الابن الثاني المولود سنة 1850، لا يذكر البيت الصغير إذا ذكر أيام الطفولة. وعيه تفتَّح وهو مقيم مع أهله في حارة القرميد الكبيرة عند نهاية «الطريق البيضاء». البيت الصغير، القريب من الجميزة، يتذكره بصفته بيتاً يؤجر تارةً إلى ناسٍ نازحين من الجبل أو من دمشق، وطوراً يبقى مهجوراً أو ينزل فيه بعض الضيوف أو يسكنه الأحباش العبيد. ذكريات عبد الغني (التي حُفظت من الضياع بانتقالها إلى حفيده الكونت ابن ابنته سلطانة) لم تغرق في بحر بيروت المالح عندما غرق الرجل في أعقاب الحرب العالمية الأولى، فانقرضت السلالة.

الحاج عبد الرحيم سمّى الطفل عبد الفتَّاح لأنه وُلِد في زمن ازدهار الخان. اللّه فتحها في وجه عبده ابن عبد الجواد. صارت

العثمليات تخشُّ في جيوبه. ولم يعد الخياط حمادة المصري يلحق عليه بخياطة الزنانير والعباءات والقمصان.

المعلم حمادة صاحب المرحوم أبيه ما زال خيّاط العائلة. الأعوام المتعاقبة على يديه لم تحرمه القطبة الجامدة ولم تحرمه المقص الثابت. لم تحرمه الصحة. ما زال واحداً من أشهر خياطي البلد، لكن مهارته لا تتعدى الخياطة العربية. أما نجم الخياطة الفرنجية هذه الأيام فهو الخيّاط الشدياق الذي ترك مع آخرين من عائلته دينه طمعاً بالترقي! هل يُعقل هذا؟

المعلم حمادة يقول إن الشدياق الماروني ما ترك مارونيته ودخل في دين البروتستانت الأميركان إلاّ تكسباً. أولاً يكسب الزبائن الخواجات المرسلين لمحله. ثانياً يحصل على ذراع القماش بلا فرض الجمرك. ثالثاً يُفصل القمصان ويأخذ القياسات ويؤخر مواعيد التسليم ثم يبيع السُذّج قمصاناً إنكليزية معمولة في المصانع وراء البحر! يجيء القميص إليه خالصاً جاهزاً وعليه ختم المصنع في مانشستر فيقص الختم ويعمل في مكانه جيباً من القماش ذاته، أو من قماش يشبهه حتى، ويقول هذا قميصك، لم أنمْ الليلة الماضية ـ مع سعالي الشديد وعرْق رقبتي الذي عقدته صفعة هواء ـ لم أنمْ لأنني وعدتك بتسليمه هذا الصباح يا خواجه! الخيّاط الشدياق يجرؤ على هذا الغش مع أنه وَرِث فن الخياطة عن أبيه عن جده، والآن يُعلِّم ابنه الفن. والابن سيعلمه لابنه ذات يوم. منذ أجيال يتوارثون المصلحة النبيلة (بلا ثياب كيف يستر الآدمي بدنه؟). لكن هذا الشدياق الجديد مُفسد. بدأ فساده عندما انتقل من الخياطة العربية إلى الفرنجية. بدأ فساده منذ تخلى عن دينه تكسباً. مع أنهم في الدينين يؤمنون بالنبي ذاته وبمريم العذراء. أمرهم عجيب.

الخيّاط حمادة لم يتعلم خياطة البناطيل المصبوبة على الجسم

صبّاً (ما أبخلهم بالقماش!) كأنها المشدّات، وظلّ يخيط السروايل الفضفاضة المريحة للأعضاء، وظلّ يعمل القمصان واسعة الأكمام (الحمائم تقدر أن تبيت وتعشش وتبيض بيضاً في هذه الأكمام)، وظلّ لا يُثقل ما يخيطه بالأزرار. كل تلك الأزرار الخشب والمعدن والحجر، لماذا يطلبونها! ليست لها فائدة. لكنها ثمينة، كلّها من وراء البحر، كأنها أزرار ذهب! يعملونها لخداع الزبون ليس أكثر! ليضاعفوا سعر القطعة، هذه هي الفكرة! ويثقبون القماش ويفسدونه، لكل زرٍ لا بدَّ من عروة، والعُرى تغدو مثل ثقوب الفئران في ثوبك، مثل قماش نقره العثّ والسوس. ويفتخرون بالعرى!

لكن الخيّاط المصري لا يُبالي بابن الشدياق ولا بالخواجات. حقاً لا يُبالي. مع أنهم تركوا دكانه في ظل جامع السراي وصار يراهم ذاهبين في سوق الفشخة أو طالعين في «دهليز السيدة» (هذا كان يُسمّى دهليز الحدادين، والبعض يسمّيه «الحدادين القديم») أو ماضين عبر سوق الصرامي، في طريقهم إلى الشدياق في البازركان. يعبرون أمام محله، ويلقون عليه التحية إذا انتبهوا أنه يراهم وهو قاعد أمام المحل، على الطراحة على الأرض، يخيط بالإبرة، والصابونة جنبه، والمقص، ولفّة الخيطان. إذا ظنوا أنه لم يرهم، أنزلوا رأسهم في الأرض، وعبروا سريعاً، كأنه لا يقعد هنا، كأن باب محله موصد، كأنه غير موجود في السوق! اللّه يسامحهم. هل سألهم يوماً ـ وهو يراهم راجعين في قميصٍ جديد أو سروالٍ جديد ـ هل سألهم يوماً لماذا كفّوا عن زيارة محله؟

دنيا بلا أمان. لا ثقة ولا عرفان. الجميل يُنسى إذا انقلب الدهر. والدهر انقلب مع الإنكليز. انقلب ولن يرجع إلى عهده السابق أبداً. الحنين ينادي بدنه إلى الزمن القديم، إلى رائحة الحمص المسلوق تحبسها أسوار البلد. منذ غادرت صغرى البنات

البيت بات يشعر أن الغرفة حيث يقعد لم تعد ذاتها. كأن الغرفة اتسعت. كأنها صارت باردة، بريح تلسع كقطعة جليد. والبنت علياء مضت قبلها. ابن الفاخوري جاء وأخذها إلى داره، أتى بيدٍ واحدة، وطلب يدها، وابنه يسير خلفه رافعاً رأسه، وجنب الابن يسير عملاق. من هذا العملاق؟ يعرفه. يعرف هذا الرجل. هذا ابن حبيبه، ابن عبد الجواد. اللَّه يرحمك يا عبد الجواد. كم يشبه هذا العملاق المرحوم أخاه! أحقاً هذا عمر البارودي الصغير! عمر الذي كان يلعب مع صغيره علي! أهكذا نما وتورم بالعضل وصار كنخلة سراي! إذا وقف غطى المئذنة. يا ربّ يا كريم! وطوال الوقت ظلّ ساكتاً. كأن القطة أكلت لسانه.

بعد ذلك ـ بعد أن قال للحاج عبد الرحيم إنه لم يكن يعلم أن عمر الصغير صار رجلاً ـ جعل الحاج يوصيه على ملابس لأخيه. المعلم حمادة احمرّ وجهه الأبيض المربع، احمرّ الوجه الشاحب شحوب الصابون، خشي أن يعتقد الحاج الكريم النفس ابن حبيبه عبد الجواد، خشي أن يظنه متكسباً يبغي الانتفاع منه بذكر أخيه الصغير. الأخ الذي ـ مثل شاهين ـ صار مارداً. تورد وجهه ولم يدرِ ماذا يقول. لكن الحظ أنقذه: لم يأتِ عمر إلى المحل ليأخذ قياس الكتفين والصدر والخصر، وحين لم يأتِ لم يرجع المعلم حمادة إلى ذكر الموضوع.

غير أن الحاج عبد الرحيم لم ينسَ المسألة. ذات أصيل، والمعلم يخرج من الجامع، نادى عليه الحاج أبو حسين وسأله عن صحته. المعلم حماده الذي يفهم طباع الزبائن كلّهم ويعرف اختلاف أخلاقهم، أدرك أن الحاج يسأله ـ بالأسلوب الطيب الحلو الخفيف وقعه على النفس ـ يسأله عن الثياب التي أوصى عليها لأخيه. بلع ريقه كمن يبلع دبابيس وقال إن العزيز عمر لم يأتِ إلى الدكان بعد،

ومن دون قياسات كيف يُفصل ويقص ويخيط؟ الحاج ابتسم واستدار ودلّ بإصبعه إلى أحد الأحباش العمالقة وقال «خذْ هذا!». وأصحاب الحاج ضحكوا. والمعلم حمادة ضحك أيضاً. والحبشي كذلك ضحك.

أخذه معه إلى الدكان وجلب كرسياً وطلع على الكرسي وقاس المسافة من عظمة الكتف إلى عظمة الكتف وقاس المسافة من فقرة الرقبة إلى العصعوص وقاس المسافة من طرف الكلية إلى طرف الكلية وقاس المسافة من جوزة العنق إلى تحت السرّة وبرم الخيط على الصدر والظهر، ينزل عن الكرسي ويطلع، ينزل ويطلع، ويقول في سرّه لا أصلح لهذا، لست خيّاط عمالقة، لم أبلغ هذه الدرجة بعد!

وحين بدأ يقطع القماش انتابه فزعٌ. كل هذه المساحات! ثم إنه يخيط على قالب، وليس على الأصل! هذا ليس عمر! هذا واحد من الأحباش القدامى، جاء بهم عبد الجواد من بغداد أو البصرة، حملتهم إليه قافلة من سوق الرقيق. يُخيط على قالب، ولعل القالب لا يطابق الأصل، فيكون عليه عندئذٍ أن يبدأ من جديد! ما هذه المصلحة! لكنه لا يقدر أن يقول لا للحاج الكريم! بات يأكل الخبز من كيس الحاج عبد الرحيم! يوصي عنده على ملابس لعددٍ لا يحصى من الأشخاص! رجال ونساء وأولاد! صار يُخيط للجميع في هذا الزمن الكئيب. والحاج يوزع الهدايا ذات اليمين وذات اليسار، والمعلم الخياط يستفيد.

الشكوى عيب. لماذا يشكو؟ طالما مدح الأصحاب خصله الحميدة. طالما أثنوا على روح الدعابة في شخصه، وطالما أحبّوا القعود وسماع أخباره. لكن الأحوال تتغيَّر. الأصحاب يغادرون إلى دار البقاء، وهو يُترك وحده هنا، في دار الفناء، حيث قلَّ الوجه

الأليف. عنده الشمّاس دبّاس الآن، وهذا عملاق آخر، وقبل سنوات خاط له اللباس الديني، خاطه من قماشٍ سميك لا يبلى الدهر كلّه حتى ولو تُرِك في الشمس والمطر صيفاً شتاءً، لا يبلى هذا القماش المتين.

تصرمت الأعوام ووقعت أسوار البلد. هاجت روائح المقابر على الأحياء. تغيَّرت الأحوال لكنه لا يشكو. مِمَ الشكوى؟ مِمَ التبرم؟ لا يتبرم. سبحانه على كل شيء قدير. والدنيا رحمته فلم تضربه بمرض، لم تخبطه بهواء أصفر، لم تخبطه بطاعون أسود، لم تُرجف أصابعه. ما زال يعمل كابن عشرين. قوي الصحة ولو أحسّ بألم المفاصل حين يترك الفراش عند الصباح. بدنه صلب ولو أحسّ بالبرد في ظل الجامع. أهل السوق يتندرون على طراحته، يسمّونها «بساط الريح». المعلم كثير التنقل على طراحته من نقطة إلى أخرى: يدور مع حركة الشمس في السماء، يبرم على طراحته حول الجامع عابراً السوق، خارجاً منها داخلاً إليها، يطارد دائرة الضوء الأبيض ليبسط الطراحة في مركزها ويقعد. يقول إنه بحاجة للنور كي يُدخل الخيط في خرم الإبرة. لكنهم يعرفون. يطلب دفء الشمس لأن العظام بدأت تتعفن وتخضر تحت جلده. لم يعد شاباً. وفي الأضحى، حين يمضي إلى المقبرة المقفلة، ويزور موتاه، يستولي عليه الأسى ويصير حزيناً. يرجع إلى البلد، والتراب الأصفر عالق بنعله، وهو يخبط النعل على حجارة الطريق.

الوجوه الأليفة تندر وتغيب. لكن الوجوه الغريبة الجديدة تتكاثر. هؤلاء الإنكليز أفسدوا سكينة السوق. الحسن أنهم أخذوا يغادرون. أعدادهم تقل وما عادوا يقلبون الدنيا بزعيقهم وأناشيدهم وأبواقهم وطرطقة البوارِيد. كارثة هؤلاء الإنكليز. أول نزولهم في البلد ضحكنا، ضحكنا من التنانير. ترى الواحد منهم في التنورة

المكسرة، قماشها أخضر وأسود مقلم من فوق إلى تحت، وتحت التنورة: الرُكب الظاهرة! كل ركبة بلون الشمع، وتحتها جارب الصوف الأسود الطويل. وعلى الركبة شعر أشقر! منظر شنيع! كنّا نموت ضحكاً. للتنورة بكلة صفراء مربعة نحاس، تلمع من بعيد. نراهم طالعين في سوق القطن، بكلاتهم تبرق، نازلين للتو من البواخر؛ ونهتف: «إجوا» (جاؤوا)! السوق كلّه يغدو مملوءاً بالأولاد. كلّنا رجال كبار، لكن أمام منظرهم نضحك كأننا ما زلنا نأكل الطعام لقماً من أيدي أمهاتنا؛ ذلك أول نزولهم. ثم غابوا، رجال التنانير. (يحيون في جبال الإنكليز بعيدة، جبال مزروعة بالكرز الأحمر، كل القرى مزروعة كرزاً، وكلّها قرى عالية، على قمم أعلى من صنين، يسمّونها السكوتلاندا ورجالها لا ينامون إلاّ أربعَ ساعات في النهار، ولذا يخدمون في الجيوش. في وقت الشتاء تغطي الثلوج قراهم، فكأنك في جبال الدروز. والناس هناك يحيون زمن الثلج داخل البيوت، وعندهم دهاليز تحت الأرض تصل البيوت بالبيوت. ويبقى الثلج كغطاء أبيض جامد على القرية كلّها، مثل سماء بيضاء تحت السماء السوداء، حتى زقزقة طيور الربيع. فإذا زقزق الطائر الأول ـ ويسمّونه «السنونوة الساهرة» ـ تصدعت قشرة الجليد كالبيضة على سطوح القرية، تصدعت القشرة وانكسرت فنزل نور الشمس في الساحات والدروب).

غاب رجال التنانير عندما بدأ يألفهم. كره التنانير الغبية لكنه أحبّ السترة الزرقاء التي يلبسها الواحد منهم على قميصٍ قطنٍ فيبدو كالخواجه الطلياني وقد حمل سلاحاً. سترة معتبرة، قماشها ثمين، بجيوب إنكليزية منفوخة، وأزرار نحاس مدوّرة كالمتاليك. غابوا وجاء جنود أخشن منهم، أطول قامة، أنحل عوداً، وأشد فسقاً. عاثوا فساداً في البلد. وصاروا إذا سكروا يحطمون الأبواب

والشبابيك. ينطرح الواحد منهم دائخاً في السوق ولا يقوم، وهو يدمدم ويتجشأ ويتقيأ طعامه وشرابه سائلاً قذراً على ثيابه وعلى الأرض. مثل الحيوانات صاروا. اللّه يلعن الشيطان.

توافدوا أفواجاً. وبواخرهم جاءت محملة بالمنسوجات المصنوعة في بلادهم. وسوق الخياطة بار في البلد كلّها. لم يعد يأتي إلى الدكان إلاّ حفنة مشايخ وخواجات ظلّوا على القديم واحترام القديم. كان وقتاً أسود. بارت السوق. كسدت الخياطة العربية. وحتى المغازل في البيوت كفّت عن الدوران والأزيز. مضى زمن النسيج القطن والنسيج الحرير يُحاك على اليد ويتشرب ملاسة وودّاً وحلاوة ورقة من أنامل الحريم. غزت الأسواق شالات مانشستر وسراويل غلاسكو وامتلأت العنابر والمخازن ببالات عملاقة مختوم عليها أختام سبارتالي، ولاسكاريدي، وباريتاهافا، وبول كبابي، وفرانكبولو وشركاه.

القنصل الإنكليزي يقيم الحفلات والولائم في الدار الكبيرة التي استأجرها من آل مسك في «السهلات»، وفرنسيس وأنطون مسك يلبسان ثياباً عجيبة ويمشيان بين التجار الوكلاء الكبار: كلّهم كانوا تراجمة في القنصلية وكلّهم أثرياء الآن: أنطون قطة، ميخائيل طراب، إلياس كباية، نقولا سرسق وأخوته، جرجس عيد، حنا عودة، سرسق والجمال، الأخوان فيعاني، ثابت وشركاه، عبد الغني خوري، ملحم عيسى، نقولا جاهل، دباس وفياض، الأخوان نقاش، يوسف سيور وشركاه، حبيب دهان. ليسوا كلّهم تراجمة. لا. لكن علاقتهم بالقنصل وبالعساكر تُسهل لهم الأعمال. وعند القنصل لائحة بأسمائهم وكل واحد منهم يرتبط ببيتٍ تجاري في لندن أو مانشستر أو ليفربول أو غلاسكو، ومعظمهم نصارى، إلاّ آل بيهم، وعائلة أخرى أيضاً، وليس بينهم يهود.

الإنكليز جاؤوا واكتسحوا الأسواق. البحر صار بحرهم، وما يأتي إلينا يأتي من جزيرتهم الشاسعة وراء البحر. البواخر تجيء كل يوم. تحرث الماء وترسو قبالة المرفأ فتهرع المواعين إليها، كأنها في سباق. العنابر امتلأت والخانات امتلأت والدكاكين امتلأت والبضاعة خرجت وصارت على الطريق. آل الفاخوري يشترون البضاعة من الخواجات أهل البلد النصارى ويشترونها من التجار الإنكليز والفرنجة جميعاً ثم يرسلونها بالقوافل إلى أعماق الشام. حتى البدو في الصحراء باتوا يلبسون كوفيات صوف ماركة الملك شارلز معمولة في لندن. الصوف من الماشية التي يربونها، لكن الكوفيات معمولة في لندن! القوافل نفسها التي تحمل مصنوعات الإنكليز إلى دمشق تحمل من دمشق إلى مرفأ بيروت الصوف الخام والقطن الخام والحرير الخام، والفوة والعفص (للدباغة والصباغة)، وأنواع الجلود. آل الفاخوري وإدريس وعيتاني وبيهُم ـ وهؤلاء أصلهم عيتاني، يقولون إن اسمهم مشتق من جد كريم كان يُوزع الذهب على الفقراء فلُقب «بو الفقراء» أو «بيهُم» ـ وجميع التجار المسلمين يربحون بتجارة النقل مرتين: مرة على طريق الذهاب ومرة على طريق الرجوع. والخانات تربح أيضاً.

الحاج عبد الرحيم البارودي خطف قوافل دمشق وحلب، خطف نصف القوافل، إلى الخان الكبير الذي أنشأه خارج باب الدباغة. تكره القوافل هذا الباب. المكان ضيق. يحتشد بالدكاكين. أرضه زلقة بدماء المسلخ القريب. كلّه جنود وعفاريت! الإنكليز لم يساعدوا السلطان عبد المجيد من أجل عينيه العسليتين. معاهدة بالطا ليمان التجارية فتحت أمام الإنكليز أسواق الامبراطورية العثمانية. بواخرهم السريعة تسابق السفن الشراعية، «مراكب النار» تسابق الريح. وبيروت تتغيَّر. يهدر البوق كالرعد في عرض البحر

فتطرطق درفات النوافذ، يستيقظ النائم من قيلولته، تخور الثيران، ويصيح الديك. الإبل التي تبرك في باحة «خان التوتة» ترفع الرؤوس. التجار يتراكضون إلى الميناء، الغيوم تلقي ظلالاً على اليابسة والبحر، والمعلم حمادة يشعر بالجليد يتسرب إلى عظامه. هذا البوق البحري الهادر! النخاع في عظمة الفخذ يتجمد!

كيف انقلب الدهر! يذكر زمن آل عثمان الأول، ويذكر الزمن المصري الذي جاء بعده... أين هذا الزمن الأخير من الزمن الأول؟ أين الإمام الحوت والحاج فتح اللّه وأين أهل الخير؟ لا يفهم لماذا يحزن ويكف عن تقطيب القميص. تهمد أصابعه على القماشة، ترتخي يده على ساقه، ويسرح ناظراً إلى الفراغ. البنت كبرت وراحت. ما عاد أحد يحمل إليه ظهراً صحن الرزّ والطبيخ. تجار «دهليز السيدة» يلقون عليه سلاماً وهو يرد من دون أن ينتبه. هؤلاء أيضاً من علامات الزمن الجديد.

كلّهم من دير القمر وبيت الدين. أتوا قبل سنوات بعد احتراق بيوتهم واشتروا هذه الحوانيت. الحدادون انتقلوا إلى سوق جديدة، وهذا الدهليز ملأه الديريون. يبيعون الزيت والزيتون والصابون الديري الشهير، رائحته تفوح كالغار من بعيد، ولا يذوب إذا تُرك في الشمس. رغوته كثيفة عطرة. إذا استعملته مرة أدمنته الحياة كلّها. عندهم أقارب في بلدهم بالجبل وهؤلاء يحملون إليهم البضاعة من الجلول والمعاصر والمصابن «فوق». سمّوا الدهليز «دهليز السيدة» مع أن الكنيسة الأقرب إليه هي كنيسة مار إلياس تليها كنيسة مار جرجس. سمّوه «دهليز السيدة» على اسم سوق في دير القمر ـ بلدهم الأول. هناك كانت دكاكينهم، في ظل «كنيسة السيدة»، قبل أن تحدث الحركة الأولى (1841) ثم الحركة الثانية (1845) فيفروا بعائلاتهم وطرشهم إلى «سهلات البرج».

انقلب الدهر. أين إبراهيم باشا الآن؟ أين الجيوش المصرية؟ أين نامي الأمير؟ يذكر أول طرابيش مغربية حمراء نزلت إلى السوق. طرابيش بشرابات مسترسلة زرقاء، معمولة في طنجة وتونس وفاس، حين تكويها تفوح برائحة مسحورة عجيبة، فكأنك تركت هذا المكان وانتقلت إلى مكان بعيد. أمرها غريب. يذكر ابتداء ظهور قمصان التفتة البيضاء (عنبر كيس) والصدريات وكبابيت التفتيك وبناطيل الجوخ الفرنساوي والزنانير الرفيعة غير العريضة فيها دبابيس فضة إذا دخلت اللحم لا ينقطع النزيف. ويشترونها وينزعون منها الدبابيس ويحفظون الدبابيس كالحلى في جيوبهم ليقولوا أمام الناس أنها الزنانير الأصلية، ليست الزنانير التقليد!

تلك علامات الدهر الذي ينقلب. وحبيبه عبد الجواد كان يضحك منه. يذهب إليه في حانوته بالبازركان ويكون قاعداً بين أصحاب وأقارب والعبيد يعرقون وهم يرفعون الصناديق الدمشقية المطعمة بالصدف إلى العلية الخشب، ورائحة القهوة بالهال تفوح. متى كان ذلك؟ في أي زمنٍ خيالي لن يعود؟ ما زال يذكر! ويذكر تلك الجارية ويذكر العقائص وكرات الفضة وشراريب الحرير وخشخشة العقود والأساور والخلاخيل. يذكر الحنّة والعنبر، ويذكر أبا شاهين يُسبح بمسبحة الكهرمان ويقول «توكلت على ربي»، ويقوم. كانت تلك الأيام الأيام! أين هذا الوقت من ذاك الوقت! والجلود المدبوغة يُخرجها العبيد ويطرحونها على حافة جامع النوفرة والناس يتراكضون في القهوة ويتكلمون وروائح الحمص البليلة بالكمون والعباءات المقصبة والزرابيل المقيطة والقنابز المفقشة والطرابيش المشموطة وبرنيطة المسيو الفرنساوي طيّرها الهواء فعلقت في أغصان اللوزة. أين الرجال الآن وأين اللوزة؟ قطعوا كل الأشجار، لم تبقَ من لوزات البازركان لوزة واحدة! وحين يموت هو

ـ المعلم الخياط حمادة بن إبراهيم المصري ـ من سيظلّ يتذكر تلك اللوزات؟ كانت شهية الحبّ. وحين تقسو القشرة الخضراء يقضمها بسنّه فيكسرها ويستخرج لبّها السكر الطريّ. كان يجمع اللوزات في جيبٍ عميقٍ داخل ثوبه، وحين يدخل البيت يركض إليه الولد الصغير ويمدّ يداً منمشة إلى بطن الثوب.

كيف عبر الزمن؟ الحمائم ترسم حلقات في سماء البلد، والزغاريد ترتفع من قلب «حارة البارودي». الحاج عبد الرحيم البارودي رُزِق طفلاً ذكراً ثالثاً. عبد الفتّاح وُلِد في البيت الكبير. الخراف ذُبحت والشربات مُزِجت والأقارب والأصحاب والمعارف توافدوا للتسليم على الرجل وأكل الحلويات. «مبروك يا حج»، يقولون، ويتأملون السقف العالي. ومن بيتٍ إلى بيت، على حافة الطريق البيضاء، تتنقل صدور البقلاوة، وتتنقل أباريق التوت. الحارة كلّها في هرج ومرج. الكراسي أُخرِجت إلى تحت الأشجار. الطاولات تباعدت هنا وهناك، والضحك يعلو ممتزجاً بالأناشيد. كأن الدنيا في عيد. وفي جانبٍ يلعب أولاد زهرة الصغار وقد خرجوا من الإقامة الجبرية.

خرجوا بوجوهٍ شمعٍ من البيت الموصد، فوقفوا تحت القنطرة الحجر بعيونٍ ترمش في النور الوهّاج القوي. بدت حركتهم بليدة تحت السماء الزرقاء العالية. لم يصدقوا أنهم نجوا من حبس الحيطان الضيقة. جربوا مرة في زمن الحصار أن يغافلوا الأم النائمة ويخرجوا من درفة النافذة الخلفية إلى تحت السنديانة (من شقوق الدرفة يرون جذع السنديانة والتنور المجاور وكومة الحطب والصواني في خزانة خشب في العراء. ما هذه الصواني؟ ولماذا يلمع معدنها هكذا؟ كأنها معمولة من فضة!). لكن الأم أيقظها صرير الخشب وطقطقة الدرفة. قامت مذعورة وحين رأت ماذا يفعلون

إنهالت عليهم بالكفوف. هذه تضر، وهذه تنفع. صارت وجوههم في حمرة الشمندر، ولم تكف عن الضرب. ضربتهم حتى تفككت أوصالها. ثم انزلقت على الأرض تبكي. بعد ذلك لم يجربوا الخروج. الطعام يؤتى به إلى البوابة. يسمعون طرقة الصُدر على العتبة، ثم يُقرع الباب ثلاث مرّات، ثم تبتعد الخطوة. من يجلب الطعام؟ لا يعلمون. وتنتظر أم خالد حتى تتلاشى الخطوات تماماً ثم توارب الباب ـ شقاً وحسب ـ وتمدّ يداً وتجذب الصدر إلى داخل البيت. عند الانتهاء تدفعه إلى الخارج فارغ الأطباق، وتقفل الباب. هكذا ظلّوا زمناً طويلاً. والأولاد لم يصدقوا، عندما خرجوا أخيراً، ما يرون. رأوا الأشجار الخضراء والسماء الزرقاء ولم يصدقوا. رأوا الدجاج الأبيض ينقر التراب تحت التوتة المورقة ولم يصدقوا. رأوا العصافير، وقد أصابها الهواء الشمالي بالبرد، تتقافز على العشب، تتراكض على الأرض، منفوشة الريش، ولم يصدقوا. العصافير لم تخف من أصواتهم ولم تطلع إلى الأشجار وإلى سطوح البيوت: الهواء، في الأعلى، بارد. الطريق البيضاء تتطاير عليها كرات الشوك وتتدحرج. نور الشمس باهر. رمشوا بعيون ضيقة ثم نظر بعضهم إلى بعض وأخذوا يضحكون. وأمهم زهرة ضحكت. والجدّة الشابة، أم زهرة، نزلت على الدرج من الغرفة العالية وتثاءبت وقالت إنه يوم جميل. (عادت تنام طويلاً منذ رحل اليتيمان).

انقضى الوباء. الحاج عبد الرحيم شكر ربّه على زوال الوقت الأسود وأرسل أكياس القمح والملح والسكر والعدس إلى البيت قبالة شجرة التوت. هذه أخته ابنة أبيه؛ لن يُنكر أخته ابنة أبيه. تحيا هنا مكرمة، في دار أمها، وإذا شاءت يعطيها بيتاً، أو يبني غرفة أخرى لصق الغرفة على السطح. لن يُقال في بيروت أن أخت عبد الرحيم البارودي عاشت ذليلة بعد أن ترملت. ليس بخيلاً.

وعنده ما يكفي، ويكفي أولادها جميعاً، ويزيد.

من عند سبحانه هذا كلّه. ليس يملكه. المُلك للّه، للرحمن الرحيم. المُلك لخالق السموات والأرض. ليس للعبد الفقير. الولدان اليتيمان زكريا ودحنون يدرسان عند المرسلين الأميركان ويعيشان في كنف عائلة بوست. لو تُرك القرار في يده ما تخلى عنهما يوماً. ولماذا يتخلى عنهما؟ أم زهرة اعتنت بهما كولدين من بطنها. لكن الولدين ليسا مسلمين. والأميركان البروتستانت أتوا مع إلياس فواز وطلبوا الولدين. قبل ذلك أرسلوا أصهاره آل الصايغ ليتوسطوا. لم يكن القرار قراره. وأخذوا الولدين.

حَزِنَ ولم يحزن. ثم انشغل بالعمار والأعمال. العاطفة تُقيد الإنسان. أحبَّ الولدين الساكنين الطيبين مثلما أحبّتهما أم زهرة. والآن يشعر بالفرح كلّما أتى إليه زكريا الذي شبّ وطال، في محطة الشام، أو حانوت التبغ، أو خان التوتة، أو دكان البازركان، يأتي الولد إليه بعد دوام المدرسة قبالة القشلاق، فيُقبل الخاتم بفص الياقوت في إصبعه، ويقعد جنبه، ويسمع حديثه مع التجار. عبد الرحيم ينظر بطرف عينه إلى الصبي الذي صار يعرف كلمات إنكليزية ويتمنى لأولاده نباهة هذا الصبي. نباهته وسماحته: يراه يلاعب أخته دحنون ويعتني بها، كأنه ليس أخاها، كأنه الأب! وحين تعود به الذكرى إلى ذلك اليوم المعتم البعيد، وهو يخوض في الوحل، وعيناه تمتلئان ظلمة... يا ربّ! ما زال يذكر الولدين عند أصل السور، ويذكر بكاء الصغيرة، ويذكر البرتقالة المقشرة في يد الصغير!

يا ربّ! كيف وضعهما سبحانه في طريقه! وكيف رفعه من الظلام؟ بسم اللّه الرحمن الرحيم. والآن يعجّ الخان بالبشر والبضائع، والاصطبلات تضيق بالبغال والحمير. «خان التوتة» بات

أشهر خانات بيروت. بابه أزرق عريض، كالبحر يبرق من بعيد. القاصي والداني يعرفه. واللّه يفتحها في وجه عبده الفقير. الشيخ عزّت بيضون رضي أخيراً أن يأتي ويشتغل عنده: صار مخزن البازركان في يدٍ أمينة. يثق بهذا الرجل كأنه من دمه. كفّه نظيفة ولا ينطق كلمة زوراً. الزبون يحبّه، وإذا عرفه مرة ظلّ يرجع إليه. قلبه اطمأن على مخزن البازركان. وعليه الآن أن يتفرغ لحانوت التبغ. هذا العلي سلامة غير نافع. يجب أن يجد غيره. وعليه أيضاً أن يداوم أكثر في معمل المنسوجات. لا يجوز أن يترك الشغل كلّه على شريكه. وواجبه أيضاً أن يقضي وقتاً أطول في الخان. صحيح أن أولاد خاله سليم لا يتركون الخان ساعة، لكن هذا لا يكفي. الخان ليس خانهم. وإذا لم يترك العين مسلطة على الداخل والخارج، على النازل والطالع، يخسر الخان.

مع كل هذه الأشغال كيف يعود الآن إلى التفكير بمشروع الكرخانة وشراء الخلاقين ودواليب حل الحرير! خاله الحاج الإسطمبولي الذي يشكو تعباً في الصدر هذه الأيام، فإذا سعل سُمِع في جوفه صوتٌ كالخرير، خاله محي الدين قال له على مهلك يا ابني يا عبد الرحيم، على مهلك! يخاف عليه الحاج محي الدين. ينصحه أن يتروى، أن ينسى مشروع الكرخانة الآن، أشغاله كثيرة، تُرهق، تقطع الظهر، تُصدع الدماغ، تكفي وتزيد.

لكن عبد الرحيم لا يحسّ تعباً. يوسف منيمنة يدير «محطة الشام» أحسن إدارة، والعمل ازدهر من جديد. رجعت محاشي أم هند تتدفق من «الحارة» إلى المطعم، ومن المطعم إلى المصطبة والسطح وإلى القشلاق وبيوت الضباط الأتراك والإنكليز. حتى الإنكليز تعلموا أن يأكلوا الباذنجان المقلي المطبوخ بالبندورة واللحم والصنوبر في التنور. يأكلون «شيش برك» أيضاً، يحبّون العجين الذي

حُشي لحماً وبصلاً وصنوبراً وسماقاً وطُبخ في اللبن، يأكلونه مع رزٍ رشيدي مفلفلٍ ويشكرون الربّ ويشكرون السيد الحاج عبد الرحيم!

اللّه يفتحها في وجهه. ابنه عبد الفتّاح يضحك ضحكة تُرقص القلب. عيناه واسعتان، وعنده غمازات، ينظر إليه فيتذكر المرحومة أمّه صفية. حسين بات يتسلق الأشجار مثل المرحوم شاهين. وإذا ركض بدا كأنه ينزلق على الريح. عبد الغني فطمته أمّه باكراً. صحته جيدة والحمد للّه، مع أنه حُمَّ وهو صغير. نزلت الحمّى في أذنيه فسال من الأذنين سائلٌ أصفر سميك. لكنه شُفي. وسمعه لم يتأذَ. اللّه يرعى أولاده. والبنات كلّهن، مثل أمّهن عائشة، ناعمات الشعر، رقيقات الملامح، في صوتهن نغمة كتغريد الحسون. صفية تساعد أمها في أشغال البيت. تغسل الغسيل إذا تركتها أمها. وتكنس الأرض. وتساعد ستّها أم زهرة في كيل الطحين.

اللّه يرعاه. لكنه يحزن حين يفكّر في أخيه. لا يفهم أخاه عمر. يريد أن يُزوجه. يريده معه في الخان، في المطعم، في المعمل، في التجارة. يريده معه في الحارة. لكن عمر كالسمكة، يزلق من بين يديه. هذا يحدث منذ أعوام. يحدث منذ زمنٍ بعيدٍ. يحدث منذ كانا ولدين. ومن قبل أن يرحل أبو شاهين.

عمر، مثل المرحوم شاهين، في قلبه سرّ.

*

جاء عمر البارودي إلى الحارة ذات عصر حلو الهواء، برتقالي السماء، يحمل سلّاً مملوءاً بالبزري إلى خالته أم زهرة. قبل أن يبلغ القنطرة الحجر العالية سمع ضجة أولاد في الأعلى ووراء البيت. لم تكن أول مرة يأتي ويقعد بين أولاد أخته زهرة (زهرة مريضة، نائمة، لم تخرج منذ وقت إلى تحت التوتة). ويوزع عليهم أشياء يحملها في

جيوبه: مكسّرات أو نقولات أو فاكهة مجففة، أو حتى سكاكر ملونة (هذا أول ظهور السكاكر الإفرنجية الملونة في بيروت. جاء بها الفرنسيس. قبل ذلك عرف أسلافنا ما يشبهها: اللوز المقشور والملبس بالسكر المصبوغ بقشرة البصل الحمراء.)

كان السلّ يقطر ماء. عيون الأسماء طرية، ما زالت تلمع. الآن صاد هذه الأسماك: امتلأت الشبكة بالبزري. سرب كامل من السمك الطيب الفضّي. أم زهرة تحبّه مقلياً. وتعمل معه الفتوش بخبزٍ قُلِيَ في الزيت ذاته. البحر ـ الذي فُتح أمام صاحبنا وشختورة صاحبنا من جديد ـ يضخ شجاعة في جسمه. ماذا سيفعل؟ هل يجرؤ؟

الباب موارب، لكنه قرعه بقبضته. ظلّه العملاق يسدّ المدخل. رأسه تكاد تلامس العتبة العالية. كان مستعداً لأم زهرة، للمرأة الملآنة البيضاء التي تُلوعه تلويعاً، فخرجت له متبدلة، أقل امتلاء، شعرها مبلول غير مجدول، وبشرتها تميل إلى السمرة. العينان متعبتان، لا تشبهان عينيّ خالته أرملة أبيه، لكن الوجه مدوّر، بديع التقاسيم، يفتن فتنةً. لم تكن أم زهرة. كانت أخته: زهرة!

وسمع صوت خالته من أعماق البيت يسأل من هذا، من يقرع الباب؟

ورأى أخته الأرملة (أهذه أخته حقاً؟ متى خرجت من المرض؟ وكيف تغيَّرت هكذا؟ رآها طريحة الفراش قبل وقتٍ، هنا، في هذا البيت، وكان يعبر الحارة، وقالوا له ادخل وسلِّم عليها، حرام، أتعبها المرض، ليس هواء أصفر، هذا حزنها على المرحوم، أهلكها الحزن، صارت كيس عظم، ادخل وقلْ لها كلمتين، لعلها المرة الأخيرة، ولعلها لا تخرج من الباب إلاّ محمولة! ادخلْ... فدخل

وندم لأنه دخل: رأى وجهاً أذبله السقم، الجلد جفّ، والشعر تكسَّر وتهدل! كأنها كبرت في يومين خمسين سنة! فماذا حدث، وكيف شُفيت، ومتى استعادت هذا الجمال الأسطوري؟)، رأى عمر البارودي أخته تستدير ويدها في شعرها، تنشف شعرها وتبعثره، بلا وجلٍ، وتقول لأمها هذا أخي عمر، لا تقومي، هذا أخي، وجلب لنا سردينا.

الرجل الضخم وضع السلّ أرضاً واستدار ومضى. لم يلفظ كلمة واحدة.

وزهرة (أم خالد) وقفت تحت القنطرة تنظر إليه يبتعد على «طريق عبد الجواد» ولا تفهم ماذا جرى. بدا ظلّه طويلاً، يمتد إلى نهاية العالم.

*

كفّ عمر البارودي عن الظهور داخل أسوار الحارة. اعتاد (قبل ذلك العصر البرتقالي) أن يمرّ على بيت أخيه، البيت الكبير المستطيل المسقوف قرميداً. يمر بين حينٍ وآخر، مرة كل ثلاثة أيام أو أربعة، فيأكل مع العائلة ويلاعب الأولاد. الأولاد ينتظرون قدومه فإذا أتى صار الوقت عيداً. حسين بات عفريتاً، يتسلق شجرة الصنوبر إلى قبّتها العالية. وصفية قالت إنه تسلق مرة حائط البيت، وبلغ حافة القرميد العالي. الولد عفريت. يحبّ الأشجار والأبراج مثل المرحوم عمه، المرحوم شاهين البارودي.

كان يجيء ويأكل مع العائلة ويمازح أم حسين التي تخاف من الوشم على زنده وتخاف من أصابعه الضخمة إذا رفع حوراء عالياً على كفّه. حتى صفية تقعد على كفّه فيرفعها عالياً وهو على الكرسي! يتحلقون حوله، وعبد الغني يخطف من عمه عصا الجوز التي

يحملها. يلعب بها كما يلعب الفرسان بالسيوف إذا لعبوا بالسيف والترس في ساحة «عالسور» خارج باب يعقوب في الأفراح والأعياد. يجلس عمر البارودي بين أولاد أخيه ويطلق ضحكة عالية، فيأتي على «الطريق البيضاء» أولاد جدد: هؤلاء أولاد زهرة، وأولاد بيت تامر. كل الأولاد يعرفون «عمّي العملاق» في الحارة. ويعرفون ضحكته. ويعرفون أنه لا يدخل الحارة إلاّ بثوبٍ مملوءٍ بالجوز والفستق والزبيب والتين اليابس.

يُقلد الفرنجة والخواجات فيقعد على الكرسي ويطرح ساقاً على ساقٍ. الأولاد يضحكون هو يضحك معهم أو يعبس عبسة غضب، فيضحكون بصوت أعلى. ينطرحون على ظهورهم، ويرمون الأطراف إلى فوق، ويرتجون بالضحك. يضحكون حتى توجعهم الخواصر.

يأكل مع العائلة. وفي معظم الأحيان لا يكون الحاج عبد الرحيم في البيت. يكون في الخان أو البازركان أو المطعم أو المعمل. الشغل كثير والوقت قليل. يكاد الحاج أبو حسين ألا يظهر في حارته القرميد الجديدة! وأم حسين تعمل لعمر القهوة الحلّوة، لا يشربها إلاّ كثيرة السكر، كمن يشرب قطراً لا قهوة. وتسكب لنفسها فنجان قهوة مرّة بالهال الأخضر. تشربه بارداً باقياً من الصباح في الركوة النحاس، وكلّه تفل. تفل مرّ وليس قهوة، لكنها تشربه بفرح، ناظرة إلى عمر، والأولاد يعربشون على ساقيه. تحبّ أن يأتي ويزورهم وتحبّ أخباره وتحبّ كيف يحبّه الأولاد ولا يدعونه يرتاح لحظة. حين يمضي، والأولاد يتراكضون كالأرانب حوله، تراه يقف وقتاً أمام بيت أم هند، وترى أم هند، ترى الخالة تدعوه إلى بيتها، وتراه يقف في العراء، عند حافة الطريق، ويشرب مع الخالة فنجان قهوة. وتخرج بنت من البيت (هذه فاطمة) وتقف معهما. والأولاد لا يدعونه يشرب القهوة. ثم يُودع خالته ويمشي. تراه

يتمهل في ظلّ التوتة ثم تراه يُسرع الخطى، إلى أن يقف تحت الجميزة، أو عند بيت تامر، أو عند بيت الصيّاد. عند كل باب يخرج له من يدعوه إلى فنجان قهوة. ولا يبلغ مدخل الحارة إلاّ بعد أن يكون شرب قهوة تكفيه العمر كلّه! تضحك أم حسين وهي تستدير وتفكّر أنه سيعجز عن النوم هذه الليلة. وتبدأ ـ منذ تلك الدقيقة ـ تتساءل هل يأتي غداً، هل يأتي بعد غد؟ لا سلوى هنا. في البيت القديم كانت ترى الجارات أكثر. هنا، في آخر الطريق، تضجر! مع أنها ليست بعيدة كثيراً من الجارات، تضجر!

عمر كان يأتي ويزور حارة القرميد، لكنه منذ فترة لا يظهر. والحاج عبد الرحيم أخبر أم حسين أن أخاه يمرّ أحياناً على الخان ويقعد عنده ويشرب قهوة. لكنه لا يمرّ كثيراً. صار عمر يقضي على البحر وقتاً أطول، من الوقت الذي يقضيه على اليابسة!

*

في تلك الفترة، في 1853 أو 1854، احترقت حارة اليهود بباطن بيروت. تاريخ الحريق المذكور يلتبس على المؤرخين المعاصرين لأنه مؤرخ بالسنة 1270 هجرية، التي تبدأ في تشرين الأول (أكتوبر) 1853 وتنتهي في أيلول (سبتمبر) 1854. الحريق، على الأرجح، وقع سنة 1854. يبدو هذا منطقياً إذا أخذنا بعين الاعتبار العامل المناخي. لكن طقس بيروت، في العصور الحديثة، قد لا يبدو منطقياً. في القرن الحادي والعشرين يستمرّ الصيف أحياناً حتى نهاية تشرين الثاني (نوفمبر) ولا يسقط المطر. الصيف بات يسرق معظم شهور السنة. الشتاء يعبر خطفاً.

هل وقع حريق اليهود في نهاية 1853، وهذا موسم الأمطار، أم وقع في منتصف 1854، وقت الحرّ؟ وما الفرق؟ الحريق في

النهاية أحرق بيوت الحارة، أو معظم البيوت. لا نعرف سببه. لكننا نعرف نتيجته. احترقت البيوت الخشب القديمة، واحترق الكنيس العتيق، وتبعثرت العائلات اليهودية (التي فقدت مساكنها) في أحياء البلد.

لم يدم التبعثر زمناً طويلاً. الحارة كلّها تتشكل من ثلاثين بيتاً، يُحاصرها حائطٌ قصير وجلول صبّار ورباعات مقسيس، ممتدةً من كنيسة مار إلياس حتى جامع السراي (منصور عساف). مدخلها الأساسي يواجه حانوت التبغ خاصة عبد الرحيم البارودي. هذا الحانوت ذاته كان يملكه قبل زمنٍ بعيدٍ عوَّادٌ من آل مزراحي من الطائفة اليهودية.

لم يدم التبعثر طويلاً، لأن الحاخام عطية ساعد الرعية ـ بالذهب والصلوات ـ على إصلاح المساكن. أصلحوا الحارة وجلبوا مقاعد جديدة للكنيس من سوق النّجارين وغسلوا الحيطان المسودة وطرشوها كلساً. في تلك الفترة ذاتها اقترح أبو جميل عطية بناء كنيس جديد للطائفة خارج باب إدريس. لكن الحاخام ـ وهو ابن عمه ـ رفض الاقتراح: اعتبر الخروج من باطن البلد إلى الوادي تحت القشلاق انحداراً إلى أسفل. لم يقبل الحاخام وأصرّ على ترميم ما تهدم. رمّموا الحارة. وبدل الباب الذي احترق وضعوا الباب المحفوظ في القبو تحت دار الحاخام: باب من السنديان المرصع بالحديد، يُقال إنه إحدى بوابات بيروت الخمس الباقية.

الحاج عبد الرحيم البارودي اعتاد في ذلك الوقت أن يقضي ساعة كل ظهيرة في «حانوت التبغ». يخرج من صلاة الظهر في الجامع العمري الكبير فيمشي مع أصحابه إلى سوق الصرامي، عابراً وسط البوابيج والهتافات والطرطقة. يشرب ماء من البئر الطيبة هناك، يرد على سلامات المعارف، ثم ينعطف يميناً، وهو يودع

بعض رفاقه، ويرتب الشال على كتفه، ويتابع طريقه طالعاً نحو ساحة جرجي التي كانت تُسمى ساحة العصافير. يجلس هنا، على المصطبة الحجر العالية، ويدخن أرجيلة. مرات لا يدخن. يمرّ الوقت سريعاً وهو يعمل الجردة ويراقب دفتر الحسابات ويُوبخ علي سلامة (ومرات يُثني عليه) ويعيد كل ذلك من الأول: الجردة والحسابات والتوبيخ والثناء! وضرورة إعادة ترتيب الصناديق والغلايين!

لكنه هذه الأيام لا يرتاح للتدخين على المصطبة بسبب الضجة والغبار. ما زالوا يُرممون ويطرشون وينقلون الحجارة وينشرون الجسور. حرام. كانت ناراً فظيعة. والعرائش كلّها احترقت ووقعت. جاء بعد انطفاء النار، والأرض ما زالت ساخنة، ومن السقوف يطلع الدخان، ومشى على الرماد مع الماشين. حرام ما جرى. وتذكر صاحب المرحوم، تذكر الرجل بالشعر المربوط كالكعكة تحت البرنيطة اللاصقة بالرأس، يجلس هنا، على الطراحة، ويداه ترتعشان. تذكره وهو ينظر إلى الدرج الطالع إلى البيت حيث تسكن أخته. سأل عنها (العجوز ملكة مزراحي) فقالوا له إنها بخير، وقالوا إنها في بيت أقارب في «البوابجية»، عند التقاء البوابجية بالعطّارين، حيث المعصرة القديمة. والحاج عبد الرحيم خطر في باله أن يذهب ويزورها ويقول لها الحمد للّه على السلامة. خطرت الخاطرة في باله لحظة، ثم غابت وتلاشت.

*

حين عاد إلى حارة اليهود سكانها، ملأ صرّة تبغاً، وقطع الدرب، ودفع الباب الثقيل ودخل. انحنى وهو يعبر الدهليز ثم رفع رأسه: بانت الجلول والبيوت، نظيفة.

علي سلامة أخبره مرّات ومرّات ومرّات أن العجوز ملكة تأتي

وتشتري منه تبغاً. تشتري كلّما جمعت قرشين. ولا تدخن بالغليون فقط. ولا تدخن بالأرجيلة فقط. لا. تلف سجائر. تشتري التبغ وتشتري ورق سجائر. تعرف كيف تلف بالورق سيجارة. الحلبيون، حين نزلوا في بيروت قبل سنوات، نظروا إلى البيروتيين يدخنون السجائر، بعيونٍ مدهوشة. أهل حلب لا يدخنون التبغ إلا بالغلايين. ورق السجائر لم يصل إليهم بعد! بيروت على البحر، أول ما تصل الاختراعات والاكتشافات إلى برّ الشام، تصل إلى هذه المدينة.

الحاج عبد الرحيم البارودي أتى للتسليم على العجوز، حاملاً إليها صرّة تبغ هدية، لأنه رأى أباه في المنام.

جاء عبد الجواد أحمد البارودي صاحب الذراع الواحدة وأيقظه من النوم. فتح عينيه فرآه واقفاً على «الطريق البيضاء». نظر عبد الرحيم حواليه فانتبه أنه ينام على طراحة، تحت الجميزة، أمام بيت أبيه، لا ينام على السرير الطلياني العالي بالناموسية المعلقة من الأعمدة النحاس في حارته القرميد! ينام، كما كان ينام وهو صغير، وأمه المرحومة تسقي المساكب جنب البيت، وظروف الخروبة تخش في الشجرة العالية، وحين يقع ظرف ناضج يسمع طقته الرخيمة في مياه البركة.

سأله أبوه في المنام عن الدكان، سأله عن دكان الخضر وعن أحوال الزبائن والتجارة. حين فتح عينيه، ورأى السقف العالي، ورأى أعمدة الحارة، وشبكة الأخشاب المتقاطعة، ورأى النوافذ العريضة، تذكر عبد الرحيم أين هو... يا اللّٰه!

كيف رجع في المنام ولداً صغيراً! وكيف بان أبوه أمامه، كأنه ما زال هنا، في هذه الدنيا، كأنه ليس تحت التراب، كأن الأعوام لم تعبر، كأن... يا محمد! كانت رائحة المرحوم نعناعاً!

قام وتوضأ وصلّى. بعد الصلاة وارب الباب الكبير وخرج فرأى رجلاً بذراعٍ واحدة مقبلاً من بعيد على «الطريق البيضاء»، وحده. مسح وجهه وقال:

ـ لا إله إلاّ اللَّه محمد رسول اللَّه.

اقترب الرجل. هذا محمد الفاخوري. جاء يزوره في هذا الصباح، ويشرب معه قهوة. هذا نادراً ما يحدث. قال له ابن خاله إنه تذكره هذه الليلة، رآه في المنام، ورأى المرحوم شاهين، فتذكره، وقال منذ زمنٍ لم أرَ الحاج أبا حسين، فجاء ليقعد معه قليلاً.

سأله الحاج، وهما يشربان القهوة وينظران إلى العصافير في أغصان الجوزة الكبيرة، سأله عن المنام الذي رآه.

قال الشيخ محمد إنه لم يعد يذكر، لكنه يذكر أنه رآه، ورأى حبيبه شاهين. وعبد الرحيم شرب قهوته وقال:

ـ اللَّه يرحمه، ويرحمنا كلّنا.

بدا متعباً كئيباً، مع أنه لا يبدو كذلك في الصباح أبداً. ثم ابتعدت عنه الكآبة في النهار. العمل يطرد الأحزان. لا وقت للكآبة. كلّه ركض بركض. تدفق النشاط في جسمه. ارتفعت معنوياته. صار يركض من هنا إلى هناك. استقبل في الخان زواراً. نزل وجال على العاملين عنده وتحدث مع فلان وفلان حتى باغته الأذان فغيَّر مداسه ومضى يعبر الأزقة نحو الجامع. صلَّى مع الجماعة وقرّر أن يذهب إلى حانوت التبغ. على الطريق ـ بعد أن جاوز سوق الصرامي ـ تذكر المؤذن قدورة، وقال يرحمه اللَّه، وانتبه أنه يشتاق إلى صوته الشجي، وإلى البحّة في صوته. وحين انتبه أنه الآن أيضاً يفكّر في أبيه ـ في المرحوم عبد الجواد ـ استغرب هذه الذكريات المتدفقة.

كانت نسائم طيبة تلعب في أرجاء البلد، ورائحة البساتين تأتي من البراري المجاورة، وتتجول بين البيوت والمتاجر. لاحت منه التفاتة إلى حارة اليهود فتذكر أنه لم يدخلها بعد أن رمموها ورتبوها. نادى على علي سلامة وطلب منه أن يُعد صرّة تبغ «باب أول».

الشال العريض على كتفه، والصرة في الجيب. رأى ثياباً بيضاً منشورة خارج نافذة مفتوحة. قطعت هرّة صفراء أمام قدميه واختفت وهي تموء على درجٍ نازلٍ إلى قبو. لم يرَ أثراً للحريق. حتى الرماد جرفوه وأخرجوه. لَم يشمّ أي رائحة غير طيبة. شمّ رائحة تقلية: بصل وثوم يُقلى في الزيت. ورائحة كشك أيضاً. بينما يتقدم اكتشف أن الحارة تبدلت عليه. تبدلت داخل الحائط، لم تعد على ترتيبها المعهود. هل باتت مرتبة على نحو أفضل؟ هذا غير مهم. لم يعد يعرف الآن أين بيت مزراحي! المكان ساكن. كأن الكلّ خرجوا إلى مكانٍ ما. ثم بان رجل. اقترب الرجل وعلى رأسه الطاقية المعهودة.

سأله عبد الرحيم أين بيت مزراحي؟

سأله الرجل من يريد؟

قال عبد الرحيم ملكة، الختيارة ملكة، أخت موسى، المرحوم موسى يعقوب مزراحي.

أجابه الرجل إنه ليس من هنا، ليس من هذا الحيّ، ومضى مبتعداً.

عبد الرحيم ضحك في سرّه، وفكَّر أن هذا رجل عجيب، كأنه من الجنّ، ليس إنسياً، إذا لم يكن من الحيّ فلماذا سأله أصلاً من يريد! هذا رجل غريب. تابعه بنظرته لكن الرجل اختفى. اختفى كأنه ذاب في الهواء المملوء شمساً. أين اختفى! لا بدَّ أنه انعطف وراء أحد البيوت.

رأى ولداً وعلى رأسه طاقية. نفحه متليكاً وتركه يمشي أمامه ليدلّه على بيت ملكة. الولد سار به، يدور في دائرة حول البيوت شبه المتلاصقة، ويجاوز الكنيس، ويستدير وينظر هنا وهناك... ثم عاد به إلى حيث التقيا، وأشار بإصبعه إلى درج، وقال هناك.

ـ ولماذا الدورة؟

لكن الولد ركض مبتعداً. ثم اختفى كما اختفى الرجل الغريب اليهودي (لا بدَّ أنه يهودي. لا أحد غيرهم يعتمر هذه الطاقيات في البلد). اختفى الولد وسار الحاج عبد الرحيم نحو الدرج وهو يتساءل أين اختفى الجلّ الذي كان هنا، وأين اختفى الصبّار، وأين اختفت الكرمة؟ هل أكلت النار كل ذلك؟

وجد العجوز مزراحي منحنية على الدرج، لا تكاد تظهر، كأنها تنبطح على بطنها. للوهلة الأولى حسب أنها تنام هنا، على الدرجات! كأنها نَعِست وهي طالعة الدرجات الحجر القديمة إلى بيتها، نَعِست فنامت على الدرج!

ثم رأى يديها تتحركان، رأى بياض الأصابع الخارجة من كمٍّ أسود، ورأى أن الأصابع تلتقط نبتاً أخضر من شقوق الدرج، وتقتلعه. رفعت العجوز جسمها. استقامت مقدار ما تستطيع حين سمعته يلقي عليها السَّلام، واستدارت. لم تعرفه. بصرها بات شحيحاً. وسمعها أيضاً. رفع صوته وهو يخبرها من يكون.

انبسطت أساريرها ففاحت منها رائحة بابونج ورقصت التجاعيد والغضون في الوجه المحروق بالأيام والشمس. ابتعدت من أمامه كأنها تُفسح له ليطلع إلى بيتها، لكنها لم تقل تفضلْ، بل انطلقت تحكي عن الأعشاب، كلْ هذه الأعشاب، التيّل البرّي بجذره الذي يضرب في الأرض، ينزل متراً في الأرض ولا يمكن أن تقلعه، وهذه

العشبة الفظيعة، هذه «الشقّاقة»، تقطع الحجر إلى نصفين، وكلّما قلعتها وظنت أنها ارتاحت منها طلعت لها من جديد! إذا لم تطلع اليوم تطلع بعد يومين، لا تنقطع أبداً. بزرها يُخلد. وبعد المطر لا تصفر ولا تذبل، بالعكس تخضر وتطول. وفي الصقيع أيضاً تمتد وتنمو. وتتغلغل كالحيّة في التراب ثمّ تطلّ من الجلّ البعيد، وراء البيت!

الحاج عبد الرحيم وقف باسماً ينتظرها لتسكت لحظة كي يعطيها صرّة التبغ ويمضي. لكن العجوز لم تسكت. كان العرق ينضح من الغضون، ورأى قطرة عرق تنقط من شحمة أذنها اليسرى وتقع على كتف الثوب. الثوب كحلي داكن، والنقطة نزلت كحبّة ملح، وبقّعت بالأبيض قماشة الثوب. ما الذي جاء بي إلى هنا؟ لماذا لم أبقَ في الحانوت أو في الخان أو في الجامع؟ لماذا لم أطلع بقناة الدركاه وأخرج من الباب القديم وأتفقد المعمل ساعة؟ لماذا أتيت إلى هنا؟ من أجل منام؟ لو ذهبت إلى المعمل كنت الآن جالساً على مقعدٍ أشرب كوباً بارداً وأسمع شريكي يدلّني إلى العاملات النشيطات وإلى العاملات الكسولات ويقول هذا الدولاب أحسن من ذاك الدولاب وهذه الخيوط أفضل من تلك الخيوط وهذا النسيج يتحمل الحرارة المرتفعة وذاك النسيج يبلى ويتمزق بزخة شتاء واحدة! لماذا أتيت إلى هذه الحارة الصامتة، هذا الحيّ المحضون بسور، كل درفات النوافذ مردودة ويُخيل إليك أن في الخشب عيوناً، عيوناً تتلصص عليك! ولا صوت يبلغك من وراء الحائط! كأنك لست في بيروت! كأنك خارج البلد! في «حارة البارودي» نسمع الأصوات، نسمع «الحدّادين» والمطرقة على السندان، نسمع سوق القطن والنّداف ينادي على النّداف. نصف الندافين في السوق يهود، وصوتهم عالٍ، يثقب السقف، فما بال صمت القبور يخيم على هذه

الحارة! لكن هذه الختيارة لن تسكت. أريدها أن تسكت دقيقة واحدة، ببرقة عين أناولها الصرّة وأذهب. لكنها لا تسكت. تحكي عن «الحاكمة». تقول الحاكمة وباء. أسوأ عشبة ضارة. تنتظر خروج الناس من البيت كي تهجم. فإذا هجمت احتلت الحيطان والأرض والسقوف. وباء هذه الحاكمة، وباء. وحتى النار لا تغلبها. تعربش حتى لو أحرقتها!

العجوز ملكة مزراحي لا تسكت. كأنها منذ أعوام تنتظر شخصاً يقف ويسمعها. لم يعد أحد يأتي إليها. وها هي عضلة لسانها ترتخي وحدها، تنفك عقدتها، وتنطلق على سجيتها، مثل حيوان لا تستطيع ربطه! ظلّت تبرطم بالكلام حتى تعب الرجل من الوقوف وبدا كأنه سيتركها حيث هي، بالجذور المعلقة من أناملها، وينطلق هارباً. عندئذٍ أنهت هجمتها اللفظية على الأعشاب الضارة:

ـ تقضي الحياة وأنت تتعارك مع العشب. وفي النهاية ماذا يصير؟ أنت تموت والأعشاب تنمو.

*

بعد وقتٍ قصير وقع حسين عن سطح سعدية الحصّ البارودي (أم هند) وكسر ساقه. الحكيم الذي لفّ الساق إلى لوح خشب وربطها، بينما الولد يزعق ألماً، أخبر الحاج عبد الرحيم البارودي أن كُسر عظمة الساق سيجبر في ثلاثين يوماً أو أربعين، لكن المشكلة عظمة الكاحل. جزء من الكاحل سُحِق سحقاً. الولد سيعرج. علم الغيب عند اللّه، وهو على كل شيء قدير، لكن الولد، على الأرجح، سيعرج.

ظلّ الحاج أبو حسنين يصلّي الصلوات الخمس كل يوم، طوال أربعين يوماً، ويوزع الهدايا على جوامع البلد والمشايخ، حتى جاء

الحكيم وفكّ رباط الساق وفكّ رباط الكاحل. قام حسين ودعس على كعب قدمه فغار الدم من وجهه. أبوه رآه يصير كالكلس أبيض. عضَّ الولد البالغ من العمر ستة أعوام أو سبعة، عضَّ على شفتيه، والدم مسحوب من وجهه، وخطا إلى الأمام خطوة. عرج فصل الربيع كلّه. في الصيف لم يعد يعرج. عبرت طيور الخريف فرأته يركض على «الطريق البيضاء». قبل أن تغطي غيوم الشتاء سماء البلد كان حسين بن عبد الرحيم البارودي قد رجع إلى تسلق الأشجار والحيطان والسطوح، كأن شيئاً لم يكن.

الأبناء الثلاثة (حسين، عبد الغني، عبد الفتاح) والبنات الثلاث (صفية، حوراء، زاهرة)، عائلة عبد الرحيم كلُّها حتى ذلك الشتاء، اعتبروا جميع البيوت أمام حارة القرميد جزءاً من بيتهم. أولاد زهرة أو أولاد أم هند، في المقابل، لم يعتبروا حارة القرميد جزءاً من البيت حيث يقطنون. خالد، الابن البكر للأرملة، وحفيد أم زهرة الذي لا يفهم كيف تكون هذه المرأة التي تحيا بين شرانق الحرير وصواني المعمول ستّه (جدته)، خالد لا يدخل حارة القرميد إلاّ بعد أن ينزع مداسه عند العتبة، ويرد شعره إلى خلف، ويُرتب هندامه. بنات أم هند، يعلمن هنَّ أيضاً، أن حارة القرميد ليست بيتهن. ومع أن عبد الرحيم أخوهن من أبيهن فهنَّ لا ينادينه باسمه أبداً. ينادينه «حج بوحسين». هذا اسمه في الحارة. لا يُنادى إلاّ به. هذا اسمه في البلد كلّها. ثم أن بنات أم هند دخلن سن الزواج.

الحاج عبد الرحيم البارودي بُوغت ذات مساء وهو عائد إلى بيته، عرقان الثوب من النهار الطويل، بوغت بالسيدات الواقفات في باب أم هند. لم يعتد مجيء زائرات إلى بيت خالته سعدية. أم هند لا وقت عندها لثرثرة. يعرف طبعها وميلها إلى خدمة أهلها وربّها. ظنّ للوهلة الأولى أن الواقفات في بابها أتين يطلبن وصفة طبخ أو

خدمة. لكن الصدمة جاءت حين ظهرت أم هند من داخل البيت وألقت عليه التحية. صُدم حين استدارت الواقفات الثلاث فرأى أجمل ثلاث فتيات في العالم. لم يصدق أنه يرى أخواته: هند وورد وفاطمة.

متى كبرن؟ لم ينتبه! كل وقته للشغل. للركض من السهلات إلى المرفأ إلى الجامع إلى البازركان إلى المعمل إلى السهلات إلى المطعم إلى الجامع إلى المخزن إلى الدركاه إلى «السيدة» إلى المرفأ إلى السهلات... الشمس تبرم من صنين إلى البحر وهو يبرم معها. لا يدري كيف يمضي نهاره. وحين يقوم الفجر ليصلّي (كم يشتاق لصوت المؤذن قدورة! هذا المؤذن عبد الرزاق خشن الصوت، أجش النبرة، يخدش سكينة الفجر بندائه!) يشعر من قبل أن يلبس قميصه، يشعر بتعب النهار الطويل سلفاً...

كأنه، من قبل أن يلمس المياه الباردة ويغسل ساعديه ورقبته ووراء أذنيه، كأنه من قبل أن يخطو على الأرض الباردة، قد بدأ رحلة الركض في العباءة المقصبة الطويلة، معتماً بعمامة يطرح ذؤابتها بين كتفيه تيمناً بالرسول الحبيب عليه الصَّلاة والسَّلام، من الآن بدأ النهار وبدأ الركض واستقبال القوافل، وتفقد بلاطات التبن والدوران على المعالف، وتأنيب الولد الذي لم ينظف حوض الماء، ولم يكشط قعر الجرن، ولم يرتب السلال الفارغة تحت الدرج... من الآن بدأ النهار وعليه أن يجد في هذا النهار أيضاً وقتاً كافياً ليقعد ويخطط ويتخيل ويتصور... عنده في رأسه أفكار كثيرة، أين يعثر على الوقت كي يذهب بأفكاره إلى حيث يريد أن يذهب بها؟ عنده خطط. وسبحانه أوصى العبد المؤمن أن يستعمل عقله. مذ كان ولداً في كتاب الشيخ سعيد وهو يحبّ القعود والتأمل. لكن العمل يسرقه إلى العمل، والوقت قليل.

سرقته الدنيا من نفسه. باكراً مات أبوه، وباكراً اضطر إلى حمل الحمل الثقيل. وهذا الأخ الأصغر لن يكبر. غريب هذا العملاق الفتى، غريب، ولا يفهمه. كم يريده جنبه، لكنه بعيد، دوماً بعيد، حتى وهو يقعد عنده، بمجلسه في الخان، حتى عندئذٍ لا يبدو على بعضه! كأنه مسروق إلى مكان آخر، كأنه مربوط بالحبل إلى بيتٍ بعيد! هل يكون متزوجاً وعنده عائلة في بلدٍ آخر؟ لكنه لا يبدو صاحب عائلة. ثم إنه يقضي الوقت الطويل في السوق العمومي، وفي البساتين عند «الناصرة». هذا الأخ العملاق، ماذا يريد، وهل يدري هو أصلاً ماذا يريد؟ كم يُذكره بالمرحوم شاهين! كم يُذكره بالحبيب شاهين!

من أين يأتي بالوقت والنهار قصير؟ عنده خطط وحين يجلس مع الأعيان كم يحب أن يتكلم وأن يشرح وأن يخبر وأن يجادل وأن يُفحم وأن يقول. وكيف يصغي إليه عمه الحاج محي الدين. وكيف تلمع عيناه. وحتى جده الشيخ العجوز ـ حين يزور «دار البرتقال» ـ حتى جده المشلول الأعمى الشيخ مصطفى غندور يدور برأسه إلى حيث صوت عبد الرحيم ويصيخ السمع. هو يرى الأذنين العجوزتين ترتعشان، ويرى الشعر القاتم الغزير في تجويف الأذن، ولا يسكت. الكلّ يصغي، وحتى الخالات يسكتن في المطبخ الكبير، لسماع حديثه.

عنده خطط. وإذا ساعده عمه الحاج الإسطمبولي، وإذا وقف التجار المسلمون في صفه يعرف كيف يصل. تكفي خطّة الطريق. الطريق كلّها في دماغه، يعرفها شبراً شبراً، مضيقاً مضيقاً. عرفها على السماع في طفولته، قاعداً في دخان المناقل، يصغي إلى أصحاب القوافل ويتحدث مع المكّارين. اعتاد أن يحمل إليهم بقايا الطعام مع خبزٍ ساخن جديد. كم جلس معهم في الباحة التراب،

والذبان يطنّ على أقدامهم الحافية المتربة، وكم رآهم يغطّون في النوم، ورأس هذا على كتف ذاك، والأفواه مفتوحة، لا تنطبق! عرف الطريق وتخيلها صغيراً. ثم سافر عليها مع عمّه. سافر إلى الشام. وحجّ إلى بيت اللّه الحرام. سافر مرة وأخرى، وفي كل مرة كان يسافر مفتوح العينين، يراقب الدرب، يدرس تعرجات الطريق، يقيس ارتفاعها وهبوطها، يتأمل انحدارها وطلوعها، يسأل عن نوع التربة في هذه البلدة، عن وقت السيل ووقت الجليد ووقت الثلج ووقت الجفاف، ما هذه الصخور، وتلك المضائق هل تسدّها عواصف كانون؟ لم يغمض عينيه مرة في شتاء بيروت المهجورة من القوافل حتى موسم ذوبان الثلوج إلاّ وتخيل الطريق في رأسه، تذوب وحلاً! وتخيل المضائق تسدّها «مناسف» الثلج. البلد يهمد في الشتاء، يهجع كالدبّ، ينام كالفقمة على الشط، لا البواخر ترسو في هذا الموج المرتفع، ولا قوافل الشام تجيء. البلد كلّه يدخل السبات الشتوي، والمياه تدلف من السقوف. وإذا فارت السيول من رأس النبع والكراوية غمر الطوفان السهلات. وأخرج الوحل الناس من البيوت. يهربون إلى السطوح، والماشية تنفق. بعد العاصفة، بعد الطوفان، يطلعون إلى سطح الخان فيرون المآذن أعلى من قبل، والوحل بقع الحيطان، والسماء غدت أشد زرقة، أشد برودة، أشد قسوة، أشد علواً من أي وقت مضى. ويُصلون. المسلم يُصلي صلاته. والمسيحي صلاته. واليهودي صلاته. يا ربّ ارحمنا.

الشتاء للطوفان، والصيف للغبار. والقوافل تهلك على الطريق الطويل. الدرب ضيقة، صعبة، تتعرج، والحمار بليد، والبغل بليد، والجمل أيضاً بليد. الصندوق على ظهر الحيوان ثقيل، يجرح جلده، يحز في الجلد، يقطعه، والدم يسيل. كم مرة رأى الحدادين يطرقون الحدوة في الحافر، وكم مرة رأى الدمعة تفرّ من عين البعير!

الصناديق ثقيلة والسلال ثقيلة والحزام يجرح والسوط يجرح وهذه الطريق لا تشبه الطريق. رأى في الشام طريقاً، تلك طريق! في قلب الشام رأى طريقاً عريضة ورأى العربة بالعجلة تكرّ وراء الحمير. وعمّه الحاج الإسطمبولي أخبره عن دروب اسطنبول. والخواجة موسى سرسق أخبره عن دورب باريز. والكونت إسحاق طرازي قال أمام مجلس الشورى إنه رأى في بلاد البابا الروماني، رأى طريقاً عرضها عرض بيروت من السور القديم إلى السور القديم... وتكرّ عليها عربات، عربات ذهب ومخمل وحديد، تكرّ وراء جياد مطهمة بيضاء كالحليب، وكل عربة بحجم حارة قرميد، والناس يقعدون في العربات ويبسطون الفرشات وينامون ويأكلون ويشربون ويدخنون.

لا يُغمض عينيه إلاّ ويتخيل الطريق من بيروت إلى دمشق وقد اتسعت وانبسطت وجرت عليها العجلات. العربة تهتز، والبضاعة في العربة تهتز، والبغل يتحرك ويهمدر أمام العربة التي تهتز، والناس يتجمعون جنب الطريق، هنا يتجمعون وهناك يتجمعون، وينظرون إلى البضاعة في العربة، ويبسطون الراحات، ويقول الواحد منهم: يا رحمن يا رحيم! سبحانك يا ربّ! ما أسرع هذه العربات! ما أكبر حمولتها! وما أسهل هذه الطريق!

سخَّر لنا البحر، وأخرج لنا منه سمكاً وأكلاً. سخَّر لنا البرّ، وأعطانا البهيمة نركبها، والنبتة نزرعها، والأرض نبني عليها. نقطع الشجر جسوراً، ونقطع الصخر عتبة. وإذا أغمضت عينيك يا عبد الرحيم رأيت الطريق، هذه هي الطريق أمامك، تُخفيها برموش العينين، أو تخطها على الرمل، أو تصفها للولد زكريا ولابنك حسين، تحكي وأنت ترى نفسك عليها، تسافر وأنت قاعد على طراحتك! ترى السهلات والإبل والحمير، وترى رأس النبع بعد الطلعة ثم ترى الحرج، حرج الصنوبر يرد عن البلد الرمال، والطريق

تمتد أطول فأطول، ثم ترتفع الدرب، أعلى فأعلى، وتظهر القُرى وتظهر البيوت. هذه عاليه وهذه بحمدون. هذه صوفر، قرية صغيرة فيها خوخ طيب. هذه عين دارة فيها خان يسمّونه خان العيون. وهنا ظهر البيدر، لا نسمّيه إلاّ المضيق، مثل وادٍ بين جبلين، لكنه ليس كالوادي تماماً، وفي قسم منه يشبه هضبة، ومن بعده يبين بالأسفل سهل البقاع. اسمه الظهر، لأنه كالظهر ليس منخفضاً بل هو أعلى من البيدر، والبيدر سهل البقاع. ليس سهلاً كسهل الناصرة أو كسهل برج حمود. هذا بحر، لكنه تراب. أثرى تربة في هذا البرّ كلّه. السيول تتدفق من الجبال والطمي يتراكم في أرضه منذ دهور. تخترقه أنهار لا تُعد، ويُزرع حبوباً وقمحاً وخضراً وفاكهة. قبل ظهر البيدر تهلك البغال وهي تطلع شِعاب الجبل، ثم تنبسط الطريق. هذه طريق لا تعرف فعلاً نهاية. تسير وتسير وتسير ولا تصل. الطريق وسط السهل متعة للنظر. هذه قب إلياس. هذه شتورة. هذه تربل. هذه عنجر. البدو يحملون إلينا حليب الإبل ونحن نشرب ولا نشبع. يحملون السمنة والصوف إلينا، ونعطيهم سكراً. إذا رأى الواحد منهم قالب سكر ضحك ضحكة طفل. ونعطيهم قهوة أيضاً. وفي قلب السهل: الليطاني. ماؤه كالزبد. تنزل فيه متربا متعباً وتطلع نظيفاً شاباً مملوءاً طاقة. كأنك نمت عشر سنين. وبعد عنجر: الزبداني، نهر يتدفق فوّاراً. ومرّات يجرف الحمير. ولا تصمد أمام تياره إلاّ الحمير القبرصية والبغال المالطية والحصان العربي الأصيل. يجرف الحمير. وتنفق فيه خرافٌ. ويغرق بقرٌ. القوافل تقطع قريباً منه. وهنا يستقون. وتحت أشجار التين يأكلون الزوادة. والعصافير تنزل من الأشجار وتنقر عن الأكف كسرات الخبز. وبعد الزبداني ترتفع الجبال مرة أخرى، كأنها تخرج من كعب السهل. هناك نفتش عن زعرور تنمو حبّته فتصير بحجم التفاحة. أكبر زعرور

في العالم، قلبه أحمر كقلب البطيخة، وقشرته ملساء كالعاج، وطعمه أشد حلاوة من الشمام والبطيخ. ثم نسلك درباً وعرة تخترق الجبال كالسهم، ثم يلتوي السهم، ونلج برّية يكثر فيها القنفذ والضبع والثعلب. ومرّات تهاجم القوافل أسودٌ. وهنا أرض الذئاب. وبعد هذه البرّية أرض خضراء، كلّها توت، نتوغل فيها حتى نبلغ نبعاً يسمّيه البدو «نبع الشيخ»، مع أن جبل الشيخ صار وراء الظهور. وعند النبع غابة حور دائرية، سبحان اللّه، دائرة كاملة هي، وقفران النحل تتعلق من أغصانها. ليست قفراناً يرعاها آدمي. بل عناقيد نحل. ولا أحد يأخذها ويدجنها ويقطف عسلها. هذا نحل برّي، ولا يعمل إلاّ القليل من العسل، كفايته يعمل، ولا يزيد، ونحن ضحكنا من الأعراب الذين أخبرونا عن هذا العسل، وحين أراد ابن الداعوق أن يحبس «ملكة» ويأخذها هاج عليه النحل فتورمت عيناه ولم يعد قادراً على الرؤية. وهذه الغابة شجرها قلّ الآن، يقطعه الجنود للحطب، والنحل لم يعد يكثر فيها. وبعد الغابة، على مسافة غليون ملآن تبغاً، يُرى بردى، النهر الأبيض المياه، كأن الحليب يجري في سريره. ثم نُطلّ على أسوار دمشق. هذه هي الطريق. أكثر من أربعة أيام نسافر، ومرّات تقطعها القوافل في ثلاثة أيام، والخيّال الإنكشاري يقطعها في يومين إذا بدَّل جياده على الطريق. وأهل البوسطة (البريد) يفعلون مثل هذا. لكن الحصان قد يموت. يظل يعدو وقلبه يتورم في جنبه ويصل بك إلى البلد ثم يزفر وقلبه يفقع في جوفه ويموت.

هذه هي الطريق. والسيول تقطعها واللصوص يقطعونها والثلج يقطعها، وإذا التقت قافلة آتية بقافلة ذاهبة تلاطمت القافلتان على الطريق. ومرّات يتقاتلون. ومرّات بعد الشتائم يتعاركون. الدرب ضيقة، لا تتسع، والواحد يتعب وهو يسافر، ويضيق خلقه لأن

البضائع تظلّ تسقط عن البعير، ولأن الحمير تتعب، ولأن البغال تتعب، ولأن الحوافر تنزف دماً، ولأن الحشرات تقرص الحيوانات والبشر، ولأن الشمس تقسو على الرأس في السهل وتقسو في الجبل، ولأن الأمطار لا ترحم ولأن. . . هذه هي الطريق. ولو يقبلون ويقفون في صفي، ولو يدعمني عمي محي الدين، ولو يدعمني آل بيهُم وإدريس، ولو ينتبه التجار النصارى أن هذا كلّه يصبّ في مصلحة الجميع، طريق واحدة هي هذه الطريق، من أعماق البلاد إلى وراء البحر، لا تنتهي في خاني هذه الطريق، ولا تنتهي في عنابر المرفأ، تبدأ هناك، في دمشق البعيدة، ونهايتها أبعد من بيروت، أبعد من المرفأ، أبعد من الصخور، أبعد من البواخر الراسية عند الصخور. حبوب حوران تطحنها مطاحن الإنكليز. حرير حلب تحلّه كرخانات الفرنسيس. هم يستفيدون ونحن نستفيد. وإذا تدفقت القوافل سال الذهب في الطريق. وبالذهب نقلع صخور المرسى، الفرنسيس يأتون والطليان يأتون، عندهم طرق لا يعرفها إلاّ الفرنجة، ويقلعون من مرسانا هذه الصخور. الميناء يتسع. وهم يستفيدون. ونحن نستفيد. هذه هي الطريق. من دمشق إلى بيروت إلى وراء البحر. والكل ينتفع. أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً. ولا تنسَ الآخرة. لا تنسَ الآخرة يا عبد الرحيم. والآخرة في هذه الدنيا تربحها. اذكرْ صلاتك يا عبد الرحيم. اذكرْ أهلك وأخوتك واذكرْ الأولاد والأقارب والأصحاب ولا تهمل آدمياً يا عبد الرحيم. المُلك للّه. وأنت العبد الفقير. بسم اللّه الرحمن الرحيم. . . إياك نعبد وإياك نستعين. إهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. آمين.

*

ليلة طويلة. لا يحبّ السهر، لكن أم حسين أرادته أن يُخبرها،

أرادته أن يحكي معها، تحبّ حين يحكي، تحبّ صوته وأخباره، خصوصاً متى نامت الحارة، ورفعت الذئاب عواءها في برّية رأس بيروت. في تلك الساعة يأتي الخوف، لا تدري من أين يأتي هذا الخوف، فإذا تكلم اطمأن قلبها.

نظر إلى وجهها في نور القناديل فرآه يشع بياضاً وحبّاً. نسي البغال والجمال ونسي المدن والدروب ونسي القوافل والجبال والسهول. ضحك وكفكف على فخذها وقال:

ـ قومي! قومي! نشف ريقي من الحكي!

فرغت «حارة البارودي» في العيد من سكانها. الرجال والنساء والأولاد كلّهم خرجوا إلى ساحة «عالسور» أو إلى زيارة الموتى في المقابر. لم يبقَ في الحارة غير أم زهرة، سهيلة النابلسي البارودي. المرأة التي كانت قبل سنين بعيدة تدعو ضرّتها أم شاهين (صفية الفاخوري البارودي) إلى السطح العالي لتأمل سوق القطن والمصطبة أمام مطعم عبد الجواد، هذه الأرملة البيضاء الشابة ذاتها، باتت في الآونة الأخيرة لا تظهر إلاّ في ما ندر. كأنها أسيرة المحبسة. كأنها تتنسك في غرفتها الحجر البيضاء المحضونة بالغيوم. لا تُرى على السطيحة إلاّ وقت المساء، والنجوم تبرق في الأعالي، بين أوراق السنديانة.

لكن أم زهرة لا تتنسك. ليست راهبة. لا تتنسك ولا تُربي حريراً. أثناء الربيع ربّت حريراً. والحاج عبد الرحيم صعد وزارها ورأى ديدان القزّ تعربش على الوزال وتغزل الشرانق ذات لون الذهب والحليب. الشرانق الصفر، والشرانق البيض. القزّ الطلياني ـ الفرنساوي الهجين، والقزّ البلدي. رأى أم زهرة تأخذ من الشرانق لونها ونعومة ملمسها. أحسّ غلافاً من الكهرباء يشرقط حول كتفيها. وحين نظر إلى أذنها ظاهرة وخصلة شعر من تحت المنديل الحرير الناصع البياض، خفق قلبه خفقة سريعة، وغضّ البصر. سبحان

اللّه. نزل الدرج مضطرباً، ولم يتخفف من اضطرابه إلاّ حين هرعت البنات الصغيرات إليه، وتعلقن بأثوابه: بنات زهرة (سامية، زينب، سعدى، بهيجة، فردوس).

الربيع للحرير، وفي الربيع بيروت كلّها تفرم توتاً وتتنشق رائحة القزّ، وتسمع صوته يطحن، يطحن، يطحن، يقضم الورق الطري عن الأطباق، وينمو ويقسو ويصير يطحن أعواد التوت أيضاً. خمسون يوماً والبلد كلّها هاجسها الحرير والصلاة من أجل طقس معتدل، وإذا جاءت «شلهوبة» حر فتحوا النوافذ ونفخوا من أنفاسهم على الديدان لئلا تتعب وتذبل. ينتظرون ساعة «التشبيح» وطلوع الدود ملآن الجوف إلى الوزال ليغزل شرانقه. ملآن الجوف بالحرير العجيب، بالخيط الناعم اللانهائي، ليس مملوءاً إلاّ بالحرير، هذا الدود. قبل أن يتسلق الوزال يتخلص من قاذوراته كلّها. بعد ذلك يتمايل كأنه يرقص، ويرفع الرؤوس، ثم يسعى على الفروع الخضر مرتفعاً. يغزل الشرانق، يلف الخيط من حول الجسم الطويل الرخو، وينام في قلب الشرنقة. الخيط يغطيه رويداً، والشرنقة الشفافة تتكاثر طبقاتها، طبقة في جوف طبقة في جوف طبقة، والدودة في الأعماق، في مركز الحلقات الحرير التي تخرج من فمها. الرأس الدقيق يدور والخيط يُقذف من الأعماق الغامضة وينسج سرير السبات. وحين تكتمل الشرنقة، حيث تختفي الدودة تماماً عن عيوننا، تكفّ الوزالة الخضراء عن الارتعاش.

هذا في الربيع. ثم تُقطف الشرانق وتُباع للكرخانات وسماسرة الكرخانات. بعض الحرير يُحل هنا، وبعضه يسافر في علب الشرانق، يسافر كما هو إلى وراء البحر. هذا أول الصيف. لكننا الآن في الخريف، والخريف ينتهي، وريح الشمال تقذف الغيوم على حيطان الغرفة الحجر العالية. . . فماذا تفعل أم زهرة؟

تكفهر السماء. ترعد وتبرق وتمطر. ثم يصحو الطقس. الغيوم تبتعد. وفي الليل تنقى السماء وتلمع نجومها. القمر يتدور في كبد القبّة السوداء. والجليد يلمع على العشب ويلمع على السطوح ويلمع ـ قشرة رقيقة شفافة ـ على «طريق عبد الجواد» التي تقسم الحارة. هذه الليلة أيضاً لا تظهر أم زهرة على السطيحة. الأولاد تحتها، أولاد البنت زهرة، يسمعون مرّات، في الليل البهيم، دعسات على الدرج. يسمعون الصوت بين الصحو والنوم، وفي الصباح ينسون ما سمعوا. إذا تذكروا سألوا كبيرهم خالد هل تدخل الضباع إلى الحارة في الليل؟ وخالد يخبرهم أن الضباع لا تدخل هذا البلد، لأنها بلد محروسة، ونحن في بطن البلد، وهذه الحارة عليها سور، محروسة مرتين هي.

أهل الحارة خرجوا في العيد، ونادراً ما فرغت الحارة من سكانها. الدجاجات تنقر التراب تحت التوتة وتحت الجميزة وتحت الجوزة وتحت الصنوبرة. الدجاجات ترفع الرؤوس وتستغرب هذا السكون الكامل. تطلع على «الطريق البيضاء»، تتجول بين قسمي الحارة، والريش يتطاير من أجنحتها. الطقس حلو اليوم. البرد مقبول. ولا رياح تهبّ. البحر ساكن. موجه لا يُسمع إلى هنا. حارة القرميد العالية تردّ نسائم البحر، وتردّ الهدير وتلاثغ الأمواج ورائحة الملح. المكان صامت، ومن بعيد، من وراء أحد البيوت يُطلّ عملاقٌ ويقترب. يخطو في حذر، مثل لص، ويقطع الطريق البيضاء خفيفاً، ويطلع سريعاً على الدرج الحجر الذي صقلته الأعوام... الباب موارب، ينتظر دفعة من يده، والمرأة تنتظره.

*

عاد عبد المجيد الفاخوري في تلك الأيام إلى بيروت آتياً من الآستانة. فور وصوله إلى البلد تأكد الأهالي أن «حرب القُرم» ليست

حرباً سلطانية أخرى بعيدة. كانوا سمعوا في الخريف أن قائمقام الدروز الأمير أمين أرسلان أعد جيشاً بثلاثة آلاف مقاتل للسفر إلى بلاد الروس والتُرك ونجدة السلطان. وكانوا علموا أن الجيش تأخر ولم يغادر بسبب العواصف. البحر هائج. وهضبة الأناضول تغطيها الثلوج.

سمعوا عن الحرب، وعن المدافع الجبارة التي إذا أرعدت في شمال البحر الأسود قاصفةً سيفاستوبول حصن الروس المنيع، سُمع صداها في قلب استانبول. السلطان أرسل الإسطول كاملاً إلى جزيرة القُرم. المدافع العثمانية كلّها تقصف الآن سيفاستوبول، والقلعة صامدة لا تنكسر. ماذا يريد السلطان من الروس؟ وكيف يجرؤ الروس على مواجهة السلطان؟ لكن الروس أيضاً عندهم سلطان. لا يسمّونه السلطان. يسمّونه «قيصر». وبلد الموسكوب مشهور. لم يذهب إليه بيروتيٌ أبداً. بلدهم بعيد. بلد الموسكوب في نهاية العالم. وحوله صحراء. لكنها بلا رمل. صحراء من الجليد. عاصمتهم كلها مخازن وكنائس وقصور. والعمارات عندهم لا تُبنى بالحجر والخشب والطين. لا تُبنى إلاّ بالذهب. فإذا بانت الشمس اشتد بريق المدينة، يراه العابرون من بعيد. مدينة معمولة من ذهب، سورها ذهب، دروبها عريضة ذهب تكرّ فيها عربات ذهب بعجلات ذهب. مدينة عجيبة، وعلى أشجارها طيور بلون الليل، تشبه القعق، تشبه العقاب والغراب، لكنها ليست غراباً! صوتها رخيم، وحتى في الشتاء تملأ البلد غناء. وتبيض بيضاً ذهباً. والسلطان يطلب هذا البلد: يطلب ذهب الكنائس ويطلب العصافير الرخيمة النشيد ويطلب القصور والنساء البيض ويطلب السهول المزروعة بالحبوب. ويطلب المواشي السمينة التي تطعم جيوشاً. ويطلب الأشجار والغيوم والقبب البارقة. بلدهم بعيدة، يقطعها نهرٌ أزرق عظيم، وعلى النهر

الجسور، كلّها بقناطر منحوتة، وعلى الجسور مصابيح الزيت، توجّ في الليل الشتوي الطويل بنورٍ ينعكس على حيطان البيوت الذهب. وبعض الحيطانِ معمول بالفضة ومطعم بالياقوت، بفصوص الياقوت والزمرد واللازورد، كل فصّ أكبر من العثملية، مثل الفصّ في الخاتم الذهب بإصبع الحاج عبد الرحيم.

الناس يسمعون عن «حرب القُرم» المندلعة منذ شهور، وحتى هذه الساعة يحسبونها لن تأتي إلى قلب بيروت. ولن تسحب شباباً من دروب بيروت. ما دخل بيروت بالبحر الأسود، ببلاد الروس، وبجزيرة الثلج والجليد تحرس صحاري الجليد؟ جزيرة الموت الزؤام النائية. لا يرجع منها الرجال. النخاع يتجمد في العظام هناك، والبحر في الشتاء يتجمد أيضاً. الدلافين تعلق في قوالب الجليد. الحصان في لحظة يموت ويتجمد. كالصخرة يصير، لو قطعت لحمه بالسيف لا ينقطع! الأسنان تصطك كمناقير اللقالق. إذا بكى انكشاريٌ برداً تجمدت الدموع بلوراً بين الجفون.

ما هذه الأخبار التي جاء بها ابن الفاخوري؟ أي شؤم؟ يقول السلطان سيطلب عساكر من بيوتنا!

رجع عبد المجيد الفاخوري إلى بيروت في شتاء 1853 ـ 1854 بعد غياب في «دار السعادة» دام أربعة أعوام. كانت السماء ترعد فتتمايل أشجار التوت الباقية. وحين يبرق البرق تنزل الصواعق كالثعابين في عرض البحر. وجد سهلات البرج مستنقعات من الوحول والأكواخ والروائح الفظيعة! الحيوانات نافقة بين الأكواخ ولا أحد يخرج ويبعدها! ما هذا؟ متى نبتت هذه الأحياء هنا؟

رجع مظلمَ الوجه. كأنه ليس هو. كأنه رجل آخر. حتى لون عينيه تغيَّر من البنّي إلى الأسود! أراد أن يرجع برّاً. أن يخترق هضبة الأناضول من الغرب إلى الشرق (بورصة ـ أنقرة ـ كيريكالا ـ بحيرة

الملح ـ قيصرية ـ جبال طوروس ـ غوكصو ـ مرعش ـ أضنة). ثم أن يقطع بلاد الشام من الشمال إلى الجنوب (خليج الإسكندرونة ـ أنطاكية ـ اللاذقية ـ جبال العلويين ـ الشيخ بدر ـ طرطوس ـ النهر الكبير ـ طرابلس ـ جونيه ـ نهر بيروت ـ بساتين برج حمود ـ الصيفي ـ سهلات البرج). كانت هذه خطّته: السفر بالبرّ. الرحلة الطويلة قد ترد الروح إلى بدنه. خسر كل ثروته على ضفة مرمرة. ابتاع سفينة وحمَّلها بضائع... جنى العمر كلّه. فانكسرت السفينة في البوسفور وغرقت!

الرجل المنكوب أراد أن يرجع إلى بيت أهله، إلى «دار البرتقال» داخل باب يعقوب، برّاً. لكن الحرب منعته. الحرب ليست في الأناضول. لكن الحرب حرب. الإنكشارية يلتقطون الناس من الطريق، ويحلقون شعور الرؤوس. كل من يقدر أن يحمل بارودة أو سيفاً أو بلطة، يُعطى الزي النظامي، ويرسل بالبحر إلى القُرم. مطيته يأخذها الجيش. بغلة أو حمار أو حصان، كلّه ينفع. إن لم تنقل العساكر هَذه البهيمة، تنقل السلاح وتجرّ المدافع. إن كانت ضعيفة، لا تصلح حتى لهذا، نأخذها ونذبحها ونوزع لحمها على مطابخ الجيش. في الحرب لا أحد يتغنج. الغُنج والدلال لأيام السلم. الحرب ليست سلماً.

جاء عبد المجيد الفاخوري راكباً البحر المنحوس الذي ابتلع جنى عمره (في تلك الحقبة غرق نصف الأسطول العثماني). جاء على متن سفينة أبحرت من إزمير، إحدى سفن شركة فواندي العثمانية. في عرض البحر هبّت على السفينة عاصفة، مزقت الأشرعة، وحطمت الصواري. كيف لم تنكسر السفينة وتغرق؟ لماذا لم تنكسر عندئذٍ وتغرق؟ تدابير اللّه. دفعتها العاصفة نحو الساحل السوري، حتى بلغت جزيرة أرواد. أهل الجزيرة ذات السور

المستطيل العالي الشبيه بسور بيروت المندثر، رصدوا السفينة من الأبراج المرتفعة فأرسلوا الزوارق لنجدتها.

أنقذوا الركاب كلّهم وأنقذوا البحارة. عبد المجيد الفاخوري بلغ اليابسة مقروراً مبلولاً، يلهث، والسمكات تفرّ من جيوبه العثمانية العميقة. استدار فرأى السفينة تميل ورأى الزوارق تفرّ منها وسمع الصراخ والهتافات. كل الصراخ من الناجين. ليس من الأروادين. بحارة أرواد ذكّروه بالمرحوم شاهين. ابن عمته صفية. كلامهم قليل، وجوههم باسمة عابسة في الوقت نفسه، ضخام الأجسام، لوَّحتهم الشمس ولوَّحهم البحر المالح، مثل اللقز الصخري يُشوى على الفحم.

من أرواد، بعد يوم، ركب شختورة إلى طرطوس. في طرطوس تخلى عن خواتمه مقابَل حصان. هكذا بلغ بيروت بالبرّ، بلغها بالبحر وبالبرّ معاً. جاء إليها بحراً، لكنه دخلها برّاً! وقال إنه ملعون. لكنه، بعد أيام قليلة، وقد اغتسل وأكل وارتاح ونام ما يكفيه من نوم، استرجع معنوياته العالية. آل الفاخوري هكذا كلّهم. تخبط الواحد منهم على الأرض فيقوم واقفاً، لا يتحطم! مضى إلى جامع النوفرة وصلّى مع الجماعة ثم خرج كالمارد. جلس مع الجالسين حول النوفرة، والمياه تتدفق وتفور من الفوّارة على الحافة المرمر. ملتفاً بالجبّة الصوف الثقيلة، وبوجهٍ أزرق برداً، لم يأبه بالبرد. هؤلاء أهله وصحبه القدامى. فكيف يشعر بالبرد؟ العشيرة حماية وحصن. إمتلأ قلبه دفئاً من جديد. نظر إلى الكلمات المنقورة فوق باب الجامع، معتمة في النور الشتوي:

الله حق ما في شك

أحسّ نوراً يخرج من الكلمات فينزل في عينيه. الآن يتغيَّر لون بؤبؤيه مرّة أخرى: من الأسود إلى البنّي العسلي يعود. ينقلب مرة أخرى كمركب. الآن ينسى نكبته. وينسى حتى هذه الحرب في القُرم الملعون.

لكن الناس يسألونه عن القُرم.

وهذا ابن عمته أيضاً يسأله. هذا الفتى الذي تحول أثناء غيابه عملاقاً. حين رآه للمرة الأولى، حين التقاه صدفة عند باب الدركاه بعد يومين من عودته إلى «دار البرتقال» ظنّ أنه يرى شبحاً. ظنّ أن نكبته أضاعت عقله، ثم رأى الخضرة اللامعة في العينين فأدرك أنه لا يرى شبحاً. هذا ليس شاهين. هذا الصغير عمر! عمر البارودي ابن عمته صار عملاقاً! صار ظلّه يغطي الأرض. متى تورم وتضخم وصار مئذنة! كأنه البرج، يتقدم ويُطوح بذراعين! كل ذراع كسارية، وتُغطيها الأوشام! يقولون إنه لم يَربَ في بيروت. ربى نفسه بالبحر، بين الدلافين والحيتان والقرش! وربّى نفسه في بيوت العوالم وفي مشارب الإنكليز! معقول؟ ابن التقي عبد الجواد؟ لكن شاهين ـ اللّه يرحمه ـ هو أيضاً كان يرتاد «السوق». إلاّ عبد الرحيم. الحاج أبو حسين صار «فوق فوق». كبر. كبر وكبر كما يكبر الحوت. كبر وظلّ عزيزاً، موقعه عميق أثير دافئ في القلوب. لم يتكبر. رزقاته تحاصر البلد ولا يتكبر. يُصلي الصلوات الخمس وإذا جاء إلى «دار البرتقال» باس يد جدّه العظم وباس يد عمه الطرية. الحاج محي الدين الإسطمبولي أنزله منزلة الابن الكبير، يعزّه أكثر مما يعزّ ابنه محمد. يا حرام يا محمد. التقاه أمام الجامع، بالكمّ المقطوع على الذراع المقطوعة، ويُثبت الكم بدبوس فضة. هبّ الهواء ورأى الكم في الهواء يلوح. مثل شتلة حمص تتدلى من لحم الذراع، القميص الأخضر وهو يلوح. حزن حين رآه وقال هذه نكبة، هذه خسارة،

قطعة من جسمك تُقطع، قطعة من جسمك في بحر الموت تضيع ولا تلمسها بعد ذلك أبداً! ولا تعرف هل أكلها الدود أم نقرها الباشق أم طبخها جندي جائع جريح! هذه خسارة! ليست خسارة أن تخسر سفينة ثلاثية الصواري، مملوءة قماشاً وقناديل وصناديق مطعمة وأرائك بخيوط فضة وذهب وبيوت جلد غزال للمصاحف ونرابيج أراجيل باب أول وزجاجات أراجيل وصحون أراجيل وأطباق خزف صيني، ليست خسارة ولو ابتلع البوسفور البضاعة والسفينة، ولم تنقذ منها حتى الخشب، ليست خسارة، ولو أكل جنى عمرك أهل الأحياء على الضفاف ليست خسارة، هذا يتلقف قنديلاً وذاك يسحب بالة أثواب محزومة والآخر يصيد بالقصبة والصنارة أرجيلة معتبرة مزينة بالنقوش. . . ليست خسارة ولو أكل يهود مرمرة السمك والرزّ على أطباقك الخزف الصيني، تدخل إليهم الأطباق الزرقاء سابحة من نوافذ المطبخ على ساحل البحر ولا يتعبون فيها ولا يطرحون من أجلها الشباك، هذا سبتهم المقدس، يُصلون نائمين على الظهور ولا يتحركون، وإلى المائدة يأتي طعامهم على صحونك الملونة المزخرفة يا عبد المجيد! ليست خسارة. الخسارة أن تضيع ذراعك ببرقة سيف ولا تدري بأي أرضٍ دُفِنت، ولا تدري هل دُفِنت أصلاً، ولا تفهم لماذا تهتم! ليست ذراعك منذ اليوم، صرت بلا ذراع، ولن تبرعم لك في مكانها، في أصل الكتف (حرام يا عمي عبد الجواد)، في أصل الكوع (حرام يا محمد) لن تبرعم مطرحها ذراعٌ غيرها. هذه خسارة.

والعملاق البارودي الأخضر العينين يسأله عن «القُرم»، وعن بلد الموسكوب، وعن ذهب القبب، وعن نساء الموسكوب، ضخمات بيضاوات لا شعر على أجسامهن، دافئات القلوب، هل يعرفهن، هل دخل عليهن، أليست «دار السعادة» حافلة بالموسكوبيات؟ هذا

العملاق غريب الطباع، يحكي ويضحك ثم يسكت ويحزن ويشرد، لا تعرف الجد في كلامه من المزاح، لكنه قريب من القلب، وفي عينيه ودّ صافٍ، ليس في نظرته خداع، مع أنه يبدو هنا وليس هنا، كأنه ضائع في بلد بعيد. . . ويسأله عن القُرم وحرب القُرم. ويسقط وجهه وتغمره كآبة غامضة مظلمة. ثم ينده وهو ينهض والمكان يرتج بحركة جسمه: «أهلاً أهلاً»، كأنه يُرحب به في داره، مع أنه يكون عندئذٍ في الطريق! ويقول شيئاً إضافياً عن نساء السوق، لا يستحي أنه ينام الليل هناك، ويقول إن إسمهن المسكوبيات لأن أبدانهن مسكوبة سكباً مثل المسلات والأعمدة والفقمة التي تُرى عند مصب النهر، مثل أعمدة خان البَيْض مسكوبة، وكان يوجد منهن في بلدنا على زمن النامي الأمير، ثم هربن حين هرب الأمير. المسكوبيات ضد آل عثمان. يمقتن الجلافة واللفظ التركي.

العملاق يمضي والسوق تهتز تحت دعساته والبضاعة المعلقة أمام الدكاكين تهتز. عليه أن يحني رأسه وإلاّ أسقط السلال المتدلية وأسقط القبب وأسقط القناطر وأسقط السقوف. هذه السقوف القصب لا تتحمل لطمة هذا الرجل. لا تتحمل ثقل نسرٍ أو ولد. أخبروه أنه تعارك مع أحد الضباط الإنكشارية فحمله وقذفه من أمام الثكنات المصرية القديمة عند حمام الدركاه فوقع الإنكشاري وراء الحمام، عند السروات التي كان يتسلقها أخوه. . . كل أبناء عبد الجواد هكذا، ألم يرفع وحيداً بذراع واحدة أربعة بيوت؟ ألم يشق الدرب الصخر الكلس بفأسٍ ومعولٍ، قاطعاً الشوك مقتحماً الصبير والمقسيس؟ والآن تقطع «طريق عبد الجواد» فترى حيّاً كاملاً، قرية مُسورة في قلب البلد، كأنها مدينة في جوف المدينة. . . وذكر عبد المجيد الفاخوري سفينته المنكوبة مرة أخرى، وذكر صناديق تطفو مقلوبة على الماء، واغتم.

غير أن الغمّ لا يدوم. والإنسان بعد الحزن ينسى ويسلو. والغبطة ترجع إلى أعضائه. آل الفاخوري تجارتهم عمود من أعمدة البلد. ورجل يحبّ الجولان والسفر مثله، يعرف البواطن والخوارج، يقود القوافل منذ طراوة أظافره، رجل مثله كنز. وآل الفاخوري أهله. وعمومته جميعاً يتنافسون على خطب ودّه. لا يعرضون عليه قوافلهم فقط، يعرضون بناتهم أيضاً. وهو لا يريد أن يُخيب أحداً. هؤلاء أهله. والحاج عبد الرحيم ـ هو أيضاً ـ يطلبه إليه. عنده خان من أكبر خانات البلد. وسأله هل يتولى شؤون الخان جنبه؟ الحاج أبو حسين في قلبه غصّة: يريد عمر معه في التجارة، وعمر لا يريد.

ليس أن الفتى العملاق ـ هذا الرجل الذي يبدو مصرّاً على البقاء طفلاً ـ ليس أن عمر لا يريد البقاء عند أخيه. المسألة غامضة بالنسبة إلى عبد الرحيم. يراقب عمر حين يحضر أمامه. يراقب وجهه وعينيه وشفتيه إذا حكى، ويحاول أن يسبر غوره، أن يفهم ماذا يبرم في رأسه الضخمة، يحاول أن يلج هذه الرأس القاسية ويقعد فيها. لا يطمع بمقعد داخل هذه الرأس، هذا العملاق باطني كأصحابه الصيادين الدروز، باطني عمر، يقول كلمة ويخفي كلمات، لا يعرف نواياه أبداً! ليس أن عمر يخدعه، لا! ليس هذا! المسألة غامضة، تحتاج إلى الرصد والتأني، وحتى الآن لا يفهمها. هذا العملاق باطني لن يمنحه كرسياً داخل رأسه، لن يلج رأسه ويقعد كالفرنجة، كالفرنجة الذين يُقلدهم عمر لإضحاك الأولاد، يقعد في دماغه ويطرح ساقاً على ساق، ويهزّ ساقه مثل القنصل روز بيك الكولونيل. كلا. ثم إنه لا يلبس البنطلون مثل الكولونيل، ومن يلبس مثلي لا يرمي ساقاً على ساق! لسنا فرنجة! معه حق المعلم حمادة، ابن الشدياق لم يبدل دينه إلاّ تكسباً.

ماذا يُخفي أخوه؟ هل يفهمه يوماً؟ قبل زمنٍ غير طويل، قبل عامٍ ربما، أليس في الصيف المنصرم، بلى، أول ذاك الصيف، جاء إليهِ وطلب القبّان، قبّان أبيه القديم، الميزان وأثقال النحاس، أول ميزان دخل دكان خضر في بيروت. . . جاء عمر يطلبه.

أجابه أن القبّان في حانوت التبغ، ما زال في موضعه، اذهبْ ومرْ على الولد سلامة وخذْه، الحانوت مفتوح، أنت تعرفه، لم يُغير مكانه، ما زال عند زاوية الساحة حيث كنت تبيع الخضر مع أبي شاهين، تذكر؟

قال ذلك باسماً، يُذكر أخاه أنه لا يشتغل معه، يقبل الشغل مع المرحوم أبيه، ولا يشتغل معه!

وعمر قال إنه سيمرّ بعد الظهر ويأخذ القبّان إذا كان هو لا يحتاج إليه، هل يحتاج إليه؟

وعبد الرحيم ابتسم وشرح له إنه يُبقي القبّان في الحانوت ذكرى من المرحوم، ليس أكثر، فالتبغ خفيف، ليس كالبصل والباذنجان والقرع والخيار والبطاطا، التبغ ليس شمّاماً، التبغ له قبّان لا يُعمل إلاّ في بلاد الفرنجة، يقيس بدقّة عجيبة، فإذا نفخت الدخان على صحنه الفضة الخفيف، نزل الصحن وارتفع، بهذه الدقّة يقيس. لا، لا يحتاج إلى القبّان، ليذهب متى شاء ويأخذه، لكن الأفضل أن يمرّ غداً، فالولد سلامة عقله ليس في رأسه، ولعله أضاع القبّان في المخزن بين الصناديق، دائماً ينقل الأغراض من مطرحها، ثم ينسى أين وضعها، يده ليست طويلة، لا يسرقها، لكن عقله مثل مخ العصفور صغير.

عمر البارودي قال إنه سيمرّ بعد الظهر لأنه أصلاً سيمرّ من هناك، وهذه طريقه، إذا وجده وجده، وإذا لم يجده يقول للولد أن يبحث عنه.

وعبد الرحيم هزّ رأسه أن طيب، ووافقه، ثم سأل لماذا يطلب القبّان الآن، ماذا يفكّر؟

وعمر البارودي ابتسم وقال سأفتح دكاناً للخضر، مثل المرحوم، ولكن خارج الأسوار، في سهلات البرج.

وعبد الرحيم قال إنها فكرة حلوة، فالمكان بحاجة إلى دكاكين، وهو مستعد لأن يدخل معه شريكاً، لا يريد ربحاً، لكن من أجل الشراكة. ثم إن كل هذه الحوانيت والأعمال، والخان أيضاً، كل هذه التجارة له أيضاً، لم يقسما ورثة أبداً، وحقّ عمر في الحارة مثل حقّه تماماً، النصف له. فإذا قَبِل يفتحان الدكان معاً، وليكنْ دكاناً كبيراً. السهلات تكبر، البيوت تتكاثر، والمكان بحاجة إلى دكان كبير، لِمَ لا، فكرة حلوة! ولكن هذا القبَّان القديم لن يفيدنا، الصدأ نال من حديده، ويقولون إننا نغش.

وضحك الحاج أبو حسين حين قال «نغش»، وقال نطلب قبّاناً من بلاد الإنكليز، والأفضل أن نطلب أكثر من قبّان، الدكان الكبير يحتاج إلى قبَّانين، أقل من ذلك لا ينفعنا، ونعمله قريباً من «خان التوتة» وإذا أردت نعمله على حائط الخان، ما رأيك، مقابل بيت دبانة، فكرة حلوة هذه الفكرة يا أخي.

وعمر البارودي انشرحت أساريره وقال إنه موافق. وعبد الرحيم نظر في عينيّ العملاق وعرف أنه لا يغشّه، وأنه فعلاً يريد هذا الدكان، وهذه التجارة. وتذكر عبد الرحيم أن أخاه لم يغشّه يوماً، وإذا كان خيَّبه دائماً فالخيبة لم تكن نتيجة الغش. المسألة أن عمر حبله قصير. ضيق الخلق هذا العُمَر. تعنُ له نزوة ثم يضجر منها، يتخلى عن الشغل في نصْف الطريق، وعبد الرحيم من بعده يُرتب ما أفسد. دائماً هكذا، منذ أيام المرحوم. وهل نَسِيَ قطيع الأغنام؟

والبقرات التي أهلكت برائحة زبلها بيت أم زهرة وأهلكت بيت أم هند وبيت تامر وبيت النصولي، أهلكت الحارة كلّها! لا ينسى! عمر هكذا! ولكن لعله الآن يتغيّر. الأعوام لا تمرّ على خلق ربنا بلا أثر. وعمر يكبر.

اتفقا على الخطة، وقال عمر إن الخضر ستكون من حقول فيليبوس. صار الحلبي يزرع كل المزروعات، ويرسل إلى عبد الرحيم، يُرسل إلى ربّ نعمته، سلال الخضر والفاكهة. أول قطفة من أشجار التفاح الصغيرة التي بدأت تُزين حواف السهل، أول قطفة حَمَلَ رُبعها إلى «حارة البارودي». جاء عند الحاج حاملاً المقطف الثقيل وقال «هذا فضلك علينا يا حاج».

وعبد الرحيم تورد وجهه أمام الجيران وقال:

ـ فضل ربي، فضل سبحانه، أستغفر اللّه، أستغفر اللّه، كلّه فضل الرحمن.

امتلأ الحاج أبو حسين فرحاً. التفاحات حمراء تبرق على الطاولة، حمراء كالقرميد فوق رأسه، والأولاد يركضون ويلعبون على «طريق عبد الجواد»، وعائشة تُقشر بصلاً لتعمل له برغلاً مفلفلاً بالبندورة. هذه أكلته المفضلة، ورِث حبَّها عن المرحومة أمه. لا يرغب لا الشواء ولا القريدس ولا الصيادية ولا الهريسة ولا محاشي أم هند ولا كنافة أم زهرة كما يرغب هذه الأكلة. ويطلب من عائشة أن تفرم البصل سميكاً، لا يحبّ أن يذوب البصل في الطبخة. ومرّات يطبخها بنفسه.

يحبّ أن يطبخ. وعمه الحاج الإسطمبولي يقول إنه في الباب العالي، وفي قصور البوسفور كلّها، يعمل أطيب الطبخ رجال، يعمله رجال طبّاخون، مهنتهم الطبخ، لا يشتغلون إلاّ بالطبخ، وكلّهم

يتنعمون بالهدايا والعطايا والذهب، ويرفلون بالمخمل والحرير. لا نساء طبّاخات مشهورات في تخت السلطنة. والطباخون العثمانيون يعرفون أصنافاً من الطعام لا يعرفها أحد في العالم. ويسافرون بالبواخر إلى الغرب وإلى الشرق ليتعلموا الطبخات التي لا يعرفونها. حتى إلى الصين يسافرون. اطلبْ العلم ولو في الصين. ووراء حائط الصين أنواع نبات وطيور وطرائد وسمك لا نعرفها في بلادنا. والسلطان يطلب من هناك التوابل والفلفل الأحمر والزنجبيل، ويطلب أصناف حساء مالحة، فتُحمل إليه بالقوافل على طريق الحرير. وهذا الحساء يُشرب بارداً. وطعمه حلو ومرّ. مثل طعام الفُرس. وفي «دار السعادة» أسواق كاملة تبيع طعام الفرنجة وحلويات تذوقها فلا تشبع منها وتظل تأكل إلى أن يُصيبك الإسهال فتكفّ عن الأكل ولا تقربها بعد ذلك أبداً.

اتفقا على الخطة. لكن بعد أيام، حين التقيا داخل باب الدباغة، كان عمر قد نسي ما اتفقا عليه! ثم حين انتبه، حين تذكر، قال إنه نسي الأمر تماماً، لا يدري كيف نسيه، لكنه نسي، ثم إنه منذ أيام لم يرَ الحلبي الأرقش، فهذه الأيام يقضيها على البحر، السفينة اليونانية أنسته الدكان تماماً!

وعبد الرحيم هزّ رأسه. هذا مفهوم. هذا عمر. ألم يحفظ أخاه بعد؟ كيف يبقى على البرّ يفكِّر في حقول الناصرة وفي دكان خضر، بينما البحر أمام الأوزاعي يُغرق سفينة يونانية! جنحت السفينة على الرمل. رأى البحارة ناراً مشتعلة على ساحل الأوزاعي، في الخان الذي رمّمه أبناء تيّان، إياس تيّان وأخوته رمّموا الخان الذي أحرقه إبراهيم باشا وعملوا فيه غرفاً واصطبلات وصاروا يُشعلون النار قدّامه ليأتي إليه الغرباء المسافرون من بيروت إلى صيدا والجبل وصور، ومن صيدا والجبل وصور إلى بيروت. يشعلون النار لأهل

اليابسة في الظلام. والبحارة اليونان المجاذيب ظنوا أنها نار ميناء بيروت، النار التي نشعلها عند صخور المدوّر كل ليلة، لتدلّ السفن إلى برّ الأمان. من بعيد تُرى «نار المدوّر»، عالية، والبحارة يعرفونها، ووهجها كالعين الصفراء يدلّهم إلى المياه الهادئة، مياه الخليج. لا يُبحرون نحو الصخور بل نحو خليج الكرنتينا القريب، وحتى لو كانوا بلهاء وأبحروا نحو الصخور الظاهرة في وهج النار، يعجزون عن بلوغ الصخور. تيارات الماء هنا عنيفة، تقذفهم قذفاً صوب الكرنتينا، فلا تخبطهم الصخور. ثم أن «صخور المدوّر» ليست حقاً صخوراً. المصريون اقتلعوا نصفها، والإنكليز أكملوا على النصف الثاني. الباقي يشبه البلاطة بالبحر، بلاطة يغمرها البحر وقت المدّ وينزل عنها أبيض كالحليب أوان الجزر، ومرّات تجفّ تماماً، تصير من الشط. وعند هذه البلاطة المواقد وأكوام الحطب، نحرقها منارة للسفن، والسفن تجيء.

أيبقى عمر البارودي على اليابسة وسفينة اليونان تجنح على رمال الأوزاعي وتنتظر المنقذين؟

الحق عليك يا عبد الرحيم. لم تحفظْ بعد ـ وكل هذه الأعوام مضت، والبطيخات التي دحرجها عمر الصغير عن رصيف الميناء أخذها الموج إلى نهاية العالم وردَّها، كل هذه الأعوام توالت مدّاً وجزراً ـ ولم تحفظ بعد يا عبد ربّك يا عبد الرحيم أن الذيل الأعوج أبداً لا يستقيم. تضعه في القالب سنة ويظل أعوج! وأخوك عمر، هذا العملاق مثل الذيل الأعوج، لن يستقيم.

وابتأس عبد الرحيم.

*

عبد المجيد الفاخوري جاء إلى «خان التوتة» وانتشل ابن عمته

الحاج عبد الرحيم من أحزانه. قال إنه يريد أن يعمل معه. والحاج أبو حسين فرح وأحسّ اللّه يفتحها في وجهه من جديد. هذا المجيد جوهرة. يعرف شؤوناً لا يعرفها غيره. ويعلم كيف يتعامل مع التجار وأهل القوافل. أليست مصلحته؟ أليست حياته؟ لقد قضى العمر كلّه في التنقل والتجارة. . . إلى أن غرقت سفينته في مدينة السلطان.

سُرَّ عبد الرحيم. خصوصاً وأن الوالي العثماني الذي حلَّ أخيراً بالقشلاق يتجه إلى إلغاء جميع الامتيازات (الاحتكارات) التي خصَّ بها الوالي السابق بعض أبناء البلد الوجهاء. الوالي الجديد أشدّ رضوخاً للقناصل الأجانب من الوالي المعزول. يرضخ لأن السلطان صار ضعيفاً مذ دخل هذه الحرب في القُرم. الحاج الإسطمبولي يقول (والحاج الإسطمبولي يعرف هذه الأمور) أن السلطان يتخلى للإنكليز والفرنسيس عن الكثير لأنه يحتاج إلى سفنهم الآن، ويحتاج إلى مدافعهم الآن، ويحتاج إلى جنودهم الآن، في حربه مع الروس.

سبحان اللّه. كيف تنقلب الأحوال؟ الحاج محي الدين يذكر هروبه من بيروت سنة إبراهيم باشا. يذكر الجبال والوديان والسهول. لا ينسى ذلك السرب من الفئران القاتمة يعبر صفحة نهر عريضة تتساقط عليها رقع الثلوج. هذه الصورة لا تُمحى من الرأس أبداً. يذكر خاناً نزل فيه، يشبه في شكله الخارجي «خان الوروار» في الشويفات جنوب بيروت. . . لكن هذا الخان في ديار بكر غريب التقسيم. تدلف من الباب إلى باحة ليست مستطيلة، ليست مربعة، باحة دائرية هي! لم يرَ باحة خان مدوّرة من قبل. والأبواب الكثيرة تفضي بك إلى غرفٍ كغرف الخانات، فقيرة، غير مفروشة، بطانياتها عطنة الرائحة، والقش يغطي أرضها الحجر. لكن هذه غرف غير مألوفة. ليست مستطيلة، ليست مربعة، غرف دائرية هي! جلس وأكل

قرعاً منقوراً حُشي لحماً وطُبِخ باللبن. (لامارتين الفرنساوي أكل مثل هذا الطبق حين حلّ ذات ليلة ضيفاً على قصر الأمير بشير في بيت الدين. الأمير كان نائماً. الرجل وصل بلا إعلان تحت جنح الظلام. طبَّاخ القصر قام من نومه وسخّن له صحن قرع. لكن الشاعر الآتي من باريس وجد الطعام بلا مذاق، وأحسّ اللبن ماصلاً. لم يُحبّ القرع المحشي.) بعد العشاء ارتاح الحاج.

لكنه حين تمدد، يطلب ثلاث ساعات راحة، قبل أن يواصل الفرار نحو تخت السلطنة، عجز عن النوم. لم ينمْ من قبل في غرفة ـ كمئذنة جامع النوفرة ـ مدوّرة. أحسّ أن الواحد لا يستطيع أن ينام هنا. كان إحساساً غامضاً سيطر عليه بحيث أن عقله تفتّح وبرعم وبدأ يأخذه ويردّه مثل مركبٍ رُبط إلى وتد مطروق في الشط. مدّ وجزر مدّ وجزر، والحاج عاجز عن النوم. وباغته شعورٌ آخر: لن ينجو. سيُقتل هنا، في الخان الدائري الغامض، وإذا نجا من الخان يُقتل على الطريق. لن ينجو. أخطأ حين فرّ من البلد. أخطأ حين عبَّأ الزنار والكيس ذهباً وغادر أسوار بيروت. أخطأ وثمن الخطأ حياته. سيُقتل.

قام وحزم أغراضه وأخرج حصانه من الاصطبل الدائري. الأعرج فتح أمامه الباب وهو يدمدم ويمسح قشرة عسلية عن رموشه، والحاج طار نحو الغيوم. كان القمر مدوّراً في الأعالي، والغيوم قاتمة البطون منيرة الحواف، وطار الحاج بين الغيوم. الظلال تغطي الأرض والحاج يعبر الأناضول. كأنه قد مات. والآن يعبر أرض الموت إلى حيث لا يدري. هكذا فقط نجا: حين اعتقد في أعماقه أنه ميت الآن، أنه الآن يتحرك بعد أن مات... هو ميت إذاً. وعليه، في هذا الموت، أن يطير إلى «تخت السلطنة»: اسلامبول.

سبحان اللّه. كيف انقلب الدهر؟ كان القيصر الروسي صديق

السلطان. ألم يسمع ـ وهو نازل خارج استانبول ـ أن القيصر الروسي هدّد المصريين بإسطوله إذا اقتربوا من عاصمة آل عثمان؟ ألم يرَ بعينيه الجنود الشقر الطوال القامة، بشرتهم كالحليب، يصطفون على سفينة بشراعين، وكل شراع يغطي قصراً! هؤلاء الروس، بالبواريد الطويلة القسطل، كانوا يحرسون البوسفور. . . فرقة كاملة أُرسلت من البلاد المسكوبية. والآن يقاتلون السلطان في جزيرة الموت الزؤام!

ومجيد قال إن مدافع السلطان باتت قديمة ولا تقدح بقنابلها حيطان سيفاستوبول. الحاج الإسطمبولي يعرف تلك القلعة. حين كان صاحب تجارة في «حي الشوام» على ضفة مرمرة سافر بالبحر الأسود مع شريكه حاجي خليفة إلى الشمال، إلى تخوم السلطنة العثمانية. سافر إلى الحدود إلى حيث تبدأ بلاد البلغار والروس. في تلك المساحات المظلمة، حيث النور لا يبدو أبيض، رأى سمكاً يطير من الماء، يقفز عالياً، يرتفع خمسة أمتار في الفضاء ويُغير كالحرباء لونه: يكون أصفر فيصير أحمر ثم ينقلب ويدور على نفسه فإذا به أخضر. سمك عجيب. أكبر من اللقز الرملي. ويصيدونه بمدّ الراحات خارج المراكب وهو طائر في الهواء فيقع في باطن اليد ولا يزلق. حراشفه خشنة، تشبه وبر السنور، لا يزلق. لحمه دسم، طيب الطعم، لكنهم لا يأكلونه. يقولون هذا كاليمام، اليمام هديله تسبيح، ذبحه حرام، وهذا السمك أيضاً يُسبِّح: له صوت وهو يطير فوق الماء. كأنه يرفع صلاةً! كأنه يحمد ربَّه! يلقطونه. ويلمسون عينيه وذيله تبركاً. ثم يُلقونه بالبحر.

يعرف سيفاستوبول. يعرف أبراجها. من بعيد بدت جبلاً أسود. وعلى سفح الجبل أخاديد يجري فيها الماء، مثل سواقي الشتاء. لكن السفينة اقتربت، تنزلق على السهل الهادئ المرتعش الوجه،

والجبل الأسود تغيَّر إلى أسوار عالية، والأنهار عند السفح حالت بيوتاً بنوافذ كثيرة، وكل النوافذ عليها زجاج، والزجاج يبرق. زحف ضباب بارد يُجمد الأنفاس على ظهر السفينة وبلّل ثوبه وبلّل رموش عينيه. عطس وأخرج منديله الحرير وعطس مرة أخرى. حين أفاق من العطسة الجبارة رأى النجوم تسبح أمام عينيه ثم رأى المنظر العجيب: أطول برج في العالم، برج يطلع برأسه إلى السماء، ويغيب في الأعالي، بين الغيوم. وعند قاعدة البرج (هذه ليست القاعدة، القاعدة تختفي وراء السور، لكنه للوهلة الأولى ـ خارجاً للتو من العطسة الفظيعة التي فككت أوصاله ـ حسب أنه ينظر إلى قاعدة البرج) رأى رجالاً عمالقة، كلهم عراة، لا يُغطّون إلاّ العورة بالصوف، ويحملون سيوفاً. كانوا يلعبون بالسيوف، ويقفزون بخفة كأن أبدانهم مصنوعة من زجاج، أو من ورق! يتبارزون أعلى السور، ويهتفون بحياة القيصر.

يذكر سيفاستوبول. وشطآن الصخر المرتفعة. وعجول البحر تختفي تحت الماء. ورجل يقف بعصا على صخرة قالوا له إنه راعي العجول. كان رجلاً قصيراً، لامع اللباس، وأخبروه أن لباسه معمول من جلد العجول، وأنه إذا لم يلبس هذا الجلد لم تخرج العجول من البحر إليه، فلا يقدر أن يحلبها. لا يلبس تحت الجلد الأسود الزلق شيئاً. لأن العجول بأنوفها الكبيرة، والشعرات على الأنوف، لا تطيق رائحة القطن أو الصوف أو حتى الحرير. رائحة الخشب لا تطيقها. وكذلك الحديد. دلاء الحليب تُغسل بماء البحر لتزول عنها رائحة الحديد.

مكان غريب. لكنه حين جاوز الدرب المتعرجة مرتقياً بين الصخور وبلغ أسوار القلعة، وجدها قديمة مصدعة تكاد أن تقع إذا هبّت عليها الريح. وذكر أسوار بيروت. صحيح أن المرسى تحتها

صعب، خطر المياه، غزير الصخور، لكن القلعة نفسها قديمة، مثقوبة الحيطان، وتبدو مائلة، مثل عجوزٍ توشك على الوقوع. . . وحده البرج الطويل يعطيها مظهراً منيعاً من بعيد. لا، حتى البرج لا يعطيها المناعة. بالعكس: هذا البرج النحيل مثل عودٍ تنكش به أسنانك، هذا البرج يضاعف ضعفها. ما هذه القلعة الهزيلة المتداعية؟ حتى ولو كان مرساها صعباً ليست منيعة!

لم يفهم الحاج الإسطمبولي كيف تمتنع القلعة عند ساحل الروس، قلعة القُرم هذه كيف تمتنع على المدافع السلطانية؟

لكن عبد المجيد قال إن العلّة في المدافع والعلّة في الصخور والمرسى والعلّة في الطقس والجليد والعلّة بالقراصنة الروس: هؤلاء يخرجون في زوارق صغيرة لا تُرى، يخرجون من مغاور الشط تحت جنح الظلام، وحين يبلغون سفن السلطان يُضرمون النار فيها ويرجعون! وقال عبد المجيد إنهم حتى في الصقيع، والجليد على صفحة الماء يتكسر، حتى عندئذٍ يسبحون تحت صفحة الجليد إلى مكان الإسطول. ويثقبون قعر السفينة! لكن السلطان لن يتراجع. يريد القُرم كلّها. الروس أهلكوا البوسفور. لن يتراجع السلطان. وهو يتنازل للقناصل لأنه يريد دعمهم في الحرب مع الروس: يريد أن يرسلوا إليه البواخر الجديدة، والمدافع الجديدة، ويطلب جنوداً أيضاً! ألم يُورطوه في هذه الحرب؟ بنوك الإنكليز والفرنسيس تُمول الخزينة العثمانية! وهم أيضاً لا يطيقون الروس!

الحاج الإسطمبولي أصغى إلى عبد المجيد العائد من تخت السلطنة وشعر بالحنين: يود أن يقوم الآن ويركب حصاناً (أو ليركب البحر ويذهب بباخرة، «لويد» النمساوية راسية قبالة البلد الآن، بينما عبد المجيد يحكي) ويمضي إلى إسطمبول. هذا الخرير في صدره يضايقه، والبلغم الأصفر يوقظه ليلاً فيقوم من الفراش ليبصق. ومع

هذا لا يحسّ تعباً. الشيب الذي يخطّ شعره لا يدل إلى الطاقة في بدنه. الفتوة تملأ هذا القلب. وأصابعه أصابع الشباب. كل من يعرفه يعرف هذا. مع أن نصف أصحابه شاخوا الآن، وبينهم من يرقد تحت التراب. هذا الخرير في الصدر لا يضايقه. وكم يود أن ينهض الآن (لكن ها هي الأمطار تنهمر، يسمع وشيشها الحزين على أوراق التين جنب البيت) وأن يلف الزنار الكشمير العريض على بطنه ويخرج إلى بلد السلطان فيجول الدروب والحارات والأسواق التي يعرفها كما يعرف الخطوط بباطن يده. (هناك زاروب أزرق البلاط ينحدر نحو الماء بين صفّين من البيوت الخشب، وعند الزاوية عجوز تركماني يبيع كباباً مشوياً. يشوي الكباب مع بندورة وبصل وفليلفة حمراء، فليلفة دغلية لا يُرى مثلها في بيروت... وبعد الزاوية المطلة على مآذن «جامع السلطان سليم» تبيَّن صفحة البوسفور بين دكاكين: دكان يبيع سيور الجلد والبكلات المعدن، ودكان يبيع حلى ثمينة معمولة على شكل سيوف مسقطة وطبنجات عجمية مفضضة وقرابينات فارسية مرحلة وبندقيات مجرية مجوهرة، كل ما يتخيله العقل من سلاح يُعمل هنا حلى تُلبس كأساور وقلائد أو تُعلق من الآذان حلقاً. ابتاع مرة خلخاخاً هدية، خلخال ذهب يُلبس على الجهتين، مرة تراه على الكاحل الأبيض الحلو خنجراً ومرة تراه غدّارة نمساوية!)

تاه الحاج الإسطمبولي في ممالك الحنين حتى سمع ابن أخيه يتنحنح ويبدو كأنه سيقوم. سأله عندئذٍ كيف رأى البلد عند رجوعه، هل تبدلت عليه بيروت؟

قال عبد المجيد إنه وجدها صغيرة. وضحك وقال إنه لم يخرج من البلد مرة إلاّ ورجع إليها وهي أصغر حجماً، كأنها تنكمش، مثل قميص قطن يُغلى في الماء وهو غائب، يُغلى مرة تلو مرة تلو مرة.

يرجع إلى بيروت فيجدها قزمة!

ضحك الحاج الإسطمبولي وقال هذا أنت تكبر، وكلما كبر جسمك رأيت الغرف أضيق، ورأيت الطرقات أقصر، والأشجار أصغر، وترى السقف كأنه ينخفض على رأسك. هذا العمر يا ابن أخي، لا تهتم.

وعبد المجيد (الذي بات من زوار «الطريق الجديدة» و«السهلات» و«خان التوتة»، والذي يعلم أن البلد لم تنكمش حقاً في غيابه ولم تصغر) نظر إلى عمه محي الدين وفكّر أن الحاج لم يعد شاباً. ليس هذا فقط: نظر إلى عمه فرأى الشيخوخة دبّت فيه كقطيع نمل فمحت ملامح وجهه القديمة. كيف شاخ في هذه الأعوام القليلة؟ كيف ابيض رأسه؟ كيف تهدلت رقبته؟ وإذا سعل الآن حسبت أنه سيتساقط أمام عينيك، يتهاوى ككومة حجارة، كحبّات مسبحة انفرطت على الأرض.

خرج عبد المجيد تحت الرذاذ الأصفر الحزين. قطع الأزقة ينتقي الأسواق المسقوفة بالقبب، مخترقاً الدهاليز والساحات، منحدراً صوب المرفأ. المطر يُرسل فيه ذكريات. وخطوته تغدو بطيئة. مع أن الدم يتدفق في جسمه. لا يطيق القعود. كل عمره هكذا. يحبّ السير والركض والركوب. لا يحبّ الجماد. وسبحانه لا يحبّ الجماد. أسرع خطاه وقطع «الفشخة» ورأسه تبرم صوب «حارة البارودي» بالقرميد الذي ارتفع فوق الصبّار. مع أن الصبّارات هناك عملاقة. لم يرَ صبيراً كصبيرات سرسق إلاّ في جزر إيجه. أسرع نازلاً في سوق القطن ورأى الندّافين يجرّون أكياساً ثقيلة ويتراجعون إلى داخل المتاجر المظلمة. هذا المطر الذي يُباغت السوق، ثم ينقطع فجأة! وهاجمته رائحة ثوم وملوخية، ورائحة خل قوية، فتذكر المرحومة عمته. وذكر ذلك اليوم البعيد حين مرّ عليها

وأخبرها أن شاهين نازل في دمشق وأنه سيعود إلى البلد هذا الصيف. وشعر بالحزن وهو يستعيد صُفرة وجهها. واستغرب حزنه. وقال إنها هذه الأمطار السوداء. وذكر قعوده مع عمه وقال إنه هذا القعود مع عمه في البيت المملوء سجاداً وكآبة وصوفاً. وأخذ نفساً عميقاً، ملأ بالهواء الرطب البارد صدره. ونفض صوفاً عالقاً بعباءته من بيت عمه. وقفز فوق بركة وحل، ثم قفز فوق برك ماء، كأنه يقطع جزراً بساقين طويلتين، مثل العمالقة الذين يسكنون خيال الأطفال... والقفزات المتوالية أرسلت في قلبه فرحاً. تخفّف من أحزان بعيدة. وتسلق الدرجات المبلولة إلى المصطبة أمام «محطة الشام». (يذكر سهلاً عند سفح حوران، ويذكر شجر السنديان يعبر سريعاً تحت حبال المطر وهو يسأل نفسه كيف سيخبر شاهين الآن أن زوجة أبيه الجديدة الحلبية قد توفاها اللّه. كان يضحك والسماء تصحو وتزرق وهو يلقي في جوفه حبوب الحمص الأخضر المشوية، ويفكّر أنه ـ من بين الأخبار الكثيرة التي نقلها ـ لم يتسلَ أبداً كما سيتسلى بهذا الخبر: ابن عمته لا يعرف أصلاً أن أباه عبد الجواد تزوج أخيراً حلبية! أبو شاهين رجل ولا كل الرجال. لا يبرم عبد المجيد ظهره ويخرج من البلد إلاّ ويسمع أن الرجل قد تزوج مرة أخرى! هذه الحلبية النصرانية لم يدرِ بها ابن عمته بعد. شاهين مع الطفّار الدروز يكمنون في الشعاب والأودية، يتصيدون عساكر إبراهيم باشا كالطرائد، ولا يعرف عن البلد إلاّ ما ينقله ابن خاله. وعبد المجيد قال في سرّه: أقول له ماتت خالتك ماتت زوجة أبيك ثم أسكت! وتخيّل شاهين يقول حرام، اللّه يرحمها أم زهرة. وتخيل نفسه يعبس ويقول: ليس أم زهرة، النابلسية بخير وما زالت تطبخ وتعجن وتخبز وتملأ ثوبها، لم تمت، زوجة أبيك الجديدة ماتت، ألم أخبرك أنه تزوج نصرانية من حلب؟)

لم يجد الحاج عبد الرحيم في المطعم. مع أن ابن عمته قال إنه سينتظره في المطعم. وأخبره يوسف منيمنة (يظل أزرق الوجه هذا الرجل، يُقال إنه دُفِن حيّاً في منسف ثلج في جبال أفيون قرة حصار، ولج الجليد فمه وعينيه وأنفه ودبره وثقب ذكره، ثم سحبه الجنود، ومنذ ذلك الوقت وهو هكذا، لا يدفأ!) أخبره أن الحاج نزل لحظة إلى المرفأ، وسيرجع.

عبد المجيد وقف في المدخل ينتظره. عبر أغصان الياسمينة رأى البحر البعيد ورأى السفن الثلاث الراسية. لم يعد البحر يُرى جيداً من هنا. سدّ نصفه خان الصايغ. وسدّته هذه العنابر السوداء. كأنها محروقة هذه العنابر. وهذا المطر يزيدها سواداً. عَبَر الساحة تحت المصطبة فتيان يتراكضون ويتدافعون ويضحكون تحت الشتاء. ثم انفصل عن الجماعة أربعة أو خمسة وصعدوا الدرجات صوبه. ألقوا التحية فهزّ رأسه. وتعرّف بين الوجوه على وجه أيوب الصايغ، قريب ابن عمته: لا يعرف ابن من هو، ابن واحدة من الأخوات الثلاث. وانتبه أن هذا الفتى يشبه آل البارودي، لا يشبه آل الصايغ. أصحابه ينفضون الماء عن شعورهم وهو يقف منتصباً جامد الوجه ويتكلم مع أحد الأحباش الواقفين في الداخل، وراء صفّ المناقل والصواني وصدور القش. لا يبتسم ولا يعبس. ويبدو واثقاً من كلماته. أما المطر الذي يقطر من ثوبه ورأسه فلا يضايقه.

واستدار عبد المجيد ورجع يراقب باب المرفأ والسفن الراسية. تعرّف على باخرة المساجيري الفرنساوية من الراية المرفوعة وتعرّف على الباخرة «ليفربول» الإنكليزية من الثياب المنشورة على جنبها. ليست ثياباً: هذا قماش خيم، ينشرونه هكذا على جنب السفينة ليغسله الموج: بأملاح البحر يُطهره. لم يعرف هوية الباخرة الثالثة.

البحر غير صاخب. يبدو كبركة راكدة، رمادية اللون. لكن

المطر لا يكف عن التساقط. ورأى سرب خواجات وتجاراً فرنجة يعبرون بشمسيات بيضاء وخضراء وحمراء ويتجهون نحو سوق القطن.. كانوا يتكلمون، ثم سكتوا وهم يعبرون بالبناطيل والكبابيت تحته، وهزّوا الشماسي والرؤوس فرفع يمناه وباعد بين أصابعه. وتذكر عبد المجيد عندئذٍ أنه عاش مثل هذه اللحظة من قبل في سالونيكا: هو يقف تحت شرفة منزل محتمياً من الأمطار، وتجار يعبرون تحت المظلات وهم يرفعون الصوت ويتجادلون، ثم يسكتون أمام نظرته المتفحصة ويهزّون الشماسي (يرفع الواحد شمسيته قليلاً، بالعصا الثقيلة الخشب، ثم يرفع ذقنه أيضاً). وهو يرفع يده ويباعد بين الأصابع. حين يعبرون يُسبل ذراعه ويبقى جامداً هكذا، وبعيداً. (مع أنه لا يطيق القعود ولا يطيق الوقوف ويحبّ الركض والحركة... لكن عند تساقط الأمطار، وإذا كان داخل مدينة، يهوى الوقوف في زاوية والمراقبة.)

أطلّ الحاج عبد الرحيم البارودي وخلفه حبشي قصير. مع ظهوره بدا أن المطر يتحول رذاذاً خفيفاً. القطرات يصغر حجمها، والحبال تغدو خيوطاً نحيلة، وتتقطع. أوشكت أن تصحو. مع أن الغيوم تغطي السماء بالظلمة. ومع أن الموج يُفقس في عرض البحر، يُفقس بيوضاً متجاورة، غير متباعدة، ويُنذر باقتراب عاصفة. لعلها تصل هذا الليل.

سكت الصخب وراء ظهره وانقطع المطر.

*

من «محطة الشام» الدافئة مضى الرجلان إلى «خان التوتة». الدهاليز تقطر. والأشجار تقطر. لكن المطر انقطع. البضائع تخرج إلى أمام الدكاكين من جديد، وبقع زرقاء تبين في السماء هنا وهناك

وتتفتح كالجروح. ثم خرجت الشمس. ورسمت قوس قزح فوق البحر. بدا قوس القزح معلقاً فوق السفن الثلاث. وبان قوس قزح آخر، على مسافة منه، كالقنطرة فوق الكرنتينا. طرف هذا القوس بدا غارقاً في الخليج. ثم غاب القوس الملون وراء حوانيت الطين. الحوانيت هنا تتلاصق. هذه «قناة الجديدة». بانت مع قدوم الحلبيين. الديريون انتشروا في الجهة الأخرى من المقابر. جاؤوا قبل الحلبيين واختاروا الجانب المرتفع. يخافون من الطوفان. معهم حق. كل سيول رأس النبع تصبّ في هذه السهلات.

عند حافة المقابر بانت قواقع البزاق. ما إن تطلّ الشمس حتى تظهر. وحتى بلا شمس تظهر. يكفي أن ينقطع المطر حتى تخرج من بطن التراب. تزحف بليدة، سمينة، بيضاء ورمادية وسوداء.

قال الحاج عبد الرحيم إن الوالي يُشكل الآن فرقة من المتطوعين، لن يفرض الخدمة الإلزامية على أبناء البلد، لكنه يطلب متطوعين. السفينة في المرفأ. والفرقة تسافر بالبحر حين تكتمل.

أزّ النمل الطيّار أمام الوجوه. فرقع الهواء الرطب. لكن شعاع الشمس ظلّ دافئاً. برك الأمطار بدت عيوناً تحدق إلى السماء.

قال الحاج عبد الرحيم إن هذا الوالي يحبّ اللعب بالكلام، ليس أكثر، وبدأ يطلب من التجار مالاً، وسيفرض ضريبة على الطربوش. ويريد أن يُرسل «الفرقة البيروتية» منفصلة عن جيش الدروز. لئلا يُقال في الآستانة إن هذه الفرقة أرسلها القائمقام، ولم يُرسلها هو. كارثة هذا الوالي.

توقفا عند دكان الترمس والبزور. صاحب الدكان يعرف الحاج أبا حسين، والحاج يحبّه. بنات الرجل يعملن في معمله. صاحب الدكان ليس من حلب، لكن زوجته حلبية. جاوز الستين، وعند

نزوله في البلد قبل أعوام، كان مريضاً. حُمَّ في رحلة الهروب من حلب إلى حماه إلى دمشق إلى هنا. أصله من دمشق. وأراد أن يبقى عند أقارب. لكن الأقارب بدوا كأنهم تضايقوا منه. عائلته كبيرة: عنده تسع بنات. المكان لا يتسع لهذا العدد من البنات. ثم إن بناته كالسعادين، الواحدة منهن رفيعة كالقصبة الممصوصة، ووجوهن شنيعة، يراها الولد الصغير فينفجر بالبكاء. حمل الرجل بناته وأغراضه وقال إلى بيروت. الحلبيون ينزحون إلى هناك، وهو ينزح إلى هناك. على الطريق حُمَّ. كانت القافلة تقطع صحراء بعلبك عندئذٍ فتخلوا عنه خوفاً من العدوى. تركوه. نزل بين الآثارات مع بناته، وبقي ينام على الحجارة يومين. ثم عبرت قافلة أخرى وحملته مع عائلته إلى «سهلات البرج». كانت «السهلات» أقل بيوتاً وحوانيت في ذلك الوقت. لكن الرجل المحموم لم يرَ شيئاً من ذلك. جاء رجال وساعدوا بناته ونصبوا للعائلة خيمة. حين شُفي الرجل عثر على قبوٍ تحت بيت ناس من دير القمر. الناس ـ مثله ـ نزحوا إلى «السهلات» قبل سنين هرباً من النار والدم. عاش عند آل البستاني ـ في القبو ـ سنةً، ثم بنى بيته. غرفة طين مستطيلة لا يعرف الحاج عبد الرحيم كيف تسعه ساعة النوم مع بناته الكثيرات. يبيع ترمساً وبزوراً محمصة، وثوبه كل الوقت نظيف. الثوب ذاته. لكنه دوماً نظيف. وحديثه حلو. وعنده دراية بالطب العربي. يأخذ يدك بين أصابعه ويتلمس الشرايين ويضغط العروق فيرتاح رأسك أو يزول ألم فخذك. لكنه لا يقبل أن يأخذ مالاً. لا المال ولا الهدايا. لا يقبل. حدثت معه قصة قبل زمن بعيد. لكنه لا يُخبرك ما هي هذه القصة. في داخل الدكان الضيق فرشة، ينام عليها أحياناً ساعة العصر. كريمٌ بالترمس. ليس بخيلاً أبداً. والأولاد يعجقون الطريق أمام دكانه. اسمه موسى. لكن الكلّ ينادونه «عمّي بو مطرونة».

مطرونة بنته الكبرى، لا تشتغل مع أخواتها في معمل المنسوجات. تبقى في البيت، تكنس وتُرتب وتطبخ. ولا واحدة من بناته حظيت حتى الآن بزوج. مع أنهن عفيفات.

«عمّي بو مطرونة» قال للحاج عبد الرحيم إن عمر كان قبل قليل هنا، وكان يسأل عنه. مرّ على الخان ولم يجده. مرّ على المطعم ولم يجده. مرّ على حانوت التبغ ولم يجده. (الحانوت أصلاً مقفل منذ ثلاثة أيام. لا يريد عبد الرحيم أن يبيع التبغ الباقي عنده. يُخزنه إلى نهاية موسم الأمطار، وعندئذٍ يرتفع سعره، يتضاعف ثلاث مرّات، أحياناً يتضاعف خمس مرّات! وقبل سنة تأخرت القوافل بسبب الثلوج والانهيارات على الطريق بين الشوف والمتن فصار البيروتيون يقولون عن حامل الغليون إنه يبلع ذهباً لا دخاناً). عمر مرّ على المعمل ولم يجده. مرّ على البازركان ولم يجده. مرّ على الجامع ولم يجده. يصل إلى المطعم يقولون: «ذهب إلى الخان». يذهب إلى الخان يقولون: «الآن مضى إلى المعمل». يذهب إلى المعمل يقولون: «قبل لحظة مشى الحاج، وإذا ركضت تلحقه، الآن الآن فات من الدركاه». لكن عمر لم يجده. منذ الصباح وهو يسأل عنه.

والحاج عبد الرحيم استغرب لهفة عمر على لقائه: لماذا يبرم البلد بحثاً عني؟

ثم إن استغراب الحاج أخذ يتضاعف دكاناً بعد دكان بعد دكان. كل لحظة يوقفه شخص من معارفه. عطّار، بائع كعك، فرّان، حلاّق، حدّاد، أو حتى متبطل لا يرد له في العادة سلاماً. كل لحظة يعترض دربه رجل ليخبره أن أخاه عمر يسأل عنه، ويفتش عليه: ما هذا؟ لم يترك أحداً بالبلد إلاّ كلّمه وسأله عني؟

وعبد المجيد الفاخوري ضحك في البدء. وصار كلّما التفت إلى هذه الجهة وتلك ورأى رجلاً يخطو على الوحل مقترباً بخطى واسعة، حَدَسَ ماذا سيقول الرجل من قبل أن يفتح فمه.

والحاج عبد الرحيم قال: اللّهم اجعله خيراً.

لكن عبد المجيد الفاخوري تذكر بيوض الموج في عرض البحر. وتذكر السفينة الغامضة. وانتابه إحساسٌ سيئ. يعرف هذا الشعور. يعرف هذه الكهرباء. ولا ينتظر الآن خبراً طيباً من عمر.

ـ اللّهم اجعله خيراً.

الحاج عبد الرحيم كان ذهنه في حالٍ مختلفة. خاطرة غريبة عبرت مخّه ثم استقرت في صدره كالإلهام. لم يتوقع خبراً مكرباً. توقع عكس ذلك: أخي عثر على عقله أخيراً، بإذن اللّه هذا ما يريد أن يخبرني به. سوف يتزوج!

*

لكن القارئ يعلم ما يريد عمر: عمر يبحث عن أخيه لكي يودعه.

هذا الصباح، قبل أن ينهمر الرذاذ، دخل إلى القشلاق وتطوع في «الفرقة البيروتية».

القُـرم

هؤلاء ذهبوا إلى القُرم(*): محمود اللبان، رستم إدريس، رمضان عيتاني، مصصفى خليل الفاخوري، موسى سنو، مصباح بيهُم، حليم فتح اللّه، عبد الرزّاق المغربي، يوسف المغربي، عبد الفتاح المغربي، سعيد المغربي، فرحان المغربي، أحمد الحاج العريسي، عمر البارودي، صالح بشير العود، علي العود، سعد الدين جابر، محمد جابر، فؤاد بحصلي، خليل بيروتي، عرفان قدورة، كركر إياس، فضل اللّه قاسم، عز الدين قاسم، عمر قاسم يموت، محي الدين قاسم يموت، يوسف النصولي، عبد الكريم محي الدين النصولي، سلامة النابلسي، عز الدين يحيى، عبد الودود يحيى، جليل الجرّ المقدسي، بلال الجرّ المقدسي، أحمد خليل نعيم، عبد الجواد الدنا، عبد الرحمن منيمنة، عارف منيمنة، كمال الدين الفشخة، بلال الفشخة، سليمان محمد الفشخة، حسن

(*) قامت حرب القُرم بين السلطنة العثمانية وروسيا في 1853. دخلت بريطانيا وفرنسا الحرب على الجانب العثماني سنة 1854. ثم تبعتها مملكة سردينيا. انتهت الحرب سنة 1856 بسقوط سيفاستوبول. قُتل فيها ربع مليون روسي، وما يقارب هذا العدد من الحلفاء الترك ـ الإنكليز ـ الفرنسيس ـ الطليان. («الموسوعة البريطانية»، الطبعة الحادية عشرة، 1911).

عبد الرحمن النحاس، عبد الباسط عبد الباسط الندّاف، أحمد عبد اللطيف النداف، يوسف حمادة، معز الدين بيرم، عبد الباقي حلاّق، إبراهيم كاصد بيروتي، مصطفى بيروتي، عثمان سلامة، نعمان سلامة، رضوان حلبي، سيف الدين بلطجي، إبراهيم بلطجي، سعد اللّه شاتيلا، حمدان اللبابيدي، عمر غزيري، عبد اللّه غزيري، محمد قاسم الداعوق، عبد الحميد الجمل حمادة، لطف اللّه الجمل حمادة، عبد الكريم الصيداني، حسين عبد الصمد، ناصر الدين طليع الدويك، شرف الدين الدويك، أبو علي ناصيف ماضي، حميدان نقوزي، نور الدين قباني، أمين الدين صفدي، زهر الدين مرعي، تقي الدين مرعي، إلياس صعب، عمر كبول، جمول كبول، موسى عطية، حمزة شهاب الدين، حيدر ماضي، كنج نور الدين، خاطر نور الدين، حبيب لطفي، حسين لطفي، قرقماز الحصّ، محمد الحصّ، نجران عبد الحق، إسماعيل الغرّا، ناصيف شلق، ظاهر أبو مطر، درويش سيف، دعيبس البربير، محمد بيضون عبد النور، سهيل كعكي.

هؤلاء رجعوا: عمر البارودي (رجع سنة 1857)؛ عبد الكريم محي الدين النصولي «الصقعان» (سنة 1858)؛ محمد قاسم الداعوق (سنة 1860)؛ محمد الحصّ «المقروم» (سنة 1861).

من «الفرقة البيروتية» كاملةً (90 رجلاً) لم يرجع إلاّ هؤلاء الأربعة.

الباقون ضاعوا بين نصف مليون قتيل لا تذكر المصادر التاريخية أسماءهم.

*

الباخرة العثمانية التي حملتهم من ميناء بيروت إلى البحر الأسود:

لم تكن باخرة حقيقية. كانت سفينة قديمة خماسية الصواري جرى تحويلها إلى باخرة بمراجل ودوّاسات بخارية. في نصف الطريق، في أول الطريق، قبل جزيرة قبرص، انفجر المرجل واختفت الطاقة البخارية! عندئذٍ رُميت أثقال الفحم الحجري في البحر ونُشِرت القلاع كلّها على الصواري: رجعت الباخرة، عند ساحل قبرص الشمالي، سفينة شراعية.

هبّت عواصف طوروس فتجمدت المياه في براميل الماء. السفينة اهتزت. وعمر البارودي اختنقت أنفاسه في بطن السفينة المزدحم بالرجال. عدد لا يُحصى من البشر! مَنْ كل هؤلاء! هذه ليست «الفرقة البيروتية» وحدها! يسمع لهجات لا تُحصى! فِرق لا تُحصى، وكلّها تلتم كالفئران، في جوف هذه السفينة التي تقطع البحر وتبدو على وشك التفكك والغرق تحت الماء. ثلاثة أيام وهو ينام في الظلام ويفتح عينيه في الظلام. ثم دخلوا خليج انطالية وسكن الموج. بات الجو دافئاً. لعلها الأنفاس تخنق الجو. لكن الكوّة العالية فُتحت والنور دخل عارماً مملوءاً بذرّات الغبار والشمس والهواء النظيف.

بعد انطالية طابت الرحلة. نصف الجنود نزلوا إلى البرّ؛ والسفينة الخفيفة الآن انزلقت على وجه البحر. في نصف يوم بلغت رودوس. رست هنا. رُفع إليها ماء الشرب النظيف واللحم المقدد والطحين. ثم نشرت القلاع من جديد. الريح شرقية، ثم شرقية شمالية. هذا نادر في هذا الوقت من السنة. في هذه البقعة من البحر المتوسط. هذه إشارة من اللّه. الرحلة ميمونة. وابتهج عمر. ليس كرفاقه. لا يدوخ بالبحر. حتى ولو أكل هذا اللحم الجاف المالح لا يدوخ. ويتسلق الصارية وينظر إلى بعيد، ويرى أسماك القرش تدور حول السفينة.

دخلوا بحراً يعجّ بالجزر.

ـ أهذا البحر الأسود؟

قالوا له لا، هذا إيجه، بحر اليونان الكبير.

أبحروا بمحاذاة الساحل، وبانت ساموس، الجزيرة ذات الأبراج. ثم بانت مدينة عالية الأسوار، تخفق فوقها الرايات، وتحلق أسراب الحمام... لم يرَ هذا العدد من أسراب الحمام أبداً! كأنها تملأ السماء! مثل الجراد! وسمع صخباً عظيماً. ما هذه المدينة الضخمة؟

سأل ما هذا البلد؟

قالوا هذه إزمير، لا ترى من هنا إلاّ طرفها.

بعد جزيرة خيوس المغطاة بكروم العنب، دخلوا مياهاً هائجة يكثر فيها السمك المكهرب.

سألهم أهذا البحر الأسود؟

قالوا لا، هذا أيضاً إيجه، على مهلك، سنصل إلى «كارا».

سألهم ما هذه «كارا»؟ جزيرة نبيذ أخرى؟ جزيرة خمرة وعنب؟ أم جزيرة عشب وأغنام؟

ضحكوا وقالوا لا، «كارا» اسم البحر الأسود، «كارا» معناها الأسود، ألا تعرف التركية أبداً؟

قال إنه عرف عدداً من التركيات.

كانوا على ظهر السفينة، يستدفئون بأشعة الشمس، يأكلون مشمشاً مجففاً، ويتبادلون القصص والأخبار. قبل أن يبلغوا شقاً بين الجبال بانت مدينة أخرى عالية الأسوار، وتحت أسوارها بساتين توت. حين بانت ضحك ابن الشيخ بشير العود (لعل في عائلة العود

أكثر من عشرة أشخاص حملوا عندئذٍ هذا الاسم: بشير. . . أحد أكثر الأسماء شيوعاً بين دروز القرن التاسع عشر.) وضحك رفاقه في «الفرقة البيروتية»: هذه المدينة على البحر، محضونة بأشجار التوت، تشبه بلدهم! ليست بيروت. لكنها تشبهها!

حملتهم السفينة عبر الدردنيل إلى بحر مرمرة. كان الوقت ليلاً. لم يرَ عمر البارودي المضيق. عند الصباح بانت استانبول.

*

لكن قبل أن تظهر مآذن اسطنبول، قبل أن تبين قبب سنان باشا المعلقة من ضباب ذلك الصباح الشتوي البعيد، قبل أن يتدافع أبناء «الفرقة البيروتية» بين الصواري وأكوام الحبال وبراميل الخشب، قبل أن تتسع العيون وتنفتح الأفواه عن أسنان بيض وصفر وأخرى يُسودها السوس، قبل أن يُصعق عمر البارودي بمنظر المدينة التي طالما سمع عنها القصص والأخبار، قبل أن يقف كالبرج بين رفاقه محدقاً إلى مدينة المرحوم شاهين التي رآها في المنامات مرة تلو مرة وتخيلها في الصحو مرة تلو مرة فإذا بها الآن أوسع من الخيال (ألا تنتهي هذه المدينة؟ وكيف تعربش مآذنها إلى السماء؟ وهذا الجامع العملاق هل يطفو على وجه الماء؟ وأين أعمدته وأساساته، وكيف تلمع الشمس على قببه هكذا وهي مغطاة بالغيوم؟)، قبل كل هذا، قبل أن ينزع عمر ثيابه ويطلع إلى حافة السفينة مستعداً للغطس في الماء والسباحة إلى اسلامبول يطلب أن يراها بيتاً بيتاً سوقاً سوقاً ساحة ساحة جامعاً جامعاً (والإنكشارية يقولون لا، لا لن تنزلوا هنا، صحيح أننا وعدناكم بليلة راحة على البرّ قبل أن نخرج من جديد، قبل أن نكمل الرحلة بالبوسفور إلى البحر الأسود إلى القُرم الملعون، صحيح أننا وعدناكم، لكن المركب الذي جاء بالليل وأنتم

كالثيران نيام، المركب حمل خطاً شريفاً، هذا ليس «كلخانه خط شريف»، لكنه مع ذلك أمر صريح، ليس «التنظيمات الخيرة» التي ستجعل السلطنة قوية من جديد، أقوى من دول الإفرنج كلّها ستكون، انتظروا تروا، والمرسوم، لا، المركب الذي أتانا ليلاً وأنتم نيام، يأمرنا ألا ننزل في البلد، ممنوع النزول، هل تبغون ذلك أكثر منا يا بقر؟ هنا بيوتنا، هنا الحريم والبنون، والمخدات التي تعرف شكل رؤوسنا، هنا الفراش الوثير تحت الجسم، وهنا النافذة نمدّ منها الرأس الدافئة فنرى القمر في السماء ونرى الغيوم ونرى نور القمر على البوسفور، هل تبغون الراحة ونحن لا؟ كلّنا نطلب الراحة، لكن هذا وقت الجهاد. لن تقف السفينة هنا، إلى كارا إلى كارا، إلى القُرم إلى القُرم! وأنت أيها المارد إلبسْ ثوبك من جديد، إذا قفزت إلى الماء أقدح رأسك بهذه البارودة، إلبسْ!)، قبل أن يتراجع عمر البارودي نازلاً إلى بطن السفينة مع رفاقه، قبل الخيبة على شط البوسفور، قبل كل هذا ماذا جرى في تلك الأيام الطويلة بين بيروت واستانبول؟

*

في البداية، أثناء أيام الظلام الثلاثة، راوح عمر البارودي بين طلوع وهبوط. معنوياته تلعب به. لا يطيق ضيق هذا المكان. لا يحبّ المكان الضيق. الكوّة العالية يدخل منها نورٌ شاحب، ولا تُرى منها السماء. هذه ليست الكوّة عند أستير. ذكر أساور أستير. وذكر ساعة رحيله. وسأل نفسه هل أخطأ؟

الولد خالد ابن زهرة لحق به إلى المرفأ يحمل لفّة كبيرة تحت إبطه. لحق به وتعلق بساقيه ثم انتبه أنه لم يعد ولداً صغيراً كأخوته الصغار فأفلت ساقي العملاق، عمّي العملاق، خالي العملاق،

أفلت ساقيه وتراجع. كان وجهه مختضاً، وقال:

ـ ستّي أم زهرة تقول لك، ستّي تقول لا تركب البحر يا عمر، لا تركب البحر، البحر غدّار الواحد يضيع بالبحر، الواحد يضيع وراء البحر. ستّي تقول بيتك هنا وأهلك هنا وأخوك هنا وكل الذين يحبّونك هنا فلا تذهب، ابقَ، ابقَ!

عمر البارودي طبطب على الرأس الصغيرة بشعرها الأسود الغزير. وقال إنه مضطر، القُرم...

قال: «مضطر، القُرم...». وسكت. ما ينفع الكلام الآن؟ هل يسمع الولد خالد كلمة واحدة في هذا الضجيج؟ الرجال يتراكضون والبحارة يتراكضون والحمّالون يتراكضون والأهالي يتراكضون. صراخ وهتاف وعويل والمواعين تسقط عن الأرصفة والمراكب تهوي إلى الماء في دوي، والغيوم تتراكض، البلد كلّه يركض، وما هي إلاّ لحظات ثم تغيب بيروت، تغيب بيروت.

وقال الولد:

ـ ستّي قالت أن أعطيك هذا إذا كنت لن تبقى.

وأعطاه اللفّة.

في بطن السفينة المظلم فكّ عمر اللفّة والتف بصوف الخروف. حين بدأ البرد، تلك الليلة، شكر ربّه على هذا الصوف. جسمه الضخم لا يحميه من برد. بالعكس. هذا ما يكتشفه الآن ـ بعد فوات الآوان ـ يكتشف أن برد البحر، في هذا القبو المظلم، يقتله قتلاً. كلّه عضلات، كلّه عضلات من السباحة، لا توجد على عضلاته نقطة شحم واحدة! بلا شحم كيف يدفأ! لن يدفأ. عضلاته مملوءة شعراً دقيقاً، مملوءة بالأعصاب الرفيعة، ورؤوس الأعصاب تلتقط من الفضاء كل ذرّة برد، كل ذرّة صقيع... لا يلمس الهواء

البارد جلده إلاّ وتمتصه هذه الأعصاب اللعينة. تمصّه وتسحبه إلى النخاع الشوكي. كيف لا يبرد! لو كان عنده شحم! الشحم يغطي العضل ويغطي العصب فلا يشعر الواحد بالبرد!

اكتشف عمر البارودي ببطن الحوت أن الجسم يبرد. يبرد بعيداً من البلد. يبرد بعيداً من بيروت. مع هذه الزحمة الخانقة، مع كل هذه الأجسام التي تكبسه من الجهات الأربع، مع كل هذا الهواء العطن المخنوق (رائحة الهواء بن، هذه السفينة كانت محملة بزكائب البن!)، مع كل هذه الحرارة الفظيعة، حرارة الزريبة والماشية المكومة بعضها على بعض، مع كل هذا يشعر بالبرد في عظامه... وهو الآن ما زال في بحر بيروت. فماذا يصنع إذا بلغ البحار البعيدة؟ وماذا يعمل إذا بلغ جزيرة الجليد؟

تذكر قارورة التين المطبوخ (هذه من خالته أم هند) ففتحها وغمس أصابعه فيها وأكل. طعم التين الحلو المعقود بالقطر مع سمسم وجوز ولوز، طعم السكر ردّ المعنويات إلى جسمه. التف بصوف الخروف جيداً، وأكل التين الطيب، واسترد دفء البلد. ارتفعت معنوياته وأخذ يتخيل سيفاستوبول البعيدة والسفن تطلق المدافع وقنابل المدافع تقع في الماء، لا تقع على سيفاستوبول، هذه هي المشكلة يقولون، المشكلة الصخور في المرسى! المدينة بعيدة، المرسى في هذه الجهة ضيق صعب، والمرسى الآخر يحرسه أسطول البحر الأسود الروسي. هذا أسطول ضخم جبار، إذا صفّوا سفنه صفاً رأيت السفينة الأولى عند برّ الروس والسفينة الأخيرة بعد اسطمبول، بعد البوسفور وبحر مرمرة وبعد الدردنيل، السفينة الأولى تحت سيفاستوبول والسفينة الأخيرة في بحر إيجه، عند جزيرة خيوس، يقولون. هذه هي المشكلة، المرسى صعب، والسفن عاجزة عن الاقتراب أكثر، والقنابل لا تصل إلى الهدف. وإذا حاولت

السفن أن تدنو هاجمها الروس من تحت الماء. يسبحون كالسلمون تحت الجليد، عندهم أساليب غير معروفة، ويملكون البارود الصيني البحري، يحرقون بطن السفينة، والباخرة تغرق... لكن الإنكشارية يعدّون الآن العدّة، هم أيضاً عندهم غطّاسون مهرة، ولن يربح الروس، سبحانه معنا، ليس مع الكفار الروس، اللّه يُنصر السلطان.

عمر البارودي يأكل التين المطبوخ فتدفأ عظامه ويرى السفن تدنو من القلعة العالية على الصخور السوداء. يرى قلِعة ويرى برجاً يُقال إنه كقضيب خيزران يطلّ على البحر الأسود كلّه! ويرى أيضاً ـ والنعاس بدأ يثقل الجفنين ـ حارة قرميد أحمر تتعالى، ترتفع فوق صبيرات سرسق، وتبقى ظاهرة للعين بينما البلد كلّها تتلاشى في المسافة، تتبدد في ضوءٍ برتقاليٍ قاتم وتغيب!

*

اعتاد أن يفتح عينيه وهو راقد. يرى أبناء «الفرقة البيروتية» وقد التمّوا في حلقة، ليس كلّهم، بعضهم، يلتمون في حلقة، ويكسرون الخبز ويشربون الماء ويتكلمون. نور القمر ينزل من الكوّة فيقع في مركز الحلقة. وهم يتحومون حول دائرة النور كأنها نار صغيرة في البرّية. يفتح عينيه ثم يغمضهما ملتفاً بصوف الخروف. يشمّ رائحة الصوف الأليفة ويسمع قصصهم. هذه القصص تُنقذه. من دونها كان سيفقد عقله محبوساً في هذا القمقم المخيف.

القصة الأولى رواها شرف الدين الدويك من كفرنبرخ بجبل الشوف: في الجرد قرية يعيش أهلها من تربية الأغنام. الكولونيل الإنكليزي شرشر بيك عنده ضيعة قريبة، ضيعة اسمها بحوارة اشتراها بماله حين نزل الإنكليز بالبلد سنة 1840. القرية حيث تجري أحداث القصة تطل على وادٍ عميق. في أعماق الوادي نهر أبيض المياه.

وهناك الكلأ الأخضر الكثيف. إلى تحت تنزل قطعان القرية. وعند ضفة النهر، حيث أطيب الأعشاب وأطراها، تحدث المشاكل.

في القرية عائلتان كبيرتان، عائلة درزية وعائلة مسيحية. ربّ العائلة الدرزية الشيخ صالح عنده عشرة أبناء يرعون طرشه وخرافه. ربّ العائلة المسيحية عنده عشرة أبناء أيضاً، ومثل هؤلاء يرعون ماشية أبيهم.

شرشل بك جلب طيور النعام من الصحراء، لا ندري من أين جلبها، لكنه عمل مزرعة «تحت»، مزرعة لهذه الطيور الطويلة الساقين، تشبه الدجاج والحجل والعصفور، لكنها عالية، جاحظة العينين، وإذا باضت نزلت البيضة منها بحجم البطيخة الصغيرة، أكبر من شمّامة. هذا البيض يُشبع. وفي برد الجبل يملأ الجسم دفئاً. تأكل بيضة فتشبع ثلاثة أيام. بيضة بلا زيت، بلا قورمة، بلا سمن، تأكلها مسلوقة في قدر ماء، تقشرها وتأكلها فتشبع ثلاثة أيام، ولا يبرد جسمك أبداً. هذا بيض النعام. كله شحم. كأنه لحم، ليس بيضاً!

أبناء الشيخ صالح عثروا على خمس بيضات في دغل القصب. الدغل بعيد من المزرعة. كيف وصلت البيضات إلى هناك؟ كل واحد حمل بيضة وطلعوا إلى أبيهم الشيخ. الشيخ غضب عليهم. كبيرهم قال:

ـ وحياة الحدود الخمسة لم نسرقها. وجدناها في الغابة، بين القصب.

الشيخ أجابه:

ـ الآن تأخذونها إلى شرشر بيك. لن يُقال إن أبناء الشيخ صالح حرامية.

حملوا البيضات وانحدروا إلى الوادي. تحت التقوا الأخوة الخمسة الذين ظلوا هنا ولم يصعدوا إلى البيت (يتداورون على رعاية القطيع. ونصفهم ينام الليل تحت، لئلا تضيع الماشية). والأخوة الخمسة قالوا إن الرعاة هناك، في الجهة الأخرى من النهر، عثروا أيضاً على بيض نعام.

عند العصر التقت القطعان والأخوة العشرة تكلموا مع الرعاة العشرة الآخرين. تكلموا عن البيض. ووسط الحديث اتهم أحد الرجال واحداً من العائلة الأخرى بقلّة الأدب.

الآخر ردّ إنه يقول هذا له لأنه بلا مخّ.

رجل ثالث، وهو الأخ الأصغر لأحد الاثنين، قال: «أنت ناقص العقل وناقص الدين».

بعد ذلك تشابكوا. لم يطلق أحد ناراً من غدّارة. تشابكوا بالأيدي وتدحرجوا على ضفة النهر. العشرة ضد العشرة. ثم التقط أحدهم رأساً وحطمها على صخرة نابتة جنب النهر. ارتفع الصراخ. هرع إلى الوادي رجال من الجانبين. وتدخل المصلحون.

تلك الليلة، والقمر ينير السماء وينير القرية وينير الوادي وينير النهر في أسفل الوادي وينير المرعى الخالي من المواشي (مع أن المرعى لا يخلو من الماشية حتى ليلاً في هذا المناخ الصيفي الجميل)، وقف الشيخ صالح في ظلّ شجرة التوت، وسمع البكاء يتعالى من الجانب الآخر وسمع الحداء... من هذه النقطة، عند كتف الوادي، يرى كل شيء. لكنه الآن لا يرى إلاّ الظلام. عيناه أعتمتا. لم يمت له ابن. لكنهم هناك يرفعون الحداء. لن يسكتوا. مات لهم رجلٌ، دمه ساح في مياه النهر، كيف يسكتون؟

أبناء الشيخ صالح العشرة صاروا لا يتقاسمون الدور في حراسة الماشية. ينزلون إلى الوادي معاً. ويطلعون معاً. ولا يقربون العائلة الأخرى ومواشي العائلة الأخرى.

إذا اقتربت الأبقار من هناك ابتعدوا بأبقارهم وأفسحوا للآخرين المرعى.

أصواتهم خافتة الآن، أبناء الشيخ صالح العشرة، وهم يعدّون الرؤوس هناك، ويرون أنها لم تعد عشرة. صارت تسعة. يعلمون أين الرأس المفقود. الصخرة النابتة بين العشب ما زالت مصبوغة بالسواد. النهر رجع أبيض.

جاء مصلحون من آل عبد الصمد. ودُفعت ديّة عن القتيل. مرّت الأيام. انقضى الصيف وحلّ الخريف. بدا أن القصة انتهت. ثم ظهرت بيوض النعام من جديد. ليس في دغل القصب فقط، ولكن في الجلول عند السفح أيضاً. والكولونيل شرشل بيك قال في بتاتر ضاحكاً إن طائر النعام لا يميل إلى الإنكليز: الطيور تهرب وتفرّ في الوادي، تتزاوج في الأحراج، وتبيض للدروز والموارنة... لم يبقَ عنده طيور!

والكلّ ضحكوا. الرجل المقتول نُسي أمره. الخلاف يحدث في أي لحظة، لأي سبب. وليس أسهل من أن تقع رأس على صخرة. أو يغرق ولد في النهر. تدابير اللّه هي. والحياة تستمر. جاء الشتاء وغطّت الثلوج القرية. هجعت المواشي بالزرائب وهجع الناس بالبيوت. ثم ماتت ريح الشمال. وظهرت الشمس. انفجرت رعود الربيع، فخرجت من بطن الأرض الينابيع. اعتكر النهر وفار. وظهرت المواشي من جديد. الدنيا في فرح. والزهور تملأ الأشجار. البراعم الخضر تفتح العين ولا تدعك تنام مستلقياً في

ظلال الشجر. تنظر ولا تشبع. تشرب حليباً وتأكل خبزاً وكشكاً وزيتاً وبصلاً وترعى الخراف. حياة طيبة. وفي الصيف يغدو الوادي كأنه الجنّة.

الشيخ صالح استعاد قلقه برجوع الصيف. كأن الطقس يُحرك مزاجه. لكن الأبناء قالوا لا تقلق، صرنا نتكلم معهم ويتكلمون معاً، ليس كثيراً، كلمة من هنا، كلمة من هناك، ولكن الحال أفضل، لا تقلق، ثم أننا دفعنا الذهب، لا تقلق. والشيخ صالح كان يراهم يطلعون إليه، والعرق يلمع على وجوههم، فيهدأ قلبه. على العشاء يأكلون الخبز واللبنة والجبنة والحليب وبيض النعام المسلوق. كل قُرى الجبل تأكل هذا البيض الآن. النعام ملأ الوادي. يصعب التقاطه. والناس لا يصيدونه. سريع هذا الطائر. أسرع من الأرنب. ثم إنهم لا يصيدونه من أجل شرشر بيك. هذه طيوره في النهاية. وهم يأكلون البيض ويبتسمون. يجدون البيض في الجلول، بين شتلات الكوسى، تحت أشجار الجوز، عند مدخل الزريبة، على عتبات البيوت، في زوايا البساتين... ويضحكون. كأنك عثرت على كنز. تكون مغتماً أو متعباً أو قانطاً وبينما أنت هكذا ترى بيضة بيضاء ـ رمادية منقطة بالأزرق تغمز لك غمزاً عند حائط الدكّ، أو من تحت شجرة التفاح، أو جنب القبو. يضحك قلبك عندئذٍ. وتهرع إليها وتلتقطها. فإذا وجدتها ثقيلة ـ لم يثقبها فأرٌ ويشرب بياضها وصفارها، لم يثقبها ثعبان، لم يثقبها قنفذ! ـ تضاعفت فرحتك. هذا عشاء أربعة أيام أو خمسة. والأولاد الصغار يحبّون منظر البيضة العملاقة.

أبناء الشيخ صالح يُرسلون إليه من الوادي الحمار محملاً بكيسٍ. والكيس مملوء بيضاً.

ينادون عليه من تحت، فيخرج من البيت العقد الطويل ويمشي

إلى حافة الوادي وينظر: يرى الحمار طالعاً إليه ويرى أولاده العشرة في الأسفل يُلوحون. ويضحك. يقود الحمار إلى أمام البيت ويُنزل الكيس المملوء بيضاً عن ظهر الحمار. ثم صاروا لا يصرخون من تحت لأنه أحياناً ينام ساعة القيلولة. والحمار بات يعرف الطريق. يأتي وحده إلى أمام الباب محملاً بالكيس الثقيل، هذا الجراب الجلد المملوء بيضاً أو فاكهة أو خضراً. يقف الحمار هنا وحين يتعب ينهق ويوقظ الشيخ من نومه. الحمار حمار.

قام الشيخ يرتب العباءة على جسمه. ومشى صوب الحمار. كان يفرك عينيه ويحسّ بلسعة البرد. الشمس تغرب وأولى أنفاس الخريف تملأ الجو. الحمار ينهق ثم يسكت. والشيخ صالح يبتسم: الكيس مملوء. ما زال ناعساً من القيلولة الطويلة. في المنام سمع أصواتاً بعيدة ولم يفهمها. كأنها نداءات من القاطع المقابل. يحبّ ساعة النوم عصراً بعد الغذاء. أجمل من نومة الليل. يُسمي قيلولته «تعسيلة». كالعسل حلوة هذه النومة القصيرة، يقول.

مدّ يده في الجراب يتلمس بيض النعام. ويرى حجمه. انتبه أن البيضات ليست ملساء بل متربة، كأنها رقدت في الوحل. انتبه أنها أكبر من العادة. ما زال ناعساً. سعل. فخرَّ البلغم في صدره. جذب بيضة من أعماق الكيس، أخرجها إلى النور. لم يرَ في يده بيضة. رأى رأساً! أخرجها رأساً بعد رأس. كل أولاده. عشرة رؤوس.

*

القصة الثانية رواها أحمد الحاج العريسي. رواها بعد تعليق من عمر قاسم يمّوت على القصة الأولى. عمر قاسم يموت (أحد أقاربه عن جهة أمه سارة الداعوق لن يلبث أن يتزوج فاطمة البارودي ابنة أم هند. لكن عمر قاسم يموت لن يعرف أبداً هذا الخبر. مع أن

خبراً مثل هذا يهمّه بالتأكيد: رأى إحدى بنات البارودي مرة، أمام مدرسة الأميركان. كانت تقطف زهور الربيع أمام القشلاق فأحسّ أن الأنامل الناعمة تقطف قلبه من بين أضلاعه. لكنه ذهب إلى القُرم. هل تطوع؟ كلا، لم يتطوع. أخذوه من الطريق. ثم جاء أبوه قاسم وزاره بالقشلاق ورأى رأسه المحلوقة وربّت على كتفه. كلّه جهاد في سبيل اللّه، والواحد لا يقدر أن يهرب من خدمة السلطان. هذه الخدمة الإلزامية، لهذا يسمّونها الإلزامية. الأب قال للابن لا تسوّد وجهنا، كل أعمامك جاهدوا في المورة في بلاد اليونان والبلغار، كن مؤمناً تقياً، لا تخف من أحد، ساعدك قوي تلطم ثوراً تصرعه. وقلبك قوي. عمر قاسم يموت باس يد أبيه وحمل البارودة. ليس خائفاً أنه ذاهب إلى القُرم. لكنه يشتاق إلى البلد. وهذه القصة التي يرويها الشيخ الدويك لا يحبّها. الشيخ صوته بليد، ثم إنه يروي عن قرية في الجبل من دون أن يُسمّيها. لماذا لا يُسمّيها؟ لعله قلب القصة كلّها. لعل الرجل الآخر، الأب الذي لا يخبرنا اسمه أبداً، هو الرجل الذي قُطعت رؤوس أولاده العشرة، وليس هذا الشيخ صالح! عمر قاسم يموت في جميع الأحوال ضايقته هذه القصة الدموية. وما زاد ضيقه أنه لم يرَ أبداً هذا البيض العملاق الذي يبيضه النعام. ثم إن ذكر البيض يذكره بستّه لأن ستّه تحبّ البيض. تقلي البيض للكل بالماء، لأنها بخيلة، لكنها له هو ـ حفيدها المفضل ـ تقلي البيض بزيت الزيتون، بالسمنة الحموية، أو حتى بالقاورمة. يحب قطع اللحمة ممزوجة بالبيض، يلتهم اللقمات ساخنة، ويشرب معها لبناً. لكنه الآن حبيس هذه السفينة. من أين له أن يأكل بيضاً مقلياً ويشرب لبناً الآن؟ عمر قاسم يموت لا يشعر بالراحة. وإذا ذكر أيامه في بيروت أراد أن يبكي. هل يرجع إلى بلده؟ يشعر أنه لن يرجع. عمر قاسم يموت ليس مخطئاً. إحساسه

صادق. اسمه ليس بين العائدين. تلقى تحت أسوار سيفاستوبول صخرة. هشَّمت الصخرة رأسه. غشيت الظلمة عينيه.)

*

عمر البارودي سمع القصة الثانية (قصة العريسي) في الليلة الثانية.

قال العريسي إنه سمع القصة من أبيه مرة، ومن جدّه لأبيه مرة أخرى. سمعها من الأب ثم من الجد. لكن جده هو الذي عرف الوالي بطل القصة. لأن الوالي نزل في البلد، في بيروت، قبل زمنٍ بعيد.

الوالي كان بطّاشاً. لم يكن والياً على بيروت. كان والياً على صيدا. في ذلك الزمن البعيد كانت بيروت مثل القرية الصغيرة. وكانت صيدا مدينة كبيرة. لكن الوالي كان يحب أن يجيء إلى بيروت في فصل الخريف للصيد في غابات الأشرفية وبرج حمود. كان يترك قصره في صيدا ما إن تظهر طيور الوروار في السماء ويأتي إلى بيروت. يجيء مع الفرسان والصقور التي تصيد. وينزل في معسكر في سهل الدورة المزروع بالتوت. سهل طويل عريض، تعرفونه، ما زال مثلما كان، آلاف الأشجار الخضراء، القزّ يرغب ورقها الطري، وبين الأشجار بيوت القزّ. كان يضرب مخيمه هناك ويصيد الغزلان والثعالب والنمور. ذات خريف، بينما يطارد غزالاً، رأى فتاة، بنت من بنات البلد تقطف توتاً، ترمي ثمر الهزّاز الصغير الأبيض في السلّ، وتغني. رأى البنت ورأى إسوارة ذهب تلمع في رسغها. أحبّها وأراد أن يأخذها زوجة على ذمة اللّه ورسوله.

سألها من تكون، ما اسمها، وأين أهلها. يريد أن يعرف أين الوالد ليطلب يدها.

تكلمت فعرف أنها ليس بنتاً. كانت امرأة. عندها رجل. عندها زوج. ورأى محبس الزواج في إصبع يدها.

سألها عن زوجها، أين هو؟

دلّته.

ذهب الوالي إلى الزوج وقال «زوجتك! تطلقها أم أقتلك؟»

طلّق الزوج المرأة.

أخذها الوالي إلى قصره في صيدا. القصر مملوء بالزوجات والجواري لكنه تولع بهذه المرأة البيروتية وحدها. ملأ ذراعيها ذهباً، وأخذ الإسوارة القديمة ومحبس زواجها القديم ورمى الإسوارة والمحبس في البحر. كانت الأوساخ تطفو هناك، لكن الإسوارة غرقت، والمحبس غرق، لأن الذهب ثقيل، لا يطفو على الماء، ليس خشباً، يغرق.

ثم إن الوالي تعارك مع ولاة آخرين. والولاة أوغروا صدر الباب العالي وقالوا هذا الوالي الذي تحبّه في صيدا وتقول إنه عزيز عليك كابنك يسرق مالك، يسرق خزينة الدولة، لا يُرسل مع القوافل إلى الآستانة إلاّ نصف المال الذي يجنيه من الخوّات والضرائب وتجارة صيدا والسناجق المجاورة، هذا الوالي لا يهتم إلاّ ببطنه وشهواته، وعنده امرأة يُقال إنها أجمل امرأة في بلاد الشام، حَبَسَها في برج حجر وأثقلها بالذهب الأصفر لئلا تهرب.

والصدر الأعظم أرسل إلى الوالي في صيدا رجلاً فارسياً قاتم الوجه يسمّونه كاوة السيّاف. هذا قاطع رؤوس. لا يتقن لا التركية ولا العربية، فلا تؤثر فيه شفاعة أبداً، ولا تضايقه كلمات الرجاء.

أتى إلى صيدا ـ قطع على الفرس الأناضول والشام وجبل

لبنان ـ ونزل في صيدا والشمس تغرب وراء قلعة البحر. حضر أمام الوالي حاملاً السيف. هذا سيف الباب العالي، مسلط على رقاب الولاة جميعاً. مقبض السيف يحمل الختم الشاهاني. لا أحد يقدر أن ينزعه من يد كاوة السيّاف. حضر أمام الوالي وأعطاه كتاباً. فضّ الوالي الكتاب وقرأ الرسالة. أمامه ثلاثة خيارات:

1 ـ يُطلّق المرأة ويُرسلها هدية إلى الوزير الأعظم مع صندوق مملوء ذهباً. ويبقى والياً على صيدا.

2 ـ يقطع رأس المرأة ويُرسله هدية إلى الوزير الأعظم في صندوق مملوء ذهباً. ويبقى والياً على صيدا.

3 ـ يأخذ امرأته مع صندوق ذهب واحد ويترك صيدا ويترك الولاية على صيدا ويحضر إلى القرية النائية الفلانية في جبال البلقان وينزل فيها مدى الحياة، في المزرعة الفلانية، حيث الأرض صخر، والماء قليل. يحيا هنا مع امرأته يزرعان الأرض ويشكران اللّه على النعمة. أما صندوق الذهب فيسلمه فور وصوله إلى صاحب العساكر في القرية المذكورة.

نهاية الرسالة ـ قبل الختم الرهيب الذي يعرفه ـ عبارة عن جُمل غامضة يقول فيها الصدر الأعظم إنه يفعل هذا كلّه لأن الوالي عزيز على قلبه. مع كل الخيانة، مع كل السرقة، يبقى عزيزاً على قلبه. وكاوة السيّاف لا يعرف لغة البشر لكنه يعرف أن يعدّ الأصابع. لكل خيار رقم. إذا رفع الوالي إصبعاً، أو إصبعين، أو ثلاثة، يفهم السيّاف اختياره ويساعده على تنفيذه. إذا رفض الاختيار، يقطع كاوة السيّاف رأسه ويقطع رأس زوجته ثم يحمل الرأسين إلى «دار السعادة». بعد هذه الجُمل رأى الختم المشهور: ختم رفعت باشا.

الوالي رفع ثلاثة أصابع. ثم أنزل إصبعاً. ثم أنزل إصبعاً آخر.

ثم رفع إصبعين. ثم ثلاثة أصابع من جديد. ثم قبض يده. ثم رفع إصبعاً. ثم. . . برق السيف برقة سريعة. وتدحرج رأسه.

*

القصة الثالثة رواها معز الدين بيرم بعد تعليق على القصة السابقة من أمين الدين صفدي.

ابن الصفدي قال إن الصدر الأعظم أعطى السيّاف أمراً واحداً في جميع الأحوال: أن يقطع رأس الوالي ويحمل المرأة والذهب إليه.

هلال الفشخة تكلم فقال إن السيّاف كاوة تضايق من تردد الوالي، من الأصابع التي ترتفع ثم تنزل، ولأنه تضايق قطع رأس الوالي.

قال معز الدين بيرم إن قصة والي صيدا ذكّرته بحكاية تُحكى عن والٍ بالأناضول. هذا الوالي لم يبدأ حياته والياً. كان في البدء فلاحاً. حفر وراء بيته بئراً ليسقي زرعه ففاضت البئر بعد أيام. جاع وأكل العشب كالماعز حتى أوجعه بطنه. مضى ليعمل في المدينة. عمل في دكان حدادة ثم صنع سيفاً قاطع الشفرة وقتل صاحب المدينة. صار غنياً وأرسل إلى السلطان مالاً فعيّنه والياً. وحين جاء أبناء القتيل إلى القصر يبغون قتله (بعد أن دفعوا للسلطان أموالاً أكثر) هرب مع صناديق مملوءة بالذهب والفضة والجواهر. خاف وهرب إلى بيته القديم لكنه خاف أن يأتوا ويسرقوا الذهب فأفرغ الذهب كلّه في البئر الناشفة وراء البيت.

جاءت امرأته وقالت «جوعانة».

قال خذي من البئر ذهباً، اكمشي كمشة وروحي إلى المدينة وهاتي لنا حنطة لنخبز، وبيضاً لنأكل، واشتري سمناً وعسلاً ولبناً،

واشتري تفاحاً، ولحماً نشويه، واشتري حلاوة طحينية لنحلي ضرسنا.

فأخذت المرأة الذهب ونزلت إلى البلد ولم ترجع.

ظلّ ينتظرها حتى غربت الشمس ولم ترجع. قعد عند حافة البئر، ينظر إلى الذهب يتلون بالأحمر، وينتظر. لم ترجع. جاع فقام يفتش الصناديق والخزائن والبستان اليابس وتحت الفرشات عن شيء يؤكل فلم يجد ما يأكله. نظر إلى البستان الأسود وقال لو أستطيع أن أروي هذه القُرمات بالذهب بدلاً من الماء فتخضر وتبرعم وتزهر وتورق وتثمر. لو! وكانت الشمس ما زال فيها قوة، لم تغرب تماماً بعد، فضربته على مخّه.

الهواء ساخن هنا، عند البئر المملوءة بالذهب، فدخل الهواء الساخن في مخّ الرجل. فَسُدَ عقله. حمل دلواً وغرف تبراً وسقى بذهب البئر أشجار حقله. كوَّم الذهب حول القُرمات فشعّت أشعة الشمس على الذهَب ولمعت على الدنانير. توهجت العثمليات بالحرارة وأحرقت القُرمة. احترق الحقل الأسود كلّه. وأبناء القتيل رأوا عمود الدخان وجاؤوا. أخذوا الذهب كلّه. فصلوا رأس الرجل عن جسمه. رموها في البئر التي رجعت فارغة.

*

عمر البارودي لم تضايقه الرؤوس المقطوعة. تسلى بالكلمات في الظلام. كانت العبارات تأخذه من بطن السفينة ـ محدقاً إلى عمود القمر النازل من الكوّة ـ وتمضي به إلى أماكن خضراء نائية. الرؤوس المفصولة عن الأجسام لم تضايقه.

القصص ذكّرته أن العالم أكبر من هذه السفينة، أوسع من هذا الوقت الضيق. امتلأ أملاً. وحين ذُكرت البنت البيضاء، المرأة

البيضاء التي تقطف توتاً، خفق قلبه. وحين قال الشيخ صالح لأولاده لن يُقال إن أولادي حرامية، خفق قلبه. وحين روى عبد الباسط عبد الباسط النداف قصة الأخوين الصيادين الطرابلسيين ابتسم، ابتسم وذكر وجه أبيه عبد الجواد وتمنى لو يراه بعد مرة واحدة. ولطف اللّٰه الجمل حمادة قال إن قصة عبد الباسط عن الأخوين الصيادين في طرابلس تشبه قصة أخرى جرت حوادثها في يافا: أخوان يبيعان السمك في السوق تعاركا وتضاربا. بقر أحدهما بطن الآخر بالسكين وهرب من البلد. هرب إلى القدس.

عاش عناك وقتاً ثم هرب إلى عكا ثم هرب إلى صفد ثم هرب إلى طولكرم. وفي النهاية نزل في الجليل، أرض سيدنا عيسى عليه السَّلام، على ضفة بحر طبرية. عبرت أعوام كثيرة. وذات صباح صاد سمكة وفتح بطنها فوجد في بطنها خاتماً: يعرف هذا الخاتم، هذا خاتم أخيه.

بكى الرجل وقال إن الأسماك أكلت أخاه في بحر يافا. ولم يفهم كيف وصل السمك بالخاتم إلى هنا، لأن بحر طبرية ليس بحراً بل بحيرة، ولأن طبرية لا تتصل مع يافا ومع البحر الكبير بأقنية الماء. استغرب الرجل هذا وقرر أن يذهب إلى يافا. لأنه ما عاد ينام الليل من الهم والقلق.

ذهب إلى يافا فوجد البلد قد تغيّرت، ولم يعرف أين بيته وأين السوق حيث كان يبيع مع أخيه السمك. البلد لم تكبر في غيابه بل العكس. اجتاحها الطاعون الأسود فقتل نصف أهلها. ثم جاء الجنود وأحرقوا البيوت وأحرقوا الجرذان التي تملأ الطرقات لئلا تنتقل العدوى إلى البلاد المجاورة.

مشى الرجل في يافا يسأل الناس الذين يطرشون البيوت بالكلس

ويزرعون أشجار البرتقال من جديد، يسألهم عن أخيه.

قالوا نذكر أخوين تعاركا مرة، وواحد بقر بطن الآخر وهرب من البلد، بلى، لكن ذلك جرى قبل زمنٍ بعيد، على أيام آبائنا.

والرجل حاول أن يقول للناس لا، هذا جرى قبل سنوات قليلة، عشرة أعوام هي، ليست أكثر، وهذا أنا، والرجل المبقور أخي.

الناس لم يفهموا كلامه. فالطاعون أفسد عقولهم. لكن الرجل وجد أخيراً صديقاً قديماً: وجد رجلاً من أقاربه يعمل في معصرة السمسم.

والرجل عرفه وقال بلى، أنت فلان ابن فلان الفلاني كيف لا أعرفك، أذكر وجهك، كيف لا أذكر، وأذكر أيضاً حين تعاركت مع أخيك وضربك بالسكين ببطنك وهرب من البلد، كيف لا أذكر؟ ألست أنا من حملك إلى البيت؟ وبعد أن شُفيت من الجرح في بطنك ألم تأتِ إليّ أنا وتخبرني أنك لا تقدر على النوم والأكل والشرب وأنت لا تدري أين ذهب أخوك! أذكر، بلى أذكر. الطاعون أخذ ربع دماغي، أخذ نصفه، لم يأخذه كلّه. سبحان اللّه كيف نجوت منه. أذكر البيضة السوداء تحت الجلد، هنا، على رقبتي، كنت ألمسها بأصابعي، وحين كبرت البيضة صرت أختنق. ولساني اخضرَّ رأسه ونبت عليه شعر. كيف نجوت لا أعلم. بسم اللّه الرحمن الرحيم. أهلي ماتوا وأنا لم أمت. وها أنا كما تراني أعصر السمسم وأعيش. لكن أنت، أنت يا ابن عمي، ماذا جرى لك، هل وجدت بعد خروجك من يافا، هل وجدت أخاك؟ أخبرني، أخبرني كل شيء...

*

الرؤوس تقترب من مركز الحلقة، والرجال يدنون ويجلسون حيث استطاعوا. من ينام في هذا البحر المضطرب؟ في هذه الزحمة؟ البعض جاء من صور، البعض من حيفا، ومن غزة ودير البلح وخان يونس. ثلاثة أخوة أتوا معاً من قياسرة وثلاثة آخرون من بيت جبرين. رجل قصير من أريحا، وآخر بطول المارد من نابلس، وثالث من صحراء النقب. هذا الأخير اسمه سيد، لكن الكل يسمّونه جحا. تعال يا جحا، اذهبْ يا جحا، ويضحكون. وهو يضحك. كل حياته يحيا في البادية، يرعى ما يرعى، يحلب ما يحلب، يأكل ما يأكل، يشرب ما يشرب. لقطوه وهو يعبر على حافة الرمل، حلقوا شعر رأسه، وأعطوه البزة النظامية. لا يخاف من أحد. حتى من الإنكشارية لا يخاف. أنا منكم الآن، يقول، ويضرب عقب البارودة على جنب السفينة. ويبتسم. ينام جنب «الفرقة البيروتية». وصار يعتبر نفسه صديقاً للعملاق عمر وصديقاً لعبد الكريم. (هذا عبد الكريم محي الدين النصولي، أحد الأربعة البيروتيين الناجين من حرب القُرم.)

البدوي سيد يستيقظ من النوم لاهثاً، مبلولاً بالعرق، فاغر الفم، كلما نام ساعة. يرى في المنام أنه في قعر حفرة في صحراء بيضاء. ويرى الناس في الأعلى يضربون المعاول في الأرض، يزيحون الأرض. يرى جسمه يُطمر. التراب ينزل ثقيلاً على فخذيه، وعلى بطنه. يريد أن يصيح، أن يقول لست ميتاً، لكن الصوت يختنق في فمه. يكتشف ـ والعرق ينزل في عينيه ـ إنهم سدّوا فمه بالقطن. ظنّوا أنه مات وسدّوا فمه بالقطن. الريق يبلّ القطن وهو يختنق. (بعد وقتٍ قصيرٍ ينجو «سيد» من هذا الكابوس: بينما ينزلون على شط سيفاستوبول يزلق بين الصخور ويغرق.)

*

في إحدى الليالي اقترب من الحلقة رجل يتلفع بكوفية قاتمة. لا يظهر من وجهه غير العينين. بدا مرتبكاً. ثم قال إنه هو أيضاً عنده قصة، ويريد أن يرويها. أفسحوا له. جلس وبدأ يحكي. (هل كان الوقت ليلاً؟ لم يعد الوقت يعني شيئاً في هذا المكان. الدخان والأنفاس صنعا قشرة سميكة على زجاج الكوّة العالية. لماذا يضعون للكوّة زجاجاً؟ لئلا يدخل البحر؟ لكن عمر لا يخاف البحر. يخاف أكثر هذه النار التي يشعلونها في برميل: ماذا لو خرجت النار من البرميل وأحرقت بطن السفينة؟ يخاف النار. لا يخاف البحر).

قال الرجل إنه سمع هذه القصة من أحد عجائز القرية. عمر البارودي، الذي طالما جلس أمام «محطة الشام» وسمع المكّارين أهل القوافل يتكلمون، ميَّز لهجة الرجل الملفع بكوفية: هذه لهجة بقاعية، بقاعية لكن ليس زحلاوية؛ لهجة أهالي بعلبك، يعرفها، يعرف كيف يلفظون مخارج الحروف. قال الرجل ـ في تلك اللحظة ـ إنه من شمسطار، قرية صغيرة فيها تفاح خارج بعلبك. قال إن اسمه إسماعيل عزيز، لكن اسمه لا علاقة له بالقصة التي سيرويها. قالوا له: «إحكِ، هات القصة، إحكِ!» فحكى:

ـ رجلان أخوان نزلا إلى النهر لجلب الماء. ليس نهراً كالنهر في القصة التي حكاها الشيخ الدويك. ليس نهراً. مثل ساقية. أو جدول ماء. هناك نبع عند شجرة جوز، ومن النبع ينزل الماء... نذهب إلى رأس النبع ونملأ جرار الفخار. النساء أيضاً يذهبن. لكن المكان بعيد، وراء الكروم. نذهب بدلاً من النساء. وإذا كان النبع يفور، إذا كان الماء قوياً، وصلت المياه في الجدول إلى الوادي تحت بيت الرجلين. الرجلان الأخوان يميلان إلى الكسل، لكن الكبير ليس كسولاً فقط، بل قليل الحيلة أيضاً. يحبّان المباطحة واللعب بالعصي والسيوف. لا يحبّان نقب التراب وزراعة الشعير.

في ذلك الصباح نزلا إلى النهر الصغير يحملان الجرار ويغنيان، أحدهما ـ هذا الكبير ـ عنده ناي، عنده أكثر من ناي، لكنه يحمل الآن الناي الطويل. إذا خرج الصوت منه جاءت العصافير. بلغا النهر فوجدا في النهر جثة رجل. هذا شؤم. ماذا يصنعان؟

قال الصغير نحمله ونأخذه إلى صاحب العسكر في بعلبك.

الكبير قال لا، الإنكشارية إذا رأونا ندخل البلد مع جثة ظنوا فينا الظنون. وقد يُرمى بنا في الزندان. لا. تعال نذهب من هنا، قال الكبير.

لكن الصغير لم يقبل. الكبير يدعى عباس. الصغير يُدعى محمد. الصغير محمد قال والنبيّ لن أذهب من هنا إلاّ وهذا الميت على ظهري. الكبير عاركه، باطحه، لبطه في بطنه. لكن الصغير صار كالتيس. ركب رأسه.

قال الكبير اذهبْ، إبليس يأخذك!

الصغير محمد حمل الميت. شاله على رقبته، كان قاسياً كالحطب، وسار من شمسطار إلى بعلبك. كل عائلة هذا الرجل تيوس. مشهورون بالعناد في قريتنا. الآن تغيّروا. صاروا أطيب القوم. لكن في ذلك الزمن، زمن القصة التي أحكيها كما أخبرني إياها أحد عجائز القرية، في ذلك الزمن القديم كانت رؤوسهم كالصلد، تقرع عليها بيدك فتسمع رنيناً. محمد التيس فكّر أن صاحب العساكر قد يُنعم عليه بعثملية. هذا الميت يبدو وجيهاً. ثوبه ممزق، لكن قماش الثوب ثمين. ليس هذا فلاّحاً. هذا من الأعيان. قتله واحد وسرقه. ولا بدَّ أنه مفقود الآن وأهله يبحثون عنه. ولا بدَّ أن عندهم ذهباً. ولا بدَّ أن الوالي أيضاً يبحث عنه. هكذا فكَّر محمد. حمل الميت ودخل بعلبك. الجنود أحاطوا به. لم يتضايق.

تركهم يأخذونه إلى الوالي. كان يظن أن الوالي سيقابله. الوالي لم يقابل محمد. الجنود رموا محمد في الزندان بقلعة بعلبك تماماً مثلما قال الأخ الكبير. هذه قصة محمد. بقي في الزندان حتى بانت العظام من جسمه. حتى أكل جلده البرغوث. يعطونه كسرة خبز أو شربة ماء وينسونه. ثم جاؤوا وأخرجوه وحلقوا رأسه، حلقوا الشعر الطويل الطويل، وألبسوه بزّة كهذه البزة التي نلبسها وقالوا له اذهبْ. لم يذهب. أين يذهب. أحاطوا به مرة أخرى. وصار يقطع الجبال معهم ويقطع السهول وينزل الوديان وكل الوقت يفكّر في أخيه عباس وفي بيته وفي قريته وفي شجرة التين (تثمر تيناً أسود عسلاً) وراء بيت أبيه. رأى أن البعض يُقيد بالحديد. هؤلاء محابيس، قالوا له، ليسوا جنوداً مثلك ومثلنا. نحن عساكر السلطان، اللّه ينصر السلطان، أما هؤلاء المساكين فمحابيس! حين بلغوا السهول من جديد رأى مدينة عجيبة بمآذن كلّها أسواق وبضائع ودهاليز وقبب وجوامع وكنائس وناس يركضون. داخ وهو يعبر المكان العجيب. ثم حملوه إلى سفينة. قالوا من هنا، فمشى كما قالوا. وأخذوه بالسفينة إلى وراء البحر. ومنذ ذلك الوقت وأخوه قاعد عند ساقية شمسطار يعضّ أصابعه ويقول الحق عليَّ أنا، أنا قلت له اذهب، اذهبْ إبليس يأخذك، الحقّ عليَّ أنا.

ومحمد ذهب إلى وراء البحر. حارب وراء البحر. كان قوياً، سريعاً، رفيعاً. مع إن السجن جعله يلهث إذا ركض. في الحبس بات صدره ضيقاً. لا يقدر أن يركض طويلاً الآن. نَفَسُه يخرج منه ويتبخر. أضلاعه مكبوسة.

سكت الرجل الملفع بالكوفية فقالوا:

ـ إحكِ، إحكِ يا اسماعيل، ماذا حصل لمحمد وراء البحر؟

ظلّ الرجل ساكتاً. بدا مرتبكاً كما بدا مرتبكاً في البدء، وهو يهمّ بالحديث.

وضحك أحد البيروتيين. (هذا نور الدين قباني، متوقد الذهن، عيناه تبرقان، ولا يعلم أن حتفه ينتظره بعد عام، تحت أسوار سيفاستوبول. صمد عاماً تحت الأسوار، رأى دورة الفصول. عند الهجوم يهجم، لكنه لا يهجم في المقدمة. يركض قبل الجميع، ثم ينزل في خندق، وينتظر حتى يسبقه الآخرون قفزاً وعدواً. بعد ذلك يخرج ويزحف، ليس في المقدمة، بل وراء الجميع. هذه خطته. وإلاّ يموت. القنابل تحصد حصداً. وكذلك الخردق الكثيف. ينبطح إذاً وينجو. ينجو وذات يوم يرجع إلى بيروت ويقول لأهله وأصحابه ماذا تكون حرب سيفاستوبول، حرب القُرم الملعون. يقول في نهارٍ واحد قُتل حولي وفوقي ألف رجل. دُفِنت بالجيف دفناً. ونصفهم جرحى ينزفون، من كل فتحات الوجه ينزفون. ومن البطن ينزفون. ومن الظهر أيضاً. سبحت بالدم. لكنني نجوت... عام كامل وهو يزحف بين الموتى ويرى وجوه أموات يسبحون تحت قشرة الجليد.. خطته أن يبقى حيّاً. هذه هي خطته. دارت الفصول ولم يُقتل بعد. وكلّما ألقى رأسه لينام بعد معركة قال الحمد اللّه ورضى اللّه ورضى الوالدين هذه أمي الحجّة تدعو وتصلي لي. دارت الفصول، وهجموا من جديد. كان يزحف ويقفز ويزحف. ثم رأى أحد أصحابه وكرشه قد وقع خارج بطنه. يتلوى كدودة، يموت. تجمّد فزعاً لحظة. في تلك اللحظة الوجيزة شعر ببرد في ظهره، عند الكلية اليسرى. لحظة وجيزة. لكنه أدرك الحقيقة. أصابوه. كيف؟ بالخردق؟ بالرمح؟ بالسيوف؟ كيف فتحوا لحمه؟ لم يبلغ جواباً. انطفأ دماغه كشعلة قنديل. غمرت الظلمة عينيه.).

ضحك نور الدين قباني وقال إن المسكين إسماعيل لا يعرف نهاية القصة بعد.

استداروا صوبه يسألونه ماذا يقصد. الرجل المتلفع بكوفية، الرجل الذي قال إنه يدعى إسماعيل، استدار هو أيضاً إلى نور الدين قباني. بدا دامع العينين، وهزّ رأسه:

ـ صحيح، لا أعرف بعد.

الوجوه استدارت صوبه. وهو أزاح كوفيته:

ـ أنا محمد. اسمي محمد. أنا الأخ الصغير. حملتُ على ظهري ميتاً، فحملني الميت إلى هنا!

أثناء «أعوام القُرم» تحول هذا الرجل النحيل إلى أحد أقرب أصدقاء عمر البارودي. هو وعمر وعبد الكريم باتوا ـ تحت أسوار سيفاستوبول ـ أعزّ الأصدقاء. صاروا يُسمّونهم «الشوام الثلاثة»، و«الثلاثة الشوام»: عمر البارودي، عبد الكريم النصولي، ومحمد عزيز.

*

قصف المدافع يُسمع الآن. السفن كثيرة في البحر. المياه رمادية، وحين تصحو السماء يغدو البحر أزرق. مثل بحر بيروت. مثل بحر قبرص. مثل بحر كريت. ليس أسود اللون هذا البحر، فلماذا يسمّونه الأسود؟

عمر البارودي يرى سفناً سوداً آتية، وبواخر ذاهبة. ويرى الرايات تخفق على الصواري. استانبول غابت كما غابت بيروت. والإسطول يجري إلى تخوم السلطنة العثمانية، إلى حيث لا يذهب أحد. هناك أرض الضباب. جزيرة الجليد. هناك القلعة السوداء العالية سيفاستوبول. عمر يرى الرايات وينتبه أنها رايات الإنكليز

والفرنسيس. أين رايات السلطان؟ الإنكشارية، رفاقه الجدد، يقولون إن الأسطول العثماني غرق كلّه، غرق في معركة واحدة، أحرقه الروس. لولا بواخر الإنكليز والفرنسيس والطليان تنتهي الحرب هذه الساعة.

عند بدء الحرب، يخبرونه، كادت عساكرنا أن تحتل سيفاستوبول. أبراج القلعة متداعية، وحيطانها متداعية. حراسها ليسوا كثراً، وبنادقهم قديمة. مرّات تنفجر القساطل بين الأيدي، يصابون بالعمى، أو يُقتلون. حراسها كانوا قلّة. والقلعة أطلال قلعة كانت، لم تكن قلعة. لكننا تأخرنا. كان علينا أن نهجم. لم نهجم. والقيصر أرسل المؤن إلى القلعة. وأرسل ضُباطه الكبار. وأرسل الجحافل من موسكو البعيدة. الطريق من العاصمة، من قلب بلد الموسكوب إلى هذا الساحل، إلى القُرم النائي على شط البحر الأسود، طريق طويلة. طريق صعبة، تعبر صحاري الجليد، ويموت فيها الحصان برداً. الأنفاس تتجمد على منخاره وبوزه فيموت. أرسل جيشاً من نصف مليون رجل. ثلث الجيش مرض على الطريق. مع أن الروسي يلبس الفرو ويقضي عمره في الثلج. الواحد منهم يسبح وهو طفل في الجليد. ومع هذا يمرضون. ويموتون مع البهائم على هذه الطريق. أنوفهم تحمر وماء العينين يتجمد ويموتون.

لو هجمت عساكرنا قبل وصول التعزيزات كانت راية آل عثمان تخفق الآن على أطلال سيفاستوبول. لكننا تأخرنا. ثم إن القراصنة الروس أهلكونا. يقصّون جلود عجول البحر من الرقبة إلى البطن ويلبسونها ثم يسبحون حتى السفن تحت جنح الظلام. يتسلقون بطن السفينة ويذبحون الحراس. يشعلون النار في الأشرعة ويفرّون. أهلكنا الروس. هؤلاء الغطّاسون عجول البحر.

الإنكشارية يسكتون. وعمر البارودي يتخيل ما سيكون. لا يدري ماذا يتوقع لكنه يتخيل نفسه يصارع الغطاسين. هم بحارة مهرة. وهو كذلك. أين يصارعهم؟ تحت البحر؟ المدافع تهدر. بعيدة، لكنها مسموعة، ويرى ما يشبه الشهب والنيازك، توجّ بعيداً بعيداً، وراء الضباب والغيوم.

ها هم يدخلون الضباب. الآن لا يُميز وجوه أصحابه. الآن لا يرى إلاّ الرايات الملونة تخفق في الضباب. ألوان حمراء وزرقاء وخضراء وصفراء تُذكِّره بجوارب «العوالم» في السوق العمومي، تلك الجوارب الصوف.

الهدير يزداد قوة، يتواصل، لا يتقطع الآن. النخاع بدأ يجمد داخل العظام. هذا الضباب البارد! هذا الصمت ـ كصمت القبور ـ حلّ بغتة على ظهر السفينة! كأننا عبرنا سوراً سرّياً خفيّاً وولجنا أرض الموت. أين رفاقه! نظر عمر البارودي حواليه فلم يرَ أحداً. رفع يده فلم يرَ أصابعه. الضباب أخفى العالم عن عينيه. شعر بالارتباك. لم يخفْ. لم يُصبْ بالذعر. لكن الضباب أربكه: أين أنا؟

ثم أحسّ ريحاً تهبُّ وتصفع وجهه وتصفع جنبه. رفع يده وأخفى الأذن تحتها. هواء قارص. أذنه تؤلمه. لكن الهواء ـ لحسن الحظ ـ أبعد الضباب. انزلق الضباب يفور كالحليب ويتدحرج في كتلٍ وتلال على صفحة البحر. ورأى عمر من جديد وجوه رفاقه. رأى الوجوه وقد غيَّرها الضباب. كأن هذا التماس الوجيز مع البياض الكامل قد سحب اللون ـ سحب الدم كلّه ـ من الوجوه. نظر إلى رفاقه فرأى الوجوه صفراء، ورآها زرقاء، لم تعد كما كانت قبل لحظة. وشعر بالخوف. لكن مع ابتعاد الضباب، ودخول السفينة في الجو الصافي النقي، في أقاليم يرى الواحد ماءها وأسماكها وموجها الخفيف على جنب السفينة، مع زوال الضباب، رجع الدم يجري في

الأعضاء، عادت الحرارة إلى الأوصال، ودبّ لون الحياة في الوجوه وفي العروق. عندئذٍ فقط تنفس عمر، تنفس من جديد.

*

اهتزت السفينة. ماذا يحدث؟ سُمع دويٌ. وانبثقت نافورة إلى جهة الميمنة، نافورة عالية خرجت من البحر، وغمرت بشلالٍ جنب السفينة. سقطت براميل. تدحرجت. ركض البحارة إليها. وصاح أحد الجنود:

ـ هناك! هناك!

رفع عمر البارودي عينيه ورأى القنبلة الآتية. كانت كرة سوداء من حديد. رآها. من أين تأتي؟ قطعت السماء في قوس، بانت كروية كالبطيخة تحت الغيوم البيضاء، وعبرت فوق الصواري ثم انحدرت وغطست في المياه. لم يرَ لحظة ارتطامها بصفحة الماء. أحدهم دفعه من الطريق، وهو وقع متعثراً بالحبال. وقع والهدير يعصف فوق الرؤوس. لم يفهم للوهلة الأولى ماذا يحدث، ثم فهم: القُرم. نحن في القُرم الآن.

رفع رأسه المبلولة فرأى ـ ويده ترتجف على درابزين السفينة ـ سفناً تشتعل. ورأى من بين السفن الشط الأسود. لم يرَ قلعة. ولا رأى بشراً. ولا رأى رايات. فقط السفن التي تحترق. وانتبه أن سفينته ما زالت تندفع إلى الأمام. ولفحته ألسنة النار. بات الجو فجأة حاراً. وامتلأت المساحات بين الصواري والأشرعة بالدخان. أين نمضي؟ السفن تحترق! لماذا لا نرجع إلى الوراء؟

سمع الإنكشارية يقولون إن هذه قنابلنا، ليست قنابلهم. نقصف من الجهة الأخرى فتسقطُ القنابل هنا. سفننا في الجنوب، وسفننا في الشمال. والتموين يتدفق من الدانوب. الروس في القلعة. ولا

يقصفون إلى هنا. يقصفون عساكرنا المرابطة على الشط. مدى مدافعهم لا يبلغ هذه النقطة أبداً.

ـ نحن على الشط؟ نزلنا على الشط؟

أخبروه أن هذا جرى قبل الأمطار: ألم يكن يعلم أن الحرب صارت على الجزيرة، صارت على البرّ؟

*

الحرب على البرّ. لكن الموت يأتي إلى الماء أيضاً. مواعين لا تُحصى تسقط عن جوانب السفن وترتطم بالماء. والجنود يقفزون من السفن إلى المواعين. مواعين كالتي تُنقل بها البضائع في مرفأ بيروت. مواعين وزوارق ومراكب وشختاتير. هذا الزورق يشبه زورقه. لكنه الآن لا يصيد سرديناً ولقزاً قبالة عين المريسة. هذا الزورق يشبه زورقه لكنه يعجّ بالجنود. سقط بين الجنود والبواريد. اهتز الزورق تحت العملاق، ثم ظهرت مجاذيف (أين كانت هذه المجاذيف؟ لم يرَها في قعر الزورق!).

انزلق الزورق بين مراكب ومواعين لا تُعد، انزلق على البحر، بين سفنٍ تشتعل (من أشعلها؟ الغطّاسون الروس؟ أم قنابل «الحلفاء»؟). انزلق الزورق بجنودٍ يتلاطمون، وعملاقٍ يحاول أن يرى ماذا يحدث هناك، على الشط. لكنه لا يرى. هذا الدخان الفظيع! صفع الدخان الساخن الأسود وجهه. وحين تبدّدت الغيمة القاتمة رأى الشط: رأى عدداً لا يحصى من النوارس ورأى طيوراً أخرى، سوداء اللون، تشبه الغربان، ولعلها الغربان، مَنْ يدري، ورأى الجثث تغطي الشط، وتغطي المياه عند الشط. لم يحسبْ في حياته كلّها أن الحرب تقتل هذا العدد من خلق اللّه! ما هذا يا ربّي؟ ماذا أرى؟

ـ قعق. قعق. قعق.

رأى البحر أحمر اللون. ليس أحمر كما يكون الماء المصبوغ بالدم. أحمر كأنه بحر من دم. أين ماء البحر؟ لم يرَ إلاّ الدم. في حياته كلّها لم يشمّ هذه الرائحة. مثل رائحة البيضة انكسرت في قدر ماء. لكنها حادة مسنّنة. رائحة زنخة فظيعة. وبخار يخرج من الجثث. ويخرج من البحر. يعمل غيماً بين الزوارق. ويعمل ضباباً على العيون. رائحة تقتل. كأن دماء الموتى تلج أنفه، نقطة بعد نقطة بعد نقطة. كيف يتحملون هذه الرائحة؟ سدّ العملاق أنفه، سدّ فمه. امتلأ ذعراً. قبل ساعة، قبل دهر، على السفينة، والمياه تغمر رأسه وثيابه، لم يكن خائفاً، لم يركبه الذعر. صحيح انه أحسّ يده ترتعش، لكنه ظلّ يرى ويسمع ويفهم. حتى انه ذكر صباحاً بعيداً (كم سنة مرّت؟)، وذكر قنابل تطلع من دوارع بالبحر، وتنزل على الكرنتينا، وتنزل على أسوار بيروت. لكنه الآن لا يرى ولا يسمع ولا يفهم. هذا الجحيم لا يُفهم. هذه جهنم الحمراء. كأن يداً غير مرئية التقطته من العالم العادي ورمته في هذا العالم... أين أنا؟ لماذا تسبح مفتوحة العينين هذه الجثة الميتة؟ لماذا ترفعها الطيور بالمخالب على الصخور؟ كيف تستطيع أن تحملها؟ ومن أين يأتي هذا الدم على ثيابي؟

ـ قعق. قعق. قعق.

انقلب الزورق. وسقط العملاق في البحر. سائل ساخن تدفق من فتحات الوجه. نزل في دماغه وجوفه. ما هذا الماء الحار؟ البحر الأسود بارد. بعد قليل تغطيه قشرة جليد. هذه مواسم الثلوج والصقيع. ما هذا الماء الحار؟ ما هذا الطعم الغريب؟ مثل دبس العنب! ومن أين أتى هذا الأخطبوط؟

ـ قعق. قعق. قعق.

هذه غربان القُرم. هذا لونها. من أخبرني؟ وصوتها يثقب قشرة الجليد إذا اكتسى البحر بالجليد. عليك الآن أن تتخلص من الأخطبوط. وإلاّ غرقت.

ـ قعق. قعق. قعق.

كأنني أغرق وأموت. كأنني كنتُ هنا من قبل. لكنني الآن أغرق. لن أنجو. هذه الأيدي التي تتشبث بي! هذه اليد السمراء أعرفها. أعرف هذه الأصابع يغطيها الشعر. هذه يد عبد الكريم. كان ينام جنبي في السفينة. أعرف يده. وأعرف هذه الندبة. ماذا يريد؟ لماذا يجذبني إلى تحت؟ يعرف السباحة. قال إنه طالما سبح في مينا الحصن. في بيروت لم أعرفه. البلد فيها عشرون ألف رجل. لا. عشرون ألف رجل وامرأة وولد. لن أعرفهم كلّهم. مع أنني رأيت وجهه أكثر من مرة في «الفشخة». وفي البازركان رأيته مرة. وفي «السهلات» رأيته. لكنني لم أكن أعرفه. ولا أعرف اسمه. ببطن السفينة صرنا نعرف بعضنا بعضاً. ماذا يريدني أن أعمل الآن؟ قال إنه سبح في تيارات مينا الحصن ولم يغرق. ماذا يفعل الآن؟ لماذا لا يترك ذراعي؟ ومن هذا الذي يجذب ساقي؟ ما هذه اليد الطرية البيضاء؟ هذه يد امرأة! ليست يد رجل! من هذا الإنكليزي الأخوت الذي يأتي بهذه اليد الثلجية إلى جهنم الحمراء؟ ألا يسبح؟ ألا يعوم؟ وما هذه اليد التي تنزلق على رأسي، ثم تلتقط شعري؟ ماذا يريدون؟ أن أحملهم جميعاً إلى برّ الأمان؟ أين برّ الأمان؟ هذه القُرم! ألم يفهموا بعد؟

ـ قعق. قعق. قعق.

الصياح يقوى لأن الرأس خرجت من الماء. تأخذ نفساً عميقاً

ثم تغطس. لن تترك عبد الكريم في القعر بين الأجسام التي يقلبها التيار، يقلبها وينتقي عظامها ويخبطها بالصخور. وتترك الإنكليزي بيده الرخوة البيضاء؟ لم ترَ إنكليزاً على السفينة التي حملتكم إلى هنا. هذا من سفينة أخرى. ولعله وصل قبلكم. ولعله يسبح في هذه المياه، بين الموتى، منذ بدأت الحرب. أين أنت يا عبد الكريم؟ أين اختفيت؟

ـ ووف... وووف.... ووووف.

المياه ملأت تلافيف الرأس، نزلت في ممرات الأذنين. يفتح عينيه. يغمض عينيه. المياه تتدفق، موجات تخبط الرقبة، تكبس شريان العنق. عليه أن يتخلص من ثيابه. الثياب تضايقه. فوقه أطنان مياه. وعليه أن يزيح هذه الأجسام المبقورة البطون من أمام وجهه. كلما زاح جسماً بان جسم. كأنهم رُبطوا بسلسلة! الوجوه تنظر إليه بلا عيون. أسراب السمك أيضاً تعيق الرؤية. تأكل عيون الموتى وأنوفهم وتخفق بزعانفها الحمراء أمام عينيه. أين عبد الكريم؟

ـ ووف... وووف.... ووووف.

أغطس. أزيح الأجسام المقطعة البزات وأغطس. هذه يده. هذا سرواله. هذه عمامته انحلت وسبحت كالحنكليس. فقاعات الهواء كأسراب السمك تنطلق إلى أعلى، إلى أعلى، وصدرك مكبوس. لن يصل إليه. يحتاج أن يطلع ويتنفس. قلبه سيفقع بعد لحظة. لم يعد يستطيع. عليه أن ينقلب الآن كالضفدعة ويطلع إلى فوق. لكن كيف ينقلب وهذه الأجسام تكبسه من الجهتين؟ يبرم رقبته فلا يرى النور في الأعلى ولا يرى تموُج النور. صار تحت الأجسام الميتة التي تنقرها الطيور، التي تسحب أمعاءها الأسماك. كيف يطلع الآن؟

ـ ووووف. ووووووف. ووووووووف.

الهدير ليس في أذنيه. الهدير في عينيه. كأن الأسماك ولجت دماغه. كأنه يسمع الموج بعينيه. واقترب منه وجه. هذا ميت. لكنه يحرك شفتيه. ماذا يقول؟ لا يقول شيئاً. هذه المياه تُحرك الفم، تُحرك عضلات الفكين، تُحرك الشفتين أيضاً! لا يقول الميت شيئاً. الموتى لا يتكلمون. وها هي سمكة ذهبية دقيقة تخرج من بين أسنانه. وها أسماك أخرى تخرج من رقبته. كيف انفتحت وانغلقت كالفم رقبته!

ـ ووووف. ووووووف. ووووووف.

قلبه يفقع. رئته خلت من الهواء. ها هو عبد الكريم. يصارع إنكشارياً لا يعرف كيف يعوم. لهذا يغرق عبد الكريم إذاً.

ـ ووووف. ووووووف. ووووووف.

مدّ عمر البارودي ذراعيه. التقط الإنكشاري من كتفه ودفعه جانباً، نحو الأجسام المتشابكة. لن يقدر أن يُخرجه. إذا خرج هو تكون معجزة. باليد الأخرى التقط عبد الكريم. التقطه من الكوع. خبط الأجسام بكتفه، خبطها برأسها، نطح الأجسام المتدافعة، وانطلق إلى فوق. لن يموت هنا، لن يُقبر في هذه المقبرة، لن تأكله الأسماك والنوارس، ولن يملأ الدم الزنخ رئتيه. لن يموت بالبحر! اندفع إلى أعلى، جسمه عضلات تزلق بين طيّات الماء مثل دلفين. في طلوعه رأى يداً بيضاء طرية. التقطها. وأنقذ الإنكليزي أيضاً. من أجل اليد البيضاء التقطه. ولأنه تخلى عن واحد تحت. الشفقة ملأت أضلاعه. منذ هذه الساعة في بحر الدم، أيقن عمر البارودي أنه لن يغادر القُرم. ولن يرجع أبداً إلى بيروت.

*

هؤلاء غرقوا على ساحل القُرم:

1 ـ محمود اللبان: أحد أوائل القافزين من السفينة التي تطقطق وتتمايل كعنبر تقتلعه عاصفة. لم يسقط في مركب أو ماعون أو شختورة. نظر جيداً قبل أن يقفز وقاس المسافة ثم قفز إلى الزورق. لم يكن الزورق امتلأ إنكشارية ورفاقاً بعد. مع هذا أخطأ الحساب. إحدى قدميه فقط بلغت الزورق، بلغت حافة الزورق. سمع الطقَّة في أذنه: كعب القدم ينكسر. ووقع في الماء. رأسه لطم حجارة: إلى هذا الحد اقتربنا من الشط؟ لم تكن حجارة. كانت الجماجم تنطحه.

منذ الشتاء الماضي والجنود يقتلون عند هذا الشط ولا أحد يسحب الجيف ويدفنها. لا يخافون المرض والأوبئة، قادة العساكر. يقولون ملح البحر لا يترك مرضاً. والطيور والأسماك والقرش والفقمة... هذا كلّه وقاية من الأمراض. ثم أين ندفنهم؟ الشط كلّه صخور؟ من سينقب هذه الصخور الزلقة تغطيها طحالب خضراء؟ لون الطحالب تبقع بالأسود. إذا وقعت قنبلة على صخرة الآن وكشطت قشرتها ترى الطحالب مغمسة بالسائل الأسود الغريب. كأن السائل يخرج من جوف هذه الصخور.

أهل القُرم عندهم خُرافة تقول إن هذه الصخور أجسام غزاة أتوا بالبحر الأسود قبل دهر وماتوا هنا، مرضوا كلّهم بالبرد، أصابتهم الأنفلونزا والحمى فمكثوا هنا ـ وكان الشط رملاً كلّه ـ إلى أن فتك بهم الجوع. الرمل تزحف عليه السلاطعين. يلتقطونها، يكسرون القشرة القاسية بين الأصابع التي نحلت واصفرت، ثم يأكلون بطن السلطعون. مادة السلطعون الصخرية دخلت في نسيج لحومهم. وحين أكلوا السلاطعين كلّها، حين فرغت ثقوب الرمل من السلطعون، اكتشفوا أنهم صاروا عاجزين عن الحركة. إذا رفعوا

الذراع ارتفعت بليدة. وهاج عليهم الجوع من جديد. ذهبت عنهم الأنفلونز والحمى، ما عادت أنوفهم تسيل، ولا عادوا يسعلون ويعطسون. المشكلة الآن الجوع. إذا برم الواحد رأسه أبصر القلعة العالية ورأى عمود دخان وراء السور. جاؤوا من أعالي الدانوب غزاة. سلاحهم هنا، تمد أصابعك فتلمس سيفك. الشفرة تبرق، عريضة، ناشفة، قاسية، لا ترحم، وإن بدت بريئة. ينظر الواحد إلى الشفرة فيرى وجهه ويرى عينيه. يرى أن الوجه تغيّر: برزت منه عظام. ماذا يأكلون؟ السلاطعين أكلوها كلّها! صار البحر يرمي إليهم الأعشاب، ومع الأعشاب تفاح الماء وعنب الماء ودراق الماء الدقيق. أكلوا الأعشاب وفاكهة البحر المالحة حتى جفت عظامهم. لحمهم تقشَّر، وتحت قشرة اللحم ظهرت قشرة طرية. لكن قشرة اللحم الميتة البيضاء القاسية ظلَّت تتعلق بالجسم. لم تقع. إذا أكلوا طعاماً طيباً الآن وقعت هذه القشرة الميتة ـ كالقشرة الميتة تظهر على كعب القدمين إذا مشيت حافياً وقتاً طويلاً ـ وقعت هذه الجلدة القديمة وبانت من تحتها جلدة حمراء طرية كبشرة الطفل. أبانا الذي في السموات ليتقدس اسمك ليأتِ ملكوتك لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض. الغزاة أتوا من شمال الدانوب. لتكن مشيئتك. جاؤوا يريدون غزو سيفاستوبول وروسيا كلّها. أعطنا خبزنا كفاف يومنا ولا تدخلنا في التجربة ونجنا من الشرير.

لكن الضباب ملأ أنوفهم، بلّ الفراء على أبدانهم، أورثهم الرشح. ها هم الآن يأكلون العشب والرمل ويجوعون. ما يتعبهم حقاً، ما يهدّ المعنويات، هذه الرائحة. ينظرون إلى عمود الدخان في الأعالي، طالعاً من ساحات القلعة الخفية، ويشمّون الرائحة: رائحة الشواء. لو يأكلون لحماً الآن. قَرِموا. لا يطلبون إلاّ شقفة لحم. شقفة لحم، كسرة خبز، وجرعة نبيذ. لم يقتلهم عطش لأن

الماء يسري في ساقية آتياً من السفح، يعبر بين الرمال، ثم يضيع في البحر. ماء حلو. يستغربون أن الناس فوق لم يُسمموا هذا الماء. أول ما عطشوا خافوا أن يشربوا منه. الأبراج في الأعلى كلّها كوى صفراء تنظر كعيون النمور والذئاب والضباع، تراقبهم. خافوا من الماء. لكن العطش أسقط وجوههم. لعقوا الماء. لحسوا مثل الكلاب ماء الساقية. ولم يموتوا. الماء غير مسموم. يأتي من هناك، من السفح، حيث الأرض يغطيها حصى أزرق صغير. إذا بانت الشمس لمع الحصى بلون فضي.

جاعوا. السلطعون المالح جفّف لحمهم. عشب البحر امتص النخاع من عظمهم. ماء الساقية امتزج بدمهم وذاب في الدم مثل الكلس. ذاب الماء في عروقهم، لونه أزرق، أزرق ساطع، مثل حجر النيل.

ذات صباح استيقظوا ورأوا أن أجسامهم اكتست بقشرة قاسية، بنية اللون، تضرب إلى بياض خفيف. ثم تساقطت الأمطار وأعتمت القشرة. ثم بانت الشمس. وحطّت النوارس عليهم وبقعت بطونهم بالقاذورات. بقع زرقاء، بقع خضراء، بقع رمادية. ونزلت الجوارح أيضاً. نقرت القشرة القاسية ثم طارت. كأن مناقيرها أوجعتها.

لم يعرفوا أنهم يتحولون صخوراً إلاّ بمرور الفصول. انتبهوا أنهم كفّوا عن الحركة تماماً. انتبهوا أنهم يرون دخان الشواء لكن الرائحة لا تبلغ أنوفهم الآن. انتبهوا أن الطحلب ينمو في الأنوف. كأن الشعر تكاثر في أنفك ولم يقصه من أجلك الحلاّق. باتوا لا يشمون شيئاً. وحين أراد واحد منهم أن يسأل صاحبه هل يشعر مثله عجز عن الحكي. منذ زمنٍ بعيد لم يُحرك عضلة لسانه، لم يحرك فكيه. يبدو أن أسنانه تداخلت، الصف التحتاني تداخل بالصف الفوقاني، كلس الأسنان وعظمها تداخل، واللسان حُبس في الكهف

الصخري. لحم اللسان طري. كم هو طري هذا اللحم؟ الواحد يعض لسانه خطأ، فيظل لسانه يوجعه يوماً! عندك فراغ بين أضراسك، أضراسك يضربها السوس فتقلعها، صار عندك بينها فراغات، وبينما تلوك الطعام يدخل لسانك هذه الفراغات، وجنبه يُكشط! الأضراس الباقية في فمك مروسة، قديمة، مسننة، ولسانك طري، أطرى قطعة لحم في جسمك كلّه. لكن اللسان حُبِس في كهف صخر. لن يؤلمك بعد الآن. لا تقدر بعد أن تلفظ كلمة.

ارتفع المدّ وغمر الغزاة ثم تراجع. دارت الفصول والأولاد نزلوا من القلعة ليسبحوا فاستغربوا الشط، أين الرمال؟ صار الشط صخراً. كل هذه الصخور! الأولاد قالوا إن البحر قذف هذه الصخور على شطنا. حاولوا أن يقلعوا الصخور. فإذا بالصخور قد ضربت جذوراً في الشط، كأنها بالأيدي والأقدام تتشبث بهذا الساحل! عجزوا عن اقتلاعها. صاروا يعربشون عليها ويقفزون ويلعبون. كانت بنية اللون، ترابية، في ذلك الزمن. ثم توالت الأعوام، مطر ثم ثلج ثم جليد ثم مطر ثم شمس ثم ضباب. والدخان يغمرها إذا نزل الأهالي إلى هنا يصيدون سمكاً ويشوونه ويأكلون. رجال ونساء وخمور وضحك. ويأتي واحد مع المرأة التي يحبها ويفرش بطانية صوف بين الصخور. صارت الصخور سوداء اللون. وعجول البحر تطلع من الماء وتنام عليها. صارت الصخور تخضر بالخزّ. إذا لم تنتبه وأنت تقفز هنا، قدمك تزلق، ساقك تنكسر، العظمة تطق.).

محمود اللبان لم يبلغ الصخور حياً. وقع تحت الزورق. حين لمست الأيدي الميتة وجهه صدمه الذعر في أصل دماغه ففغر فاه وكفّ عن الحركة. نزل إلى أسفل مثل صخرة. الهواء خرج في فقاعة واحدة كبيرة من جوفه. مات برمشة عين. لكن اسمه بقي محفوظاً.

ترك في بيروت امرأة منفوخة البطن. أول فصل الربيع، والقزّ

خرج من البيض ويبدأ يسعى على الأطباق ويملأ البيت بصوته، يطحن يطحن يطحن، وضعت فتحية اللبان طفلاً ذكراً. سُمِي الطفل على اسم أبيه. منذ ذلك الحين شاع الاسم بين آل اللبان.

محمود اللبان الابن تعلم الخياطة على المعلم الشدياق. وأخذ عن معلمين آخرين أصول الخياطة العربية وفنونها الضائعة. عاش مع أمه في بيت أبيه (الذي ينتظرونه منذ سنوات ولا يعود) إلى أن اجتاح الهواء الأصفر بيروت. كان في الثانية عشرة، أو الثالثة عشرة عندئذٍ، ما زال صغيراً بالنسبة إلى خيّاط، لكنه مع هذا يقص ويفصل ويقطب، وإذا كوى قميصاً كواه أحسن من كوّاء. بعد الكوليرا انتقل مع أمه إلى بيت خارج الأسوار.

تركا البيت فوق فرن الدركاه، البيت الغارق في ظلال الثكنات المصرية القديمة، وسكنا في السهلات. السهلات الآن لا تشبه أبداً السهلات القديمة. الأم فتحية عبرت مرة «الطريق الجديدة» في الزمن الذي سبق الطاعون. الوباء الأسود الذي ضرب بالبيوض السوداء الأجسام سنة 1855 أهلك البيروتيين الحلبيين. أكواخ الطين، وحوانيت الطين، امتلأت بالجرذان. جاء إلى بيروت سنة 1850 نحو ألف حلبي. سنة 1855 كانوا قد تكاثروا؛ ثم إن السهلات كانت مسكونة أيضاً بلاجئين آخرين: ناس من الشوف ووادي التيم جاؤوا إلى هنا بعد الحروب الكثيرة في أربعينات القرن التاسع عشر. سنة 1849 أيضاً، بعد جولة معارك بين الدروز والعثمانيين في الجبل، نزحت جماعة من العائلات المسيحية إلى سهلات البرج.

الجبل يضطرب. دائماً في اضطراب. والدروز مرة أخرى تمردوا على السلطان. سعيد بك جنبلاط يقودهم. لا يقبل الأمير أمين أرسلان قائمقاماً. ولا يقبل دخول الدروز في الجيش العثماني. المشايخ يخشون أن تفسد درزيتهم. لكن أهل بيروت يقولون إن

المسألة ليست كذلك: عمر باشا النمساوي ـ عمر أفندي يسمّونه ـ عمر أفندي أراد أن يمسح أراضي الجبل ويعمل إحصاء للسكان. هذه تعليمات الباب العالي. هذه التنظيمات الخيرة. من دون إحصاء كيف تُبنى الدول؟ لكن الباكوات لا يقبلون. إذا عملت الدولة المسح والإحصاء وفرضت الضرائب بحسب القانون كيف يفرضون الخوّات وكيف يتحكمون برقاب الفلاحين؟ الباكوات لا يريدون. لهذا يحملون السلاح. ولهذا يستمر النزوح. من يقدر أن يعيش في أرض تحترق يوم الجمعة، تزرعها يوم السبت، تسقيها الأحد والاثنين، تراها تخضر نهار الثلاثاء، تبرعم الأربعاء، تثمر الخميس. وها نحن في يوم الجمعة. نريد أن نقطف ونأكل فتهجم النار من جديد!

فتحية اللبان تذكُر السهلات القديمة وتذكرها بأشجار التوت. تذكر الدخان يتعالى وراء مئذنة السراي بعد سنة «الطاعون الأسود». العساكر هدمت بأمر الوالي الأكواخ المنكوبة. جرفوا الركام وحملوه ورموه في البحر. لم يبقَ من الأحياء القديمة المتداخلة إلاّ «خان التوتة» وبعض الحارات القرميد والبيوت المتينة العقد. الأكواخ والحوانيت كلّها زالت. كأنها لم تكن!

الهواء الأصفر سنة 1865 لم يقتل لا فتحية اللبان ولا ابنها محمود. محمود نور عينيها. تاج رأسي، تقول، هذا الرجل.

في «سنة السويس» (1869) عاونه واحد من عمومته ببعض الذهب ففتح محل خياطة في سوق أبي النصر. كانت بيروت الآن أكبر من أي وقتٍ مضى. قبل أعوام، بعد حرب 1860 في جبل لبنان، وبعد المذبحة بدمشق، نزل في سهلات البرج نحو ثلاثين ألف رجل وامرأة وولد. بين ليلة وضحاها ضاعفوا عدد السكان في مدينتنا. الأعوام تكرّ على أجسامهم، وبمرور الأعوام يتحولون إلى بيروتيين. الآن يتكلم النصراني الجبلي المهجّر من جزين أو دير

القمر أو الباروك فلا تسمع القاف تخرج من فمه وهي تطقّ على الأذن طقّاً. أخذوا عن أبناء البلد القاف المخفّفة. باتوا يلفظونها كحرف الألف. ملابسهم أيضاً تتبدل. طرحوا العمائم ولبسوا الطرابيش. الخواجة الديري ميخائيل مشاقة، تاجر الحرير، يلبس البرنيطة الآن. لكنه في الشتاء، وقت البرد، يلف رأسه بعمامة صوف نحيلة تحت البرنيطة. عنده حارة قرميد في السهلات، تجاور «خان التوتة»، ولا يخيط قمصانه إلاّ عند الخياط الجديد محمود اللبّان. يحبّ الخواجه مشاقة القمصان العربية. يجدها مريحة. وتُذكره بأبيه. ثم إن المعلم اللبّان خفيف اليد، شفاف الحضور. لا يضايقك بالثرثرة. لسانه قصير. يعرف شغلته. لا يأخذ قياسك مرتين. وقطعته مضبوطة على الإبرة. تلبس الجسم لبساً.

لم يرجع محمود اللبّان إلى بيروت. جسمه غرق عند ساحل القُرم وبقي هناك. لم يدفنه أحد. مَنْ يدفن مَنْ في أرض الصخور؟ صاحب العساكر الإنكشارية يجول بين صفوف الهاجعين في المعسكر، عند السفح، ويرى الطبّاخين يقومون من النوم ويشعلون النار ويسلقون الحبوب. هذه موجة جديدة من الجنود. هذا فوج كامل من المحاربين. ويبدون أقوياء. ما داموا عبروا بحر الجثث فهم أقوياء. هذه عمادتهم. بحر الدم. والآن يرتاحون ويأكلون وينامون ويشربون. وغداً يتعودون على رائحة البارود. وينسون الرائحة التي يُرسلها البحر. ليست فتّاكة. الأنف يعتادها. ثم أين ندفنها؟ أين ندفن كل هذه الجيف؟ الأسماك تأكلها. ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً. بل أحياء عند ربّهم يُرزقون. ها هو ناظر المطبخ. يفرك عينيه ويبحث عن شيء أضاعه. ماذا أضاع؟

محمود اللبّان، في محله ببيروت، معجوق. الطلبات كثيرة،

والمقص المفضل عنده ضاع بين الأقمشة. الدبابيس في فمه، الماسورة تتدلى من رقبته، والصابونة المكسورة في يسراه. باليمنى فقط يبحث عن المقص الضائع، وبينما يبحث يغطيه ظلّ. من يقف في مدخل الدكان؟ يرفع رأسه وينظر إلى عملاق. من هذا؟ لا يعرف من يكون الرجل الأبيض الشعر. لكن من النظرة في العينين المتعبتين ينتابه إحساسٌ غامض: هذا الرجل عرف أباه ـ أباه الذي يحمل اسمه ـ يعرف محمود اللبّان الذي فُقِد بالقُرم.

عن محمود اللبّان الذي وَرِث الاسم القديم، نعرف الآتي: زرع حبّ الخياطة في ابنه، والابن زرع الهوى ذاته في الحفيد. مثل آل الشدياق توارثوا المصلحة جيلاً عن جيل. من سوق أبي النصر انتقل الجد إلى دكان أكبر في سوق سيور. طوَّر نفسه وبدأ يُخيط بدلات إفرنجية أيضاً. أثناء نزوله في هذا الدكان عمل إعلاناً على كرتون. ووزع الكرتون على أبواب الكنائس والجوامع والخانات ببيروت. الإعلان محفوظ في «قسم المحفوظات» بمكتبة يافث في الجامعة الأميركية ببيروت:

انتبه!

اذهب مرة واحدة لترى ما بمحل الخياط الشهير

«محمود اللبان»

سوق سيور. آخر موض البدلات الرجالية والأجواخ الإنكليزية الممتازة

ـ «مقصد شبان الطبقة الراقية» ـ

2 ـ حبيب لطفي: انقلب الماعون والنور اختفى. غار تحت

المياه. المياه تتلاطم فوقه وهو يغرق. ماذا جرى؟ لا يشعر بساقيه! كلّما نزل إلى الماء، عند خليج الدورة حيث بساتين أهله، شعر بثقل ساقيه. ليس أمهر السبّاحين. في صغره كان يخاف الماء. ثم ألقاه أبوه في البحر وقال افعلْ ما تريد، لن تغرق. بلع ماءً وملحاً وصاح. نزل أخوه وسحبه من الماء. الأب نظر إليه مظلمَ الوجه وقال: «انزلْ! انزلْ!»

نزل إلى الماء، وقف حيث يغمره الماء إلى البطن، وظلّ جامداً لا يتحرك. نزل أبوه إلى الماء. البحر يُبقع الثوب. أمسك برقبته ودفعه إلى أمام. مرة ثم أخرى. لم ينفع الصياح. المشكلة ساقاه. ثقيلتان. قصيرتان سمينتان. كأنه امرأة! وقدماه تلطمان قعر البحر. ثم تعلم. صار يعوم. مع هذا ظلّ يحسّ بساقيه. ومرّات تلطم قدماه القعر. ليس أمهر السبّاحين.

قنبلة قلبت الماعون. قصَّت طرفه. لم يرَ ماذا جرى. لكن الرجّة القوية أنبأته أن القنبلة ضربت زاوية الماعون الخشب. هؤلاء الحمقى؟ كيف يقصفون إلى هنا؟ ألا يعرفون أننا منهم؟ الكلاب!

حبيب لطفي، مثل رفاقه المخدوعين، لا يعلم أن الإنكشارية لا يفهمون ماذا يقولون. قالوا له إن مدافع الروس لا تبلغ هذه النقطة. الإنكشارية لم يكذبوا. هم أيضاً مخدوعون، صاحب العساكر العثمانية أوهانس باشا داهية. يقول هذه القنابل القليلة من مدافعنا ومدافع حلفائنا الفرنسيس. تقع هنا خطأ. لا تخافوا. والإنكشارية يتشجعون. صحيح. القنابل التي تقع هنا قليلة. كلّما ظهرت بواخر جديدة وقعت حفنة قنابل. سبع قنابل، ربما تسع قنابل، ليس أكثر. ومرّات يقع أكثر. لكن ليس دائماً. مدافع سيفاستوبول مشغولة بقصف الجيوش التي تهاجم من البرّ. العساكر تكاثروا على البرّ. أقرب إلى مدافع سيفاستوبول. ثم أنهم في السهل، إلى جهة

الشمال، إلى جهة الدانوب، مكشوفون تماماً. المدافع الروسية تقصف السهل المكشوف.

حبيب لطفي لا يفهم لماذا وقعت القنبلة على الماعون. ولا يفهم كيف لا يشعر بثقل ساقيه. فقد الإحساس بالنصف التحتاني من جسمه ما إن لمس جسمه الماء. هذا غريب. ارتطم بأجسام فأبعدها من دربه. التفّت ساقاه ـ وهو لا ينتبه ـ بسيقان أخرى. صار عالقاً حيث هو، يخبط بذراعيه ولا يتحرك. لكنه استطاع أن يرفع رأسه. عضلات الرقبة تتحرك، ورأسه تطلع إلى فوق الماء. يرى بخاراً يرفّ على وجه الماء. يرى بخاراً ويرى الشط الأسود يموج، يرتفع ثم يهبط ثم يرتفع، هذا الشط الأسود.

أخذ نفساً عميقاً ونزل ليُخلص ساقيه. لكنه ما إن صار تحت الماء حتى شعر بالإختناق. الملح فات في أنفه، فات في أنفه وفمه كأن يداً تغرف الملح من كيس وتدفعه بين أسنانه، ملح فظيع الطعم. سال الملح في جوفه، سال على اللسان والحلق. نزل في القصبة الهوائية. نزل في زلعومه. رفع رأسه يطلب الهواء فلم يبلغ وجه البحر. رجل آخر يسبح فوقه بذراع واحدة. أين الذراع الأخرى؟ فوق المياه؟ دخل السائل الأحمر في عينيه. لم يرَ الماعون المحطم يقترب. يندفع مع المدّ اندفاعة قوية، الزبد يفور على جنباته، ثم يلطمه. أعتمت عيناه.

ترك في بيروت أهلاً. لم يترك امرأة تبكيه وتقول من لي الآن، فراشي بارد، سقفي يدلف ولا أحد يحدله. لم يترك زوجة. ولم يترك ذرية. آل لطفي في بيروت ذلك الزمن، أربعة بيوت أو خمسة، ليس أكثر. أصلهم من صيدا. وآل لطفي ما زالوا في صيدا إلى اليوم.

عام 1989 شاركني الغرفة 623 في بناية «بنروز» (إحدى بنايات

الداخلي في الجامعة الأميركية) طالب يدرس الكيمياء يُدعى حبيب لطفي. لم يكن من صيدا. بل من بيروت. كنت لا أزال Sophomore، طالب سنة أولى، أدرس CCE (هندسة كومبيوتر واتصالات). كان يكبرني بثلاثة أعوام أو أربعة، (Senior)، يُنهي دراسته (البكالوريوس .B.S)، ويتأهب لامتحان الـ Mcat لدخول كلية الطب. بنينا صداقة بسيطة: علّمته حبّ المتّة، ودلّني إلى ت.س. اليوت. كان يهوى قراءة الشعر الإنكليزي على صوتٍ عالٍ. يقول إنه يحبّ الموسيقى في الحروف. في وقتٍ لاحق اكتشفت أن أخته تُدرِّس الأدب الإنكليزي في كامبريدج. كامبريدج، يقول، اسمعْ الموسيقى في الحروف!

لم يكن غارقاً في الأدب. بل في حبّ فتاة تسكن بناية فاندايك بالجانب الآخر من الجامعة. «الداخلي» الخاص بالطالبات هناك. «الداخلي» الخاص بالطلاب هنا. نطلّ من شرفاتنا على «بلس» ومطعم سقراط. ومن بناية النيومنز نطلّ على مخفر حبيش أيضاً وعلى المنارة وجلّ البحر. اعتاد أن يجلس أمام الغرفة، يشرب المتّة الساخنة رافعاً قدميه على الدرابزين. ينظر إلى الحمائم وقمم السرو الأخضر وقرميد كلية الرياضيات، ويدمدم ما يحفظه من اليوت.

عند المساء نقف عند الزاوية الأخرى من شرفة الطابق الطويلة، وننظر إلى قبّة مرصد كرنيليوس فاندايك غارقة بين الأشجار. ننظر إلى كورنيش المنارة يعجّ بالمتنزهين وباعة الكستناء والذرة والكلاوي يافول. في عرض البحر تتباعد مراكب الصيادين. المراكب لا تُرى في أول المساء؛ تُرى في نصف الليل. لا نرى المراكب ذاتها، لا نرى خشب الزوارق، نرى الأضواء: لوكسات الكاز تشعّ هناك، مثل برتقالات تسبح فوق الماء، تتباعد ثم تقترب، ثم تتخذ مواقع ثابتة لا تتغيّر.

أنوار البيوت في عين المريسة تنطفئ، نافذة بعد نافذة بعد نافذة. البيوت تُظلم. البنايات العالية تتحول إلى أشباح. مليون إنسان ينامون في بيروت الآن. الكورنيش يمتد خالياً، ساكناً، مغموراً بالضوء البرتقالي. هذه مصابيح الأعمدة. اختفت عربات الباعة باللوكسات الصفراء تضيء علب الفستق الحلبي والكاجو والبزور. الامتحانات مرهقة. خصوصاً هذا الامتحان الضروري لكلية الطب. يشرب نسكافيه بلا سكر طوال الوقت. طعامه قليل. يُدخن ثلاث علب سجائر. ويفور بالطاقة. الأرض تُغطيها أوراق مدعوكة. يكتب ما يحفظ من معلومات ثم يكمش الورقة ويرميها أرضاً. لا يدرس إلاّ هكذا. عند الصباح، أفتح عينيّ من النوم على غرفة مغطاة بالورق المدعوك.

سنة 1990 استأجر بيتاً مجاوراً للجامعة وانتقل إليه. علّق في الغرفة حيث ينام هيكلاً عظمياً طلبه بالبريد من باريس. هيكل عظم حقيقي، بأضلاع وجمجمة وكل شيء. منظر مثير للقلق. العظام كلّها تلمع: يعالجونها بمادة كيماوية خاصة تحفظها من الرطوبة، يقول.

تباعد هو وصاحبته. وصرت أراه مع أُخرى. كنت أسأله عن الأولى، فيقول: History. أثناء صيف 1991 اعتدنا أن نلتقي على طعام الفطور في كافتيريا المستشفى التابعة للجامعة (A.U.H). يكون بثوب الأطباء الأبيض، وتحت الثوب القميص المكوية وربطة العنق المرتبة، وصباطه دائماً يلمع. يمسحه على باب المستشفى. أراه واقفاً وماسح الأحذية يكلمه ويفرك الحذاء بالفرشاة ثم بالقماشة ويضحك. بينما نأكل فطورنا ـ يحبّ البيض المخفوق، ويحبّ الخضر المسلوقة، ويحبّ البطاطا البوريه، يقول: «أكل المستشفيات يناسبني تماماً، لماذا تظن أنني أدرس الطب؟» ـ يخبرني عن مطعم جديد اكتشفه، أو عن رسالة من أخته تدلّه فيها إلى روايات يابانية

مترجمة إلى الإنكليزية. . . ويسألني ماذا أقرأ؟ وكيف أجد الفيزياء؟ (كنت تركت الهندسة وانتقلت إلى دراسة الفيزياء.)

أسأله هل يشرب متّة؟

يقول: كل يوم.

يسألني أما زلت أطبخ كشكاً وأقلي بيضاً «كوزمو» بالبندورة للطابق السادس؟

أقول: ليس كل يوم.

حين أكل بيضاً «كوزمو» للمرة الأولى صاح من الفليفلة الحرة الخضراء (قرن الغزال). إلتهب لسانه وصار يبلع ماء ويأكل الخبز ويقول «اللّه يحرق الردع». (كنت أخبرته أن «قوات الردع العربية» جلبت هذا الطبق إلى بلادنا سنة 1976، حين دخلت لبنان لإنهاء «حرب السنتين». المصريون أعطونا البطاطا والفول. قوات الردع: الكوزمو.

الجنود يجوعون على الحواجز. بيك ـ آب يعبر محملاً بالبندورة من الجبل إلى سوق الخضر عند «مدينة الرئيس كميل شمعون الرياضية» (جنوب بيروت، قريباً من موقف الكولا للسيارات). صاحب البيك ـ آب لا يريد أن يتأخر على السوق. الوقت قبيل الفجر، وإذا طلعت الشمس على البضاعة التي ينقلها أفسدتها، فصار ثمنها منخفضاً في السوق. أصحابه في الجبل، أصحابه المزارعون، يزعلون عندئذٍ. عليه أن يُسرع، لكن الجنود يتحركون على مهل. يأخذون أوراقه على مهل، يفحصونها على نور البطاريات، ويتثاءبون. كل يوم يسألونه ماذا يحمل؟ الرجل تعلم. صار ما إن يبلغ الحاجز ينزل من البيك ـ آب، ويعطيهم صندوق بندورة. ينتقي صندوقاً جيداً، يقول ألف صحة، فقط أعطوني

الصندوق (الفراغة) في طريق العودة، هذا بلاستيك قوي.

وهم ينظرون إلى الحبّات الزرقاء الكبيرة الملوحة باللون الوردي في الصندوق، ويقولون لا، نريد بندورة حمراء.

يمدّ يده ويجذب صندوقاً آخر. أو يطلع إلى البيك ـ آب ويأتي بصندوق من الأعلى. من الأول ينتقي للجنود أحسن البضاعة، بضاعة كفربُرك، لكن الجنود، يهزّون الرؤوس.

ثم يرى جندياً يدلّه إلى صندوق مملوء بالبندورة «البرارة». هذه بندورة رخيصة طرية تُباع للطبخ والربّ وعصير البندورة، لا يأكلها الناس. بندورة نضجت طويلاً وانبعجت واحمرت وسال منها العصير. يريدون «البرارة»؟ لكن معهم حق. الثمرة غير المعطوبة بينها طعمها شهي، فيه حموضة خفيفة، دسم البندورة فيها. إذا حلّ آخر الصيف بان في قلب البندورة بياض، مثل بياض الشحم. ومع التشارين، إذا رحمها البَرَدُ، يغدو جوفها أزرق، شديد الحموضة، بديع الطعم.

صار يترك صندوق البندورة الناضجة جنبه على المقعد الفارغ. ما إن يصل إلى الحاجز، أول «المدينة الرياضية»، حتى يرى الجندي واقفاً تحت نور المصباح، ينتظره باسماً. إذا كان عنده وقت يقعد معهم ساعة، ويدخن سيجارة. ليس ساعة، نصف ساعة. ويشربون معاً الشاي. ثم عرف أنهم هم أيضاً يشربون المتّة. بعد المتّة سألهم أن يُعلِّموه كيف يعملون هذا البيض «الكوزمو»؟

يأخذون من «بيك ـ آب» آتٍ من الجبل صندوق بندورة جبلية. من «بيك ـ آب» آتٍ من سهل البقاع يأخذون كرتونة بيض. تضع في المقلى ملعقة زيت، ثم تزيد البندورة المفرومة، وتتركها تغلي على النار إلى أن تجف، إلى أن يزول منها الماء. تصير كالمعجونة.

أسمك من ربّ البندورة حتى. وتلتصق بالقعر. عندئذٍ تفقس البيض. تفقس البيض وتُبعد المقلى عن النار. البيض ينضج بحرارة البندورة وأنت تمزجه بسرعة. المهم الكميات. لكل كيلو بندورة بيضتان. إذا وضعت ثلاث بيضات فليست كوزمو! وإذا أردت أن تأكل الكوزمو الكوزمو عليك بالحرّ ـ «الصنوبرية» ـ الأخضر. تفرمه وتُلقيه على البندورة متى أشرفت البندورة أن تنشف وقبل تفقيس البيض. ثم تأكل أصابع يديك. الملح على ذوقك، والبهار على ذوقك، والخبز كما تحبّ: خبز عربي أو صاج أو تنور أو مرقوق. القِرفة شهية: أطيب البهارات مع البيض. وأطيبها مع البندورة أيضاً. هذا طعام الملوك. المتّة شراب الحكماء. الكوزمو طعام السلاطين.

سنة 1992 غادرنا الجامعة. حبيب لطفي سافر إلى أميركا للدراسة. وأنا بقيت في بيروت. لن نلتقي بعد ذلك. درس، بعد «الطب العام»، «جراحة عامة». رغبته أن يختص بجراحة الدماغ. لكنه ـ في نيويورك ـ غيَّر عن «جراحة الدماغ» إلى «جراحة القلب». أيام الجامعة كان يجيء ويزورني في البنروز. يكون المكان معجوقاً، والناس يدخلون ويخرجون. الغرفة ببابين، باب على الشرفة، وباب داخلي يُفضي إلى حمام مشترك وإلى أبواب ثلاث غرف أخرى. لكن الغرفة 623 مأوى عدد لا يُحصى من البشر. طلاب لا يدفعون إيجار السكن (illegal)، وطلاب من جامعات أخرى، وطلاب ليسوا طلاباً. شريكي في الغرفة (شريكي بعد حبيب لطفي) يُسمّونه «المختار»، يُكوم الفرشات والبطانيات في الخزانة وتحت السريرين. يعرف أسماء الطلاب ليس في البنروز فقط (وهذه بناية من ست طبقات، كل طبقة بصفين من الغرف، جهة مزدوجة الترقيم، وجهة مفردة، وفي كل جهة عشر غرف، ربما 12 غرفة)؛ ليس في «نيومنز» فقط (البناية المجاورة، أكبر من هذه، سبع طبقات، يفصلنا عنها

ملعب كرة قدم يتبع مدرسة الأي.سي .I.C، وترتفع منه دوامات الرمل الأحمر في الصيف فتغطي الطابق التحتاني)؛ ليس في فندق الريفييرا فقط (بعد انتهاء الحرب الأهلية اللبنانية سنة 1990، أقفلت الجامعة الأميركية فرعها في بيروت «الشرقية» فانتقل بعض الطلاب إلى «الغربية» لمتابعة دراستهم. الجامعة استأجرت أوتيل ريفييرا القريب، على البحر، وحولته «بناية داخلي». الحرم لم يعد يتسع للاجئين، يقول «المختار». ونحن نضحك. اسمه بهاء بركات، من وادي التيم. يحيا الآن في بلدة أميركية صغيرة على ساحل الأطلسي. أرسل بعد 11 أيلول المشهور في شتاء 2001 ـ 2002 بريداً إلكترونياً يصف أحواله: «لتفهم الملل الذي أشعر به هنا يكفي أن تعلم أن الأخوين رايت، أول من عَبَر الأطلسي بطائرة إلى أوروبا، كانا يسكنان هذه البلدة!»)؛ شريكي «المختار» كان على صلة بطلاب جميع الجامعات في «الغربية». حبيب لطفي كان يُسمّي الغرفة 623 «المجلس الحربي». صديق آخر سمّاها «المختبر». حين ترك «المختار» الجامعة أقحلت الغرفة 623، وسَكَنَ الطابق السادس.

لكن قبل حقبة الهدوء اعتاد حبيب أن يأتي ويأخذني إلى السينما. سيارته مرسيدس؛ طرازها حديث. نذهب إلى جونيه. نذهب إلى الكسليك. في آخر الليل يسرد مغامراته. ثم يحلّ عليه الصمت. كأنه أفرغ ما في جسمه، أفرغ كل ما فيه، على الأرض.

على البحر يبقى بعيداً من الماء. لا ينزل إلى الماء أبداً. يفرك جسمه بزيت الحماية ويقعد. يتناول قنينة بيرة تلو القنينة من البرّاد (الصندوق)، ويقرأ «ناشيونال جيوغرافيك». يتأمل العابرات. لا يشرب إلاّ بيرة «ألماسة». إذا كانت صاحبته معه كفَّ عن تأمل العابرات. يُذكر هذا أمامه مرة، فيقول: «غير صحيح».

لا أراه يسبح أبداً. لكنه يقول إنه يتقن فنّ السباحة.

ـ وماهر إلى حدٍ. لكنني أكره البحر.

بعد نيويورك سافر إلى كاليفورنيا. من حين إلى آخر يُرسل بريداً إلكترونياً. ثم تتباعد الرسائل. ثم تنقطع. سنة 2002 يخبرني صديق مشترك أن دكتور حبيب لطفي يعيش في تكساس الآن.

خلال ربيع 2003 يُرسل لي بريداً إلكترونياً على عنواني في «الحياة»: يقول إنه قد يأتي إلى بيروت هذا الصيف.

مطلع 2004، وأنا أكتب من جديد الجزء الثاني من هذه الرواية، يرنّ جرس الهاتف. أحد الأصدقاء يسألني عن أحوالي. هذا الاتصال غير مألوف. الصوت يبدو مرتبكاً. يبدو متردداً. نبرته لا تتوافق أبداً مع صورة الرجل في رأسي.

يسألني مرة أخرى عن أحوالي؟

أقول: «هدوء».

أسأله عن أحواله. لا أريد أن يخبرني عن المدرسة والمشاكل مع الطلاب ومع الأهل ومع الأساتذة الزملاء ومع الإدارة. لكنني أسأله. لياقة هاتفية.

وهو يقول كلمة أو كلمتين ثم يسألني: هل عرفت عن حبيب؟

أقول لا.

يخبرني عندئذٍ أن حبيب لطفي مات. وقعت سيارته عن جسر بنسلفانيا. وقعت وجرفها النهر.

3 ـ فؤاد بحصلي: قُتِل بينما ينزل من الشختورة إلى الشط. كان يدعس في الماء وهو يرفع وجهه ليرى من أين يُقوصون. أصابه الخردق في أنفه وفمه وعينيه. لم يترك زوجة. ولم يترك ذرية.

4 ـ قرقماز الحصّ: مجذاف أخرق طرق رأسه. سقط من الزورق. غرق ومات. لم يترك زوجة. ولم يترك ذرية. لكن أحد أبناء أخيه جاء وزار عمر البارودي بعد عودة ابن البارودي من القُرم. هذه الزيارة أفضت إلى علاقة بين الاثنين. تصادقا. والحاج عبد الرحيم البارودي أعطى الشاب عملاً في حانوت التبغ. الشاب عبد الودود سيرتقي في عمله إلى أن يُسلمه الحاج عبد الرحيم في «سنة السويس» إدارة الخان. بعد ذلك ـ بعد 1869ـ اكتسب «خان التوتة» اسمه الجديد: عبد الودود الحصّ اقترح على الحاج البارودي استيراد بضائع جديدة لحساب الخان مباشرة من أوروبا، وبيعها للمحلات. والحاج أعجبه اقتراح عبد الودود. كان صادقاً، نبيهاً، أميناً، وصاحب أفكار. ينظر إليه فيتذكر نفسه. الحاج أخذ يستورد القزاز (الزجاج) على أنواعه.

حين تحمل البغال الحمولة من أرصفة الميناء إلى الخان في «السهلات» (صار اسمها: ساحة البرج.) يمشي عبد الودود على رأس القافلة وهو يوجه التنبيهات والتعليمات والتحذيرات. هذا زجاج. ليس بطيخاً. ثريات البلور بهبّة هواء تنكسر. أطقام السفرة باهتزازة البغل تتحطم. يصرخ في المكّارين، يركض أمام الحمير ثم يرجع. سوق الطويلة كلّها تراقب منظره.

اختفت حوانيت الطين القديمة وتلاشت الأكواخ. مثل بيوت ملح ذابت ذات شتاء. سوق الطويلة مسقوف في قسمه القريب من باب السراي. محلاته عالية عريضة عميقة، كلّها لكبّار تجار البلد، آل فرعون وبيهُم وتيّان وتويني وسرسق. بعد أعوام تكفّ قافلة القزاز عن العبور هنا. تتخذ درباً أخرى محاذية للسوق. وأوسع. هناك الزحمة أخفّ. والحاج عبد الرحيم مسرور. مسرور بعبد الودود. ومسرور بالزجاج. البلد كلّها مسرورة بالزجاج. لا تدخل بيتاً الآن

إلاّ وترى فيه مرآة. قد لا تكون كبيرة مثل مرايا المرسلين الأميركان لكنها مرايا، وترى فيها الوجوه. وترى الطرابيش. وترى الأثواب.

نرى الشوارب. ونرى الكنادر. ونرى الزنار. كيف كنا نحيا بلا مرايا من قبل؟ كيف نعرف شكل الوجوه، كيف نعرف مظهر الوجه إذا فرح، إذا عبس، إذا اغتم، إذا أصابه مرض، إذا خرج من مرض؟ البلد كلّها مسرورة بالقزاز. سمّوا خان عبد الرحيم «خان القزاز». وصارت هناك سوق ـ ليست هنا، في مكان آخر من البلد ـ صارت هناك سوق نسمّيها سوق القزاز.

عبد الرحيم البارودي لا يزعل الآن حين يسمع أن غيره أيضاً يجلب زجاجاً من وراء البحر. تغيَّرت الأزمنة. لم يعد الواحد يقدر أن يأخذ من الوالي العثماني احتكاراً ويتاجر وحده بالتبغ. تغيَّرت الأحوال وعبد الرحيم تغيَّر مع الأحوال. تعلَّم أن يعوم ويبقى. والآن عنده كرخانة حرير. ومعمل المنسوجات صار معمله، ابتاع حصّة الحلبي كلّها. لكنه غير فرحان بالمعمل. ويفكّر أن يبيعه. هذه ليست مصلحته. ولعله يبيعه. ولعله يتعلَّم. ما زال يفور بالطاقة، لكنه حين يتعب هذه الأيام ينتبه إلى تصرم الأعوام. بات جسمه ثقيلاً حين ينام. في الفراش ينتبه. وعند القيام من الفراش ينتبه. وعند الصلاة ينتبه. وينتبه إلى التجاعيد على يديه.

لا شامات على يديه. يذكر الشامات تتكاثر على يدي المرحوم عبد الجواد. وينظر إلى أصحابه وأقاربه يكبرون، يطعنون في السن، عاماً بعد عام بعد عامٍ. ثم يتوضأ ويُصلي. يأكل ويشرب وينسى همومه ويعود إلى فرحهِ بالزجاج. مثل زمن التعمير الذي تبع تساقط الأسوار. مثل ازدهار البيع والشراء بعد تدفق الناس إلى البلد سنة الستين. هكذا فرحُنا بالزجاج الآن. أينما سار في الأسواق رأى المرايا المعلقة، ورأى الثريات، ورأى زجاجات قناديل الكاز. ينظر

إلى عبد الودود الحصّ ويقول آن الأوان، رتبّ أحوالك وقلْ يا ربّ! عبد الودود يريد أن يحجّ إلى بيت اللّه الحرام. كل سنة يقول هذه السنة، لكن الحاج يستمهله، يقول انتظرْ، أحتاج إليك، السنة الآتية بإذن اللّه، السنة الآتية على بركة اللّه ورسوله... وعبد الودود يضحك ويبوس كتف الحاج. الحاج عبد الرحيم يحزن عند خروج موكب الحجّ. كل سنة، كل موكب حجّ، يحزن. يذكر البنت التي حُمّت وماتت وهو يُودع الأهل ليحجّ المرة الثالثة. أحبّ تلك البنت حُبّاً لا يُحد. حين ماتت انطفأ في أعماقه قنديل.

عبد الودود الحصّ يستعد للحجّ. يرتب أغراضه وهو يخطط لأعوام ستأتي بعد رجوعه من الحجّ. لا يعلم أنه سيقضي في الصحراء. عبد الودود صاحب أحلام. قبل أن يخرج من بيروت ذهب وزار الخواجات ليتي. ذهب وزار الحاج عيتاني وأخوته. ذهب وزار الحاج محي الدين النصولي. ذهب وزار الخواجات بولس ونخلة طراد. عنده خطط. وإن شاء اللّه، وببركة الحاج عبد الرحيم، تكون عنده تجارة عامة مستقلة. حظه كبير أنه وُلِد في الزمن الجديد. لو كان رجلاً أيام القُرم كانوا قرموه هناك! إن شاء اللّه يرجع حاجاً ويبدأ. الدكان وجده. حيث يجب أن يكون الدكان. الدكان بسوق السادات ببهُم (القزاز). والبضاعة تأتي في خمسة أيام. عنده في رأسه ماركة. عنده في رأسه إعلان. يفتح الدكان وينشر الإعلان في جريدة «لسان الحال». سبحان اللّه، كيف تتغيَّر الأحوال. يذكر أول أيامه عند الحاج. إن شاء اللّه يرجع إلى بيروت ويبدأ. النصولي عنده إعلان في الجريدة. الناس يرون الإعلان ويأتون إليه. يقولون مبروك، مبروك، ويقعدون عنده. لا يشترون دائماً، لكنهم يزحمون الدكان.

إعلان!

قزاز سوريا
ماركة الشمس

نعلن للعموم اننا قد استحضرنا من كرخانة «الخواجات ليتي» الشهيرة جميع انواع قزاز الكاز العال المختوم ولما كانت النمر الاعتيادية نومرو 2 ونومرو 3 ونومرو 4 كثيرة التداول عينا لها أسعاراً رخيصة جداً.

فجعلنا سعر الدزينة من نومرو 2 ستة قروش ومن نومرو 3 ستة قروش ونصف ومن نومرو 4 سبعة قروش ونصف وسميناه قزاز سوريا تحت علامة «الشمس» كما يرى ذلك مختوماً على كل قزازة حذراً من التقليد. وجعلنا أسعاراً خاصة لمن يشتري منه جملة ولا حاجة إلى الإكثار من مدح هذا القزاز بل نقتصر على مدح المختبر له ومحل بيعه العمومي بمحلنا في سوق السادات بيهم المعروف بسوق القزاز ويباع ايضاً في محل السيد عبد الحميد دبوس في مدخل سوق العطارين قرب السبيل وفي محل السيد النصولي في مدخل سوق أبي النصر لجهة ساحة البرج. وقد استحضرنا جديداً لمحلنا جميع لوازم البيوت من ثريات وقناديل وكراسي خيزران على اختلاف أشكالها وتخوت نحاس سيبدران وحديد متنوعة وجميع أنواع الصيني اللين وخلافه طواقم للسفرة وأدوات السفرة من الأرجنبلاكه وأشكاله مرايا مذهبة تروق الذوق وأنواع بلورية مختلفة إلى غير ذلك ومن يشرف محلنا يجد ما يروقه من قبيل السعر وجودة البضاعة

محيي الدين النصولي
وأولاده

5 ـ كُركُر أياس: رجل منحوس. ظنَّ أنه في كابوس حين لقطوه عن رصيف الميناء. ظنَّ ـ للحظة ـ أن الإنكشارية يداعبونه، يعملون معه مقلباً. لم تكن دعابة. الوالي أراد «الفرقة» 90 رجلاً. عنده 89 رجلاً، ولا بدَّ من رجل إضافي، ليملأ بطن السفينة، وينتهي من هذه المسألة. التطوع والتجنيد واللباس والسلاح، كل هذا أتعبه. صدّعوا رأسه. الغبار ملأ القشلاق. وعند العصر عجز عن أخذ القيلولة. قال لهم خذوا واحداً عن الرصيف، خذوه وامضوا، على بركة اللّه. أخذوا أول رجل ـ عمره مناسب ـ رأوه. رجل منحوس. (بعد سبع سنوات، عقب حرب 1860، ينزل جيشان في البلد، فرنساوي وعثماني، فيفرضان عقوبات على دروز الجبل وعلى المسلمين الشوام. في جبل لبنان قُتِل نحو عشرة آلاف نصراني. الآن وقت العقاب: الوزير فؤاد باشا، مع الجنرال بوفور الفرنساوي، يُرتبان عملية قبض التعويضات وتوزيع المساعدات. يرتبان أيضاً نفي الزعماء الدروز بالقُرعة إلى طرابلس الغرب وبلغراد. إحدى السفن تنتظر في مرسى بيروت خمسين رجلاً: السفينة ستحمل أسرى بلغراد. لكن خمسة من المشايخ فرّوا تحت جنح الظلام. ماذا يصنع صاحب العساكر التركية المسؤول عن حراسة السجناء؟ كيف فرّوا في الطريق من القشلاق إلى الميناء؟ عندهم طريقة واحدة للنجاة. الكل يعلم أن الخمسة اشتروا ـ بالعثمليات ـ غفلة الحراس. اشتروا ذمته. ماذا يفعل الآن؟ أرسل الإنكشارية فقبضوا على خمسة بيروتيين من الأسواق. وحملوهم مع الـ 45 المقيدين بالحديد، حملوهم بزورقٍ إلى السفينة الراسية.)

كُركُر أياس قفز إلى الزورق مع القافزين. هذا البحر الذي تغطيه الجثث والطيور جزء من الكابوس. أين ينتهي الكابوس؟ متى يفتح عينيه ويقوم من فراشه في بيته في «زاروب منيمنة»؟ ما هذا

الكابوس الطويل؟ ولماذا لا يسمع ـ وهو في الكابوس ـ ضجة السوق العمومي التي يعرفها، ضجة الطبل والمزمار وضحكات السكارى والنساء العابثات؟ متى ينتهي الكابوس ويقوم من فراشه وجرجي نائم وأخواته نائمات ويغسل وجهه بإبريق الماء ويطلع إلى السطيحة أمام الباب وينظر إلى سرب الحمام يطير فوق بيوت العريسي ويسمع جارة تنده على أخرى، من نافذة إلى نافذة: «ما هذا الصباح الحلو؟». وتتضاحكان. أين ينتهي الكابوس؟ يطول ويطول كأنه ليس كابوساً. وذكر كُركُر أياس إنكشارياً يتقن العربية يسأله ما به، لماذا يشكو، والجنود يدفعونه بالبواريد عن رصيف بيروت إلى الزورق.

ـ أنا من أهل الذمّة! نحن لا نُجاهد، لا نخدم في العساكر الشاهانية! أنا ذمّي. أدفع جزية. وأنا منحوس. دفعت الجزية مرتين. دفعتها للوالي القديم وأضعت القرطاس. وقبل أيام فقط، على العيد، دفعتها مرة ثانية لأني بلا القرطاس. أنا منحوس. لكنني لست مسلماً. أنا نصراني. لا أجاهد. ولا أذهب للحرب في جيش السلطان.

الكلام يندفع من فمه بلا رقيب، والعرق يتصبب من جبهته (ألا يفهمون؟ أين يخطفونه؟). خبطه الإنكشاري الذي يعرف العربية، خبطه بالكفّ على رأسه:

ـ بلا ذمّي بلا بلوط. كلّنا مسلمون.

أخذوه إلى القُرم. ترك أبناً يُدعى جرجي، وعدداً من البنات.

تولى جرجي كُركُر تربية أخواته وتزويجهن. انتظر رجوع الأب (أحد الحمّالين أخبر الناس في سوق القطن أنه رأى الإنكشارية يحملون الرجل الخواجه من ساقيه ورأسه إلى جوف السفينة السوداء

التي أخذت «الفرقة البيروتية» إلى القُرم!). ظلّ ينتظر رجوع الوالد عاماً بعد عام بعد عام حتى عاد محمد الحصّ إلى البلد أواخر خريف 1861. عندئذٍ كفَّ جرجي عن انتظار أبيه: الأموات لا يرجعون.

قبل محمد الحصّ عاد ثلاثة من القُرم. عاد الأخ الأصغر للحاج البارودي صاحب «حارة البارودي».

عاد عبد الكريم النصولي ابن الحاج النصولي.

عاد محمد قاسم الداعوق المشهور من قبل «أعوام القُرم» بـ «بو محدلة» لأنه يرفع المحدلة بيدٍ واحدة.

وكلَّما عاد واحدٌ ذهب إليه جُرجي كُركُر يحمل صرّة مكسرّات ويسأل عن أبيه.

في البدء، حين عرف أن الإنكشارية أخذوا الوالد، ركض إلى الميناء. كان برج السفينة ما زال مرئياً. رآه مثل النقطة في الأفق. ثم غابت النقطة. ركض عندئذٍ إلى كنيسة مار جرجس يطلب مساعدة الخوري ومساعدة الشمّاس. شكلوا وفداً وصعدوا إلى القشلاق. لكن الوالي لم يكن في القشلاق. بعد يومين قابلهم عند المساء وقال: «الزلمي يرجع، هذا خطأ، يعرفون الخطأ في ميناء اللاذقية، أو على الأسوأ، يعرفون الخطأ في ميناء أزمير. يقول لهم إنه من نصارى بيروت، ويقول إنه دفع الجزية، ويردّونه لكم، لا تخافوا، روحوا ناموا، على بركة اللّه».

جُرجي كُركُر وجد الوالي ـ بعكس ما توقع ـ طيباً، حلو اللسان. مضى إلى البلد رائق المزاج. اطمأن قلبه. الوالد يرجع. هكذا قال الوالي: «الزلمي يرجع». ظلّ مطمئناً حتى غابت الشمس. بدأت الوساوس. ذهب إلى كنيسة مار جرجس عابراً أزقة تعجّ

بالوطاويط وكلّم الشماس. سأله ما رأيه بكلام الوالي. قال الشمّاس من مكانه العالي:

ـ الربّ يحرس أباك. عسى خيراً. عسى خيراً.

الربّ يحرس أبي، قال جرجي كُركُر لأخواته.

زوَّجهن الواحدة تلو الأخرى. انتهت حرب القُرم سنة 1856. لم يسمع أنها انتهت إلاّ بعد مرور سنة. معقول؟ ربما سمع بعد شهور. لكنه لم يتأكد. حين رجع ابن البارودي سنة 1857 وقال إنها انتهت تأكد. هذا الرجل كان هناك. شعره صار كالثلج. أذنه مشرومة. كل الوقت يرتجف برداً. وأظافره أحرقها الصقيع.

سأله جرجي كُركُر عن أبيه، هل تعرف كُركُر أياس؟

ـ أبوك. أعرفه. كان معنا في السفينة. وبعد ذلك لم أرَه. افترقنا على الشط إلى معسكرين. لعله أُخِذ إلى المعسكر الآخر. لم أرَه بعد السفينة.

سأله جرجي كُركُر ماذا حدث بمرفأ اللاذقية؟ ماذا حدث بمرفأ إزمير؟ ألم يعرفوا أن أبي ليس مسلماً؟

ابن البارودي نظر نظرة ميتة إلى ابن كُركُر. لم يفهم ماذا يعني. أي لاذقية؟ وأي إزمير؟ حملوهم من هنا إلى سيفاستوبول. لم ينزلوا من السفينة أبداً. ويقول لاذقية! ويقول إزمير! كنّا في القُرم! في مسلخ الغنم!

حين بدأت أعمال شق طريق العربات بين بيروت ودمشق سنة 1858 تعهد جرجي كُركُر شراكةً مع الخواجه إيليا فرعون تزويد الشركة الفرنساوية بالمعاول. الاتفاق دام شهراً واحداً. المساجيري الفرنساوية دخلت على الخط، وجلبت معاول فرنساوية مختومة من باريز. خسر جرجي كُركُر أمواله. الخواجه فرعون نصف تجارته في

مصر. عنده بنك في الإسكندرية. رفع دعوى في محاكم باريس وأخذ تعويضاً. جرجي كُركُر الذي لا يعرف درب باريز خسر ما جمعه من مال، وخسر المال الذي تركه أبوه.

اعتاد في تلك الفترة أن ينزل إلى الشط وينظر إلى غروب الشمس. البحر برتقالي. تتباعد فيه سفن. يسأل نفسه ماذا يحدث إذا رجع أبوه وعرف أنه أفلس؟

طريق العربات بين بيروت ودمشق تبعت خط القوافل القديم: من ساحة البرج إلى حرج الصنوبر إلى حيث تصعد الهضاب نحو عاليه وظهر البيدر. . . ثم تستوي الدرب. تقطع سهل البقاع نحو سلسلة الجبال الشرقية، فتخترق المضائق وتبلغ الشام. طولها 112 كيلومتراً، أكثر بقليل أو أقل. في الشتاء تنهمر الأمطار غزيرة؛ تتوقف الأشغال. الطريق تحاذي خط القوافل. وأحياناً تبتعد عنه. تتحكم بها التضاريس وطبيعة الأرض. (بعد سنوات طويلة، بين 1891 و1895، تُمد سكة الحديد ويجري القطار بمحاذاة هذه الطريق.) أصعب مكان هو الجبل: من كعب الجبل صعوداً إلى ظهر البيدر، تطلع الطريق متعرجة على المنحدرات وتفصل بين القائمقاميتين.

الجبل مقسوم نصفين: الشوف جنوباً، المتن شمالاً. الشوف يحكمه درزي. المتن يحكمه ماروني. خطة الكونت ده برتوي الذي نال امتياز شق الطريق من الباب العالي كانت أن يشق الطريق عبر بلاد الشوف. كان يهوى الينابيع الكثيرة هناك. طلب إذناً من الأمير أمين أرسلان. قال الأمير: «مشكلتك ليست عندي».

الشيخ سعيد جنبلاط ضحك من اقتراح الكونت: «هذه أرض وعرة صعبة، المتن أسهل لك!»

ذهب الكونت إلى المتن. الباكوات هناك، ومعهم البطرك، أجابوه جواباً واحداً:

ـ هذه أرض وعرة صعبة، الشوف أسهل لك.

الكلّ يخاف من طريق العربات. الطريق التي تحمل البضاعة تسلكها العساكر أيضاً. والطريق تقطع عمر الإقطاع.

ذهب الكونت ده برتوي إلى اسطنبول وعاد. بعد رجوعه بدأ شق طريق بيروت ـ الشام على الحد الفاصل بين المتن والشوف. لا هنا، ولا هناك. على الحد الفاصل بين شطري الجبل، بمحاذاة خط القوافل المعروف.

جُرجي كُركُر فكَّر أن يتعهد تموين الشركة الفرنساوية بالمسامير أو بالخشب أو بالسيور أو بالحوافر للبغال والحمير والأحصنة. هذه الأشغال تعمل ثروات الآن. لكن من أين يأتي برأس المال؟ الفرنسيس يعملون الطريق من أجل الطريق ومن أجل حرير لبنان والشام. المال في الحرير. جرجي كُركُر فكَّر في القزّ. أن يُربي قزّاً! لكنه لا ينفع في هذه الأشغال. يحبّ التجارة. وإذا رأى قزّاً عطس!

في تلك الفترة عاد من القُرم عبد الكريم محي الدين النصولي. جرجي كُركُر ذهب إليه بلا صرّة مكسرّات وفي حلقه غصّة. جيوبه فارغة. منذ أيام يأكل حبوباً، لا يأكل لحماً. حظّه حسن أنه زوّج بسرعة أخواته. حين رأى ابن النصولي يرجف من البرد، ملفوفاً ببطانيات الصوف، قاعداً بين المجامر، بينما العرق يتصبب من وجوه القاعدين عنده، انشرح صدره. حالي أفضل من حاله، فكَّر جرجي كُركُر، النصولي الصقعان!

ارتفعت معنوياته. حين سمع أن حائط دعم يُبنى للطريق قد

وقع، ارتفعت معنوياته أعلى فأعلى. هؤلاء منحوسون. لست منحوساً. سنة 1859 بدأ يتاجر بالثياب. يشتري من العنابر بالجملة ويبيع بالمفرق. يدور على البيوت ويبيع. الواحد يبدأ صغيراً ثم يكبر. الشغل ليس عيباً. العيب أن تجوع. الثياب أحسن تجارة. قمصان. قبات، ربطات رقبة. كفوف. كلسات. زنانير. برانيط. سراويل. أثواب. يأخذ ويعطي مع الزبائن. يُربي الزبائن للمستقبل. المهم أن تكسب ثقة. لا بأس إذا لم تربح كثيراً في البداية. بعد وقت تربح. على مهلك، تصل.

ارتفعت أعمدة الدخان فوق الجبل سنة 1860. هجم الشوف على المتن والمتن على الشوف والشوف على الشوف والمتن على المتن. كل القُرى هجمت على كل القُرى. في هذا الجبل موارنة ودروز. وفي هذا الجبل موارنة ودروز. في المتن احترق الصنوبر. وفي الشوف احترق السنديان. وهنا وهناك احترقت شرانق الحرير. كان الوقت آخر الربيع. وكل المخازن مملوءة بالفيالج المقطوفة. احترقت المواسم. الجبل كلّه احترق. وجرجي كُركُر ارتفعت معنوياته. أعمال شق الطريق توقفت. والدخان يغطي السماء. هؤلاء منحوسون. هو ليس منحوساً.

قطعان الفارين من المذابح تتدفق على الطريق الجديدة التي لم تكتمل. مشوا على طريق العربات وحدلوها. جاؤوا من الجبل. جاؤوا من سهل البقاع. وجاؤوا من الشام. الكلّ يهرب. قوافل من الهاربين على الأقدام، حفاة، بثياب ممزقة، وعلى الظهور بطانيات لفّوا بها أغراضهم. قطعان بائسة تبدأ خارج باب دمشق فتمتد في سلسلة إلى باب بيروت. البدو يهاجمون السلسلة في وادي القرن ويقطعونها. يسرقون ويقتلون ويفرّون. ثم تتدفق موجات جديدة من النازحين، والسلسلة تكتمل حلقاتها من جديد. يتبعون طريق العربات

التي لم تكرّ عليها عجلة بعد. تجذبهم الطريق إليها كالمغناطيس. خط طويل يمتد بين أشواك التلال. الطريق تحملهم إلى بيروت.

جرجي كُركُر يسمع عن المذابح في حاصبيا وراشيا وزحلة ودير القمر ودمشق، ويقول لست منحوساً، لست منحوساً. الربّ معي.

ساحة البرج تُنصب فيها الخيم. باحة «خان التوتة» تغطيها الفرشات. المرسلون يركضون بين الخيم. أهالي بيروت يتبرعون بالأغطية، بأكياس الطحين، وبالزيت إن استطاعوا. المساعدات ستأتي بالبواخر من وراء البحر. وحتى تأتي نتصيد السمك.

جرجي كُركُر يرى الجرحى، يرى الدم على الوجوه المتربة وعلى الثياب، ثم ينحدر صوب البحر. يعبر عند «محطة الشام»، يشمّ الروائح، ويتابع دربه. مخازن الميناء ينام فيها لاجئون! تسلقوا سفناً أيضاً! النوارس فوق الصخور، والبحر هائج قليل البواخر. هناك عاصفة تقترب. يعرف من البيوض التي تفقس في عرض البحر. عاصفة ورعد.

بعد 1860 توسع فجأة بتجارته. رجل من آل خوري هارب من بكاسين بجوار جزين أعطاه ذهباً. أعطاه ذهباً وأعطاه ابنته. تزوج جرجي كُركُر البنت. وفتح بالذهب دكاناً داخل باب إدريس. سنة 1861، عند رجوع محمد الحصّ إلى البلد، كانت زوجة جرجي حاملاً. محمد الحصّ أخبره أن كُركُر أياس، «الخواجه والدك»، مات وهم ينزلون من السفينة عند ساحل القُرم. كان ذلك قبل سبعة أعوام، أقل بقليل أو أكثر بقليل.

ابن كُركُر لم يسأل ابن الحصّ ماذا صنع في الأعوام بعد الحرب؟ الحرب انتهت سنة 1856. لكنه لم يرجع إلاّ الآن إلى البلد. أين قضى السنوات الخمس الباقية؟ ابن كُركُر لم يسأل.

محمد الحصّ أخبره أن الوالد وقع بالماء وغرق. مات لأن البحر كان هائجاً ومملوءاً بالأموات. ولأن القنابل كانت تتساقط كالأمطار على الرؤوس. جرجي كُركُر شعر أنه لا يريد أن يسمع أكثر عن هذه القُرم. يريد أن ينساها. وأن ينسى الوالد. ليتغمده الربّ برحمته. كان منحوساً. ترك صرّة المكسّرات أسفل الفرشة ومضى.

مضى جرجي كُركُر إلى حياته. إلى الزوجة والدكان والأعوام الآتية. رُزِق البنين والبنات وعاش حياة طيبة. بعد دكان باب إدريس فتح دكاناً على ساحة البرج: أهل زوجته سكنوا البيت الذي يعلو الدكان. قبالة موقف عربات الديلجانس الكبير. عند الظهر ينادون عليه فيطلع ويأكل معهم. يحبّ المخلوطة مع سماق. ويحبّ الكبّة. ومن النافذة يرى عربات الديلجانس تكرّ محملة بالناس والبضائع.

الربّ يحرس خطواته. عبرت الأعوام وكثرت أمواله في «البنك العثماني». وكثرت أمواله في «البنك البريطاني». البلد تتكاثر متاجرها ومخازنها وبنوكها. الجبل ساكن: المتصرفية لا تُسمع فيها فرقعة بارودة. العربات تكرّ من الشام إلى بيروت. من بيروت إلى الشام تأخذ الرحلة نهاراً الآن!

محمد الحصّ المقروم (لكن لماذا يتذكره) رجع إلى بيروت راكباً إحدى العربات الديلجانس الأولى، تجرّها أربعة جياد. قال إنه لولا الطريق ما أتى من دمشق إلى بيروت، كان سيبقى في الشام. لكن هذه الطريق مثل بساط الريح، فكرة عجيبة! لا يقدر أن يسير مسافة طويلة. ولا يقدر أن يركب لا على حصان ولا على بغل ولا حمار. في القُرم دخلت خشبة أسفل ظهره. يقول فاتت خشبة أسفل ظهري، ويعضّ لسانه.

كُركُر الذي صار أباً، والذي سيصبح عما قريب جدّاً أيضاً، قرر

أن يُوحِّد تجارته، أن يُوحِّد الدكانين في دكانٍ واحد كبير. إحدى بناته تتعلم الفرنساوية عند اليسوعيين. لغة ليست سهلة، لكنها تتعلمها. البنت ذكية. تفهم. جمالها مقبول. ولسانها سكر. ليست منحوسة.

سيُوحِّد الدكانين، وكما قالت البنت الأفضل أن يكون اسم المحل من بلاد الفرنسيس. هكذا يأتي إليه آل سرسق وفرعون وبسترس وطراد وفياض ورعد وهاني. لكن عليه أن يعمل في الإسم شيئاً بلدياً أيضاً، أن يجمع بين البلد والقصور، فماذا يُسمي محله؟ يريد أن يجيء إلى الدكان كل من يحمل في جيبه مالاً. لا يهم من أين يأتي الزبون، المهم أن يشتري.

في تلك الفترة أرهقته الكوابيس. يرى البحر يرتفع والطوفان يغمر ساحة البرج وبضاعته تتلف وتفسد. ضايقه الكابوس فأجّل تنفيذ مشروعه. وكلّما أراد أن يُوحد الدكانين تردّد وأجّل، وقال أنتظر، لِمَ العجلة؟

لم يُقرر. زوجته البكاسينية قررت عنه. سألته هل وجد اسماً للمحل؟

قال وجدت.

سألته عنه.

ـ البون مارشه الصغير.

قالت إنه اسم غير مفهوم، ماذا يعني؟

استبد به غضبٌ فأوصى الخطّاط على اللوحة فوراً. ونشر إعلاناً في الجرايد.

وزوجته ضحكت.

اطلبوا

«الشاي المسكوبي الفاخر»

«والقمصان وكلسونات الصوف»

«والفرو من جميع الأجناس»

«واللعب هدايا إلى راس السنة»

«ومشد للشوارب»

«من»

AU PETIT BON MARCHE

مخزن

«البون مارشه الصغير»

الأسعار محدودة ومقيدة على كل قطعة

قمصان	أمشاط	جزادين	طقومة أولاد
شماسي	براويز	شنتان	لعب
عصي	برانيط	روايح	طرابيش
قبات	أزرار	صابون مطيّب	فرو
ربطات رقبة	زنانير	بودرا	مزيكات
فراشي	كلسات	مقصات	شاي مسكوبي
كفوف	محارم	عويسيات	كالوشات
مشد للشوارب	مناشف	أمواس حلاقة	وهلمَّ جرّا

أشياء كثيرة للهدايا نشتري ونبيع نقداً

جرجي كُركُر

6 ـ عبد الرحمن منيمنة: ذهب إلى القُرم وهو يعرج. لم يكن أعرج. لكنه اشتكى دائماً من ألم ركبته. زوجته لا تذكره إلاّ ينق من هذه الركبة اليمنى. أثناء العصور المصرية (1831 ـ 1840)، في السنة الأخيرة من زمن النامي الأمير، اكتشف الحشيشة. كان فتى في الحادية عشرة أو الثانية عشرة. ربما في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة. يعاشر زعران المينا. يلعب بالزهر. ويُرى خارجاً من السوق العمومي. وما جعل الناس ينقمون عليه: اسمه. واحد يحمل هذا الإسم الطاهر ويفعل هذه الأفعال! لكنه بعد الزواج راق. أو هكذا ظُنَّ في البدء.

تزوج فرُزق البنين والبنات. اشتغل بورشة بناء الخان في السهلات. وبنقل الحجارة من وطى المصيطبة لبناء البيوت للديريين بعد «الحركة الثانية» (1845). ذهب ألم ركبته ولم يعد يشكو إلى أن مرضت زوجته.

أثناء مرضها رجع يزور «السوق العمومي» وينزل إلى المقهى على المرفأ ـ في الجهة الأخرى البعيدة من «محطة الشام» ـ ويعاشر المتبطلين. يقعدون النهار كلّه. يدخنون الأراجيل الملغومة بحشيشة «الإسكندراني»، تنباكها قوي الرائحة، يشمّه البحارة من الزوارق، ولم يبلغوا الشط بعد. يلعب الزهر. يلعب بالورق. يلعب الطاولة، ويقذف الكلام إلى هذه الجهة وتلك. شيش بيش. ديشش. جهار وس. أكيبير. درجي. س ودو. الحجارة تطقّ على خشب الطاولة، والتركية تمتزج بالعربية وبهتافات: واحد قهوة، جمرة يا ولد، قهوة سادة، قهوة بملعقة سكر، واحد زهورات. . . إذا طلب عبد الرحمن منيمنة «زهورات» يفقعون ضحكاً. ويسألونه ماذا جرى، رجع وجع الركبة؟

أسماؤه لا تُعد: بكره سمّاه سلمان، فصار «بو سلمان». لكن

الكنية لم تعلق عليه. أبو ركبة؛ أبو زهورات؛ وأبو سلمى. هذا الاسم الأخير من ولعه بإحدى الحلبيات في السوق. طال مرض الزوجة وامتناعها عن إظهار الأسنان في فمها (كل الوقت فمها مزموم، مثل برتقالة ناشفة، ولا تحكي إلاّ لتقول يا ظهري يا بطني، تضع يدها على وركها وتقول يا رأسي! لا يطيقها. وصار يضرب الأولاد. كان يضرب. صار يضرب أكثر. مع أنه لا يشرب العرق كثيراً، وهذه الحشيشة لا تضايقه. لكنه أحياناً يضرب ضرباً قوياً. حين رأى الكدمات الزرقاء على ظهر سلمان سأله من يُعارك في السوق وزعق بوجهه. لم يصدق أنه هو الذي بقّع ظهر سلمان!).

طال مرض الزوجة فرجع ألم الركبة. ماذا يعمل؟ لم يترك حكيماً إلاّ وذهب إليه. ثم دلّوه على بيّاع الترمس. من؟ الحلبي أبو البنات؟

قالوا هو، رحْ إليه، لن تخسر شيئاً.

ذهب إليه يعرج. قطع «قناة الجديدة» وهو ينظر شذراً إلى الوجوه الحلبية. لا يحبّ هذه القناة. لا يدري لماذا يمقتها. لا يحبّ هذه الدرب. ولا يحبّ هذه اللهجة الغريبة. مع هذا سحب رجله من باطن البلد إلى دكان الحلبي بيّاع الترمس والبزور. الحلبي أخذ يده وتلمس راحته ثم طقطق أصابعه. ابن منيمنة الحشّاش كرر أمام الحلبي أن الألم في ركبته، ليس في يده. لكنه قبل أن يكمل العبارة، بينما الحلبي يلقط الإصبع الصغير ويفركه، انتبه أن الألم يقوى في ركبته. ثم في لحظة (مثل السحر يا ربّي) زال الألم.

عينا عبد الرحمن اغرورقتا بالدموع. كيف هذا؟ الحشيشة في دماغه، وهتف: «مشكور يا عمي، مشكور». تخلص من كل كراهية، وأحبّ هذا الحلبي المهجّر من بلده. قبل سنة أو سنتين، هذه الحوانيت كلّها لم تكن هنا. كان المكان أشجار توت. يذكر وهو

ينقل الحجارة لابن البستاني التاجر من دير القمر. كان ساعة الراحة يجيء بزوادته إلى هنا، ويقعد بين أشجار التوت. متى كان ذلك؟ بعد ولادة البنت الثانية. صحيح. قبل خمسة أعوام؟ سبعة أعوام؟ ويذكر القنافذ. رأى القنافذ هناك، حيث الفرّان الآن، رآها تنزل في الأرض وفكَّر أنها تحفر الأوكار في المقابر أو عند أصل السور. لأنه طالما رأى ريش القنافذ (هذه الريشة الطويلة، بيضاء وسوداء لونها، والمرسلون يكتبون بها، يغمسون رأسها بدواة الحبر ويكتبون)، عند حافة المقابر وعند أصل السور.

يرحم ترابك يا أمي كيف ذهب الألم؟ أراد أن يبوس الحلبي الشيخ في رأسه. لكن بيّاع الترمس ترك يده وقال له إنه لا يقدر أن يُشفيه.

ماذا يقول؟ لقد ذهب الألم! عبد الرحمن قال إن الألم ذهب، راح من ركبته، فلماذا يقول الحكيم هذا الكلام؟

والحلبي قال الألم يذهب لحظة، لكنه بعد ذلك سيعود، هذا الألم بلا دواء.

هو قال الجملة المشؤومة من هنا، وركبته رجعت تؤلمه من هنا. هذه المرة انفجر الألم أقسى، كاد يصيح. أوشك أن يلطم الحكيم في وجهه: ماذا فعل به؟ ماذا فعل بسبابته؟ ماذا فعل بركبته؟ لكن الألم زال برمشة عين. كيف زال؟ وانتبه أن الحلبي التقط يده مرة أخرى. وأخذ يعصرها عند الرسغ. ويلمس الشريان النافر الأزرق. ويهمس كلاماً غير مسموع. ما هذا؟ رقية؟

ثم انتبه ابن منيمنة أن الحلبي بيّاع الترمس لا يهمس رقية بل يكلمه. يكلمه من دون أن ينظر في وجهه. يكلمه وهو ينظر إلى اليد وإلى التراب. لماذا لا ينظر إلى وجهه؟ يخاف منه؟ يقرف؟ لكنه يعرف ماذا يصنع. الألم تلاشى من جديد. ركبته ارتاحت. حتى إن

قلبه ـ في هذه اللحظة ـ ارتاح. هدأت أنفاس عبد الرحمن. انتظمت دقّات قلبه. تلاشت الخفقة السريعة من رقبته. سكت طنين أذنيه. لا يعرق ظهره الآن. والعالم يبدو ساكناً، طيباً، مملوءاً بالودّ. لا بدَّ أن أم سلمان تستلقي على جنبها في البيت، وتلاعب الأولاد. باتت سمينة جداً. مع أنها لا تأكل. كيف صارت سمينة؟ صارت جبل لحم. لكن وجهها كوجه العصفور. حرام أم سلمان. حرام. أشفق عليها. أشفق على الناس المساكين. وأشفق على عبد الرحمن منيمنة. كان يرتاح. هذا لم يحدث منذ دهر. هذه الراحة في البدن! ورفع رأسه ونظر إلى الستارة. وإلى سلة البزور. وإلى السماء الظاهرة من كوّة الدكان. كانت زرقاء، تسطع سطوعاً. وعجب أنه لم ينتبه إلى هذا المنظر الجميل، إلى هذا المنظر البديع، من قبل. اللون الباهر نزل في عينيه. نزل في زلعومه. نزل في معدته. نزل في ركبته. بدأ يسمع ما يقوله الحلبي، ما يقوله الحكيم الحزين العينين. بدأ يسمع الكلمات كأنها تأتي من هناك، من الأزرق الساطع الكبير.

ـ الدواء عند ربّك يا ابني. اذهبْ إلى الجامع. من البيت إلى الشغل إلى الجامع إلى البيت. انتبه للبيت، انتبه للشغل، انتبه لمواقيت الصلاة. أنا نصراني. أنت لست نصرانياً. لو كنت نصرانياً أقول لك من البيت إلى الشغل إلى الكنيسة إلى البيت. تفهم ما أقول؟ افعلْ كما أقول والربّ يرعاك. الدواء عنده يا ابني. والصلاة تنفعك. أنت قليل السجود والقيام. الصلاة تشفي ركبتك. شحم البطة يذوب. وتر الساق يتمدد. ركبتك تتحرك. والألم يزول. الصلاة تنفعك يا ابني. هذا دواؤك.

كان الوقت صيفاً. من الصيف إلى الخريف أقبل عبد الرحمن منيمنة على الصلاة. يُصلي في جامع السراي. يشتغل في ورشة عند

القشلاق. حين يرجع إلى البيت لا يضرب أحداً. لا أم سلمان ولا سلمان ولا أخوة سلمان. حين حلّ الخريف ونزلت الأمطار توقفت الورشة. نزل مرة إلى شط البحر فرأى البحر أخضر اللون، أزرق ثم أخضر، وفي الأفق كان رمادياً. ثم رأى اللون يتبدل. كأن ترتيبه انعكس. كأنه الآن يقف هناك في الأفق، وينظر إلى هنا، إلى الشط. سمع هتافاً وحين استدار رأى رفاقه القدامى. كانوا جرّوا حصائر من المقهى إلى الشط، وجلسوا عند الجميزة يلعبون بالورق. كانوا يسمّونه «ورق غيز»، ويقولون إن قنصل الفرنسيس الذي عمل الكرنتينا هو الذي جلب ورق الكوتشينة إلى بيروت. جلبه من باريز. لا يسمّونه ورق الكوتشينة. بل ورق اللعب. في ذلك الزمن الأول كنّا إذا رأينا ورقة من هذه الأوراق تطير من شرفة القنصل نأخذها ونمسحها بالمنديل ونطرقها بمسمار إلى حائط. الصورة على الورقة عجيبة، ملونة، تُبهج العين. صورة امرأة أو شاب أو رجل. ملكة أو أمير أو ملك. ملوك أوروبا كلّهم لا يعملون شيئاً غير اللعب بهذا الورق. كيف يلعبون به؟ أمر عجيب. هذه أوراق عليها رسوم، رسوم بألوان صفراء وحمراء، كيف نلعب بها؟

الإنكليز الذين نزلوا بالبلد سنة 1840 كانوا يقعدون على ظهر البواخر الراسية، يلعبون الورق، يأكلون بطيخاً أحمر، ويصيحون. الخواجه سرسق أوصى من باريز ولندره على ورق الكوتشينة. الآن يلعبون الورق على الشرفات الرخام في قصور الرميل والأشرفية. لكنهم لا يصيحون. النساء، إذا لعبن بالورق، شربن أيضاً كؤوس الشراب، وأكلن خبزاً يابساً حلو الطعم يسمّى «البسكوت» و«البسكويت». لفظه صعب هذا الخبز الفرنجي، لكنه طيب. مثل الكعك والمعمول، لكنه بلا سمسم وبلا حشوة جوز وفستق أو تمر هندي.

عبد الرحمن منيمنة جلس مع رفاقه يلعب الورق. حين أعطوه نربيش الأرجيلة أخذه. مسح الأبزيم الرطب بكمّه وسحب نفساً. اللّه. ما أحلى القعود مع الأصحاب في هذا المكان الساكن. بقي مع أصحابه حتى غربت الشمس في البحر، وراء صف السفن الطويل. رأى النوارس تعود إلى أعشاشها بين الصخور، ورأى اللون الأحمر يغمر البحر. كان اللون بديعاً. وسأل نفسه كيف يحيا الواحد الحياة كلّها ولا ينتبه إلى هذه المناظر.

على الطريق إلى بيته، يعبر الأزقة والدهاليز من كعب البلد إلى رأسها، رأى البيوت تميل ثم تعلو ثم تهبط. حدودها تتداخل، وفي الأعالي تظهر السماء مملوءة بالنجوم ثم تختفي. كأن النجمة تغمزه! دخل دهليز الحدادين القديم الذي يسمّونه «السيدة» فوجد نفسه في ساحة جرجي (مار جرجس). عَبَرَ الساحة ورائحة البابونج تملأ أنفه. من أين تجيء هذه الرائحة؟ ثم تسلق طلعة الدركاه التراب، وقطع القسم القصير المبلط بالحجارة المفلطحة، وانحرف إلى اليمين. بيته غير بعيد من السوق العمومي. العوالم جاراته. وضحك للخاطرة الظريفة. ثم شعر بثقلٍ في رأسه. هذا التنباك. هذه الحشيشة. منذ زمنٍ لم أدخن. هذا هو السبب. الثقل في الرأس. ليس ثقلاً. بل خفّة. كأنه يطير. لماذا قال إنه ثقل؟ ثم انتبه عبد الرحمن منيمنة: ركبته توجعه!

قفز من السفينة إلى الماعون فطرقت ركبته الخشب. لم يهتم. من يبالي بالركبة الملعونة في هذه الساعة الحمراء؟ ينظر إلى البحر ولا يصدق. ما هذا؟ مثل مستنقعات تفور بالجيف! هذه القُرم؟ قالوا إنها جبال كلّها ثلوج، وعليك أن تلبس الصوف فوق الصوف! وقال هل يخُيف البرد رجلاً، نُشعل ناراً!

اهتز الماعون وتدافع الجنود. سقط على جنبه وكلّهم فوقه.

تمسك بالخشبات لئلا يسقط. ارتفعت موجة وخبطت رأسه. نزل بوجهه إلى تحت يحميه من الماء الأحمر الفظيع. حين تراجعت الموجة رفع وجهه فرأى ساقاً عارية تسبح في البحر، ساقاً بشرية مقطوعة من أعلى الفخذ، وتخرج منها الثعابين. لم يفهم ماذا يرى. لم تكن ثعابين. هذه نرابيج أراجيل! معقول! ثم أدرك أنه لحم الفخذ، اللحم ذاته، والعظم أيضاً! ارتفعت الساق وهبطت. رأى الركبة تنزلق. رأى بطّة الساق. رأى القدم السمراء. ورأى أصابع القدم. بان سرب أسماك أحمر اللون يسبح حول الساق السمراء العارية، يسحبها إلى أسفل، فيدفعها الموج إلى فوق. زبدٌ يفور عليها. رغوة حمراء. لماذا لا تغرق هذه الساق؟ ليست خشباً؟ كيف تعوم إذاً؟

سمع صياحاً. التفت فرأى إصبعاً تدلّ إلى أعلى. رفع رأسه فرأى السماء، بيضاء كاللبن، ورأى شمّاماً أسود يقع من الأعالي. القنبلة نزلت جنبه. أحسّ ثقلها على الكتف. كأنها تلمس الكتف لمسة خفيفة. قبل أن تلمسه كان الألم الفظيع يحرق ركبته. بعد اللمسة غاب الألم.

عبد الرحمن منيمنة لن يرجع وهو يعرج إلى بيته. ولن يرجع سليم الساقين. القنبلة أنهت ألم الركبة. وأنهت حياته. غرق على ساحل القُرم ومات. ترك أرملة. وترك ذرية.

ابنه البكر سلمان منيمنة عمل وقّاداً. يحرق البلاّن (الوزال) والحطب وأكواز الصنوبر في «فرن منيمنة»، من الفجر إلى النجر. وينال من قريبه صاحب المكان أجرته اليومية عند المساء: يعطيه خمسة أرغفة. الخبز يكفي لإبعاد الجوع عن بيت عبد الرحمن منيمنة. رجل ذهب يقاتل في سبيل السلطان. الخبز يكفي. وأم سلمان تحسنت صحتها. صارت تخرج إلى البرية و«تُسلِّق». تقطف

من البرية الهندباء والفرفحين والسلق والخبيزة. تعمل منها الفطائر والطعام الطيب. تقطف «قرص عني». تحصل على بصلة من هنا أو هناك. ثم تعمل سلطة. سبحان اللّه. لا ينسى فقيراً. وفي موسم الحصاد تسير وراء الحاصدين في «سهل الناصرة» وتلتقط بين الحزم. ويتركونها تلتقط. حين جاء الحاج ورأى أنها تلتقط سأل من هذه؟ فقالوا أم سلمان، زوجها أبو ركبة ذهب إلى القُرم ولم يرجع. قال لهم اللّه يساعدها ويساعد أولادها، دعوها تلتقط بين الحزم ولا تؤذوها. وانسلوا لها من الشمائل ودعوها تلتقط. اللّه يساعد الفقير.

سلمان يكبر. عوده يقسو. وعيناه تتسعان. صدره احترق بنار الفرن. تغيَّر لونه. لكنه لا يشكو. البيت صار حلواً: أم سلمان استنجدت بأولادها كلِّهم ومسحت حيطان البيت وطرشته بالكلس الأبيض. ذوّبت الكلس في السطل الحديد وطرشته. البنات عملن بكيس طحين «برداية» (ستارة) بزهور مطرزة، وأم سلمان علّقتها على الشباك. الجارات دخلوا إلى البيت فلم يعرفوه. زرعت الفخارات حبقاً ومردكوشاً، وحين جاء سلمان إلى البيت ذات مساء يحمل لحماً عملت للعائلة كبّة. غمست الخبز في الزيت القليل وقالت لسلمان «يُكرمك ربّنا يا ابني مثلما أكرمتنا!». الجملة نزلت عسلاً في جوف الولد وأشبعته من دون اللقمة.

ظلّ في «فرن منيمنة» (صار يعجن ويخبز أيضاً ويعمل وحده خلطة اللحمة بعجين) حتى سنة الطاعون الأسود. بعد الطاعون اشتغل في ورشة تنظيف السهلات وهدم البيوت ونقل الردم إلى شط البحر. صاروا منذئذٍ يسمّون السهلات: الساحة. بعد ذلك ـ وقد بدأ يأخذ من صاحب الأشغال قروشاً ذات رنين ـ لم يرجع إلى الفرن. صار يشتغل في البناء. معلم العمار أحمد الفاخوري أخذه تحت جناحه. عندما بدأت أشغال شق طريق بيروت ـ الشام سنة 1858

اشترك في بناء حيطان الدعم تحت قرية بعبدا. على تلك المنحدرات الخطرة زلقت قدمه أكثر من مرة. سبحانه التقطه من فم الموت ثلاث مرات! عنده أم. وعنده أولاد أخوة. والأب ـ كما يبدو ـ لن يرجع أبداً. الحرب انتهت. والعملاق البارودي رجع وقال إنه لا يعلم عن أبيه شيئاً. تذكَّر أنه كان معهم ببطن السفينة وأنه كان يشكو من الإمساك. لكنه بعد ذلك لم يرَه. «حين نزلنا إلى الشط فرَّقونا على معسكرين. يكون ذهب إلى المعسكر الآخر». غير العملاق البارودي لم يرجع أحد. وحده ابن البارودي نجا من القُرم. نجا لأنه عملاق. بدنه الهائل يتحمل البرد والضرب. لم ينجُ غيره. لن يرجع من القُرم أحدٌ. سبحانه رحمن رحيم. وساعدي قوي. وقلبي قوي. لن تجوع أمي. وإذا تحسن الوضع لن تظل تلتقط وراء الحاصدين.

سلمان منيمنة اجتهد في الشغل حتى ترقى وصار ناظراً. معلم العمار الفاخوري يعتمد عليه الاعتماد الكامل. الفتى شديد النباهة، صار رجلاً برمشة عين، وتعلم عليه فن تعمير الحيطان الدكّ المتينة. تعلم المصلحة وهو يشتغل. يشتغل بعين ويراقب بعين. ليس عاطلاً كأبيه. ولا يؤذي أحداً. يعمل ويصلي ويصرف على البيت ويهتم بأخواته. يعرف كيف يُدير الشغيلة.

ظنّ سلمان منيمنة أن القُرم صارت وراء ظهره، وأن الأب صار وراء ظهره. لكن قبل انتهاء الورشة تحت قرية بعبدا جنوب بيروت جاء من البلد رجل وقال إن أحدهم عاد أمس من القُرم. سلمان منيمنة عرق رأسه. غامت الدنيا أمام عينيه. لكنه حين علم أن العائد من آل النصولي تنفس الصعداء. ليس أبي إذاً.

يضطر أحياناً للنوم خارج البلد خمسة أيام أو سبعة أيام. الشغل على الطريق. وكلما تقدّمت الأشغال ابتعد عن البلد أكثر. ماذا يعمل؟ من دون هذه القروش كيف تشتري أمه طحيناً وزيتاً ولحماً

وخضراً؟ أم سلمان ما عادت تخرج وراء الحاصدين. أجرة سلمان صارت تكفي البيت. ومع «السليقة» من البرّية صيفاً ربيعاً خريفاً يشبعون ويتنهدون ويشكرون سبحانه.

ابن الحاج النصولي ـ هو أيضاً ـ لم يخبره شيئاً عن أبيه. إلاّ الشكوى من الإمساك. يبدو أن الأب ظلّ ينقّ بخصوص الإمساك من بحر بيروت إلى بحر مرمرة. نظر سلمان منيمنة إلى ابن الحاج محي الدين النصولي يرتجف برداً في الغرفة المخنوقة بالنار والدخان، وأحسّ بماء في عينيه. دخل الدخان إلى عينيه فأوشك على البكاء. وخرج.

عند عودة الثالث (محمد قاسم الداعوق) سنة 1860 لم يذهب سلمان منيمنة لرؤيته.

بعد فترة التقاه صدفة في جامع السراي. الناس دلّوا ابن الداعوق إليه. وقالوا هذا سلمان منيمنة، أبوه كان معك في القُرم، تذكره، بو ركبة؟

سلمان شعر بالحرج. لكن ابن الداعوق هزّ رأسه وقال إنه لا يذكر. وسلمان ارتاح لأن الرجل نسي أباه. هذا أفضل للجميع.

حين نزل الجيش الفرنساوي في حرج الصنوبر (جنوب بيروت) بعد مذابح الجبل ودمشق اشتغل سلمان منيمنة في بناء مطبخ العسكر وفرن العسكر. الضباط بنوا بيوتاً أيضاً: كانوا يقفون ويُصدرون الأوامر للشغيلة كأنه ليس هو «الناظر»! كأنهم هم أصحاب المصلحة! العمار فن! وهؤلاء يريدون أن يبنوا كما يقوصون! همج! ويقولون إنهم فرنجة!

سلمان منيمنة تضايق من الضباط الفرنسيس لكنه أكمل العمل. عليه أن يشكر ربّه. يدفعون ذهباً. ويعطونه تبغاً أكثر مما يستطيع أن

يُدخن. يضحكون معه. ويطلبون منه تعليمهم الكلمات البيروتية. في تلك الفترة اكتشف مهنة جديدة: تصريف العملة. الضباط والجنود أموالهم فرنساوية، ليست كقروشنا وليراتنا، ولا يقدرون أن يشتروا بها فاكهة وعرقاً. تعلموا شرب العرق. في البدء استنكروا رؤية البيروتي يمزج العرق بالماء. ما هذا؟ يغشون بالخمرة؟ ثم اكتشفوا أن العرق ليس نبيذاً. مع الماء والثلج يُشرب. لا يُشرب وحده. سلمان منيمنة صار يأخذ عملة فرنساوية ويبدلها بعملتنا. كفّ عن الشغل بالعمار. المعلم الفاخوري زعل منه. ثم رضي عليه ـ بعد وقتٍ ـ وقال اللّه معك، المهم أن تظلّ تقياً. وانتبهْ لأمك وأخواتك وأنا لن أزعل لأنك تركتني، على بركة اللّه.

ظلّ سلمان منيمنة يشتغل مع إيليا دبّاس في تصريف العملة لصالح الخواجه فرعون ـ صاحب الوكالة التي ستتحول بنكاً ـ حتى ذهب الفرنسيس. جاؤوا بالبحر وذهبوا بالبحر. إيليا دبّاس (الهارب من دمشق إلى بيروت بعد المذبحة) وجد نفسه بلا شغل. فودّع صاحبه سلمان. ومضى إلى صيدا. عنده أقارب هناك. يملكون كرخانة حرير، وهذه مصلحة أهله في الأصل. ذهب إيليا دبّاس إلى صيدا. وبقي ابن منيمنة في بيروت. لم يبقَ بلا شغل. ولم يرجع إلى العمار. ولا رجع إلى «فرن منيمنة». وجد شغلاً جديداً. هذه المرة أيضاً كان سبحانه يُسهلها أمامه.

الفرنسيس يركبون بواخر المساجيري والدوارع. يغادرون حرج الصنوبر وطرف ساحة البرج. (أقاموا هناك معسكراً صغيراً، حيث كانت معسكرات الإنكليز أيام كان سلمان ولداً يلعب بالحجارة وبقذف الحجارة على صفحة البحر... لكنه لم يكن ولداً، يوماً. كان يضرب الحجارة إلى البعيد وذراعه تؤلمه من ضربات أبيه.). الفرنسيس يرحلون. السفن تأتي وتأخذهم. وحين تختفي السفن في

الأفق الرمادي ـ الأزرق، يستدير سلمان عبد الرحمن منيمنة عائداً إلى البيت ثقيل الخطوة. ليس قانطاً. ولا بائساً. خطوته ثقيلة لأن جيوبه ثقيلة. أثقلوه بالقروش. هذه الأيام الماضية جنى ثروة صغيرة. كلّهم يريدون إلقاء القروش من جيوبهم، عملتنا لا تنفعهم هناك، بباريز لا أحد يأخذ هذه القروش، تصير قطعاً معدناً بلا قيمة. لا تشتري خبزاً ولا جبناً ولا نبيذاً. امتلأت جيوبه بالقروش. صار يعجز عن المشي. باتوا في الأيام الأخيرة ـ وهم يطلعون إلى المواعين ـ ينادون عليه. يأتي، فيقولون افتحْ ثوبك، فيمد العباءة مثل سلة أمامه، وهم يفرغون الصرّر ويضحكون. أثقلته القروش، صار عاجزاً عن الحركة، ولم يصدق. كأنه في منام. كيف يحدث هذا؟ الفرنسيس بخلاء. يُتعبونه بالمساومة دائماً. الخواجه فرعون يقول: «يدهم مقبوضة، دائماً مقبوضة، حتى الملوك عندهم بخلاء». وهو ـ سلمان منيمنة ـ يجد ذلك طريفاً، لأن الخواجه فرعون يده مقبوضة أكثر من الفرنسيس.

الازدهار بدء النهاية. هذه تجارة انتهت. والآن، بجيوبٍ ملآنة (المخدة بالبيت أيضاً ملآنة، لا تخرج أمه من البيت أبداً. تحرسها. ولا تستقبل الجارات. تقول إنها مريضة. أو تقول البنت مريضة. لا تستقبل أحداً.)، وبإذن اللّه تعالى، سيفتح دكاناً. هذا ما يريد. الكل يفتحون دكاكين. البلد امتلأت بالشوام وأبناء الجبل. الحرب هناك تحلّ بركة هنا! والكلّ يفتح متاجر. الراهبات اللعازاريات اللواتي اعتنين بالجرحى واللاجئين في المخيم الكبير ببستان الغلغول هنّ أيضاً فتحن دكاناً. راهبات وعندهن دكان يبيع القماش والأساور والأمشاط واللعب الفرنساوية، كيف هذا؟ إذا الراهبات فتحن الدكاكين، وإذا. . . غير مهم. المهم أن يفتح دكاناً.

لم يفتح سلمان منيمنة دكاناً. مرض وأوشك أن يموت. في

الحمى رأى القروش تكبر وتتورم، تتحول إلى مراكب ودوارع وبوارج ثم تغرق. كانت المتاليك تفرّ من المخدة وتكرج على الأرض، ثم تكرج وراءها عثملية، ليرة الذهب تبرق برقاً، تكرج على الأرض، ثم تكرج في السوق، ثم تنطّ عن رصيف الميناء، وتغطس كالضفدع. في البحر تتحول إلى سفينة. ثم يرى السفينة تغرق. كل ذهبياته غرقت.

حين شُفِي تلمس المخدة فلم يجد ماله. خاف لكن أمه أخبرته أن المال في أيدٍ أمينة. عليه الآن أن يُشفى. لا تخف، قالت أمه.

ـ شُفيتُ، شُفِيت، أين الليرات؟

كان مذعوراً، صوته يرتجف، ويبدو قاسياً. خافت ولعلها ذكرت أباه، لعلها ذكرت زوجها. قالت إن الليرات أمانة عند الحاج النصولي، جاء الحاج وسأل عنك وأنت مريض، الحاج آدمي يخاف ربّه ويحبّ الخير، لا تخف، وجاء معه معلمك.

ـ معلمي؟

ـ الحاج الفاخوري.

ـ والليرات عند من؟

ـ عند الحاج النصولي. رجل كريم وطيب. ابنه، مثل أبيك، راح إلى القُرم. تعرفه.

قام ولبس ثوبه. انتعل مداسه وخرج. أمه تقول على مهلك. وهو يسألها: «الليرات كلّها؟» (كم مرّة عدّها قبل أن يُحمَّ؟ يُكومها على الفرشة وقد أقفل الباب والشباك والدرفة، يُكومها ويعدّها قطعة قطعة. كم مرّة؟). وهي تقول لا تخف يا سلمان، لا تخف يا ابني.

ركض عابراً الأسواق إلى محل الحاج. بينما يركض، بعد

المرض الطويل، هدأ باله. فجأة لم يعد خائفاً على الليرات. أمه تقول الحاج رجل خير، مؤمن تقي، وهو يعرف هذا. كيف نسي أنه يعرف هذا؟ ولم يأتِ وحده. جاء مع معلمه الفاخوري شاهداً. كيف نسي أن معلمه رجل ولا كل الرجال؟ كفّه نظيفة. قلبه نظيف. وعينه نظيفة. كيف نَسِي ربّه؟ كيف دخل الوسواس قلبه؟

كفّ عن الركض. مشى بخطى واسعة. يتنشق رائحة الخبز الحار خارجة من الفرن المجاور. ويذكر زمناً قديماً. يلعن الليرات، والركض وراء الليرات، قال سلمان منيمنة.

حين بلغ محل الحاج النصولي قام الرجل وهو يضحك له. أخذه وأجلسه جنبه. حرّك يده فجاء خادم يحمل صرّة ثقيلة. كانت مملوءة. لم يلمس قرشاً من قروشه. ليس هذا فقط. قال له تعالْ واشتغلْ عندي، أنت كنز، الكلّ يحكي عنك ويذكرك، تعالْ ودبّرْ هذا الدكان.

سلمان منيمنة خرج من محل الحاج لا يُصدق ما يحدث. يريده أن يدبر المحل كلّه. يقول إنه يريد أن ينصرف إلى متجره الكبير في ساحة البرج. فتح متجراً جديداً هناك، الحاج النصولي، ويريد من يدير هذا الدكان القديم. يقول الدكان القديم! محل طويل عريض! وقال له تعال ودبرْ هذا الدكان القديم، معلمك الفاخوري يقول عنك أنك سريع ذكي، أمين صادق، تعال وتعلم هذه التجارة، سهلة، وتتعلمها. ثم انك تعرف كيف تحكي مع الناس، وهم يحبّونك، وهذا المهم! تعال وقل يا ربّ!

«يا ربّ!»، قال سلمان منيمنة واشتغل مع الحاج النصولي. اشترى بضاعة بماله ووضعها في الدكان. بات شريكاً في المحل. واكتشف لذة القعود والبيع وشرب فنجان القهوة المرّة مع الزبائن

وتدخين سيجارة. هذا التبغ اللاذقاني طيب، وهذه القهوة العدنية طيبة. الكلّ يحبّه.

عند رجوع آخر بيروتي من القُرم سنة 1861 ابتاع سلمان منيمنة صدر بقلاوة من «محطة الشام» وذهب يزوره. وجد محمد الحص «المقروم» مستلقياً على جنبه، يشرب حساء بالملعقة، وأخته الكبيرة عند رأسه، تساعده. لا يقدر أن يقعد. القعود يؤلمه. تبادلا كلاماً قليلاً. شكره الرجل على البقلاوة، لكنه أكّد له أنه لم يرَ أباه أبداً. لا في القُرم وأعوام القُرم، ولا قبل ذلك. ببطن السفينة كنّا مثل الخراف في الزريبة، قال، ثم إن هذا كان قبل سنين بعيدة، ما عدت أذكر. لكنني لا أذكر الاسم، لا أذكره إطلاقاً، ولا أعتقد أنني التقيت أباك. لا، لم نلتقِ.

سلمان منيمنة استجمع شجاعته وقال إنه ذهب وزار كل من عاد من القُرم: زار عمر البارودي. وزار عبد الكريم النصولي وهو الآن يشتغل عند أبيه الحاج النصولي. وزار محمد قاسم الداعوق. زارهم وسألهم عن أبيه. وهم قالوا «إنهم يذكرون أن والدي كان يشكو - وهم على السفينة - من الإمساك». قال سلمان منيمنة جملته وأصغى، لعل الرجل يتذكر شيئاً الآن.

محمد الحصّ الذي كفّ قبل قليل عن شرب الحساء، رفع عيناً مريضة إلى وجه سلمان منيمنة ثم عبس. كانت عبسة غامضة ثم حلّت في مكانها ابتسامة. ابتسم محمد الحصّ، فبانت أسنانه. نصفها وقع في القُرم. ونصفها تآكل (لهذا يشرب الحساء إذاً!). بدا الفم خالياً من الأسنان. سن هنا. سن هناك. هذا كل شيء. المسكين. ومقروم فوق هذا. لكن لِماذا يبتسم؟ وما باله يضحك؟

الأخت التي لم تسمع أخاها يضحك منذ دهرٍ مدّت رأسها إلى

أمام مثل دجاجة. ومحمد الحصّ كفّ لحظة عن الضحك وقال إن الكلّ على السفينة كانوا يشكون من ألم البطن والإمساك. كلّنا. سكت ثانية، ومسح دمعة، وابتسم من جديد:

ـ الضحك بهجة. أدمعت عيني. كلّهم، كلّهم، كلّهم، كانوا ينقّون من الإمساك. كيف لا؟ طبّاخو الإنكشارية يرشون اللحم المقدّد بطحين الكافور، وفي مياه الشرب أيضاً يذيبون حبّ الكافور. ماذا تريد؟ أن نُصاب بالإسهال ونحن في سفينة؟ كل العسكر يشكون الإمساك.

ضحك الرجل مرة أخرى، ضحكة قصيرة. ونظر إلى أخته. كأنه استحى. وسلمان منيمنة سلَّم على يده الصغيرة مرة أخرى (كأنها ذابت هذه اليد) وخرج من دون أن يأكل بقلاوة. قال إنه لا يأكل بقلاوة. قال إنه يحبّها لكنه لا يأكلها. تلعثم بالكلمات وهو يعتذر عن تناول الضيافة وخرج.

في الخارج ارتاح. السماء حلوة تتباعد فيها بعض الغيوم. الهواء رائحته زهور برتقال. شكر ربّه وذهب إلى الجامع وتوضأ وصلى. كان مسروراً. لم يعد أحد يذكر أباه.

7 ـ كنج نور الدين: قفز فرأى البحر يرتفع ويخبطه. فكَّر أنها السماء وقعت على رأسه. غرق ومات. لم يترك زوجة. ولم يترك ذرية.

8 ـ محمد جابر: ذهب إلى القُرم ولم يرجع. ابن جبل. السباحة للماشية، كان يقول. غرق ومات. لم يكن الدرزي الجبلي الوحيد الذي جاء مع «الفرقة البيروتية». المفترض أن يجيء إلى القُرم مع جيش القائممقام. لكن البواخر تتأخر بسبب الطقس. وهو لا يطيق القعود في القشلاق. يحبّ المسافات والأماكن المفتوحة.

ابن جبل. لا يطيق مدينة. يكره البحر أيضاً. لو يأخذونهم إلى القُرم بالبرّ! لكن الأناضول مطمور بالثلوج الآن. لا يُقطع. تطوع للذهاب في «الفرقة البيروتية» حين علم أن العدد ما زال ناقصاً. قام ومشى. ابن عمته، صاحبه ومن عائلته، قام ومشى أيضاً. انضما إلى «الفرقة البيروتية». ترك في الجبل ابناً وبنتاً.

9 ـ عبد الكريم الصيداني: دخلت السفينة الغيوم فعرف أنه ميت لا محالة. قبل ساعة من موته أدرك أنه ميت. خاف من الضباب الأبيض وقال السفينة غرقت، متنا كلّنا، كل هذه الرحلة، ثم نموت! لكنه لم يمت في الضباب. خرج أولاً. كان في مقدمة السفينة. وحين ابتعد الضباب رأى الحرائق. رأى الشعلة الصفراء وجاء الدخان. بعد الدخان رأى البحر، لونه أحمر، ومملوء بالحيوانات الميتة. ثم اكتشف أنه لا ينظر إلى دلافين نافقة، لا ينظر إلى فقمات أو عجول بحر. رأى الوجوه والأيدي. عرف.

امتلأت المواعين والمراكب والزوارق. امتلأت كلّها ولم يقفز. اقترب منه إنكشاريٌ مظلم الوجه وضربه بالبارودة على ظهره. عبد الكريم الصيداني استدار ببارودته وضرب الإنكشاري على كتفه. ضربه على الكتف ثم على الرقبة. سقط الإنكشاري وهو يئن. هجم على البيروتي عددٌ من الإنكشارية. عبد الكريم الصيداني استدار عندئذٍ وقفز فوق الدرابزين، قفز إلى بحر الموتى.

جدّه لأبيه امتلك سفينتين تُبحران بالقزّ والزيت والزيتون وبالحمضيات والموز بين صيدا ودمياط. أحد أقارب الجد كان من خاصة أحمد الباشا الجزّار. ظلّ يقول عن الجزّار أنه عادل ولو بَطَشَ، إلى أن حزَّ الجزّار رأسه وعلّقه على باب عكا. قبل الرأس قطعوا اللسان.

غرق عبد الكريم الصيداني ثم طفا. كان يبصق الماء والدم، ويسحب نفس هواء ناظراً إلى غيومٍ تسعى كقطيع خراف، حين فرقعت البواريد فوق رأسه. قُتِل بخردق الإنكشارية. انقلب على جنبه. لطم جسمه بطن السفينة. وظلّ لاصقاً بها. لم يترك زوجة. ولم يترك ذرية. لكن أحد أنسبائه وَرِث بيته الصغير داخل باب السنطية. باع البيت واقتنى بغالاً. اشتغل بنقل الرمل من الرملة البيضاء، والحجارة من مقالع الوطى، والحصى من الأشرفية. عند موته، بعد وقتٍ قصيرٍ من إفلاس الخزينة الخديوية وقصف الإسكندرية ونزول الإنكليز على برّ مصر (1882)، كانت بغاله قد تكاثرت فتحولت قافلة بغال. ابنه الكبير اكترى عربات وشغّلها على طريق بيروت ـ الشام بإذنٍ خاص من الشركة الفرنساوية التي تدير الطريق. عليه أن يدفع ضريبة، وأن يقدم سجلاً بالرحلات كلّها. ابن الصيداني ثعلب: دبّرها بحيث لا يدفع كل الضرائب ولا يسجل كل الرحلات. أهل بيروت شطار. يفكّون العقدة البحرية. لا تكسر معنوياتهم العالية قوانين فرنساوية. تاجَرَ وجنى. المدينة تنمو بسرعة، الميناء يتوسع، والناس يأتون ويروحون. سمّى بكره عرابي تيمناً بعرابي باشا زعيم مصر الذي نفّاه الإنكليز إلى سيلان.

«شارع الصيداني» يقع في منطقة رأس بيروت؛ ويحاذي «شارع بلس» و«شارع الحمرا». الناس يخلطون بينه وبين «طلعة جاندارك» التي تقطعه عمودياً.

10 ـ سليمان محمد الفشخة: اختض الزورق وتساقط منه الجنود. وقعت بارودته من يده وغارت في الماء. لم يدرِ كيف فعل هذا: قفز وراء بارودته! خاف أن تضيع البارودة وهو ذاهب إلى الحرب، فلا يُعطى غيرها ويُقاتل ـ بأصابعه ـ الروس! خاف وقفز. جسمه وحده قفز. لم يُفكّر. لو فكّر كان تذكر أن نصف رفاقه لم

يأخذوا بنادق وهم على ظهر السفينة. البنادق قليلة هنا، قال صاحب الإنكشارية، لكنها تملأ المعسكر. وهناك بواريد جديدة، بواريد غنمناها من الروس. قبضاتها فضة تلمع. لا تخافوا. بعد هذه المياه، بواريد لا تُعد.

سليمان محمد الفشخة خاف على البارودة. قفز وغرق ومات. لم يترك غير بنتٍ واحدة. البنت جميلة مثل بنات البارودي. أمها تخاف عليها من «صيبة العين». العين تقدح وتقتل. تُلبسها الخرزة الزرقاء. وتذهب إلى الشيخ الكيلاني فيعمل لها الحرز تلبسه على لحم صدرها فيحميها من أولاد الحرام.

تعلَّق بالبنت موسى الخوري مرافق الكولونيل روز بيك قنصل الإنكليز في بيروت. كان مرافقاً وترجماناً من أبناء رشميا (جبل لبنان). وكان نصرانياً. لم يمنعه اختلاف الدين من قرع باب بيتها حاملاً سلّاً ملأه بندورة وبصلاً وبطاطا وباذنجاناً. الأم استقبلته في الباب. لم تقبل أن يخطو بكندرته داخل العتبة. قاسته من تحت إلى فوق وتكلمت بنبرة مهذبة. لا رجل في البيت، قالت، ونحن مسلمون. أصرّ أن تقبل الهدية. قبلتها.

جاء أصيلَ اليوم التالي، بعد آذان المغرب، يلبس ثياباً أثمن، ويعتمر طربوشاً مكوياً. هذه المرة ملأ السلّ عنباً وتفاحاً وإجاصاً وسفرجلاً. الأم استقبلته في الباب. لم تقبل أن يخطو بصباطه داخل العتبة. قاسته من تحت إلى فوق وتكلمت بنبرة محبّبة. لا رجل في البيت، قالت، نحن مسلمون. أصرّ أن تقبل الهدية. قبلتها.

جاء أصيلَ اليوم التالي، بعد آذان المغرب، يلبس بدلة رجالية فرنجية، ويعتمر طربوش أمس. لم يقرع الباب. وقف لحظة ينظر إلى الناس يعبرون سوق الفشخة، أو يطلعون من سوق القطن. البيت يقع

عند تقاطع السوقين ويطلّ على جامع السراي. وراء ظهره، وراء نخلة، حائط مرتفع مشهور يخفي عن العيون «حارة البارودي». تردّد في وقوفه واحتار. هل يقرع؟ ملأ السلّ خبزاً ولحماً. وحمل فوق السلّ علبة بقلاوة مزينة بفراشة من خيوط الحرير. إذا لم تقبل الأم أن يدخل، هذه المرة أيضاً، ماذا يحمل غداً؟ بقي واقفاً حتى رأى المصلّين خارجين من جامع السراي، يتبادلون التحيات ويفترقون، بينما المساء يُقبل. هل أذَّن آذان العشاء أيضاً وهو لم ينتبه؟ كم مضى عليه وهو واقف ـ كالعبيط ـ هنا؟ انتبه إلى قطط تحوم عند الزاوية، تنظر إليه وتموء. هل شمَّت القطط رائحة اللحمة في السلَّة؟

لم يقرع موسى الخوري الباب. استدار ومضى. لم يترك السلة على الباب. مشى خطوتين، وعند الخطوة الثالثة سمع طقّة. قبل أن يتحرك سمع حفيفاً وراء الباب. لكنه الآن سمع طقّة. لم يلتفت. لكنه توقف مكانه. وفي تلك اللحظة سمع الصوت. هذه المرة سألته الأم لماذا لم يقرع؟

لم تُعطه يد البنت إلاّ بعد عامين. عامان كاملان وهو يأتي ويذهب. هذا لم يُسمع به في بلادنا من قبل. عامان كاملان! معقول! أعطته البنت أخيراً لأن أحداً لم يأتِ ويطلب يدها. بنت أجمل من القمر. ولا أحد يطلبها! كيف؟ أصحاب موسى الخوري قالوا إن صاحبهم أقسم أن يقتل أي رجل يتجرأ على طلب يدها.

ـ هذه زوجتي، قال.

لكن هذا حديث دماء هائجة، ليس أكثر. مرافق القنصل السابق ليس من أهل الضرب والخبط. ثم إن أحداً لا يجرؤ في مدينتنا على قول مثل هذا الكلام، خصوصاً وأن البنت ليست من دينه.

شهد موسى الخوري الشهادتين. وتزوج بنت الرجل الذي لم

يرجع من القُرم، على ذمة اللّه ورسوله. سنة 1865، حين هبّ الهواء الأصفر على بيروت، أخذ زوجته وابنه وابنته، ركب الباخرة، وانتقل إلى الإسكندرية. هناك تفتحت مواهبه. كان بلا عمل الآن، والليرات التي حملها من البلد، تنفد. كان بلا شغل. والبرقيات تجيء إلى مكتب البرقيات الجديد عند مدخل ميناء الإسكندرية، ولا تحمل أخباراً طيبة. يبدو أن جميع أهالي بيروت نزحوا إلى الجبال المحيطة أو هربوا بالبحر إلى بلاد بعيدة. الوباء اجتاح البلد. ومن بقي في بيروت حُمَّ ومات. الموتى في الطرقات وعلى السطوح وداخل البيوت. كل الفقراء ماتوا. الفقراء لا يتركون بيوتهم. الموتى المسلمون أكثر من المسيحيين. المسيحيون هربوا إلى الجبل. وأهل الأشرفية والرميل ركبوا البحر إلى باريز ولندرة والبندقية وروما. بيروت مهجورة الآن. الكلاب والقطط تملأ دروبها. كلّها مرضى وأموات. الذبّان الأخضر يطنّ على المحمومين. والراهبات اللعازاريات يتجولن بين البيوت. مدينة أموات صارت بيروت. وموسى الخوري تنفد ليراته في الإسكندرية. ماذا يفعل؟ كيف يطعم زوجته وولديه؟

الطريق من مكتب التلغراف إلى البيت في بناية أيوب بابازواغلي تكثر فيها حوانيت الشواء والفول والطعمية. جلس في إحداها، وطلب طعاماً. مع أن ليراته قليلة فلا بدَّ أن يأكل. بلا أكل لن يفكّر جيداً. ثم أنه عرقان، وتعبان.

هذا الصيف فظيع الحرّ. من أوله هكذا. الكوليرا تجتاح البلاد وراء البحر. ماذا لو أتت إلى هنا؟ عندئذٍ ماذا أفعل؟ هذه المصيبة. ضربت القدس. ضربت نابلس. ضربت صيدا. يافا وحيفا غرقتا في الهواء الأصفر. طرسوسَ يأكلها الذبّان. الموتى في الطرقات ولا أحد يلمّهم. ماذا أعمل؟ لم يبقَ في بيروت إلاّ الفقراء. عشرون ألف

رجل وامرأة وولد، من أصل ثمانين ألفاً! ماذا تفعل الراهبات الآن؟ وماذا يفعل الآباء المرسلون؟ الكل يفرّ من بيروت!

التلغراف يرنّ ويقفز. مئة ميت، مئتان. . . ألف. أكثر من ألف ميت! يا حرام يا بيروت! والخوف ـ كل الخوف ـ أن تعبر الكوليرا بالسفن إلينا!

هذا الصيف فظيع الحرّ. من أوله شؤم. كنّا نظن الشمّام الماوردي السبب. الناس تضربهم الدوزنطاريا. لا يقولون. يستحون. ثم تفضحهم الحمّى. الواحد لا يقول «عندي إسهال». يستحي أن يقول. ثم يدخل الطبيب إلى بيته. يا حرام! والخوف كل الخوف أن تلحقنا الكوليرا إلى الإسكندرية!

أكل فولاً مدمساً لم يحبّ طعمه بخبزٍ ناشفٍ يبدو قديماً. وشرب ماء لم يستسغ مذاقه. مع هذا أكمل الصحن، وأكل الخبز، وشرب الماء. هذه نعمة، قال، مع أنه فولٌ بخلٍ وليس بحامض، يبقى نعمة. مع أنه ليس بزيت زيتون يبقى نعمة. المهم ألا تجيء الكوليرا.

ماذا لو ركب البحر إلى بلادٍ أبعد؟ لكن أين يذهب؟ آل الصايغ الذين جاؤوا معه بالباخرة المساجيري إلى الإسكندرية، ركبوا باخرة أخرى ذاهبة إلى مرسيليا. الخواجة نخلة طراد فرَّ بعائلته إلى بلاد الإنكليز. وأنت يا موسى يا ابن الخوري أين تذهب؟ أين تهرب من الكوليرا؟

زوجة موسى الخوري ـ البنت اليتيمة التي راح أبوها إلى القُرم ولم يرجع ـ استقبلته حين عاد إلى البيت بوجهٍ أصفر.

سألها ما بها؟

قالت عليّ حرارة!

وقع قلبه على الأرض. خرج ورجع بطبيب. قال الطبيب لا تخفْ، هذا ليس الهواء الأصفر، ماذا أكلَتْ؟

عالجها الطبيب بدواء من قارورة عسلية اللون. بعد يومين شُفيت تماماً.

موسى الخوري دفع للطبيب أجرته وشكره على تعبه ولطفه ثم سأل عن الدواء في القارورة.

ضحك الطبيب. قال إن هذا ليس دواء، هذا ماء وملح. الدواء هو الوقت، وليس الماء بالقارورة.

ذهب الطبيب فبكت الزوجة. حين تبكي تغدو أجمل. يسمّيها أجمل امرأة في العالم. سألها لماذا تبكي، هل خفتِ من الهواء الأصفر؟

قالت إنها تبكي لأن الليرات تكاد تنفد، وفوق ذلك دفعنا للطبيب أيضاً.

ابتسم وأخذ يدها بين يديه:

ـ هذه تدابير الربّ.

بعد عشرة أيام، أقل بيومٍ أو أكثر بيوم، بدأ تجارة ستجلب له ـ في غضون سنة واحدة ـ ثروةً صغيرة. بينما يُعد «الدواء العجيب» تذكر الكولونيل روز. كان الكولونيل إذا صعد إلى المختارة ينزل عن حصانه عند ينابيع الماء ويشرب ويقول إن هذه المياه ـ مياه الشوف ـ لا تنبع هنا، في هذه الأرض، بل تنبع في الجنّة. رجع موسى الخوري وعائلته إلى بيروت سنة 1868. وتابع تسويق أدويته العجيبة.

اكتشاف مهم

﴿مرهم الخوري﴾
﴿وشاي الخوري الجديد﴾

«افريقون»

إن المرهم الذي اخترعه موسى أفندي الخوري نفعاً للصالح العام هو الدواء الوحيد الشافي للقراع وحبوب الراس ويرجع الشعر والجروح والختان والحرق والرضات يشفيهم سريعاً وكل القروح والزهرية والبواسير وكل الأمراض الجلدية وأخصه الأكزيما والبلغم المالح والجرب والخنازير وخلافه وهو مركب من نباتات غير سامة وقد ثبت بعد التجارب العديدة نفعه بشهادة أشهر الأطباء في سوريا ومصر فكل من استعمله في مثل هذه الأمراض نال الشفاء بعونه تعالى كما شاعت منافعه في القطر المصري وهو ضمن أحقاق مغلفة باوراق مشروح عليها كيفية الاستعمال فمن طلبه يجده باجزاخانة اللطائف باول شارع كلوت بك وفي أجزاخانة الخواجه إلياس هنا وشركاه بالفجالة. وفي الأجزاخانة العباسية بشارع محمد علي بمصر ويوجد في صيدلية مار يوسف خاصة الخواجه إلياس نعمة اللّه ثابت في بيروت وفي أجزاخانة الخواجه نعمة مدور في الجميزة وفي أجزاخانة الخواجه فليب بدور على السور وفي أجزاخانة داود افندي ابو نحول جوار الحديقة مع شاي الخوري المشهور لشفاء عدة أمراض وهي الهاستريا وأمراض الصدرية والسلّ الرياوي واليارقان والدود والجنون والحمى المقطعة ورمل البول وترويق الدم والخنازير والدفتريا والفالج والزنطاريا وجميع الإسهالات وهواء الأصفر والنزلة الصدرية والتعقيبة والزهري ونزيف الدم.

11 ـ سيد: راعي إبل أو أغنام. من صحراء النقب أُخِذ إلى بحر القُرم. زلَّت قدمه على طحلب رطب. وقع بين الصخور. غرق بشبر ماء ومات.

12 ـ محمد بيضون نور الدين: كُبِس بين زورقين. سُحِقت عظامه. تحطمت أضلاعه. كُبِس وغرق ومات. لم يترك زوجة. ولم يترك ذرية. ذكر ـ مختنقاً بماء القُرم ـ حمائم تحوم في سماء بيروت. بيته جنب «دار البرتقال». يفوح رائحة زيت سمسم من معصرة مجاورة. انتظره أهله حتى نهاية الحرب. عند رجوع عمر البارودي إلى البلد سنة 1857 ذهبوا يسألون عنه. ذهبوا إلى «خان التوتة» خارج الأسوار.

وجدوه خارج غرفة على السطح. يُربّي حماماً. كان قاعداً بين الطيور يُنقّي باقة بقدونس ويشرب زهورات. عندما اقتربوا طارت الحمائم. لرفيف أجنحتها هدير. الأرض غطّاها ريشٌ وسلحٌ. ألا تضايقه الرائحة؟ لكنها خفيفة. الشمس تُجفّف السلح. والهواء البحري يلعب على السطح. باب الغرفة موارب. في الداخل تبيَّن فرشة ومقعد وإبريق. استقبلهم بشعرٍ أبيض على السطح. سمع اسم الابن.

قال لا أدري، كنّا لا نُعد، ومعظمنا مات.

الحاج الأب (بيضون نور الدين) سأله ـ بالمسبحة الكوْربا مجموعة في قبضة يده ـ لماذا تأخّر سنة كاملة ليرجع؟

ـ بعيدة القُرم يا عمّي، قال عمر البارودي. وسكت.

نموت تحت أسوار سيفاستوبول. في آخر العالم. وزعونا على معسكرات في هذه الجهة. في تلك الجهة. وتركونا بلا ثياب. بلا ثياب وبلا بطانيات. كل ملابسنا ضاعت في البحر. لم يبقَ معنا إلاّ أجسامنا. قالوا انزلوا إلى بين الصخور، واسحبوا ثياباً من الموتى. الموتى لا يحتاجون إلى ثياب. أو انتظروا التموين.

*

جاء التموين وأعطونا ثياباً وجِزماً وسلاحاً. منذ شهور يدكّون القلعة بالقنابل. وكلّما هجموا وقعوا على الصخور. وتساقطوا في السهل. علينا أن نهجم. الاستعدادات اكتملت. سنخرج هذه الليلة. نتسلل ونذبح الحراس. بين الإنكشارية إنكشاريٌ مشهور، يتسلل عند الظلام حتى أسوار سيفاستوبول. يلتقط الحراس من رقابهم. بأصابعه يكبس جوزة الرقبة. الجوزة تفقع في كفّه. كأنه يدقّ عنق دجاجة. ثم يسحبهم. يحملهم مسافة. لئلا تطرطق جماجمهم على الأرض. وحين يبتعد عن الأسوار يجرجرهم. كل ليلة يخرج ويرجع. ليس في معسكرنا. في المعسكر الآخر، هناك حيث تكثر المغاور. قبل أن يخرج في غزوته يدخل مغارة. داخل المغارة صخور تكسوها مادة سوداء لزجة. هذا سائل الأخطبوط. يخرج من السمكة. كالحبر أسود. يمسح به وجهه وجسمه. يمسح يديه أيضاً.

يصير كالفحم أسود. الإنكشاري الأسود. يقولون إنه من إزمير. يلفّ على صدره فروة ذئب. ويلفّ على رقبته فروة دبّ أو أسد. لا يبرد إلاّ إذا خلع الفروتين. لكنه لا يخلع الفراء أبداً. طويل. مارد. إذا ضرب بالسيف قطع الرؤوس. يُدعى سلمان. إذا ناديته لا يردّ عليك. يقولون إنه كان جنب المدفع. كان بين مدفعين، وقصفت المدافع. لم يعد يسمع. لكنه يرفع رأسه في الليل ويشمّ الهواء مثل الكواسر. لا يخاف. وعنده خفّة ثعلب في الحركة. الإنكشاري الإزميري الأسود. شارك في حروب لا تُحصى. حارب في جبال البلغار. حارب في برّ الشام. حارب في الجبل الأسود. لا يأكل إلاّ اللبن والخضر. ويأكل حبوباً. لكنه لا يأكل لحماً أبداً. ضخم مثل برج.

خيمته منصوبة عند الزاوية البعيدة. على حافة البحر. كل الخيم هناك تعجّ بإنكشارية الأناضول. ليس وحده. ويخرجون معاً. لكنه مشهور بنومه أثناء النهار. لا توقظه القنابل وفرقعات البواريد والصرخات. كالدبّ ينام. يتغطى بالبطانيات ويغوص في التراب.

يخرجون في الليل. ينتظرون الظلام الدامس. في الليالي المقمرة لا يخرجون. قامته أعلى من رفاقه، لكنه ينحني، ورأسه ممدودة إلى أمام. كلّهم يركضون هكذا، مثل قطيع ضباع.

يسمّونه كارا سلمان.

رحل الشتاء وحلَّ شتاء. لم ندفأ في الصيف الوجيز. قبل أن يذوب جليد النخاع تساقطت الأمطار من جديد. كل يوم نُنقل إلى معسكر. من هنا إلى هناك. من هناك إلى أبعد. ندور في نصف دائرة تحت أسوار سيفاستوبول. مدافعنا تقصف والحيطان تقع. نراها تقع. ثم يحلّ الظلام. الإنكليز يسكرون. الفرنسيس يشعلون النار في العراء، مع أن هذا ممنوع. وكلّنا ننظر إلى أصابعنا يحرقها الصقيع. الأقدام تقشّرت. نمت قشرة جديدة. هذه أيضاً تقشّرت. من الفرقة القديمة لم يبقَ إلاّ عشرة، ربما 11 أو 12. «الفرقة الحيفاوية» بادت كلّها. في معركة واحدة، في هجمة صغيرة واحدة على الأسوار، بادوا. كانوا سبعين رجلاً. ماتوا جنباً إلى جنب 472 إنكشارياً و320 إنكليزياً و117 فرنساوياً. كل فرقة فرنساوية تتكون من ستين رجلاً: خرجت في الغارة فرقتان، ورجع ثلاثة. الأول مقطوع اليد من رسغها. الثاني لم يُصب بأذى. الثالث ينزف من فخذه. ناموا على فرشات في معسكرنا ثم نقلوهم إلى المعسكر الآخر.

نقصف ونهجم. نفقس البواريد ونرى الروس يتساقطون هناك، على أسوار سيفاستوبول. الأسوار تتساقط أيضاً. عند الغروب، وفي نور المساء، نرى سطوح البيوت. القنابل حطّمت قمم السور. انكشفت بيوت المدينة. لم نرَ قبباً ذهباً. لكننا رأينا القرميد الأحمر.

قالوا هذا ليس قرميداً. هذه سطوح مائلة. لكنه نور الشمس الغاربة، ينعكس على السطوح، يخدع البصر.

حلّ الظلام. نأكل ما حمله التموين الإنكليزي. نكسر اللحم المقدد ونسقيه. طيب هذا اللحم. لكن مع الرائحة الخارجة من البحر لا ندري كيف نبلعه. قالوا حين وصلنا ـ متى وصلنا؟ قبل عام؟ قبل عامين؟ قبل دهرٍ؟ ـ ستعتادون، الرائحة تدخل الأنف في البدء ثم لا تعود تدخل. لكن الرائحة ما زالت تدخل. هناك، عند المعسكر البعيد، يصيدون الجثث من الماء بمرساة وحبل. يصيدونها لأن الأرض هناك رملية. ليست صخراً. الفرنسيس يدفنون الجيف، ونحن ننظر من هنا ولا نعرف كيف يتسع الشط. الجيف تكومت كالجبال. لو عندنا حطب، نحرقها. البرغش يأكلنا ليلاً نهاراً. الذبّان كالأعمدة يسعى على وجه البحر. والغربان لا تُحصى. ما عدنا نرى النورس.

الإنكليز يُقوصون على النورس. ينتفون ريشه ويسلقون لحمه على النار الليل كلّه. عندهم مغارة صارت مطبخ عسكر. النار في الداخل تشتعل كل الوقت. وعلى النار القدور. يغلون لحم النورس ليلة وليلتين ولا يطرى. فظيع هذا اللحم. يرشون عليه بهاراً من الهند. بعد أن يسكروا يأكلونه. ومن دون أن يسكروا يأكلونه. البواخر تتأخر. التموين غير منتظم. مرات تبلغ السفينة الشطّ، وقبل أن نسحب الطعام بالمواعين تحرقها القنابل. تنكسر أمامنا. وتغرق. تغرق مع براميل وسلال وأكياس وصناديق ملآنة. ثم تطفو الصناديق. وتطفو البراميل. تطفو السلال. وتطفو الأكياس. نصيدها من بين الجيف. معظمها معطوب. لكن بعضها ما زال يؤكل. لا نأكل السمك أبداً.

أمام مغارة المطبخ ينطرح عددٌ لا يحصى من الجرحى. ليسوا

كلّهم جرحى. أجسام تتكوّم على أجسام. يطلبون الدفء. مع أن المغارة ليست دافئة. النار لا تكفي. الحطب قليل. والمغارة عميقة. في نهايتها ثقوب، ومن الثقوب يأتي تيارٌ بارد. مع هذا ينطرحون هناك، ويتباطحون من أجل شبر تراب، في باب المغارة. الرائحة طيبة. والبخار فاتر. ثم إن الأبدان المكومة تُرسل حرارة.

الظلام هبط. لكننا نرى قمم السور المتساقط. عيوننا معلقة بتلك القمم. ثم ننعس. كل النهار ونحن نركض ونزحف ونُقوص ونزعق. لماذا نزعق؟ حناجرنا بُحَّت. حين بُحَّت سكتنا. ثم شُفيت الحناجر، فرجعنا نزعق. من دون تفكير نزعق. الجسم يزعق وحده، وهو يهجم.

ننعس ونحن نراقب أسوار سيفاستوبول العالية. ليست عالية الآن. باتت أقصر. ننعس وننام ملفوفين بالصوف والأغطية وبثياب نلبسها طاقاً على طاق. لا يموت واحد إلاّ ونتقاتل على ثيابه. الآن صرنا نتقاتل أقل. الموتى غطّوا السهل. قدمك لا تدعس على أرض السهل، ولو قطعته من هناك إلى هنا. في البدء كُنّا نتفق على هدنة ويخرج الروس الشقر من سيفاستوبول ويسحبون قتلاهم إلى داخل الأبواب. الآن لم نعد نأخذ هدنة. القتلى تكاثروا. صاروا أكثر من الأحياء. من يدفنهم؟ أين ندفنهم؟ كيف ندفنهم؟ السهل تغطى بالموتى. صرنا بين مقبرتين. الغربان تغطي السماء، ونحن نُقوص.

ننعس وننام ونشخر. إذا طلع نور الفجر علينا نظرنا ـ أول ما ننظر ـ إلى أسوار سيفاستوبول العالية. كانت أمس أقصر. ها هي من جديد عالية. في الليل ـ ونحن نيام ـ رفعوها.

*

كنّا لا نأكل السمك. السمك يأكل رفاقنا. أجسام تعوم على

وجه «كارا»، والسمك يتحلق حول الأجسام. يقضم قضمات صغيرة. يسحب أصابع اليد إلى تحت الماء. من هنا نرى الجسم ينقلب. ونرى العيون مفتوحة تحدق إلى السماء.

حين تأخر التموين ودبّ الجوع التقطنا السمك بالأيدي من البحر. شويناه وسلقناه. حتّى نيئاً أكلناه.

*

نسدّ ثقوب المغارة بالثياب. لعل التيار البارد يزول. نأتي بالثياب من السهل، ومن البحر، ونسدّ ثقوب المغارة التي صارت مطبخاً. نسدّ الثقوب ونقف وننظر إلى بعضنا. الهواء كفَّ عن الصفير. تبدَّد التيار البارد. ننعم بالدفء ليلة كاملة. لكن، في الصباح، يصفر التيار خارجاً من ثقوب جديدة: ثقوب لا تُرى من هنا، ثقوب عالية، في سقف المغارة. هذه لن نقدر أن نسدّها.

*

مرّات، في عزّ الصقيع، ونحن نهجم ونتساقط تحت الأسوار، أبقى منطرحاً على الجيف، بين الجيف. أبقى كالميت بين الموتى. لا أشعر بالبرد، مع أن قشرة ثلج بيضاء تغطي الجيف وتغطيني. لا أسمع الأصوات. لا أرى القنابل والدخان والخردق والوجوه المقرورة المتساقطة.

أبقى كالميت بين الموتى. ويغمرني دفء غامض. أقول سأبقى هنا قليلاً بعد. في تلك اللحظة أرى وجه الميت الذي أنام فوقه. اهتزت الأرض بقنبلة فمال الرأس. وبان الوجه. ليس وجهاً. كومة لحم أحمر، ومن اللحم تخرج الديدان. دود أبيض، كل دودة بحجم الإصبع الصغير. أتراجع إلى خلف، أقف، أتعثر. الدخان يلفني ويحميني. يحميني من ماذا؟ الدخان يتبدّد. أقف فوق سهل الموت،

ولا أرى شيئاً. الكلّ يركض ويصيح ويسقط. من الأعالي ينزل، مع ندف الثلج الأبيض، صوتٌ صار لا يُسمع. صار كطنين الأذنين، كخفقة الدم في العروق، كنبضة القلب بالشريان، أليفاً، عادياً:

ـ قعق. قعق. قعق

الأصوات تطنّ. الأرض تطنّ. الهواء يطنّ. الغيوم تطنّ. طنين بعيد. أسمع ولا أسمع. ألمس رقبتي: هل أصابوا رقبتي؟ سائل لزج يسيل تحت أذني. ألمس أذني. أنفض يدي. أنفض ثيابي. أنفض جسمي كلّه. أقفز كالأخوت وأركض وأنا أنفض جسمي وثيابي. لا أطيق هذا الدود الأبيض. أركض ولا أهرب. أركض وأقع وأقوم ولا أتوقف عن الركض.

*

كنّا نأخذ أسرى. لم نعد نأخذ أسرى. لا نتبادل أسرى الآن. كنّا نقيدهم بالحديد. ونطرحهم بين الصخور الخضراء القاتمة. عند الشط. الثلج يتساقط ويغطي الصخور. ننزل ونجرف الثلج. الأطراف تزرق، تقسو. الجليد يظهر على الجلد. أحياناً لا نراه. الرطوبة تحت الجلد. يبدأ الجليد تحت، لا نراه. الجليد في اللحم، تحت الجلد. ثم يتشقق الجلد. يخرج الجليد من قلب اللحم. أصابع الأقدام تزرق. الواحد وهو يسير تنكسر أصابعه. تطقّ. مثل عود يابس تطّق.

حسين عبد الصمد رأى قشرة الجليد على رسغه. رأى القشرة تتمدد حتى الكوع، تتمدد حتى الكتف، تتمدد حتى الرقبة. ظلّ ينظر. والثلج يندف. قطع الثلج حلوة. رقائق بيضاء ناشفة. مثل القطن تتراقص، تتهادى، هابطة من الأعالي. مثل فراشات بيضاء تلهو في حقول الجبل. الشتاء هنا يشبه شتاء الجبل. لكن في الجبل

عندنا حطب. عندنا حطب، وإذا جاءت العواصف نُقفل أبواب البيوت. المواشي في الزرائب ونحن في البيوت. نشرب حساء ساخناً ونأكل تيناً مطبوخاً. نعمل كشكاً بقاورمة ونقهر البرد. لست في الجبل الآن. حملونا في حوتٍ من بيروت. لسنا في الجبل.

لا نأخذ أسرى. الأسرى يجمدون على الشط. نزلنا نحمل سيوفنا. قطعنا رؤوس الأسرى. أحسن لهم. الموت بالجليد فظيع. أحمل فأساً وأقطع رأس رجل. الرأس ينطّ ويتدحرج. من بين الكتفين يطلع نربيج، مثل نربيج الأرجيلة لكنه أسود. أنبوب أسود يتلوى وينوفر دماً. ليس كنربيج الأرجيلة؛ هذا قصير. الثلج يتلطخ بالدم. والدم يجمد على الثلج. يصير جليداً أسود. إذا دعسته بقدمك تكسّر. كأنك تدعس على قزاز.

الثلج يغطي رقبتي. أريد أن أنادي. لكن الثلوج تغطي فمي. تغطي عينيّ. هذا الظلام السميك! لن أرجع إلى البيت. لن أرى أهلي. قتلوني في القُرم.

عمر البارودي وعبد الكريم النصولي ومحمد عزيز لا يخرجون في الهجمات إلاّ جنباً إلى جنب. لا يُرى أحدهم إلاّ بين الاثنين. دوماً معاً. لا يفترقون أبداً. يُسمّونهم «الثلاثة الشوام». الشوام كلّهم ماتوا. لم يبقَ في هذا المعسكر غير هؤلاء الثلاثة. كان يوجد واحد رابع، من بيروت. اسمه محمد قاسم الداعوق. قبل القُرم، في بلده البعيد، كان رفاقه ينادونه «بو محدلة». هنا صار اسمه «محمد قاسم». لا سطوح هنا. ولا محادل تحدل سطوح البيوت. لكن محمد قاسم خرج في غارة ولم يعد. لعله قُتل. لعله فرّ. لعله يقعد الآن في معسكر آخر ويتلمس جروحه. لعلهم أخذوه أسيراً.

الروس ما زالوا يأخذون أسرى. البيروتي إبراهيم بلطجي أُخِذ أسيراً مع واحدٍ آخر من بلده اسمه محمد الحصّ. جمّول كبّول ـ وهذا أتى مع «الفرقة البيروتية» ـ رأى الروس يحملون الرجلين مكبّلين بالحبال. ابن الحصّ كان يبكي ويصرخ. الآخر كان يعضّ الحبل. الروس دخلوا باب سيفاستوبول. وجمول كبّول فرّ تحت أمواج الثلج. قال إنه غطس في الثلج وصار يسبح حتى بلغ المعسكر. لم يصدق أنه نجا. تلك الليلة تجمدت أصابع قدميه.

«الشوام الثلاثة» خرجوا تحت جنح الظلام إلى أسوار سيفاستوبول. أرادوا أن يأخذوا أسرى. للمبادلة. لكنهم تاهوا في

الثلوج. حين تهبّ العواصف لا تستطيع أن تخطو خطوة واحدة إلى أمام. الريح تقلع الأشجار. وحده العملاق بينهم، البيروتي الذي يحبّ البحر وينتظر حتى يأتي الموج الكبير ويُبعد الجيف كي يغطس إلى القعر ويطلع حاملاً الأصداف، وحده العملاق أنقذهما من الموت. غطّتهما العاصفة ببطانيات الثلوج، فشالهما من تحت البطانيات وحملهما، كل واحد على كتف. قطع العاصفة وتاه وأوشك أن يقطع بحر الجليد، ثم ـ عند الفجر ـ عثر على المعسكر. كان كل الوقت على بعض خطوات من باب المعسكر! لكن في العاصفة لا أحد يرى ولا أحد يسير. الثلاثة كانوا يحسبون أنهم قطعوا مسافات وصاروا وراء أسوار سيفاستوبول. خدعتهم العاصفة. داروا في الدوامة البيضاء حتى ازرقت جلودهم. لولا العملاق كانوا ماتوا. عادوا أحياء. لم يجلبوا أسرى. ومحمد عزيز يبست يده. بعد ليلة قطعوها. إذا لم يقطعوها تقتله الغرغرينا. قطعوها من الكوع. لكن كتفه يبس عند الصباح. الغرغرينا ولجت الكتف. كان عليه من البداية أن يقبل بقطع الذراع من الكتف. لكنه لم يقبل. ماذا يعمل الآن؟ جاء الطبيب الإنكليزي من المعسكر البعيد. العملاق ذهب وجاء به. الطبيب قال للعملاق الذي يحبّ البحر إن صاحبه سيموت. عمر البارودي (العملاق) سأله ألا يستطيع أن يساعده أبداً؟

الطبيب أحرق الكتف وقصّ بالمقص الشبيه بريشتين قطعاً من اللحم ـ حيث بياض الغرغرينا يضرب إلى خضرة العفن ـ ثم كوى الكتف مرة أخرى. صراخ محمد عزيز حطّم أسوار سيفاستوبول بينما الشمس تغطس في بحر الجليد. لكن عند الصباح، في النور القاتم الميت، بانت سيفاستوبول عالية الأسوار من جديد. كأنّها خيالية. غير حقيقية. أبداً لا تنكسر!

زعق محمد عزيز حتى فقد الوعي. في الصباح فتح عينيه وزعق

أيضاً. أسكتوه لئلا يجيء ناظر الإنكشارية. سكت. مرّت الأيام ثم خرج من الخيمة. المعسكر كلّه سُرَّ بخروجه. صار بذراعٍ واحدة. لكنه لم يمت. يبدو مع هذا حزيناً. ومرَّت الأيام. وعاد يضحك.

عمر البارودي قال إنه يريد الخروج في الليل والتسلل إلى الأسوار. صاحبه عبد الكريم قال إن هذه الليالي صافية، فيها قمر، لا نستطيع أن نتسلل والسهل ينيره القمر. قال عمر البارودي نتسلل إذا كانت الغيوم تغطي القمر. صاحبه عبد الكريم قال طيب. الثالث محمد عزيز قال: ما تريدان أفعل. أضاء القمر السهل الأبيض ليلاً. ظلّوا قاعدين يتأملون الثلج.

صار الذين يتسللون قلّة. حتى «كارا سلمان» ورفاقه كفّوا عن التسلل. يفعلون ذلك أحياناً. لكن ليس كثيراً. العام الفائت غَيَّر أساليب الهجوم. العساكر باتت تتلقى بالتلغراف (وهذا اختراع غريب جديد يُستخدم في الحروب للمرة الأولى) تعليمات من لندرة وباريز.

الحرب تحوَّلت إلى قصفٍ كثيف تتبعه هجمات كبيرة. العساكر تتدفق كالأمواج وتلطم أسوار سيفاستوبول. ترتد عنها ثم تندفع من جديد. الدخان يغطي العالم، والعساكر تخترق الدخان، وتلطم أسوار سيفاستوبول. توقفت الهجمات الصغيرة. الهجمات كلّها كبيرة الآن. الإنكليز والفرنسيس والإنكشارية والطليان معاً، هجمة كالموجة العالية، كأن البحر الأسود تسلق الشط والصخور العالية وفار بالأجسام على سيفاستوبول. لا بدَّ أن تسقط هذه القلعة. وحين تسقط يركع القيصر نقولا الأول. صحيح أنه في قصرٍ بعيد، في موسكو البعيدة، لكن جيوشه كلّها باتت هنا، في سيفاستوبول. مدينة خالية من الكنوز. لا أحد يطلبها. ماذا فيها؟ مدينة جيوش وأموات وحرائق وأوبئة. لكن حين تسقط تركع بلاد الروس.

لا أحد يتسلل الآن إلاّ نادراً. الإنكشارية ضربهم الهواء الأصفر وأباد نصفهم. القتلى بالآلاف. بعشرات الألوف. والمعسكر انقسم معسكرات. الكلّ يهرب من الكوليرا الملعونة. ساحل البحر غطّته الجرذان. بين الروس يضرب الآن الطاعون الأسود. يرمون جيفاً من فوق.

من هؤلاء؟ روس يقتلهم الطاعون. أم أسرى من «الحلفاء» قتلهم الروس؟ الأجسام تتساقط من أعلى السور الذي تهدّم وظلّ واقفاً. لونها يبدو أسود من بعيد. ولأن البياض يغطي السهل يبدو سوادها شديداً. ترتطم بالأرض. ويُسمع صوت ارتطامها خافتاً. الثلج يمتص كل صوت.

ـ قعق. قعق.

مرّت الأعوام. وسيفاستوبول لم تسقط. لكنها ستسقط. ما هي إلاّ أيام ثم تسقط سيفاستوبول. ومن بقي حيّاً يرجع إلى بيته. لكن طريق البيت طويلة، طويلة.

ـ قعق.

مئة ألف رجل يهجمون هجمة واحدة. نصفهم إنكليز. يزعقون ـ كل الزعيق يبدو بلغة واحدة ـ زعقة جبارة ويهجمون. الغربان ترتفع، تبتعد، ثم تهبط من جديد. مناقيرها مصقولة، لامعة.

ـ قعق. قعق. قعق.

محمد عزيز يهجم ويزعق. البارودة ثقيلة في اليد الباقية. لا يريد البقاء في المعسكر. يهجم مع عمر البارودي ومع عبد الكريم النصولي. الشوام الثلاثة يطيرون فوق الجيف. العملاق يتقدمهما. كأنه يركب الريح. مثل كارا سلمان هذا العملاق. لو يجتمعان مرة ويهجمان معاً. لو يجتمعان مرة ويتباطحان فيُعرف من هو الأقوى.

لكن كارا سلمان صار في الجهة الأبعد منذ ضرب الهواء الأصفر رفاقه. صار يهجم مع الفرنسيس. أثناء الصيف أصابوه في بطنه. فتحوا جرحاً قديماً تلقاه في جبال البلغار أو البلقان أو حيث لا يعلم أحد. كل بدنه الهائل مغطّى بالندبات والجروح. كيف بقي حيّاً؟ أصابوه في بطنه. الخردق علق بعضلات البطن. لعل حشوة البارود كانت صغيرة. لم يندفع الخردق بقوة، وعلق في قشرة البطن. لم يمتْ. حظّه كبير. وأول الخريف خرج في هجوم. يقاتل مع الفرنسيس. لم يبقَ من رفاقه ـ إنكشارية الأناضول ـ أحد. ماتوا كلّهم بالحمّى. سالت أجسامهم على الأرض بالإسهال. والغربان نزلت وأكلت أحشاءهم. كارا سلمان لم يمتْ. ما زال يهجم. وما زال بطول برج.

وهذا العملاق الشامي مثله. ويبدو كأنه يطلب الموت. يهجم بلا وجلٍ. كارا سلمان يبدو كئيباً. كأنه بات يهجم بلا نفس. لكن هذه طباع إزمير. الإزميري هكذا. أسود النظرة. لا يُظهر أسنانه. الشامي البيروتي يشبه كارا سلمان ولا يشبهه. ليس أسود النظرة. وحين يضحك يضحك كالأولاد، ويخبط بالقبضة القوية رفاقه.

ـ قعق.

ها هم يهجمون. القنابل تقع على الرؤوس والأجسام تتطاير. فرقة خيّالة في الميمنة، بعيداً بعيداً، ترتفع إلى فوق. وفرقة خيّالة أخرى تركض صوبها. الأحصنة تطير. السيوف تلمع، عالياً. يتعلقون بالغيوم، ثم يسقطون. تتشابك سيوفهم في الفضاء ثم يقعون.

ـ قعق. قعق. قعق.

الأصدقاء الثلاثة يركضون فوق الثلج. فوق جثث يغطيها الثلج.

أسوار سيفاستوبول تراقبهم. في الأعالي كوى قاتمة تنظر بعيون غول. تبرق كوّة بوهجٍ أصفر ويسقط محمد عزيز.

ـ قعق.

وقع محمد عزيز على جثة. تحركت الجثة. لم يكن الجريح ميتاً. كان نائماً. استيقظت الجثة. تحركت. محمد عزيز أمسك بالأصابع الزجاج التي تتلمسه. الجريح صرخ به اتركني. وشتمه. الجريح ـ مثله ـ يعرف العربية. ظنَّ محمد عزيز روسياً. شتمه وباطحه. محمد عزيز أراد أن يقول له لا تخفْ، أنا مثلك، لست منهم، لا تخفْ. لكن الخردق في فمه منعه من الكلام.

الجريح باطحه. أحسّ بيدٍ تمسك أصابعه فظنّ أن اليد تطلب سرقة الخاتم. هذا محبس ذهب. لا يريد أن يسرقه الروسي اللعين. لن يتركه يسرقه. أمسك برقبته. صار يخنقه. محمد عزيز بحث بعينين تنطفئان عن رفيقيه. أين عمر؟ أين عبد الكريم؟ لم يرَ إلاّ الثلج. حتى الميت الذي يخنقه لم يرَه. الميت أيضاً تغطيه العاصفة. مع هذا يمدّ الذراعين الخشب ويكبس رقبته. محمد عزيز أراد أن يعيش. بيدٍ واحدة صارع الجثة التي استيقظت. لن يموت هنا. لن يموت في جزيرة الجليد. لن يموت في القُرم الملعون. سبحانه أخرجه من «زندان» بعلبك. رماه في الزندان ثم أخرجه. وضع جثة في نهر، فأخذها على ظهره. والجثة جاءت به من شمسطار إلى هنا. ها هي تباطحه. تريد أن تخنقه. لن يتركها تخنقه. عثر محمد عزيز على السكين. صاحبه عمر غنم هذه السكين. لن تقتله الجثة. الظلام يغطي عينيه الآن. اختفى بياض العاصفة. وأحسّ أصابعه تلمس الخنجر. وأحسَّ أنه لن يموت. ها هي أصابع يمناه تلتقط الخنجر. وعليه الآن أن يطعن الرجل الذي يخنقه.

أصابع اليد اليمنى؟ لكن أليست هذه اليد التي قطعوها؟ بلى. لأنه علَّم نفسه أن يحمل البارودة باليد الأخرى. منذ صغره يعرف أن يرمي الحجارة باليمنى واليسرى. ويعرف أن يطلق الغدّارة باليمنى واليسرى. لكن البارودة أثقل، أصعب، ليست سهلة. مع هذا تعلم. أيام ثم تعلم. لن يُقتل في القُرم الملعون. سيرجع إلى بعلبك. وسيحكي لأخيه الكبير. سيحكي ما جرى. اذهبْ، قال له، إبليس يأخذك.

ـ قعق. قعق. قعق.

محمد عزيز طعن الرجل بالسكين ثم تراخى. شعر أن يده المقطوعة عادت إليه. جمع اليدين على بطنه، أمسك البطن الخافقة. هذا البرد! هذا البرد الفظيع! غشت الظلمة عينيه.

ـ قعق. قعق. قعق.

عمر البارودي أطلق النار من البارودة. الروسي سقط. لكن روسياً آخر ظهر من وراء صاحبه. كأنه خرج منه! كلّما قوَّص واحداً ظهر آخر. ألقى البارودة بعد الغدّارة وبعد الطبنجة. بالسيف والخنجر شقَّ طريقه وسط الروس. لم يعترضه أحد إلاّ وسقط. القنابل تحصد الجميع، وغيوم الثلج تلفّ الوجوه. نوفر الثلج أحمر اللون، نوفر عالياً، وحين تساقط وقعت معه رؤوس. هذه جهنم البيضاء الحمراء، وعليك ألا تموت.

ـ قعق. قعق. قعق.

أين عبد الكريم؟ أين محمد؟ ضاعا منه في تلاطم الأجسام. مثل يوم الحشر. ما هذا يا ربّي! السيف بات بلا فائدة. يقاتل بالسكين الآن. ويقاتل بيديه. الأجسام تكبسه بينها. ولا يعرف الروسي من الإنكليزي. كلّهم بيض البشرة. كلّهم شقر. كلّهم زرق

العيون. من يقتل ومن يترك؟ يقتل الذي يقتله. يترك الذي يتركه. لا يقتل ولا يترك. المهم ألا يموت.

انفجرت القنابل وراء ظهره. طار إلى أمام. وأبصر وهو يطير صاحبه عبد الكريم يركض كالحيوان مستوياً على الأرض، رأسه إلى أمام، ومخالبه على الجثث. رأى أظافر تقصّ الثلج. ورأى جسم صاحبه يندفع كالذئب. من أين امتلأ بهذه الطاقة العجيبة؟ طار عبد الكريم النصولي واختفى في الثلوج. سدّ الفراغ الذي تركه جسمّ عملاق يتلوى على الجليد. من أين خرج هذا العملاق؟

سمع عمر البارودي صوتاً غريباً. مثل أشجار تتحطم. وسمع صراخاً. في تلك اللحظة وقع ثقلٌ على رقبته؛ وقع على كتفه. فهوى على الثلج. فَهِم ـ وهو على الثلج ـ معنى ذلك الصوت الغريب. ليست أشجاراً تتحطم. هذا جليد ينكسر. نحن على الجليد. هذا لسان من البحر داخل في السهل، لسان من البحر جمَّده الصقيع. نحن على البحر. لكن البحر مغطّى بالجليد.

ـ قعق. قعق. قعق.

زحف عمر البارودي على الثلج. الثقل في كتفه تحول إلى سائلٍ حار. السائل الحار ينقط من أذنه. ينقط على الثلج. انفجرت قنبلةً أخرى. من الظلام بانت زوبعة ثلج. غبار أبيض وأحمر. دوامة غبار بيضاء لفّت رأسه. وفي داخل الدوامة رأى العملاق الآخر يقف. عَرِف ـ من الندبات على جسمه العاري ـ مَنْ يكون. منذ نزل على هذا الشطّ يسمع عنه. يعرف من يكون هذا الإنكشاري الإزميري. مشهور، عملاق مثله، ويسمّونه «كارا سلمان».

سكن القصف. كأن العالم مات. سكت الهدير. ثم انفجرت قنبلة وراء الجيف. «كارا سلمان» التقط عن الثلج بارودة وسدّدها إلى

عمر البارودي. عمر البارودي أراد أن يقول إنه معه، ليس من الروس! «كارا سلمان» نظر إلى العينين الخضراوين، وحَسِب عمر البارودي روسياً. لم يتأكد. ظلّ متردداً. لعله من الإنكليز. لم يُقوص. ثم رفع البارودة، كأنه يسدّدها إلى أذن الرجل، هذا الرجل الضخم مثله، وقوَّص! عمر البارودي رأى الوهج الأصفر. ثم سمع صرخة وراء ظهره. كان قد وقف الآن. لم يعدْ منبطحاً على الثلج. استدار فرأى روسياً ينبطح على جنبه، والدم ينوفر من رقبته. سقط الروسي مع سيفه المستقيم.

قال عمر البارودي:

ـ أنت كارا سلمان.

«كارا سلمان» هزَّ رأسه. إذا كان هذا البرج الأخضر العينين يعرف اسمه، إذا كان هذا البرج يتقن العربية، فهو ليس عدوي. ليس روسياً. هذا ـ لا بدَّ ـ شامي.

موجة رجال روس وقعت عليهم. تباطحوا كالتيوس. السكاكين تقرقع. والعظام تتكسر. الدوامة البيضاء رجعت. ثم غابت. الجليد يتحطم. عمر البارودي ينزف. (أذنه امتلأت دماً). «كارا سلمان» ينزف. الروس ماتوا. ماتوا لكنهم يئنون. الدم يغطي الأصابع؛ يقطر.

ـ قعق. قعق. قعق.

«كارا سلمان» رفع رأسه، يحدّق إلى الغربان. نظر عمر البارودي إليه فرأى اللون يذهب من وجهه. صار أبيض اللون. لكنه رأى نوراً يبرق في البؤبؤين. كم يشبه هذا الرجل أخي؟ كم يشبه المرحوم شاهين؟ ورائحته ـ مثل شاهين ـ تبغ وبارود! لكنه ليس شاهين.

كارا سلمان يتمتم. يريد أن يقول شيئاً. الدم انسحب من وجهه. انسحب من رقبته. انسحب من يديه. صار وجهه كالعاج أصفر! زحف عمر البارودي على صفحة الجليد والدم. التقط رأس الرجل الذي يموت. كأنه شاهين! كم يشبهه! لكن شاهين مات قبل زمنٍ بعيد.

كارا سلمان انقلب على ظهره. مصارينه اندلقت جنبه. من بطنٍ مفتوحة بانت مصارين طرية، رطبة، يرتفع منها بخارٌ. الثلج جمَّد الدم. دم أحمر، أزرق، وأسود. تجمد الدم. بدا كالمرجان في قعر البحر.

أشاح عمر البارودي بوجهه عن المصارين الحارّة. دنا بوجهٍ تعبان من كارا سلمان. أراد أن يسمعه. كأنه يريد أن يخبره أمراً! ماذا يهمس؟ سكت الرجل. انطبقت عينه. مات؟ فتح الرجل عينيه. اتسع بؤبؤاه. تحرك الفم. حركة خفيفة. بحلاوة الروح. انطبق الفم ثم انفتح. كأنه يرسل النفس الأخير. حشرجة الموت. انفجرت قنبلة. تشقق الجليد. تعالى صراخ. لم يسمع عمر بن عبد الجواد أحمد البارودي همسة كارا سلمان:

ـ عمر! أنا شاهين!

تكسَّر الجليد تحت الجسمين الثقيلين. الهمسة تلاشت في دوامة الثلج. لم يسمعها أحد. فار البحر، أسودَ المياه، على الجليد. عمر البارودي ترك الرجل ينزلق مع قطعة الجليد.

غاص شاهين بن عبد الجواد أحمد البارودي في مياه القُرم. غمره التيار الأسود. عمر البارودي ـ الأخ الذي لم يعرف وجه أخيه ـ رجع إلى بيروت.

سنة 1865 مات بالهواء الأصفر.

روايات للمؤلف:

1 ـ **سيد العتمة**، دار رياض الريس، جائزة الناقد للرواية، 1992.

2 ـ **شاي أسود**، دار الآداب، 1995.

3 ـ **البيت الأخير**، دار الآداب، 1996.

4 ـ **الفراشة الزرقاء** (نور خاطر)، المركز الثقافي العربي، 1996، طبعة ثانية عن الهيئة العامة لقصور الثقافة (القاهرة)، 2001.

5 ـ **رالف رزق اللّه في المرآة**، دار الآداب، 1997.

6 ـ **كنتُ أميراً**، المركز الثقافي العربي، 1997.

7 ـ **نظرة أخيرة على كين ساي**، المركز الثقافي العربي، 1998.

8 ـ **يوسف الإنجليزي**، المركز الثقافي العربي، 1999.

9 ـ **رحلة الغرناطي**، المركز الثقافي العربي، 2002.

10 ـ **بيروت مدينة العالم** (الجزء الأول)، دار الآداب والمركز الثقافي العربي، 2003، طبعة ثانية 2005.

11 ـ **بيريتوس: مدينة تحت الأرض**، دار الآداب والمركز الثقافي العربي، 2005.

ربيع جابر

بيروت مدينة العالم

II

سيرة تحولات مدينة بيروت بعد خروج الاحتلال المصري سنة 1840.

ماذا يجري لعائلة عبد الجواد أحمد البارودي؟ ماذا تصنع الأعوام بصاحب الذراع الواحدة وبأبنائه الثلاثة وببناته السبع وزوجاته؟

عبد الرحيم يكبر في دوامة حروب وفتنٍ طائفية تجتاح جبل لبنان وحلب ودمشق وتُرسل قطعان بشر وأكياس ذهب إلى بيروت: يزدهر «خان القزاز» (خان الزجاج) في ساحة البرج.

عمر (الأخ الأصغر) يطلع من البحر وصيد السمك والإسفنج إلى السوق العمومي وبيوت العوالم، قبل أن يقذفه احتدام العواطف إلى حرب القُرم وجزيرة الجليد شمال البحر الأسود...

سيرة عائلة مندثرة وسيرة مدينة غريبة الحظوظ. ماذا تكون بيروت؟ ملاذ نازحين ولاجئين، أم برج بابل على حافة البحر، أم جنّة عساكر، أم سدوم وعمورة؟ وماذا يُخفي المستقبل؟

الجزء الثاني من الملحمة.

المركز الثقافي العربي

دار الآداب - بيروت

ISBN:9953-68-057-4